سِنكلير لويس

جائزة نوبل للآداب

بابِت

رواية

ترجمة الحارث النبهان

جائزة نوبل للآداب: «لقدرته الفنية الرفيعة على الوصف البصري المفعم بالحيوية، ولإبداعه أنواعاً جديدة من الشخصيات تتميّز بحسّ فكاهي ساخر».



سينكلير لويس



رواية



سينكلير لويس

بابِت

رواية

الكتاب: بابِت / رواية

المؤلف: سينكلير لويس

عدد الصفحات: 360 صفحة

الترقيم الدولي: 978-977-6483-35-4

رقم الايداع: 2015/9812

الطبعة الأولى: 2015

هذه ترجمة لرواية: Babbit

تأليف: Sinclair Lewis

الناشر:

التنوير دار التنوير للطباعة والنشر

مصر: القاهرة–وسط البلد–19 عبد السلام عارف (البستان سابقًا)–الدور 8 – شقة 82

هاتف: 0020223921332

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

لبنان: بيروت – الجناح – مقابل السلطان ابراهيم

سنتر حيدر التجاري – الطابق الثاني – هاتف وفاكس: 009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com



إلى إديث وارتون

الفصل الأول

- 1 -

علت أبراج زينيث فوق ضباب الصباح. أبراج هائلة من الفولاذ والأسمنت والحجر؛ قوية كأنها جبال، رشيقة كأنها قضبان من فضة. ما كانت هذه الأبراج قلاعاً ولا كنائس، بل أبنية مكاتب... هكذا، بكل جمال ووضوح!

لفّ الضباب منشآت متآكلة من أجيال أقدم عهداً، كأنه أشفق عليها: مكتب البريد بسقفه الذي تعذّبه ألواح الخشب، ومداخن قرميد بارزة من بيوت قديمة متداعية، ومصانع لها نوافذ قليلة غطاها السخام، ومساكن خشب بلون الطين. كانت المدينة مليئة بهذه الغرائب؛ لكن الأبراج النظيفة كانت تزيحها عن مركز الأعمال. وعلى تلال أبعد قليلاً كانت تنتصب بيوت جديدة لامعة يبدو عليها أنها بيوت من أجل الضحك والسكينة.

مضت فوق جسر أسمنتي سيارة فاخرة لها قَمرة طويلة أنيقة ومحرّك من غير صوت. كان هؤلاء الأشخاص في ملابس السهرة عائدين من تدريبات استمرت طيلة الليل على قطعة مسرحية صغيرة... تجربة فنية خالطها قدر غير قليل من كؤوس الشمبانيا. ومن تحت ذلك الجسر كان منعطف السكة الحديد، ومتاهة من أضواء خضر وأضواء قرمزية. كانت لوحة نيويورك الإعلانية تلوح من خلف هذا كله مع عشرين سطراً من الفولاذ الملمّع تتألق تحت الأضواء.

كانت خطوط البرق لدى أسوشييتد برسّ تصمت أخيراً في واحدة من ناطحات السحاب هذه. وكان عاملو البرقيات يرفعون الواقيات عن أعينهم بحركة تشي بإرهاقهم بعد ليلة من تبادل الكلام مع باريس وبيجين. انتشرت في المبنى عاملات التنظيف، متثائبات... سرن بأحذيتهن القديمة تطقطق على الأرض الصلبة. انجلى ضباب الفجر. وراح رجال يتقاطرون صفوفاً حاملين علب طعامهم... صوب المصانع الجديدة الضخمة، وصوب مساحات من الزجاج والقرميد المفرغ، وصوب المتاجر المتلألئة

التي يعمل فيها خمسة آلاف شخص تحت سقف واحد في إنتاج سلعٍ بسيطة لكي تُباع على امتداد أنهار بعيدة وعلى امتداد الحقول. تتالت الصافرات مشكّلة جوقةً مرحّبة مبتهجة مثل أغنية «فجر الربيع» ... أغنية العمل في مدينة يوحي مظهرها بأنها مدينة مبنية للعمالقة.

ـ 2 ـ

لا يبدو شيء من هيئة العمالقة على مظهر الرجل الذي كان موشكاً على الاستيقاظ في شرفة النوم في بيت على الطراز الاستعماري الهولندي في تلك المنطقة السكنية التي تحمل اسم فلورال هايتس.

كان اسمه جورج ف. بابِت! إنه في السادسة والأربعين الآن، أي في شهر نيسان من العام 1920. ما كان هذا الرجل يصنع أي شيء على وجه التحديد، لا زبدة ولا أحذية ولا حتى شعراً. لكنه كان شديد البراعة في بيع البيوت مقابل أثمانٍ أعلى مما يستطيع الناس دفعه.

كان رأسه الضخم ورديّ اللون عليه شعر بنّي جاف غير كثيف. ووجهه طفوليٌّ في إغفاءته رغم تجاعيده ورغم الأثر المُحْمَرّ الذي تركته النظارة على أنفه. لم يكن رجلاً بديناً، لكنه أكول بالتأكيد! وكانت وجنتاه مسطحتين، ويده غير المخشوشنة الراقدة الآن من غير حركة على بطانية بلون الكاكي منتفخة بعض الشيء. إنه يبدو شخصاً مزدهر الأحوال، متزوجاً جداً... وغير رومانسي. بل إن شرفة نومه هذه كلها تبدو غير رومانسية أيضاً. كانت تلك الشرفة مطلة على شجرة دردار كبيرة ورقعتين كبيرتين من العشب، وممر أسمنتيّ، ومرأب للسيارة مصنوع من ألواح معدنية مموّجة. لا يزال بابِت الآن يحلم بفتاة من حكايات الخيال... حلمٌ أكثر رومانسية من معابد قرمزية على شاطئ بحر فضي.

تأتيه فتاة الحكاية منذ سنوات. كانت ترى شاباً شهماً غَزِلاً في هذا الإنسان الذي ما كان الآخرون يرون فيه إلا جورجي بابِت! كانت تنتظره في العتمة خلف أجمات غامضة. وعندما يفلح أخيراً في الإفلات من البيت المزدحم، كان يندفع إليها. زوجته، وأصحابه الصخّابون، يحاولون اللحاق به. لكنه يفلت دائماً. وكانت الفتاة تطفو أمامه. ثم يجلسان في الظلال معاً على سفح التل. كانت شديدة الرشاقة، شديدة البياض، وشديدة التوق! وكانت تصيح قائلة إنه مَرِحٌ شجاع، وأنها سوف تنتظره، وأنهما سوف يبحران... معاً.

راحت شاحنة الحليب تفرقع وتقعقع.

أَنَّ بابِت ثم انقلب على ظهره محاولاً استعادة حلمه. ما كان قادراً الآن إلا على

رؤية وجهها فقط... رآه الآن من خلف مياه ضبابية. صَفَقَ عامل الفرن باب القبو صفقة شديدة. نبح كلب في الفناء المجاور. وبينما كان بابِت يغرق هانئاً في موجة مبهمة دافئة، مر موزع الجرائد صافراً، وأغلقِ المحامي المناوب باب بيته الأمامي بضربة قوية. نهض بابِت وقد تقلّصت معدته محذِّرة. وبينما كان يسترخي، اخترقته قرقعة مألوفة مزعجة صادرة عن سيارة فورد يحاول صاحبها تشغيلها: سناب آه آه، سناب آه آه، سناب آه آه. كان بابِت شديد الولع بالسيارات، فراح يحاول تشغيل تلك السيارة مع سائقها غير المرئي. وراح ينتظر معه، ساعات، سماع زمجرة المحرك عند إقلاعه. تملّكه الجزع، مثل السائق، عندما توقف صوت المحرك وعاد ذلك الصوت الشيطاني... سناب آه آه ـ صوت مسطَّحٌ مستدير، صوت مرتجفٌ في صباح باردٍ، صوت يثير الأعصاب، يثير الجنون، ولا يمكن الإفلات منه. لم يفارقه توتره اللاّهث إلا بعد أن أنبأه صوت المحرك بأن الفورد بدأت حركتها. ألقى نظرة صوب شجرته الأثيرة، أغصان الدردار الصغيرة على خلفية سماء ذهبية نحاسية؛ ثم راح يتلمَّس طريقه إلى النوم من جديد مثل من يبحث عن دواء مخدِّر. كان هذا الرجل في ما مضى صبياً ساذجاً مستعداً لتصديق وعود الحياة كلها، لكنه ما عاد الآن مهتماً كثيراً بمغامرات محتملة، لكنها مستبعدة، مع كل يوم جديد.

ظل هارباً من الواقع إلى أن رنّ المنبِّه؛ إنها السابعة والثلث!

ـ3ـ

كانت الساعة المنبّهة واحدة من تلك الساعات التي تُنتَج بكميات كبيرة وتحظى بأوسع دعاية في البلاد. وكانت فيها إضافات كثيرة، من بينها صوت منبّه يشبه قرع الأجراس، وتنبيه متقطّع، وعقارب فوسفورية. كان استيقاظه على صوت آلة لها هذا الغنى كله مبعث اعتزاز لديه. إن اقتناء ساعة من هذا النوع يكاد يعادل شراء إطارات حديثة للسيارة!

وجد نفسه الآن يعترف آسفاً بأنه ما عاد لديه مهرب؛ لكنه ظل راقداً... ظل راقداً في فراشه يمقت عناءه اليومي في الشركة العقارية، ويمقت أسرته، ثم يمقت نفسه لأنه يمقتها. لقد ظل مساء الأمس يلعب البوكر عند فرجيل غانتش حتى منتصف الليل. وكان يظل سريع الانزعاج قبل الإفطار بعد أيام العطلات هذه. لعل السبب هو تلك البيرة الرائعة منزليةُ الصنع التي تعود إلى أيام حظر الكحول، والسيجار الذي تغريه البيرة بتدخينه أيضاً. أو لعل السبب هو استياؤه من العودة من عالم الرجال الشجعان الرائع هذا إلى منطقة تحاصرُ الرجالَ فيها زوجاتٌ وعاملاتُ اختزال واقتراحات بعدم الإكثار من التدخين.

ومن غرفة النوم الأخرى، جاءه صوت زوجته المبتهِج إلى حد منفّر: «وقت الاستيقاظ يا جورجي». ثم جاء ذلك الصوت الذي يسبّب له الحكّة، صوت صرير نشِطٍ صادر عن تمشيط الشعر بفرشاة قاسية.

نخر جورج، ثم أخرج ساقيه السمينتين المرتديتين بيجاما زرقاء شاحبة من تحت بطانيته الكاكية. جلس على حافة سريره ممرراً أصابعه في شعره المشعث في حين راحت قدماه الممتلئتان تبحثان تلقائياً عن خُفّيه. ألقى على بطانيته نظرة متحسّرة... إنها توحي له دائماً بالحرية والبطولة. اشتراها من أجل رحلة تخييم.. رحلة لم تحدث أبداً! كانت تلك البطانية رمزاً للتسكع الرائع وإطلاق شتائم رائعة وارتداء قمصان قطنية رجولية.

نهض متثاقلاً ثم أَنَّ بسبب موجات الألم التي عبرت من خلف محجرَيّ عينيه. صحيح أنه كان يتوقع عودة هذا الشعور اللاذع. إلا أنه نظر بعينيه المشوَّشتين صوب الفناء. كان هذا يبهجه دائماً... الفناء الأنيق، فناء رجل أعمال ناجح من زينيث! كان مثالاً للكمال، وكان يجعله يشعر بكماله أيضاً. نظر إلى مرأب السيارة المصنوع من حديد مموَّج. وفكر، للمرة الخامسة والستين بعد الثلاثمئة في السنة: «ليس هذا الكوخ الصفيحي بشيء. عليّ أن أبني مرأباً حقيقياً. لكنه المكان الوحيد هنا الذي ليس حديثاً جداً». وعندما تحرك من مكانه راح يفكر في إقامة مرأب جماعيّ في مشروعه العقاري الجديد الممتد على مساحة أكرات كثيرة، «غلين أوريول». توقف عن النفخ والاهتزاز. وضع كفَّيْه على ردفيه. واتخذ وجهه النكد، الذي ما زال منتفخاً بفعل النوم، هيئة متصلّبة. وبدت عليه فجأة ملامح رجل قادر، مسؤول، رجل يعرف كيف يتدبّر الأمور وكيف يديرها وكيف يحصل على النتائج.

سار حاملاً حماسة فكرته الجديدة فاجتاز الصالة الرئيسية قاسية المظهر التي تظهر عليها قلة الاستخدام، ومضى إلى الحمام.

صحيح أن البيت ما كان ضخماً، إلا أنه كان مجهَّزاً، مثل بيوت فلورال هايتس كلها، بحمّام ملوكيٍّ من البورسلين والسيراميك والمعدن اللّامع مثل الفضة. كان حامل المنشفة قضيباً من الزجاج الصافي المزيّن بالنيكل. وكان حوض الاستحمام طويلاً إلى حدٍّ يكفي عسكرياً ضخماً من الحرس البروسي. ومن فوق المغسلة، كان ثمة حامل فخم لفراشي الأسنان، وحامل آخر لفرشاة الحلاقة، وصحن للصابونة، وآخر للإسفنجة، فضلاً عن خزانة صغيرة للأدوية... كانت كلها لامعة مبتكرة إلى حد جعلها تشبه وجه آلة موسيقية كهربائية. لكن أسرة بابت، التي كانت التجهيزات الحديثة ربها، ما كانت راضية بهذا كله! كان جَوّ الحمّام مثقَلاً برائحة معجون أسنان همجي. «لقد عادت فيرونا إلى هذا! فبدلاً

من استخدام معجون أسنان ليليدول مثلما قلت لها مرات كثيرة، عادت تستخدم هذه المادة الغريبة كريهة الرائحة التي تجعل المرء يصاب بالغثيان».

كان الحَمّام مبتلاً كله، وكانت الحصيرة التي على الأرض مجعَّدة. (كانت ابنته فيرونا غريبة الأطوار، تستحم في الصباح من حين لآخر). انزلق على الحصيرة حتى أوقفه حوض الاستحمام. قال: «اللعنة»! وأمسك غاضباً بمعجون الحلاقة وراح يرغي المعجون على وجهه بضربات شديدة من الفرشاة كأنه يحارب. ثم مرّ بشفرة الحلاقة على خديه الممتلئين. كانت الشفرة تقتلع الشعر اقتلاعاً، فلم تكن حادّة كما يجب. قال: «اللعنة ـ أوه، أوه، اللعنة على هذا كله».

راح يفتش في خزانة الأدوية في الحَمّام على حزمة من شفرات الحلاقة الجديدة (مفكراً كعهده دائماً: «من الأرخص أن أشتري واحدة من تلك الأشياء التي لا أتذكر اسمها، وأن أشحذ النصل بنفسي»). وعندما عثر على مجموعة الشفرات خلف علبة دائرية من بيكربونات الصودا، اعتبر أن زوجته غبية حتى تضعها هناك، واعتبر نفسه شخصاً جيداً لأنه لم يقل: «اللعنة». لكنه قالها بعد ذلك فوراً عندما حاولت أصابعه الزلقة بسبب الرطوبة والصابون نزع الغلاف الورقي المزيت الملتصق بالشفرة الجديدة. ثم جاءت المشكلة التي واجهها كثيراً ولم يستطع حلها أبداً، مشكلة ما يجب فعله بالشفرة القديمة التي يمكن أن تكون خطرة على أصابع أطفاله. وكعهده دائماً، قذف بها فوق خزانة الأدوية قائلاً في ذهنه إن عليه إزالة خمسين أو ستين شفرة تجمّعَت فوقها... وإن يكن مؤقتاً. أنهى حلاقته بنزق متزايد لأن الصداع كان يزعجه، ولأن معدته كانت فارغة. وعندما انتهى وصار وجهه المدور ناعماً متورداً، وصارت عيناه تحرقانه بسبب الصابون، مد يده إلى المنشفة. كانت المناشف رطبة، دبقة، كريهة الرائحة... اكتشف أنها كلها رطبة عندما راح يجسّها واحدة واحدة ـ منشفته الخاصة، منشفة زوجته، ومنشفة فيرونا، ومنشفة تيد، ومنشفة تينكا، وكذلك منشفة الحمام الوحيدة التي طُرِّز عليها الحرف الأول من اسم العائلة بخط كبير. عند ذلك فعل جورج بابِت شيئاً رهيباً! ... لقد مسح وجهه بمنشفة الضيوف! كانت منشفة مطرزة أنيقة يعلّقونها في الحمام دائماً لتكون إشارة إلى انتماء آل بابِت إلى أفضل مجتمع في فلورال هايتس. لم يستخدمها أحد أبداً من قبل! لم يجرؤ أي ضيف على استخدامها! كان الضيوف يستخدمون زاوية من أقرب منشفة إليهم من غير أن يراهم أحد.

كان الغضب يصرخ في داخله: «يا للهول! إنهم يستخدمون المناشف كلها. ولكل ملعون منهم منشفته، لكنهم يستخدمونها كلها ويبللونها كلها حتى تقطر ماء، ولا يضعون منشفة جافة من أجلي ـ طبعاً... إنني المعزاة هنا! ـ لكنني أريد منشفة ـ وأنا الشخص

الوحيد في هذا البيت الملعون الذي يعير اهتماماً للأشخاص الآخرين... الشخص الوحيد الذي يفكر في مَنْ قد يريد استخدام الحمّام بعدي، الذي يفكر في...».

كان يلقي بالمناشف الرطبة في حوض الاستحمام مسروراً بانتقامه وبسماع صوت اصطدامها به. وفي منتصف هذا المشهد، دخلت زوجته ثم قالت جادة: «لماذا يا عزيزي جورجي؟ ما هذا الذي تفعله؟ هل ستغسل المناشف؟ لماذا؟ ليس عليك أن تغسلها. أوه يا جورجي، هل استخدمت منشفة الضيوف؟».

لم يكن قادراً على الإجابة.

ولأول مرة منذ أسابيع، بلغ انزعاجه من زوجته حَدّاً جعله ينظر إليها.

- 4 -

كانت ميرا بابِت - أي السيدة بابِت - امرأة ناضجة بالتأكيد. وكانت في وجهها غضون ممتدة من زاويتي فمها حتى أسفل حنكها. وكانت رقبتها الممتلئة منتفخة. لكن ما كان يشير حقاً إلى أنها تجاوزت الخط هو أنها ما عادت تهتم بأي تحفّظ أمام زوجها، وما عاد لديها أي قلق لأنها ما عادت تهتم بهذا. كانت في تنورتها التحتية الآن، ومعها مشد منتفخ. ما كان يهمها أن تظهر أمامه في مشد منتفخ إلى هذا الحد! لقد صارت، على نحو بليد تماماً، معتادة على حياة الزوجية، وصارت ربة منزل إلى درجة جعلتها عديمة الجنس كأنها راهبة أصابها فقر الدم. كانت امرأة طيبة، امرأة لطيفة، امرأة مُجِدّة. لكن، لم يكن أحد، ربما باستثناء ابنتها تينكا ذات العشر سنوات، مهتماً بوجودها أو مدركاً تماماً أنها موجودة هناك على قيد الحياة.

بعد مناقشة شبه شاملة لمختلف الجوانب المنزلية والاجتماعية لقضية المناشف، اعتذرت من بابِت بسبب الصداع الكحولي الذي أصابه. وكان قد أفلح في تجاوز غضبه السابق بالقدر الذي سمح له بأن يتحمَّل البحث عن قميصه الداخلي الذي أخفته يد خبيثة، كما قال، بين بيجاماته النظيفة.

صار مظهره لطيفاً إلى حد معقول عندما ارتدى بدلته البنية.

«ما قولك يا ميرا؟» قال هذا مشيراً إلى الملابس المعلقة على الكرسي في غرفة نومهما بينما راحت هي تتجول في الغرفة على نحو غامض معدِّلة وضع تنورتها التحتية، مربِّتة عليها، من غير أن تتابع ارتداء ثيابها. ما رأيك في هذا؟ أتظنين أنني يجب أن أرتدي البدلة البنية في يوم آخر؟».

«إنها تبدو لطيفة جداً عليك».

«أعرف هذا! لكنها في حاجة إلى كَيّ».

«حقاً! لعلها في حاجة إلى كَيّ».
«من المؤكد أنها تحتمل شيئاً من الكَيّ على أي حال».
«نعم، ربما لن يضرّها كَيّها».
«لكنها ليست في حاجة إلى كَيّ من الخارج. ولا معنى لكَيّها كلها عندما لا تكون في حاجة إلى الكَيّ من الخارج».
«هذا صحيح».
«لكن البنطلون يحتاج إلى الكَيّ بالتأكيد. انظري إليه، انظري إلى هذه التجعدات، إنه في حاجة إلى كَيّ طبعاً».
«هذا صحيح. أوه يا جورجي! لماذا لا تستطيع أن ترتدي الجاكيت البنّية مع البنطلون الأزرق الذي كنا نتساءل عما يمكن أن نفعله به؟»
«يا ربي! هل رأيتني مرة، في حياتي كلها، أرتدي جاكيت إحدى البدلات مع بنطلون بدلة أخرى؟ أي نوع من الرجال تظنينني؟ أتظنين أنني بائع كتب فاشل؟».
«طيب، طيب! لماذا لا ترتدي البدلة الرمادية اليوم؛ وتتوقف عند الخياط لتضع عنده البنطلون البنّي؟».
«لا بأس، إن البنطلون في حاجة إلى هذا بالتأكيد ـ والآن، أين هي تلك البدلة الرمادية الملعونة؟ أوه، نعم، ها هي».
كان قادراً على المضيّ عبر أزمات ارتداء الملابس الأخرى بقدر نسبي من الهدوء والتصميم.
أكثر ما يحبه هو قميصه الداخلي القطني الخشن عديم الأكمام. قميص داخلي يبدو فيه كأنه صبي صغير يرتدي، على نحو فكاهي، سترة قصيرة مصنوعة من كيس تصفية الجبن ويذهب بها إلى موكب رسمي. لم يكن يرتدي قميصه الداخلي هذا مرة واحدة من غير أن يشكر رب التطور على أنه ليس ممن يرتدون الملابس الداخلية الضيقة الطويلة على الموضة القديمة مثلما يفعل شريكه هنري ثومبسون، الذي هو والد زوجته أيضاً. وكانت مسرَّته الثانية أن يمشط شعره ويسبله إلى الخلف. كان هذا يمنحه جبهة عريضة جداً تعلو خمسة سنتيمترات فوق حافة شعره قبل التمشيط. لكن وضع نظارته كان أكثر ما يَعْدِلُ مزاجه حقاً.
إن النظارة تمنح شخصية للمرء ـ النظارات المصنوعة من عظم السلحفاة مع ما توحي به من حب التظاهر، أو ذلك الشيء التافه الذي يضعه المدرِّسون على أنوفهم، أو النظارات فضية الإطار التي يستخدمها أهل القرى المتقدمون في السن. كان لنظارة بابِت عدسات كبيرة دائرية من غير إطار. وكانت تلك العدسات مصنوعة من أفضل أنواع

الزجاج. أما ساعداها فكانا قضيبَين رقيقَين من الذهب. مع هذه النظارة، كان بابِت يبدو رجل أعمال عصرياً، رجل يصدر أوامره إلى الموظفين، ويقود سيارته، ويلعب الغولف من وقت لآخر. معلِّم في ما يتعلق بمهنة المبيعات! صار رأسه يبدو فجأة لا مثل رأس طفل، بل رأسٌ ثقيل الوزن! برز أنفه الثقيل الجَلِف. وظهر فمه المستقيم وشفته العليا الثخينة الطويلة. وبدت رقبته سمينة أكثر مما يجب، لكنها قوية. عندما يكمل ارتداء ملابسه، كان يمكن النظر إليه نظرة احترام باعتباره مواطناً صلباً.

كانت البدلة الرمادية حسنة التفصيل، حسنة الخياطة... غير مميزة على الإطلاق. إنها من النوع المعتاد. كان على ياقتها من ناحية الصدر خَطان أبيضان عريضان أضافا إليها نكهة القانون والتعليم. وكان الحذاء أسود مخرماً. كان حذاءً جيداً، حذاءً صادقاً، حذاءً اعتيادياً أيضاً... حذاءً غير مثير للاهتمام إلى حد غير معتاد. وأما الملمح الطائش الوحيد فكان وشاحه القرمزي المعقود. لقد فضّل بابِت هذا الوشاح القرمزي على وشاح آخر فيه تزيينات كان من بينها قيثار بني اللون بلا أوتار ومن حوله نخلات متكسرة. وجّه ملاحظة معتَبَرة إلى السيدة بابِت (كانت تقوم بحركة بهلوانية لتثبيت ذيل بلوزتها إلى تنورتها باستخدام دبوس أمان فلم تسمع ما قاله). ثم غرس في الوشاح دبوساً على شكل رأس أفعى لها عينان من حجر كريم.

كانت عملية نقل محتويات جيوبه من بدلته البنية إلى الرمادية حدثاً مثيراً له. كان حريصاً دائماً على هذه الأشياء. إنها ذات أهمية دائمة، مثل كرة القاعدة أو الحزب الجمهوري! كان من بين هذه الأشياء قلم حبر وقلم رصاص معدني فضّي اللون (خالٍ دائماً من القلب الرصاصي). وكان مكانهما في الجيب الأيمن العلوي لصدريته. لولا وجودهما لأحس نفسه عارياً! وكانت لديه سكين جيب صغيرة ذهبية تتدلى من سلسلة الساعة، وأداة فضية لقطع السيجار، وسبعة مفاتيح (نسي استخدام اثنين منها)، وكذلك ساعة يد جيدة يحملها مصادفةً. وكانت معلقة في السلسلة أيضاً سِنّ وَعْلٍ مصفَرّة تشير إلى عضويته في جمعية الوعول للأخوة والحماية. لكن ما كان أهم من ذلك كله هو دفتر ملاحظاته الذي يحمله في جيبه... ذلك النوع من دفاتر الملاحظات الحديثة الفَعّالة التي تحتوي عناوين أشخاص نسيهم المرء، وملاحظات تذكيرية مكتوبة بطريقة حذرة تشير إلى تحويلات مالية بريدية وصلت منذ شهور مضت، وطوابع بريدية فقدت الصمغ اللاصق الذي كان عليها، وكذلك مقتطفات من أشعار كولموندلي فرانك ومن افتتاحيات الصحف التي يستقي بابِت منها آراءه والكلمات المعقَّدة التي يستخدمها، وملاحظات لكي يتأكد من قيامه بأشياء ما كان ينوي القيام بها، فضلاً عن مجموعة حروف غريبة ـ د.س.س.د.م.و.ب.د.ف.

لكنه ما كان يحمل علبة سجائر معدنية. لم يحدث قط أن أعطاه أحد علبة سجائر! وهكذا فإنه لم يألف حملها. ثم إنه يعتبر الأشخاص الذين يحملون علب السجائر أشخاصاً مخنّثين!

وأخيراً، دَسَّ عصا النادي في فتحة صدريته. كانت على العصا كلمتان بخط فَنّي تحملان اسم النادي... هذا ما يجعل بابِت يشعر بالولاء والأهمية. كان هذا رمزاً لصلته بالأشخاص الجيدين. بأشخاص لطيفين إنسانيين، وكذلك بالدوائر المهمة في عالم الأعمال. كانت هذه هويته الشخصية، أو وِسامه الذي يحمله، أو رمز انتمائه إلى أكابر الناس.

إلى جانب اهتمامه بدقائق مَلْبَسِه، كانت تدور في رأسه مخاوف معقَّدة. قال: «أحس أنني في حالة سيئة هذا الصباح. وأظن أنني تناولت عشاء ثقيلاً الليلة الماضية. ما كان عليكِ أن تقدّمي فطائر الموز الثقيلة تلك».

«لكنك طلبتِها مني».

«أعرف هذا، لكن... أقول لك إن الإنسان عندما يتجاوز الأربعين يصبح عليه أن يهتم بما يأكله. ثمة أشخاص كثيرون لا يهتمون بأنفسهم. أقول لك إن الرجل يصبح أحمق في الأربعين، أو لعل طبيبه يكون أحمق ـ أقصد طبيبه الخاص. لا يهتم الناس كثيراً بأمور الطعام هذه. أظن الآن... يجب طبعاً أن ينال الإنسان وجبة جيدة بعد يوم العمل، لكن سيكون من الأفضل لنا نحن الاثنين أن نجعل عشاءنا أخف».

«لكن يا جورجي... لدينا دائماً عشاءٌ خفيف في البيت».

«تقصدين القول إنني أجعل من نفسي خنزيراً عندما آكل في المدينة، أليس كذلك؟ نعم، بالتأكيد! ينتفخ المرء كثيراً عندما يكون مضطراً لأكل تلك الشطيرة التي تشبه الشاحنة التي يقدِّمها العامل الجديد إلينا في نادي الرياضيين! لكنني أشعر حقاً هذا الصباح بأنني لست على ما يرام. غريب... لديَّ ألمٌ هنا في الجهة اليسرى ـ لكن لا... هذه ليست الزائدة، أليس كذلك؟ الليلة الماضية، عندما كنت أقود السيارة إلى كنيسة فيرغ، أحسست بألم في معدتي أيضاً. كان الألم هنا تماماً ـ ألم واخز حادّ! وأنا... أين اختفت قطعة النقود تلكَ؟ لماذا لا تقدّمين مزيداً من الخوخ على الفطور؟ طبعاً، إنني آكل تفاحة كل مساء ـ تفاحة في اليوم تغنيك عن الطبيب ـ لكن رغم ذلك، عليك أن تضعي مزيداً من الخوخ بدلاً من تلك الفطائر كلها».

«عندما وضعت خوخاً آخر مرة لم تأكل منه شيئاً».

«طيب! لم أشعر برغبة في أكل الخوخ وقتها، هكذا أظن. بل الواقع أنني أظن... ربما أكلت بعض الخوخ. على أي حال، يجب أن أقول لك إن من المهم كثيراً أن ـ آه،

كنت أقول إنني ذهبت إلى كنيسة فيرغ الليلة الماضية... كثير من الناس لا يهتمون بالأمور الغذائية كما يجب...».

«هل نأكل فطائر اللحم على الغداء... الأسبوع القادم؟».

«بالتأكيد».

«انظر الآن يا جورج: أريدك أن ترتدي جاكيت السهرة اللطيفة في تلك الأمسية».

«يا للبؤس! لن يكون البقية راغبين في ارتداء ملابس أنيقة».

«بل سيكونون راغبين في ذلك. هل تذكر عندما لم تهتم بملابسك في حفلة العشاء التي أقامها آل ليتلفيلد بينما كان الآخرون متأنّقين كلهم. وكم كنت محرَجاً بسبب ذلك؟».

«كنت محرَجاً! لم أكن محرَجاً. يعرف الجميع أنني أستطيع ارتداء ملابس غالية الثمن مثلما يفعلون كلهم. وليس علي أن أشعر بالقلق إذا تصادف مرة من المَرّات أنني لم أكن أرتدي ملابس غالية. هذه كلها أشياء مزعجة على أي حال. لا بأس بذلك للمرأة التي تبقى في منزلها طيلة الوقت. لكن عندما يعمل الإنسان طيلة النهار مثل الشيطان، فإنه لا يريد أن يزعج رأسه بمسائل من قبيل تناول الطعام عندما يكون الأشخاص الذين يراهم كلهم يرتدون ملابس عادية في ذلك اليوم نفسه».

«تعرف أنك تستمتع بارتداء تلك الملابس. وفي أمسية أخرى اعترفت لي بأنك كنت سعيداً بإصراري على أناقتك. قلت لي إنك شعرت بأنك أفضل حالاً بكثير نتيجة ذلك. ثم... أوه يا جورجي، أتمنى ألّا تسمّي تلك الجاكيت بغير اسمها، إنها جاكيت السهرة».

«وماذا في ذلك؟ ما الفرق؟».

«هذا ما يقوله الأشخاص اللطيفون كلّهم. افترض مثلاً أن لوسيل ماكلفي سمعتك تقول هذا».

«طيب، لا بأس بهذا الآن! ليس للوسيل ماكلفي أي مأخذ عليّ. إن أسرتها من عامّة الناس حتى، وإن كان زوجها وأبوها من أصحاب الملايين! أعتقد أنك تحاولين إظهار مكانتك الاجتماعية المميّزة أمامهم. اسمحي لي إذن أن أخبرك ما يقوله جَدّك الموقّر هنري عن تلك الجاكيت... إنه لا يقول مثلما أقول أنا! إنه يدعوها «جاكيت لها ذيل من أجل قرد له ذيل»، ولن تستطيعي جعله يرتدي جاكيتاً من هذا النوع من غير أن تخدّريه أولاً».

«لا تكن مزعجاً يا جورج!».

«لا أريد أن أكون مزعجاً... لكن، يا إلهي! إنك تصيرين كثيرة التدقيق مثل فيرونا. فمنذ خروجها من الكلية صار العيش معها شديد الصعوبة ـ لا أعرف ماذا

تريد ـ طيب، أعرف ماذا تريد! ... كل ما تريده هو أن تتزوج مليونيراً، وأن تعيش في أوروبا، وأن يمسك أحد الواعظين بيدها... وفي الوقت نفسه، تريد أن تظل هنا في زينيث لتكون واحدة من المحرّضين الاشتراكيين اللامعين أو لتكون على رأس إحدى الجمعيات الخيرية، أو أي شيء ملعون! يا إلهي، ... إن ابننا تيد سيىء مثلها أيضاً! يريد أن يذهب إلى الكلية... ولا يريد أن يذهب إلى الكلية! تينكا هي الوحيدة من أولادنا الثلاثة التي تعرف ما تريد. لا أعرف أبداً كيف صار عندي زوج من الأطفال الذين لا يعرفون ماذا يريدون... روني وتيد. ربما أنا لست مثل روكفيلر أو جيمس شكسبير، لكنني أعرف ما أريد... وأنا أواصل عملي في المكتب ـ هل تعرفين آخر الأخبار؟ بقدر ما فهمت، فإن آخر ما توصل إليه تيد هو أنه يريد أن يصبح ممثل سينما ـ وهنا قلت له مئة مرة إنه إذا ذهب إلى الكلية، ثم إلى كلية الحقوق، وكان جيداً فيها، فسوف أجعله يدخل في الشركة ـ فيرونا سيئة مثله أيضاً. لا تعرف ما تريد! لا بأس، لا بأس، فليكن! ألست جاهزة بعد؟ لقد قرعت الفتاة الجرس منذ ثلاث دقائق».

- 5 -

قبل أن يلحق بزوجته، توقف بابِت أمام النافذة الغربية في غرفتهما. كانت هذه المنطقة السكنية، فلورال هايتس، تشهد نمواً متزايداً. ومع أن مركز المدينة كان على مسافة ثلاثة أميال (يعيش في زينيث ما يتراوح بين ثلاثمئة ألف وأربعمئة ألف شخص حالياً)، فقد كان قادراً على رؤية قمة البرج الوطني الثاني، مبنى إنديانا الحجري المكوَّن من خمسة وثلاثين طابقاً.

كانت جدران المبنى اللامعة منتصبة في تلك السماء النيسانية مثل إفريز بسيط يشبه شعلة من نار بيضاء.والمبنى يوحي بالقوة والسلامة والقدرة على اتخاذ القرار. كان يحمل تلك القوة كلها... ببساطة... كأنه جندي طويل القامة. عندما راح بابِت ينظر إليه، اختفى التوتر من وجهه وارتفعت ذقنه الثقيلة احتراماً. لم يقل إلا «إنه مشهد جميل!» لكن إيقاع المدينة جعل الحماسة تدبّ فيه... وتَجدد حبه لها. كان يعتبر البرج شيئاً يشبه برج كنيسة... كنيسة دين قطاع الأعمال... رمزاً للإيمان... متعالياً، متجاوزاً الناس العاديين. وعندما هبط السلم لتناول الفطور راح يصفر لحن «أوه، بالسرعة والإيمان والعزة الوطنية» وكأنه نشيد وطني كئيب نبيل.

الفصل الثاني

ـ1ـ

بعد أن ارتاحت غرفة نومهما من تلعثم بابِت وزفراته الخفيفة التي كانت زوجته تعبر عن تعاطفه معها... كانت امرأة مجرّبة إلى حد يجعلها لا تشعر بتلك الزفرات، لكنها كانت مجرّبة أيضاً إلى حد يمنعها من إظهار ذلك... صارت الغرفة عديمة الشخصية على الفور... بعد خروجهما! كانت غرفة النوم مطلة على شرفة النوم. وكانا يستخدمانها غرفة لارتداء الملابس. وأما في الليالي شديدة البرودة، فكان بابِت يتخلى بعظمة عن واجب إظهار الرجولة فينسحب إلى السرير في داخل الغرفة حيث يكور أصابع قدميه في الدفء ويضحك لعواصف كانون الثاني.

كانت ألوان الغرفة متواضعة بهيجة... وفق أحد أفضل أساليب المصمِّم الذي «قام بالتصميمات الداخلية» في معظم بيوت مضاربي البناء في زينيث. كانت الجدران رمادية اللون، في حين كانت المساحات الخشبية بيضاء. وأما السجادة فكانت باللون الأزرق البحري، وكان الأثاث شديد الشبه بخشب الماهوغني ـ خزانة الدروج بمرآتها الصافية الضخمة، وطاولة زينة السيدة بابِت مع كل ما عليها من أدوات التجميل... كلها تقريباً بلون فضّيّ! جاف، والسريران المزدوجان البسيطان مع طاولة صغيرة بينهما عليها مصباح كهربائي من النوع الشائع وكأس من الماء وكتاب عليه رسوم ملونة ـ لا يمكن أن يكون المرء واثقاً من محتوى الكتاب لأن أحداً لم يفتحه أبداً. كان الفراش، على كل من السريرين، صلباً لكنه ليس قاسياً... فرشات حديثة مزهوة كلف شراؤها مالاً كثيراً. وأما مشعات التدفئة المائية فكانت مساحة سطوحها محسوبة حساباً علمياً دقيقاً بما يتلاءم مع حجم الغرفة. كانت النوافذ كبيرة سهلة الفتح مزودة بأفضل المقابض، وعليها حوامل ستائر هولندية الصنع مكفولة ضد الكسر. كانت تحفة بين غرف النوم كلها... آتية مباشرة من «تشيرفل مودرن هاوسز» من أجل أصحاب الدخل المتوسط. كل ما في الأمر أن

هذه الغرفة لم تكن لها أي علاقة بآل بابِت... ولا بأحد غيرهم! فلو كان ثمة أشخاص يعيشون ويتحابّون هنا، ويقرأون القصص عند منتصف الليل، ويرقدون في كسل لذيذ صبيحة الأحد... لا، لا... لا شيء يدل على هذا. كانت الغرفة تبدو مثل غرفة ممتازة في فندق ممتاز. وكان يمكن أن يتوقع المرء دخول خادمة تنظيف الغرف لتحضيرها من أجل أشخاص سيأتون للمبيت فيها ليلة واحدة ويرحلون بعدها من غير أن ينظروا خلفهم... ثم لا يفكرون فيها بعد ذلك.

إن كل بيت من اثنين في فلورال هايتس لديه غرفة نوم مثل هذه تماماً. يبلغ عمر بيت آل بابِت خمسة أعوام. وهو كله متألق كامل مثل غرفة النوم هذه. إن فيه أفضل مستوى من الذوق، وأفضل سجاد رخيص الثمن... نموذج معماري بسيط محبوب كثيراً... وفيه آخر ما ظهر من التجهيزات المنزلية. وفي البيت كله، حلّت الكهرباء محل الشموع والمواقد التي تنشر الأوساخ. وعلى امتداد أسفل الجدار في غرفة النوم توجد ثلاثة مآخذ من أجل المصابيح الكهربائية... عليها أغطية صغيرة من النحاس. وكان في الجدران مآخذ من أجل المكنسة الكهربائية أيضاً. وهنالك مآخذ في غرفة المعيشة من أجل المصباح الموضوع فوق البيانو، ومن أجل المروحة الكهربائية! وكان في غرفة الطعام المزخرفة (بخزانة الأطباق الرائعة المصنوعة من خشب البلوط، ورفوف الفناجين الزجاجية المزينة بالرصاص، وجدرانها الجصية، ولوحة متواضعة فيها سمكة سلمون فوق كومة من المحار) مآخذ من أجل آلة القهوة ومحمصة الخبز.

لكن شيئاً واحداً كان على غير ما يرام في بيت آل بابِت: ما كان بيتاً!

ـ2ـ

غالباً ما كان بابِت يأتي إلى الفطور متقافزاً مازحاً. لكن الأمور كانت مختلفة على نحو غامض في هذا اليوم. عندما سار بأبّهته كلها عبر الممر في الطابق العلوي، ألقى نظرة على غرفة فيرونا وقال محتجّاً: «ما فائدة إعطاء الأسرة بيتاً فخماً عندما لا يقدّرون ذلك، وعندما يسيئون استعماله؟».

سار صوبهم... فيرونا، فتاة في الحادية والعشرين لها شعر بنّي قصير، كأنها خارجة من كلية براين ماور متخذة احتياطاتها كلها في ما يتعلق بالواجبات والجنس والرب، مع كل ذلك الانتفاخ في بيجامة الرياضة الرمادية التي ارتدتها. وكان هنالك تيد أيضاً ـ اسمه الكامل ثيودور روزفيلد بابِت. صبيّ حسن المظهر في السابعة عشرة من عمره. ثم تينكا ـ كاثرين ـ التي لا تزال طفلة صغيرة في العاشرة لها شعر أحمر متوهّج وجلد رقيق يوحي بالإفراط في أكل السكاكر والمثلجات. لم يسمح بابِت بظهور انزعاجه الغريب

عندما دخل عليهم. كان يكره حقاً أن يكون طاغية في أسرته. كان تذمّره عديم المعنى... ثم إنه كان يتكرر كثيراً أيضاً! صاح بتينكا: «مرحباً يا لعبتي الصغيرة!» ... كانت هذه كلمة التحبّب الوحيدة الموجودة في قاموسه، إضافة إلى «عزيزتي» و«حبي». كان ينادي زوجته بهذه الكلمات ويلقيها على تينكا كل صباح.

ابتلع فنجاناً من القهوة آملاً في تهدئة معدته وروحه. لم يعد يشعر بأن معدته متيبّسة كأنها ليست له. لكن تينكا بدأت تصبح متطلبة ومزعجة فعادت إلى بابِت فجأة شكوكه في ما يتعلق بالحياة والأسرة والعمل... ظلت عنده هذه الشكوك في ما يتعلق بالحياة والأسرة والعمل... تلك الشكوك التي أنشبت مخالبها فيه عندما أفلتَ منه حلمه هذا الصباح... حياة الأحلام وفتاة الحكايات الرشيقة.

تعمل فيرونا منذ ستة أشهر موظّفة أرشيف في مكاتب شركة غرونسبرغ للجلود مع احتمال أن يتطور وضعها في الشركة فتصير سكرتيرة السيد غرونسبرغ بحيث، هكذا أوضح بابِت الأمر، «تحصلين على فائدة من دراستك المكلفة في الكلية ريثما تصيرين مستعدة للزواج والاستقرار».

لكن فيرونا قالت الآن: «أبي! كنت أتحدث مع أحد رفاق صفي الذي يعمل في اتحاد الجمعيات الخيرية ـ أوه، يا أبي، لو رأيت الأطفال الصغار الحلوين الذين يأتون إلى مركز توزيع الحليب هناك! ... أشعر بأن علي أن أفعل شيئاً ذا قيمة... شيئاً من ذلك القبيل».

«ماذا تعنين بشيء ذي قيمة؟ إذا كنت ستصبحين سكرتيرة غرونسبرغ ـ ربما تصيرين سكرتيرته فعلاً إذا تحسّنت قدرتك على كتابة الاختزال، وإذا كففت عن الذهاب إلى الحفلات واللقاءات كل مساء، فأظن أنك ستحصلين على خمسة وثلاثين أو أربعين دولاراً في الأسبوع... وهذا شيء له قيمة».

«أعرف، لكن... أوه، أريد أن... أريد أن أساهم... أتمنى لو أنني كنت أعمل في بيت للأطفال. لا أعرف إذا كان يمكنني الحصول على أحد تلك المحلات الكبيرة لأقيم فيه قسماً خيرياً فيه غرفة استراحة لطيفة وكنبات قماشية، وكراسٍ خشب وأشياء من هذا القبيل. أو يمكنني أن...».

«انظري إلي الآن! أول شيء عليك أن تفهميه هو أن عمل الترقي والدلال وبيوت الرعاية والتسلية ليس إلا إسفيناً تدقه الاشتراكية في عالم الرب. كلما عرف الإنسان في وقت أبكر أنه لن يتلقى أي دلال، وأن عليه ألا يتوقع الكثير من الخيرات المجانية، آه... وكل تلك الدروس المجانية والأحذية المنزلية والحلوى لأطفاله، إلا إذا كسبها بنفسه... لماذا؟ ... يجب أن يفهم سريعاً أن عليه أن يذهب إلى العمل وأن ينتج... أن ينتج... أن ينتج! هذا ما تحتاج البلاد إليه، وليس كل تلك الأشياء السخيفة التي تضعف قوة

الإرادة لدى الإنسان العامل وتزرع في أطفاله مفاهيم كثيرة غير صحيحة عن مستواهم الاجتماعي. وأنتِ... إذا اهتممت بالعمل بدلاً من هذا العبث وتضييع الوقت كله... طيلة الوقت! عندما كنت شاباً، عقدت العزم على ما أريد فعله، ووصلت إليه رغم الصعوبات، ولهذا تريني أقف الآن هنا ... و... يا ميرا! لماذا تجعلين الفتاة تقطع الخبز قطعاً صغيرة إلى هذا الحد؟ لا أستطيع أن أمسكها. وهي شبه باردة أصلاً!».

كان تيد بابِت، الطالب في المرحلة الثانوية في مدرسة إيست سايد العليا، يحاول المقاطعة بصوت يشبه الفواق. بدأ يقول الآن: «لنقل يا روني ـ فيرونا ـ إنك سوف ....».

قالت فيرونا باندفاع: «تيد! هل تسمح بألا تقاطعنا عندما نتحدث في أشياء جدية؟».

قال تيد بحكمة: «يا مجنونة! منذ أن جعلك أحد ما تتركين الكلية... يا للقرف... وأنت تتحدثين هذه الأحاديث الغبية عن مختلف الأشياء. فهل ستفعلين ... أريد أن أستخدم السيارة اليوم».

قال بابِت متذمراً: «أوه! هل تريد السيارة؟ قد أحتاجها أنا». اعترضت فيرونا، «أوه، تريد السيارة يا سيد ذكي! سوف آخذها أنا». صرخت تينكا كأنها تريد أن تبكي: «أوه، بابا! قلت إنك قد تأخذنا بالسيارة إلى روزديل». قالت السيدة بابِت: «انتبهي يا تينكا، لقد اتسخ كمك بالزبدة». نظروا كلهم إلى تينكا. قالت فيرونا: «تيد! إنك خنزير تماماً في ما يتعلق بالسيارة».

كان تيد قادراً على الوقاحة على نحو يثير الجنون: «وأنت لست خنزيرة طبعاً! لست خنزيرة أبداً! تريدين أخذها بعد العشاء... تريدين أخذها لتتركيها أمام بيت إحدى الفتيات حيث تمضين المساء كله جالسة تتحدثين عن الأدب وعن أصحاب الثقافة العالية الذين تريدين الزواج منهم... فقط إذا طلبك واحد منهم للزواج!».

«اسمع يا أبي! لا يجوز أن تسمح له بأخذ السيارة أبداً! أنت وهؤلاء الصبيان الحيوانات تقودون السيارة كالمجانين. تريدون الانطلاق على طريق تشوتوكا بليس بسرعة أربعين ميلاً في الساعة».

«أوه! من أين تأتين بهذه الأشياء؟ أنت تخافين قيادة السيارة إلى درجة تجعلك تصعدين منحدراً من غير أن ترخي مكابح اليد!».

«لا أفعل هذا! وأنت... دائماً تتكلم عن معلوماتك الواسعة عن السيارات. حدثتني أونيس ليتلفيلد كيف قلت لها إن البطارية تغذي مولد الكهرباء في السيارة».

«أنتِ... لماذا يا فتاتي الذكية... أنت لا تميزين بين المولد الكهربائي وعلبة السرعة».

لم يكن تيد يظهر الاحتقار لها من غير سبب. لقد كان موهوباً في فنون الميكانيك... كان يركّب آلات يصنعها بنفسه. وكان يفهم الرسوم الميكانيكية.

«يكفي الآن!» ... ألقى بابِت بهذه العبارة على نحو آلي عندما أشعل سيجاره الأول في هذا اليوم... سيجاره الذي يرضيه كثيراً... وراح يقرأ عناوين صحيفة إدفوكات تايمز كأنها دواء منعش.

بدأ تيد يفاوض أخته: «هيا يا روني، أرجوك، لا أريد أن أستخدم القارب القديم... لكنني وعدت فتاتين في صفي بأن آخذهما بالسيارة إلى التدريب اليوم في فرقة المدرسة الغنائية... تعرفين... لا أريد هذا، لكن على الفتى أن يحافظ على علاقاته الاجتماعية».

«تحافظ على كلمتك! ... أنت وعلاقاتك الاجتماعية! في المدرسة الثانوية!».

«أوه! ألم نحسن الاختيار لأننا ذهبنا إلى تلك الكلية التعيسة؟ دعيني أقول لك إنه لا توجد مدرسة خاصة في الولاية كلها لديها هذه الكمية من الأشخاص الرائعين الموجودين في غاما دي غاما هذه السنة. لدينا شخصان أباهما من أصحاب الملايين. وأنا أريد أن تكون عندي سيارتي الخاصة مثلما يملك كثير من الأولاد سياراتهم». قال بابِت وهو يكاد يهبّ على قدميه: «سيارة خاصة لك أنت! ألا تريد يختاً ومنزلاً وقطعة أرضٍ أيضاً؟ لقد طفح الكيل! ولد لا يستطيع اجتياز امتحان اللغة اللاتينية... الامتحان الذيٍ ينجح فيه الأولاد الآخرون... ثم يتوقّع مني أن أعطيه سيارة... ربما يتوقع سائقاً أيضاً، وربما طائرة... مكافأة على اجتهاده في الذهاب إلى السينما مع أونيس ليتلفيلد! طيب، عندما تراني أعطيك...».

بعد قليل من الوقت، تمكّنت دبلوماسية تيد من إقناع فيرونا بأن تعترف بأنها كانت تريد فقط أن تذهب في تلك الأمسية إلى آرموري لترى عرضاً للقطط والكلاب. وكان عليها، مثلما خطط تيد، أن تركن السيارة أمام محل الحلويات مقابل آرموري بحيث يأخذها هو. وقد وضع بعض الترتيبات المتقنة في ما يتعلق بملء خزان السيارة بالبنزين، وكذلك بالمكان الذي ستترك له المفاتيح فيه. اتفقا أيضاً على إخفاء أمر الإطار الداخلي الاحتياطي والمفتاح المفقود الخاص بتبديل الدواليب.

بعد ذلك، تبخّرت الهدنة بينهما! قال تيد إن أصدقاءها «ليسوا إلا مجموعة من الثرثارين الفارغين». وأما هي فقالت له إن صديقاته «تقليد مقرف للبنات الرياضيات... فت[illegible]ت حاهلات زاعقات مخيفات». ثم أضافت: «أمر مقزِّز أنك تدخن السجائر، وأشياء أ[illegible] أيضاً، وتلك الثياب التي ارتديتها هذا الصباح، إنها سخيفة جداً جداً... بصراحة، شيء مقرف».

نهض تيد قليلاً حتى يرى نفسه في المرآة في غرفة الطعام... نظر إلى جماله ثم ابتسم. كانت البدلة التي يرتديها أحدث شيء لدى أولد إيلي توغز ... ضيّقة جداً ولها بنطلون مشدود يصل حتى أعلى الحذاء الجلدي الطويل. وكان يرتدي أيضاً سترة قصيرة

عليها من الخلف حزام أسود لا عمل له. ويضع وشاحاً حريرياً سميكاً ضخماً. وأما شعره الشبيه بالكتان فكان صقيلاً مثل الجليد... ملتصقاً برأسه ومتّجهاً إلى الخلف. وعندما يذهب إلى المدرسة، فسوف يعتمر قبعة لها واقية أمامية طويلة تشبه المجرفة. لكن معطفه كان أكبر اعتزاز عنده... لقد وفّر المال لشرائه، وتوسّل من أجل الحصول عليه، بل حاك بعض المؤامرات أيضاً... معطف حقيقيّ فخم مصنوع من جلود الغزلان وفيه بقع بارزة لها لون أحمر حائل.. كانت تلك البقع طويلة على نحوٍ مدهش. وعلى الحافة السفلية لهذا المعطف وضع تيد شعار المدرسة، وشعار الصف، ودبوساً تزيينياً يرمز لأخَويّة الطلبة.

ما كان لهذا كله أي أهمية. كان تيد رشيقاً سريعاً مندفعاً. وكانت عيناه متلهّفتين على نحوٍ واضح (كان يظن أنهما ساخرتان). لكنه لم يكن لطيفاً بشكل مبالغ فيه. لوّح بيده صوب فيرونا السمينة المسكينة قائلاً: «نعم، أظن أننا سخيفون مقرفون، وأظن أيضاً أن ربطة العنق ليست إلا لطخة وسخة!».

عوى بابِت: «إنها كذلك! وبما أنك معجب بنفسك، فاسمح لي بإخبارك أن جمالك الرجولي سوف يصبح أفضل إذا مسحت البَيْض عن فمك».

قهقهت فيرونا... نصر موقّت في المعركة العظمى... معركة الأسرة. نظر إليها تيد يائساً ثم زعق بتينكا: «لماذا تصبّين علبة السكر كلها في صحنك؟».

بعد أن ذهب تيد وذهبت فيرونا، وصعدت تينكا إلى الأعلى، قال بابِت لزوجته: «لا بد من القول إنها أسرة لطيفة! لا أود التظاهر بأنني أب وديع... ربما أكون خشناً بعض الشيء عند الإفطار، لكنني لا أستطيع أن أتحمّل كلامهم الفارغ هذا! أقسم أنني أشعر بالرغبة في الذهاب إلى مكان ما... حيث أستطيع أن أنال بعض السكينة. لا أظن أن رجلاً أمضى عمره كله محاولاً منح أطفاله فرصة وتعليماً جيداً... من المحبط حقاً أن يسمعهم المرء أحياناً يعوون مثل مجموعة من الضباع ولا يهتمون بشيء أبداً ـ لا يهتمون أبداً ـ ... يقولون هنا في الجريدة ... لا يسكتون لحظة واحدة... هل رأيتِ جرائد الصباح؟».

«لا يا عزيزي». خلال ثلاثة وعشرين عاماً من حياة الزوجية، لم تكن السيدة بابِت قد رأت الجريدة قبل زوجها أكثر من ست أو سبع مرات.

«أخبار كثيرة! إعصار كبير مخيف في الجنوب. حظ سيئ... لا بأس! لكن هذا شيء ممتاز! إنها بداية النهاية لأولئك الأشخاص! لقد أقرت جمعية نيويورك بعض القوانين التي يجب أن تجعل الاشتراكيين خارج القانون تماماً! هنالك أيضاً إضراب لعمال المصاعد في نيويورك... يحل مَحَلّهم كثير من طلبة الكليات. هكذا هو الأمر! لقد طالب اجتماعٌ جماهيري في برمنغهام بترحيل المحرّض الإيرلندي، الشخص المدعو دو فاليرا.

معهم حق بالطبع! يتلقى هؤلاء المحرّضون كلهم الذهب من ألمانيا. ليس لنا مصلحة في التدخل في شؤون الإيرلنديين أو في شؤون أي حكومة أجنبية. علينا أن نظل بعيدين عن هذا كله. ثمة أيضاً إشاعة أخرى موثقة قادمة من روسيا تقول إن لينين قد مات. شيء جيد! لا أفهم لماذا لا نذهب إلى هناك لنطرد البلاشفة من تلك البلاد».

قالت السيدة بابت: «هذا ما يجب أن يكون».

«يقولون أيضاً إن شخصاً ممن يرتدون الثوب قد جرى تنصيبه عمدة... أحد الواعظين! ما رأيك في هذا؟»

«أوه! لا بأس!».

راح بابِت يفتش عن موقف، لكنه حارَ. أيتخذ موقفاً باعتباره جمهورياً أو باعتباره من أتباع الكنيسة البريسبوريترية، أو عضواً في جمعية الوعول، أو باعتباره وسيطاً عقارياً... تجاه مسألة أن يتولى واعظ منصب العمدة. وهكذا فقد أصدر نخيراً من أنفه ثم تابع تصفّح الجريدة. نظرت زوجته إليه متعاطفة لكنها لم تسمع منه شيئاً. سوف تقرأ العناوين في ما بعد: أخبار المجتمع وإعلانات المتاجر.

«وماذا تعرفين عن هذا! لا يزال تشارلي ماكيلفي يقيم مناسباته الاجتماعية بكل نجاح. اسمعي ما تقوله تلك المراسلة الصريحة عن الليلة الماضية ...».

لم يشعر أبناء هذا المجتمع، هذا المجتمع تحديداً، بإطراء أكثر مما شعروا به عندما طُلب منهم المشاركة في حفلة الشراب في مكان إقامة السيد والسيدة تشارلز ماكيلفي المضياف المتميّز ليلة أمس. هذا البيت القائم وسط مروج واسعة وحدائق مزيَّنة... إنه أحد المناظر التي تتوج رويال ريدج، لكنه يشعّ بهجة ودفئاً منزلياً رغم جدرانه الحجرية الضخمة وصالاته الفسيحة التي اشتهرت بتزييناتها. كان باب منزلهم مفتوحاً على مصراعيه الليلة الماضية من أجل حفلة راقصة على شرف ضيفة السيدة ماكيلفي البارزة الآنسة ج. سنيث القادمة من واشنطن. صارت الصالة الواسعة مترامية الأبعاد صالة رقص ممتازة. وكانت أرضيتها الخشبية المصقولة تعكس كل الفخامة الموجودة فيها. بل إن بهجة الرقص نفسها تضاءلت أمام الفرص الرائعة للقاء الناس المهمين وتبادل الحديث معهم أمام الموقد الضخم في غرفة المكتبة الطويلة، أو في غرفة الجلوس بكنباتها الوثيرة... حيث جعلت مصابيحها المظللة ذلك الهمس الخبيث الفارغ من المحتوى أمراً حلواً جداً... بل حتى في قاعة البليارد حيث يمكن أن ينتظر المرء دوره حتى يُظهِرَ ما لديه من براعة في لعبة يرعاها رَبّان: رَبّا الحب والرقص.

كان ثمة أكثر من هذا... أكثر من هذا بكثير... مكتوباً بأفضل أسلوب صحافي مديني

على نمط الآنسة إيلنورا بيرل بيتس، محرّرة المقالات الاجتماعية في إدفوكات تايمز!
لكن بابِت لم يعد قادراً على تحمل هذا كله. شخر غاضباً ثم طوى الجريدة كيفما اتفق. قال متذمراً: «هل تستطيعين تحمل هذا؟ لا مشكلة عندي في الاعتراف بتميّز تشارلي ماكيلفي. عندما كنا في الكلية معاً.. كان شاباً جيداً مثل أي واحد منا. ثم كسب مليون دولار من العقود مع أنه لم يكن أقل استقامة من غيره ولم يشترِ مجلس المدينة أكثر مما يجب. لديه منزل جيد... نعم... لكنه ليس ذلك المنزل ذا الجدران الحجرية الضخمة كما يقولون هنا... وهو لا يساوي الثمانين ألف دولار التي دفعها من أجله. لكنهم يتحدّثون هنا كما لو أن تشارلي ماكيلفي، وكل رافعي الأنخاب الذين معه، مجموعة متألقة عظيمة... كأنهم من آل فاندربيت... لماذا؟ هذا يصيبني بالإعياء!».

قالت السيدة بابِت بنبرة خجلة مترددة: «لكنني أحب أن أرى بيتهم من الداخل، رغم هذا. لا بد أنه جميل. لم أذهب إليه أبداً».

«أما أنا فذهبت! ذهبت كثيراً من... ذهبت مرتين فقط! ذهبت لأرى تشارلي من أجل إحدى صفقات العمل... في المساء. ليس شيئاً مهماً جداً. لا أرغب في الذهاب إلى العشاء هناك مع تلك العصبة من.. من المتكبرين. أراهن أنني أجني مالاً أكثر من بعض هؤلاء الفارغين الذين ينفقون كل ما لديهم على الملابس من غير أن تكون لديهم ثياب داخلية مصنوعة لهم خصيصاً! ما قولك في هذا؟»

كان غريباً أن السيدة بابِت لم تتأثر بما رأته في صفحة العقارات في جريدة إدفوكات تايمز:

شارع أشتابولا، 496 – ج. ك. داوسون إلى
ثوماس مولالي، 17 نيسان، 15.7 ×112.2،
4000 دولار..... الاثنين.

كان بابِت هذا الصباح أكثر انزعاجاً من أن يحاول تسليتها ببعض المواد من المقالات الخاصة بالسيارات أو سجلات الرهونات وإرساء العقود. نهض واقفاً. وعندما نظر إليها بدا حاجباه أكثر تشعّثاً من المعتاد. قال فجأة:

«نعم... ربما ـ مؤسف أن لا يكون المرء على صلة بأشخاص مثل آل ماكيلفي. قد نحاول دعوتهم إلى العشاء ذات مساء. أوه، ماذا بي؟ لماذا نهدر وقتنا الثمين على التفكير فيهم؟ إن جماعتنا الصغيرة تستحق وقتنا أكثر من هؤلاء. قارني فقط بين إنسانة حقيقية مثلك وبين طيور مصابة بالأمراض العصبية مثل لوسيل ماكيلفي... كل ذلك الحديث المتكلّف والملابس الغريبة التي تجعلها مثل حصان مزيّن! أما أنت... أنت فتاتي العظيمة يا حبيبتي!»

لكنه سرعان ما غطى لينَه الذي فضحته تلك الكلمات بأن قال متذمراً: «انظري! ... لا تَدَعي تينكا تذهب لتأكل مزيداً من تلك الحلوى السامة... بحق السماء حاولي منعها من إفساد بطنها. دعيني أقول لك إن معظم الناس لا يقدّرون أهمية الهضم الجيد وعادات الطعام المنتظمة. سوف أعود في الوقت المعتاد... هكذا أظن».

قبّلها... لم يقبّلها، ليس تماماً!... مسّ خدها الساكن بشفتين ساكنتين! ثم أسرع خارجاً صوب مرأب السيارة وهو يقول: «يا لطيف! ما هذه العائلة؟ سوف تغضب ميرا مني الآن لأنني لست على صلة بأصحاب الملايين. أوه... يا ربي... أود أحياناً أن أترك هذه اللعبة كلها. ثم عندي أيضاً ذلك القرف وتلك التفاصيل التعيسة كلها في المكتب. وأنا مثل الأحمق... لا أقصد أن... لكنني أحس بأنني... أوه... كم أنا متعب... إنني متعب كثيراً!».

الفصل الثالث

- 1 -

بالنسبة لجورج بابِت، كما بالنسبة لمعظم المواطنين أصحاب الأحوال المزدهرة في زينيث، كانت سيارته شِعراً وملحمة مأساوية... كانت حباً وبطولة! كان مكتبه سفينة القرصان، لكن سيارته كانت رحلته الخطيرة إلى الشاطئ.

ومن جملة أزماته الكبيرة كل يوم، كان تشغيل المحرك أكثرها درامية! كان إقلاع المحرك بطيئاً في الصباحات الباردة... ذلك الخرير الطويل القلق الذي يصدره مُقلِع السيارة. بل كان عليه أحياناً أن يضع قطرات من سائل خاص على رؤوس أسطوانات المحرك. كانت هذه العملية شديدة الإثارة عنده إلى حد يجعله يسرد تفاصيلها كلها على العشاء، قطرة فقطرة... ويحسب شفوياً مقدار ما كلفته كل قطرة منها.

كان لدى بابِت هذا الصباح استعداد كئيب لمصادفة شيء ليس على ما يرام. وقد شعر بأن ثمة شيئاً مفقوداً عندما عمل محرك السيارة بقوة وجمال من غير مشكلة... بل إن السيارة لم تمس عضادة الباب عندما تحركت، ولم يحمل مصدمها أثراً لضربة جديدة، ولم يصبه تقشّر جديد عندما سار بابِت بالسيارة إلى الوراء حتى يخرجها من المرأب. أصابته الحيرة! صاح قائلاً: «صباح الخير!» مخاطباً سام دوبلبراو بمودّة تجاوزت ما كان يريد إظهاره من لطف.

كان بيت بابِت مبنياً على الطراز الاستعماري الهولندي، ملوَّناً بالأخضر والأبيض. وهو واحد من ثلاثة بيوت على شارع تشاتام. فإلى اليسار منه كان مسكن السيد ساموِيل دوبلبراو الذي يعمل سكرتيراً في شركة ممتازة لتجارة تجهيزات الحمام بالجملة. كان بيت هذا الجار مريحاً من غير أي زخارف معمارية على الإطلاق: صندوق خشبي ضخم يربض فوقه برج وله مدخل عريض... كان مطلياً كله بالأصفر مثل صفار البيضة. كان بابِت ينظر نظرة استهجان إلى السيد والسيدة دوبلبراو، ويعتبرهما «بوهيميين». كانت

تأتي من بيتهما في منتصف الليل أصوات موسيقى وضحكات فاسقة. وكانت في الحي إشاعات تتحدّث عن أنهم يشربون الويسكي المصنوع تهريباً ويقودون سيارتهم بسرعة فائقة. وقد زوّدا بابِت بعدة مناسبات سعيدة لمناقشة مسائية كان يعلن خلالها بحزم: «لست متشدداً! ولا أجد مشكلة في رؤية شخص يشرب من حين لآخر». أما عندما يتعلق الأمر بمحاولات مقصودة لإقامة حفلات شراب صاخبة مثلما يفعل آل دوبلبراو، «فإن هذا أكثر مما يتحمله دمي».

إلى الناحية الأخرى من بابِت، يعيش الدكتور هاورد ليتلفيلد في بيت حديث تماماً. كان الجزء السفلي من هذا البيت مطلياً بلون أحمر قرميدي مزخرف مع تزيينات رصاصية نافرة، وأما الجزء العلوي فكان جصّي اللون شاحباً كأنه مرشوش بالصلصال. وكان السطح مكسوّاً بالقرميد الأحمر. كان ليتلفيلد المثقف الكبير في الحي... مرجَعاً في كل شيء في العالم... عدا الأطفال الصغار والطبخ والسيارات! وقد تخرَّج في كلية بلودغيت قبل أن يحصل على الدكتوراه في الفلسفة في علوم الاقتصاد من جامعة ييل. وصار مدير التوظيف واستشاري الدعاية في شركة زينيث للنقل والمواصلات. كان قادراً على المثول، في غضون عشر ساعات فقط، أمام المجلس المحلي، أو أمام المجلس التشريعي في الولاية، لكي يثبت إثباتاً قاطعاً، بإيراد المستندات وبذكر سوابق جرت في بولندا ونيوزيلندا، أن شركته تحب الجمهور وتهتم بموظفيها، وأن أسهمها كلها ملكٌ لأرامل وأيتام، وأن كل ما تهتم بفعله يصب في مصلحة أصحاب العقارات من خلال زيادة قيمة الإيجارات، ويصب أيضًا في مصلحة الفقراء من خلال تخفيض الإيجارات! كان كل من يعرف ليتلفيلد يستعين به عندما يريد أن يعرف تاريخ معركة ساراكوزا، أو تعريف كلمة «تخريب»، أو مستقبل المارك الألماني، أو ترجمة عبارة «ما هذه الدموع» من اللغة اللاتينية، أو عدد المنتجات التي تُصنَّع من قطران الفحم. وقد ذعر بابِت عندما اعترف له ليتلفيلد بأنه كثيراً ما يسهر حتى منتصف الليل قارئاً ما يرد في التقارير الحكومية من أرقام وهوامش، أو باحثاً في أحدث كتب الكيمياء أو علم الآثار أو علم الأسماك (مستمتعاً بالعثور على أغلاط كتّابها).

لكن قيمة ليتلفيلد الكبرى هي أنه مثالٌ روحيٌّ! فعلى الرغم من علومه الغريبة كلها، كان الرجل من أتباع الكنيسة البريسبوريترية المتشدّدين؛ وكان جمهورياً صلباً مثل جورج بابِت تماماً. كان الرجل على مذهب رجال الأعمال أيضاً... إيمانُه إيمانَهم عينَه! هم يعرفون بغريزتهم المخلصة وحدها أن نظام الأشغال والأحوال عندهم هو الكمال بعينه، لكن الدكتور هاورد ليتلفيلد هو من يستطيع أن يثبت ذلك لهم استناداً إلى التاريخ والاقتصاد، وإلى اعترافات الراديكاليين التائبين.

كان بابِت شديد الاعتزاز بأنه من جيران رجل العِلم هذا، وكذلك بالعلاقة الحميمة بين تيد ويونيس ليتلفيلد أيضاً. ففي سن السادسة عشرة، لم تكن يونيس مهتمة بأي إحصاءات إلا بأعمار نجوم السينما ومداخيلهم المالية. لكنها كانت ... «ابنة أبيها»، بحسب تعبير بابِت.

كان الاختلاف بين رجل خفيف مثل سام دوبلبراو وصاحب شخصية رفيعة حقاً مثل ليتلفيلد واضحاً في مظهر الرجلين. يبدو دوبلبراو شاباً إلى درجة تدعو إلى القلق بالنظر إلى عمره البالغ ثمانية وأربعين عاماً. يضع قبعته الرياضية على مؤخرة رأسه. وكانت ضحكة عديمة المعنى تجعّد وجهه الأحمر دائماً. لكن ليتلفيلد كان يبدو أكبر من رجل في الثانية والأربعين!... طويلاً، عريضاً، ممتلئاً. وكانت نظارته ذات الإطار الذهبي غاطسة في طَيّات وجهه الطويل. وأما شعره فكان كتلة مشعثة من اللون الأسود اللامع. كان ينفخ ويلعلع عندما يتكلم. وكان المفتاح... شعار جمعية «فاي بيتا كابا» الجامعية ... ظاهراً على صديريته السوداء المنقطة. وتنبعث منه رائحة غليون قديم... كان مظهره كله جنائزياً، آثارياً! ويوحي بنفحة من القداسة إذا ما قورن بأعمال الوساطة العقارية وبيع مستلزمات الحَمّامات بالجملة.

كان أمام منزله هذا الصباح واقفاً يتفقّد العشب الممتد بين حافة الرصيف والممشى الأسمنتي العريض. أوقف بابت سيارته ومال من نافذتها صائحاً «صباح الخير!» اقترب ليتلفيلد متثاقلاً ثم وضع قدماً واحدة على مرقاة السيارة.

«إنه صباح جميل!» قالها بابِت وهو يشعل ـ أبكر مما يجوز ـ سيجارته الثانية لهذا اليوم.

قال ليتلفيلد: «نعم صباح لطيف جداً».

«سيأتي الربيع سريعاً الآن».

قال ليتلفيلد: «نعم... لقد صار الوقت ربيعاً حقاً الآن... هذا صحيح».

«لا تزال الليالي باردة رغم ذلك. كان عليّ أن أتغطى ببطانيتين اثنتين لأنني نمت على شرفة النوم الليلة الماضية».

قال ليتلفيلد: «صحيح! لم تكن الليلة الماضية دافئة».

«لكنني لا أتوقع أن يأتينا طقس بارد فعلاً بعد الآن».

قال العالِم: «معك حق؛ لكن الثلج هطل في توفليز بولاية مونتانا يوم أمس. لا بد أنك تذكر العاصفة الثلجية التي كانت في الغرب منذ ثلاثة أيام. ثلاثة إنشات من الثلج في غريلي في ولاية كولورادو. ومنذ سنتين، كانت لدينا عاصفة ثلجية هنا في زينيث في الخامس والعشرين من نيسان».

«هل هذا صحيح؟ قل لي يا صاحبي، ما رأيك بالمرشّح الجمهوري؟ ومن سيرشّحون للرئاسة؟ ألا ترى أن الوقت قد حان لكي تكون لدينا إدارة من قطاع الأعمال؟».

قال ليتلفيلد: «أرى أن البلاد في حاجة، أولاً وقبل كل شيء، إلى تصريف سليم جيد لشؤونها مثلما يجري في عالم الأعمال. ما يلزمنا هو إدارة من عالم الأعمال!».

«يسعدني أن أسمعك تقول هذا! يسعدني بالتأكيد أن أسمعك تقول هذا! لم أكن أعرف شعورك تجاه هذه القضية... مع كل علاقاتك بالكليات وما شابه ذلك... وأنا سعيد لأنك ترى هذا الرأي. ما تحتاجه البلاد ـ عند هذا المنعطف تماماً. هو أن يكون لها رئيس غير آتٍ من إحدى الكليات وغير منشغل كثيراً بالشؤون الخارجية... بل شخص اقتصاديّ جيّد عميق... إدارة من عالم الأعمال... هذا ما سوف يمنحنا فرصة لتوسيع الأعمال».

«صحيح! من المعروف عامّة أن خرّيجي المدارس، حتى في الصين، يفسحون الطريق لصالح أشخاص أكثر عملية. وأنت تستطيع طبعاً أن ترى ما يعنيه ذلك».

همس بابِت: «هكذا هو الأمر! طيب... طيب!». صار يشعر بقدر أكبر من الهدوء والسعادة إزاء مجريات الأمور في العالم. «لا بأس! كان الوقوف والتحدث معك لحظة أمراً لطيفاً. أظن أن عليّ الإسراع إلى المكتب الآن لألدغ بعض العملاء. طيب... أراك إذن يا صديقي، أراك الليلة».

ـ2ـ

لقد اشتغلوا كثيراً، أولئك المواطنون الصلبون الأقوياء! قبل عشرين عاماً، كانت التلة التي تمتد عليها ضاحية فلورال هايتس الآن... بأسطحها المتألقة ومروجها النظيفة والراحة المدهشة التي توفّرها... كانت منطقة بَرّية فيها أشجار من الدردار والبلوط والقيقب. وعلى امتداد الشوارع المرسومة رسماً دقيقاً، لا تزال قائمة، إلى اليوم، بضع بقع من الغابة الخالية من البيوت وجزء من مزرعة قديمة. إنها منطقة متألقة حديثة الآن! أنارت أغصانَ التفاح أوراقٌ جديدة كأنها مشاعل من نار خضراء. ظهرت بداية أزهار الكرز البيض متناثرة على امتداد الوادي، وصدحت أصوات طيور أبي الحناء.

راح بابِت يشم رائحة الأرض ويضحك لطيور أبي الحناء المجنونة مثلما يمكن أن يضحك لقطط صغيرة أو لفيلم كوميدي. كان يبدو، لمن ينظر إليه، نموذجاً كاملاً للموظف التنفيذي الذاهب إلى عمله. رجلٌ حسن التغذية معتمرًا قبعة بنية ناعمة ويضع نظارة من غير إطار... مدخّناً سيجاراً كبيراً وهو يقود سيارته الجيدة في الطريق التي تجتاز المنتزه في منطقة تعتبر من مناطق الضواحي... لكنه كان يُكنّ نزعة حبّ أصيل لهذا الحي، لمدينته،

لجماعته! كان الشتاء قد انتهى. وجاء وقت البناء، وقت نمو المدينة المرئي الظاهر... إنه وقت المجد بالنسبة له. زال عنه اكتئابه الصباحي. وصار مبتهجاً تماماً عندما توقف في شارع سميث حتى يترك البنطلون البنّي عند الخياط ويملأ خزان سيارته.

شدت اعتيادية هذه الأمور من عزيمته: منظر مضخة البنزين الحمراء المعدنية الطويلة، والمرأب المبني من القرميد المفرغ والأسمنت، وواجهة المحل التي ازدحمت بأكثر ما يحبه من تجهيزات ـ أغطية عجلات السيارات اللامعة، وشمعات الشرر ذات الأغلفة النظيفة المصنوعة من البورسلين، وسلاسل القَطر الذهبية والفضية. سَرّته الطريقة الودية التي جاء بها سيلفستر مون، أكثر ميكانيكيي السيارات مهارة ووساخة، لكي يخدمه. قال مون: «صباح الخير سيد بابِت!». أحس بابِت بأنه شخص مهم... كل شخص يتذكّر اسمه، حتى عمال إصلاح السيارات المشغولين ـ إنه ليس واحداً من الأشخاص ذوي المظهر الرياضي الرخيص الذين يمضون مسرعين في سياراتهم القديمة. أعجبه عَدّاد مضخّة البنزين الأوتوماتيكي الذي راح يسجل الغالونات واحداً بعد الآخر. وأعجبه ذكاء العبارة التي حملتها اللافتة: «املأ خزان سيارتك في الوقت المناسب حتى لا تعلق في مكان غير مناسب. السعر اليوم 31 سنتاً». أعجبه الإيقاع المنتظم لخرخرة البنزين المتدفق إلى خزان سيارته؛ وأعجبته حركة مون التلقائية المعتادة عندما أدار مقبض المضخة.

سأله مون بطريقة جمعت بين استقلالية الاختصاصي الكبير وودّية الكلام العادي بين صديقين: «كم نريد أن نأخذ اليوم؟» ... كان هذا إظهاراً للاحترام تجاه شخص له وزنه في المجتمع. شخص مثل جورج ف. بابِت!

«املأ الخزان كله».

«من تتوقع أن يكون مرشح الحزب الجمهوري يا سيد بابِت؟»

«لا يزال الوقت مبكراً على أي توقعات. لا يزال أمامنا، على أي حال، شهر وأسبوعان. بل ثلاثة أسابيع، لا بد أنها ثلاثة أسابيع تقريباً، لدينا أكثر من ستة أسابيع في المجمل قبل مؤتمر الحزب الجمهوري. أظن أن عقولنا يجب أن تظل منفتحة وأن نتيح لكل مرشح أن يُظهر ما عنده... أن ينظر إليهم جميعاً ويقيّمهم جميعاً ثم يتخذ قراره متأنياً».

«هذا صحيح يا سيد بابِت».

«لكني سأقول لك. إن موقفي في هذا الأمر مثلما كان قبل أربع سنوات، وقبل ثماني سنوات، وسوف يظل هكذا بعد أربع سنوات أيضاً. نعم، وبعد ثماني سنوات أيضاً! ما أقوله للجميع... وهذا ما لا يمكن فهمه على نحو شديد التعميم... هو أن ما نحتاج إليه أولاً وأخيراً، ما هو جيد لنا دائماً... إدارة سليمة آتية من قطاع الأعمال».

«بكل تأكيد... هذا صحيح!».

«كيف ترى العجلات الأمامية؟».

«لا بأس! لا بأس! لن تعمل ورشات السيارات كثيراً إذا كان كل امرئ يهتم بسيارته مثلما تفعل أنت».

«الحقيقة أنني أحاول الاهتمام بها... وأعرف كيف أهتم بها، بعض الشيء». دفع بابِت الفاتورة ثم قال راضياً: «أوه، احتفظ بالباقي!» انطلق بسيارته منتشياً معجَباً بنفسه كلَ إعجاب. وبروح غيرية طيبة، صاح برجل محترم المظهر كان واقفاً ينتظر الترولي: «هل تريد أن أوصلك؟» ... وعندما صار الرجل في السيارة سأله بابِت متلطفاً: «هل أنت ذاهب إلى وسط المدينة؟ عندما أرى أحداً ينتظر الترولي فإنني معتاد على توصيله ـ إلا... بالطبع... إذا كان يبدو شخصاً تافهاً».

قال ضحية الإحسان شاعراً أن من واجبه أن يقول شيئاً: «أتمنى لو أن هنالك المزيد من الناس الكرماء مثلك».

«أوه، لا! ليست المسألة مسألة كرم. الحقيقة أنني أشعر دائماً ـ كنت أقول هذا لابني تلك الليلة ـ أن من واجب الإنسان أن يشارك جيرانه ما يحصل عليه من أشياء جيدة في هذا العالم. ويزعجني كثيراً عندما لا يكون الإنسان مهتماً إلا بنفسه ثم يمضي في كل مكان مفاخراً بأنه يحب الإحسان للآخرين».

يبدو أن الضحية لم يستطع العثور على إجابة مناسبة!

تابع بابِت يقول: «توفِّر الشركة خدمة سيئة على هذه الخطوط. لا معنى لأن يسيّروا عربة واحدة كل سبع دقائق. يصاب المرء بالبرد فعلاً في الصباح أيام الشتاء منتظراً عند زاوية الشارع والريح الباردة تقرص ساقيه».

«معك حق! إن شركة المواصلات لا تبالي أبداً بنوعية الخدمة التي تقدمها لنا. يجب أن يحدث لهم شيء سيىء».

أحس بابِت بالخطر: «لكن، رغم ذلك، ليس من الصحيح طبعاً أن نهاجم شركة المواصلات من غير أن نلقي بالاً إلى الصعوبات التي تعمل في ظلها... كتلك الأصوات التي تنادي بأن تكون الشركة ملكاً للبلدية. كما أن أسلوب تعامل العمال مع الشركة من أجل الحصول على أجور مرتفعة ليس إلا جريمة... ثم يقع العبء عليك وعليّ لأننا نصبح مضطرين إلى دفع أجرة تبلغ سبعة سنتات! الواقع أن الخدمة التي تقدمها الشركة جيدة... على معظم الخطوط... إذا ما أخذنا كل ذلك في الاعتبار».

قال الرجل بصعوبة: «طيب...».

قال بابِت: «إنه صباح جميل. الربيع قادم بسرعة».

«نعم... لقد جاء الربيع حقاً الآن».

ما كان لدى الضحية أي قدرة على ابتداع شيء... لم يكن فَطِناً... فلزم بابِت الصمت وراح يهتم بلعبة مسابقة عربات الترولي حتى زاوية الشارع: انطلاقة سريعة، ثم السير خلف العربةِ تماماً، ثم الانطلاق سريعاً مرة ثانية للمرور بين جانب عربة الترولي الكبيرة الصفراء وصفِّ السيارات الواقفة إلى اليمين، ثم تجاوز العربة عندما تتوقف ـ لعبة شجاعة نادرة!

كان مشبَعاً طيلة الوقت بجمال مدينة زينيث. مرّت عليه أسابيع لم يكن يرى فيها شيئاً إلا زبائنه ولافتات «للإيجار» التي عَلّقها منافسوه. أما اليوم، مع هذا التوعّك الغريب، فقد كانت أعصابه تتقلب سريعاً بين الغضب والابتهاج. اليوم... كان ضياء الربيع رائعاً إلى حد جعله يرفع رأسه ويرى.

كان يستمتع معجَباً بمشهد كل منطقة على امتداد طريقه المعتاد إلى المكتب: البيوت الخشب، والأجمات، وطرق السيارات المتعرّجة على نحو غير مألوف في فلورال هايتس. والمتاجر ذات الطابق الواحد في شارع سميث. وتوهّج لوحة نحاسية. والقرميد الأصفر الجديد. ومتاجر البقالة، ومحال غسل الثياب، والصيدليات... التي توفر كلها الحاجات التي تطلبها ربات البيوت في إيست سايد. وحدائق السوق في داتش هولو، والأكواخ البائسة المرقّعة بألواح الحديد المموج والأبواب المسروقة. ولوحات إعلانية عليها حسناوات قرمزيات اللون طولهنّ تسع أقدام... إعلانات لأفلام سينمائية ونوع من أنواع تبغ الغليون ومساحيق التجميل. ثم «العزبات» القديمة في الشارع التاسع... كانت تشبه أشخاصاً متأنّقين لكن ملابسهم وسخة... قلاع خشب تحوّلت إلى فنادق رخيصة تؤدي إليها ممرات طينية وأسيجة صدئة وتتخللها مرائب سيارات بنيت على عجل ومباني شقق سكنية رخيصة وأكشاك لبيع الفاكهة يديرها يونانيون لطيفون متأنّقون. وإلى الناحية الأخرى من ممرات سكة الحديد انتصبت مصانع لها خزانات مياه مرتفعة، ومصانع أخرى متطاولة تنتج الحليب المكثّف وعلب الكرتون وتجهيزات الإنارة، والسيارات أيضاً. ثم يأتي مركز الأعمال ويزداد عدد السيارات المسرعة، وتفرغ عربات الترولي ركابها... ثم تأتي البوابات المرتفعة المصنوعة من الرخام والغرانيت اللامع.

كان المبنى كبيراً ـ وكان بابِت يحترم الكبر في كل شيء: في الجبال والمجوهرات والعضلات والصحة، والكلماتِ أيضاً. كان... في تلك اللحظة المسحورة بالربيع... شاعراً، بل شبهَ عاشق مخلص لمدينته زينيث. راح يفكر في الضواحي الصناعية المحيطة بها، وفي نهر كالوسا بضفتيه المحفورتين على نحو غريب، وفي تلال توناواندا الشمالية التي تزيّنها الكروم، وفي منتجات الألبان والحظائر الضخمة والقطعان الكثيرة. صاح قائلاً بعد أن أنزل راكبه: «يا إلهي! أشعر هذا الصباح بأنني على خير ما يرام».

- 3 -

كان رَكنُ السيارة قبل أن يدخل إلى مكتبه حدثاً كبيراً عنده، تماماً مثل تشغيلها عند البيت. وعندما انعطف قادماً من جادة أوبرلين ملتفّاً حول الزاوية ليدخل الشارع الثالث، راح ينظر أمامه باحثاً عن مكان فارغ في صف السيارات الواقفة. غضب عندما خسر المكان الذي شاهده لأن سائقاً منافساً سبقه فدسّ سيارته فيه. كانت سيارة أخرى تهم بالحركة أمامه. خفف سرعته ماداً يده ليشير إلى السيارات القادمة من خلفه. وراح أيضاً يشير مستعجلاً إلى المرأة العجوز حتى تتحرك سريعاً، ثم تجنب شاحنة قادمة صوبه من جهة جانبية. توقف بعد أن مست عجلات سيارته صادم السيارة التي أمامه. قبض بشدة على مقود السيارة ثم تراجع إلى الخلف واضعاً سيارته في المكان الفارغ. راح يناور ضمن مسافة لا تتجاوز ثمانية عشر إنشاً حتى يجعل السيارة قريبة من الرصيف. أنجز مغامرته الرجولية هذه بنجاح. نزل من السيارة راضياً عن نفسه ثم ثبّت على العجلة الأمامية قضيباً مضاداً للسرقة وعَبَر الشارع ماضياً إلى مكتبه العقاري في الطابق الأول من مبنى ريفز.

كان مبنى ريفز محمياً ضد الحرائق كأنه صخرة، وكان كبير الفائدة مثل ضاربة آلة كاتبة: أربعة عشر طابقاً من القرميد الأصفر المضغوط مع خطوط نظيفة منتصبة من غير زخارف. كان المبنى غاصاً بمكاتب المحامين والأطباء ووكلاء الآلات ووكالات دواليب السيارات والأسيجة المعدنية. وكانت فيه بورصة شركات التنقيب أيضاً. كانت اللافتات الذهب لهذه الشركات ظاهرة على النوافذ. وكان مدخل البناء أكثر أناقة وفخامة من أن يسمح أحد لنفسه بإفساده عن طريق وضع اللافتات: مدخل هادئ أنيق نظيف! وعلى امتداد البناء من ناحية الشارع الثالث، كان مكتب ويسترن يونيون البرقي، ومحل بلو دلفت للحلويات، ومكتبة شوتويل، وشركة بابِت ـ ثومبسون للعقارات.

يستطيع بابِت أن يدخل مكتبه من الشارع مباشرة، مثلما يفعل عملاؤه. لكن عبور مدخل البناء والممر الذي خلفه، ثم الدخول من الباب الخلفي كان يمنحه إحساساً بأنه من أهل المكان. وهكذا راح القرويون يلقون التحية عليه.

لم يكن الأشخاص الصغار المجهولون في ممرات مبنى ريفز من سكان المدينة أبداً ـ عمال المصاعد، ومقدمو الطعام والمهندسون والمشرفون، وكذلك الرجل الأعرج ذو النظرة المتشككة الذي يعمل في كشك الصحف والسجائر. إنهم ريفيون يعيشون في هذا الوادي الضيق، ولا تمتد اهتمامات الواحد منهم خارج حدود جماعته، أو خارج هذا المبنى. كان الشارع الرئيسي لديهم صالة المدخل في البناء بأرضيتها الحجرية وسقفها الرخامي، والواجهات الداخلية للمتاجر. وكان محل الحلاقة في مبنى ريفز أكثر الأماكن

حيوية في هذا الشارع، لكنه مصدر إحراج لبابِت! لقد كان، هو نفسه، من روّاد محل الحلاقة الفخم المتألق في فندق ثورنلي. وهذا ما يجعله يشعر بنوع من عدم الوفاء لقريته هذه كلما مر بمحل الحلاقة في مبنى ريفز... عشر مرات في اليوم... مئة مرة!

راح الآن يتلقى من هؤلاء الريفيين تحيات تفيض احتراماً. ثم دخل مكتبه محاطاً بالسلام والإجلال وزال عنه كل ما مر به هذا الصباح من منغّصات.

لكن المنغصات عادت من فورها!

كان ستانلي غراف، موظف المبيعات الخارجي، يتحدث على الهاتف بافتقار مأساوي للأسلوب الصلب الذي يجعل العملاء يلزمون حدودهم: «لنقل، آه، أظن أن لديّ البيت الذي يناسبك... بيت بيرسيفال، في منطقة لندن... أوه! لقد رأيته. لا بأس، كيف؟ فاجأك؟ ... هاه... أوه!»... ثم بنبرة متراخية... «أوه، فهمت».

وبينما كان بابِت يدخل إلى غرفته الخاصة، حجرة صغيرة في آخر المكتب لها حاجز نصفي من خشب البلوط والزجاج المغشّى، راح يفكر في مدى صعوبة العثور على موظفين لديهم ما يملكه هو من الثقة في أنه يستطيع إبرام الصفقة.

كان في المكتب تسعة عاملين، إضافة إلى بابِت وشريكه، والد زوجته، هنري ثومبسون الذي كان لا يأتي إلى المكتب إلا نادراً. وهؤلاء التسعة هم: موظف المبيعات الخارجي ستانلي غراف ـ شاب يعشق السجائر والألعاب المائية؛ وموظف الخدمات العامة العجوز مات بينيمان الذي كان مسؤولاً عن تحصيل الإيجارات وبيع التأمين... إنه شخص محطم صامت أشيب الشعر... شخص غامض يقولون إنه كان «فظيعاً» في مجال العقارات، وكانت له شركته الخاصة في بروكلين؛ وموظف المبيعات المقيم شيستر تيربي لايلوك الذي أتى من شركة غليم أوريول لتطوير الأراضي... شخص متحمس له شارب حرير وأسرة كبيرة؛ والآنسة تيريزا ماكغاون، كاتبة الاختزال السريعة التي تملك حظاً جيدًا من الجمال؛ والآنسة ويلبرتا بانيغام... امرأة بطيئة سمينة... محاسبة مجتهدة تتولى حفظ السجلات أيضاً؛ إضافة إلى أربعة مندوبي مبيعات يعملون وقتاً جزئياً مقابل عمولة.

فكر بابِت متأسّياً عندما راح ينظر من قفصه إلى الغرفة الرئيسية في المكتب «ماكغاون كاتبة اختزال جيدة... إنها بارعة كالسوط؛ لكن ستانلي غراف وكل هؤلاء الحمقى...». كانت نشوة الصباح الربيعي قد تبددت في هواء المكتب الراكد.

كان معجباً بمكتبه عادة... وكان يسرّه أن يكتشف كل مرة أنه هو الذي أنشأ هذا الشيء اللطيف فعلاً. وكانت تشجعه عادةً تلك الجِدّة النظيفة في المكتب وجو النشاط

فيه. لكن المكتب بدا كئيباً اليوم... الأرض المبلطة كأنها حمّام، والسقف بلونه الحديدي الصدئ، والخرائط الباهتة على الجدران الجَصّية الصلبة؛ والكراسي المصنوعة من خشب البلوط الشاحب الملمَّع، والمكاتب ورفوف الملفات المصنوعة من الفولاذ المطلي بلون زيتوني رتيب. كان المكتب يشبه قبواً، أو كنيسة فولاذية صغيرة... حيث يكون الضحك والتبطل خطيئة صريحة.

لم يُرضه حتى مبرِّد الماء الجديد! لقد كان من أفضل أنواع مبرِّدات الماء... حديثاً، علمياً، منسجماً مع التفكير الصحيح وقد كلف مالاً كثيراً (هذه فضيلة في حد ذاتها). كان مبرِّد الماء يحتوي على حاوية للجليد مصنوعة من الألياف العازلة، وإبريق ماء من البورسلين (مضمون صحياً)، وصنبوراً لا يقطر الماء منه ولا ينسَدّ أبداً، وكذلك زخرفات آلية بدرجتين من اللون الذهبي. نظر إلى الأسفل، إلى ذلك الامتداد الفظيع للأرض المبلطة عند مبرِّد الماء. وراح يؤكد لنفسه أن أحداً من المستأجرين في مبنى ريفز لا يملك مبرِّد ماء مرتفع الثمن مثله. لكنه، رغم ذلك، لم يستطع استعادة الإحساس بالتفوق الاجتماعي الذي كان يوفره له مبرِّد الماء. زفر ذاهلاً: «أود أن أرميه في الغابة الآن. وأود أن أتسكع طيلة النهار... أن أذهب إلى حانة غانتش مرة أخرى في هذه الليلة وألعب البوكر وأثرثر قدر ما أحب وأشرب ألف وتسعمئة زجاجة بيرة».

تنهَّد ثم راح يقرأ البريد. صاح: «آنسغون»... كان يقصد أن يقول: «آنسة ماكغاون»... ثم راح يملي عليها.

كانت هذه نسخته الخاصة من رسالته الأولى في هذا اليوم:

«عمر غريبل. أرسليها إلى مكتبه يا آنسة ماكغاون. يجب أن تكون لديه في الساعة الثامنة. سوف نجيبه بالقول: انظر هنا يا غريبل، أخشى كثيراً أننا، إذا مضينا في تضييع الوقت، على هذا النحو، فمن الطبيعي أن نخسر صفقة بيع آلن. لقد جعلت آلن ينتظر منذ أول أمس، وجعلته يقبل بما لدينا. وأظن أنني أستطيع أن أؤكد لك ـ أوه، أوه، لا، غيّري هذا: تشير خبرتي كلها إلى أنه لا بأس به، وإلى أنه يريد العمل فعلاً. وقد نظرت إلى سجلاته المالية، وهي جيدة ـ أشعر أن الجملة صارت طويلة جداً. آنسة ماكغاون، عليك أن تصيغي جملتين من هذه الجملة إذا كان ذلك ضرورياً. إنه مستعد تماماً لأن يدفع مقابل التقييم الخاص ويفاجئني، متأكد تماماً أنه لن تكون هنالك صعوبة في جعله يدفع من أجل التأمين، والآن بحق السماء دعنا نعمل ـ لا، اكتبي هذا: إذن، دعنا نذهب وننهي الأمر ـ لا، هذا يكفي ـ تستطيعين أن تربطي بين هاتين الجملتين عندما تطبعين الرسالة يا آنسة ماكغاون ـ ثم المخلص لك، إلخ».

كانت النسخة التي تلقاها من الموظفة... مطبوعة... بعد الظهر:

شركة بابِت ـ ثومبسون العقارية

بيوت للناس

مبنى ريفز، جادة أوبرلين والشارع الثالث، نيو انغلاند، زينيث

عمر غريبل، مكتب رقم 376، مبنى نورث أمريكان، زينيث.

عزيزي السيد غريبل،

وصلتني رسالتك المؤرخة في العشرين من الشهر. علي القول إنني أخشى فعلاً من أننا يمكن أن نخسر صفقة آلن إذا واصلنا تضييع الوقت بهذا الشكل. لكني جعلت آلن جاهزاً أول أمس، وهو مطّلع الآن على القضية كلها. تشير خبرتي كلها إلى أن هذا الرجل يريد العمل معنا. وقد نظرت في سجلاته المالية أيضاً فوجدتها جيدة. إنه مستعد تماماً للدفع مقابل التقييم الخاص. ولن نجد صعوبة في جعله يدفع من أجل التأمين أيضاً. فلننطلق إذاً!

المخلص لك

قرأ الرسالة ووضع توقيعه أسفلها... بحركة يده الانسيابية الصحيحة التي تعلّمها في الكلية، وراح بابِت يفكر: «والآن، هذه رسالة جيدة قوية واضحة مثل الجرس. والآن، ماذا... لم أطلب من ماكغاون إدخال جملة ثالثة هنا! ليتها تكف عن تصحيح ما أقول! لكن ما لا أستطيع فهمه هو: لماذا لا يستطيع غراف أو لايلوك كتابة رسالة مثل هذه؟ رسالة واضحة! رسالة قوية!».

كان أهم ما أملاه هذا الصباح هو الرسالة التي يكتبها كل أسبوعين، والتي يجري بعد ذلك تصويرها نسخاً كثيرة وإرسالها إلى ألف «عميل متوقَّع». كانت رسالة وفق أفضل أسلوب أدبي في ذلك الوقت... أسلوب الإعلان من القلب إلى القلب، رسائل «تجتذب المبيعات»... خطابات عن «تطوير قوة الإرادة»، وعن إبرام الصفقات بمصافحة قوية... طريقة في الكتابة أغنتها وقَوَّتها «مدرسة شعراء الأعمال» الجديدة. كافح بابِت ليكتب النسخة الأولى من هذه الرسالة. وراح يتلوها الآن كأنها كلمات شاعر رقيق لا ينتمي إلى هذا العالم:

قلْ لي يا صاحبي! هل أستطيع أن أؤدي لك خدمة عظيمة؟ إنني صادق! لا مزاح هنا! أعرف أنك تريد الحصول على بيت، وليس على مجرد مكان تعلّق فيه قبعتك... بيت يكون عشّاً للحب من أجل الزوجة والأطفال... بل ربما من أجل سيارتك القديمة أيضاً ومن أجل الحديقة. قل لي... هل فكرت مرة واحدة أننا

موجودون هنا لكي نجنّبك المشاكل؟ هكذا نكسب عيشنا ـ لا يدفع الناس لنا المال بسبب جمالنا! عليك أن تلقي نظرة الآن:

اجلس إلى مكتبك الجميل المصنوع من خشب نفيس واكتب لنا رسالة تخبرنا فيها ما تريد. إذا استطعنا العثور عليه، فسوف نأتي إليك سريعاً بأخبار طيبة. أما إذا لم نستطع، فلن نزعجك أبداً. وفّر وقتك واملأ الاستمارة المرفقة. يمكنك إذا أردت أن تطلب منا إرسال استمارة أخرى من أجل المحلات المعروضة في فلورال هايتس وسيلفر غروف ولينتون وبلفيو، والمناطق السكنية في إيست سايد كلها.

في خدمتك دائماً.

ملاحظة: هذه لمحة عن بعض الأشياء التي نستطيع تقديمها لك ـ بعض الصفقات الممتازة التي جاءت اليوم:

سيلفر غروف ـ بيت خشب على الطراز الكاليفورني مؤلف من أربع غرف ومرأب، أمامه شجرة ظليلة جميلة، حَيٌّ ممتاز، خط مواصلات قريب: 3700 دولار، 780 دولارًا دفعة أولى والباقي تقسيطاً، وفق شروط شركة بابِت ـ ثومبسون، أرخص من الإيجار.

دورتشستر ـ مفاجأة! بيت تحفة لعائلتين. مبني كله من خشب البلوط، أرضيات من الباركيه، تدفئة على الغاز، شرفات كبيرة، مرأب مدفّأ طيلة السنة، صفقة ممتازة مقابل 11250 دولارًا.

أف... مهمة الإملاء هذه! مع الحاجة إلى الجلوس والتفكير بدلاً من التجوال هنا وهناك وخلق ضجة... وفعل شيء حقاً... جلس بابِت متهالكاً على الكرسي الدَوّار وراح ينظر إلى الآنسة ماكغاون. كان شديد الإحساس بأنها فتاة... فتاة بشعر مقصوص قصير حتى مستوى خديها اللذين يتظاهران بالرزانة. انتابه توق لم يستطع تمييزه عن الوحدة التي أضعفته. كانت جالسه هناك، تنتظر، ناقرة على الطاولة برأس قلم الرصاص المبري. رأى فيها، بعض الشيء، فتاة الحكايات التي تأتيه في أحلامه. وتخيَّل التقاء أعينهما... بإدراك مخيف لهذه الحقيقة. تخيل، بمهابة مذعورة، لمس شفتيها ـ كانت تنقّ الآن: «أي شيء آخر يا سيد بابِت؟». تنهَّد بابِت: «هذا كل شيء فيما أظن»... ثم استدار عنها متثاقلاً.

لم تكن أفكاره المتجوّلة على هواها لتبلغ شيئاً حميماً أكثر من هذا. وكان يقول في نفسه غالباً: «لا تنس أبداً ما قاله العجوز جيك أوفوت من أن رجلاً حكيماً لا يمكن أن يمارس الحب في مكتبه أو في بيته. هكذا تبدأ المشكلات. بالتأكيد! لكن...».

خلال ثلاثة وعشرين عاماً من حياته الزوجية، كان يسترق النظر حزيناً إلى كل كاحل جميل، إلى كل كتف طرية. كان يهيم بها كلها في أفكاره. لكنه لم يغامر فيعرِّض احترامه للخطر. والآن، بينما راح يحسب كلفة وضع ورق جدران جديد لمنزل ستانلي، صار منزعجاً من جديد... منزعجاً من لا شيء ومن كل شيء... خجِلاً من سَخطه. كان يشعر بالوحدة... إنه يريد فتاة الحكايات!

الفصل الرابـع

-1-

كان هذا صباحاً للإبداع الفنّي. فبعد ربع ساعة فقط من النثر الأرجواني الفخم الذي حملته رسالة بابِت الدعائية، جاء تشستر كيربي لايلوك الذي يعمل موظف مبيعات مقيماً في شركة غلين أوريون... جاء يبلّغ عن إبرام إحدى صفقات البيع. وكان يريد تسجيل إعلان عن أحد البيوت أيضاً. ما كان بابِت يحب لايلوك الذي يغنّي في إحدى الجوقات والذي كان سعيداً بأن يقضي الوقت في بيته يلعب لعبة «القلوب» و«الخادمة العجوز». كان صوته مرتفع النبرة. وكان شعره كستنائياً، إضافة إلى شارب يشبه فرشاة مصنوعة من وبر الجمل. لكن بابِت اعتبر ذلك شيئاً مقبولاً في عائلة متذمّرة دائماً: «هل رأيت صورة طفلي الجديدة هذه... عفريت صغير، أليس كذلك؟»... لكن أسرار لايلوك المنزلية هذه بدت له أشبه بكلام البنات.

«أتعرف؟ أظن أن لديّ فكرة إعلان من أجل منزل غليم يا سيد بابِت. لماذا لا نحاول أن نكتب شيئاً من الشعر؟ بصدق... سيكون لذلك أثر جذّاب قويّ. استمع:

وسط الأماكن والمسرات،
أينما ذهبت،
ليس عليك إلا أن تأتي بعروسك الصغيرة
ونحن نؤمِّن لك البيت».

«ألا يعجبك هذا؟ انظر... إنها مثل قصيدة «بيتي، يا بيتي الحلو»... ألا تظن...؟»».

«نعم، نعم، نعم، لقد فهمتها طبعاً. لكن، أوه. أظن من الأفضل أن نستخدم شيئاً أكثر وقاراً وقوّة... شيء من قبيل «نحن في المقدمة، والآخرون من خلفنا»، أو «وأخيراً، لماذا ليس الآن؟»... أنا مقتنع باستخدام الشعر طبعاً، وباستخدام روح الفكاهة وكل تلك الأشياء عندما يُجدي ذلك نفعاً. لكن، عندما يتعلق الأمر بمشروع بناء من أجل الطبقة

العليا، مثل مشروع غليم، فإن من الأفضل لنا أن نلتزم بالأسلوب الأكثر وقاراً. هل تفهم قصدي؟ طيب، أظن أن هذا كل شيء. كل شيء لهذا الصباح يا تشستر».

- 2 -

بمأساوية مألوفة في عالم الفن، لم تؤدِّ حماسة تشستر لايلوك إلا إلى تنشيط موهبة المعلم الأكبر سناً، جورج بابِت. غمغم بابِت قائلاً لستانلي غراف: «إن ذلك الصوت الغريب لدى تشستر يتعب أعصابي». لكن الإثارة استولت عليه فكتب ما يلي بضربة واحدة:

هل تحترم أحبَّتَكَ؟

عندما ينتهي آخر طقوس الفقد الحزينة، فهل تكون متأكداً من أنك قمت بأفضل ما يمكنك لمن رحل؟ لن تكون قد فعلت هذا إلا إذا كان الراحل راقداً في مقبرة جميلة، ... لندن لين!

إنه مكان الدفن الحديث الوحيد في زينيث، أو بالقرب منها، حيث تطل البقع المشجرة من منحدرات التل التي يتناثر فيها الأقحوان فيرى المرء منها حقول دورتشستر الباسمة.

الوكلاء الوحيدون شركة بابِت ـ ثومبسون للعقارات

مبنى ريفز

«أظن أن هذا سيجعل تشان موت، ومقبرة وايلدوود العتيقة المليئة بالأعشاب الضارة التي يديرها، يرى شيئاً من أساليب التسويق الحديث».

- 3 -

أرسل بابِت مات بينيمان إلى مكتب السجلات ليبحث عن أسماء مالكي البيوت التي وضع عليها سماسرة آخرون لافتات تقول «للإيجار». ثم تحدّث مع رجل راغب في تأجير مبنى تجاريّ مقابل مسبح مسقوف. وراجع قائمة إيجارات البيوت التي توشك عقودها على الانتهاء. وأرسل ثوماس بايووترز، وهو جابي تذاكر يعمل في العقارات خلال أوقات فراغه، ليستدعي العملاء المحتمَلين الثانويين الذين ما كانوا أهلاً لاستراتيجيات ستانلي غراف. لكنه كان قد استنفد حماسته الساذجة للإبداع، وصارت هذه التفاصيل الروتينية تزعجه. مرت به لحظة بطولية اكتشف فيها طُرُقاً جديدة للتوقف عن التدخين.

كان يكفّ عن التدخين مرة واحدة على الأقل كل شهر. يفعل ذلك كما يليق بمواطن

صلب: يعترف بمضارّ التدخين، ويتخذ قرارات شجاعة، ويضع خططاً لتحرّي مدى الضرر، ويتخلّص مما لديه من سجائر، ويشرح مَسَرّات ترك التدخين لكل من يصادفه. كان يقوم بكل شيء في الحقيقة... ما عدا التوقف عن التدخين!

وضع منذ شهرين جَدولاً يسجل فيه أوقات تدخينه، بالساعة والدقيقة. ثم راح، مبتهجاً يزيد الفترات الفاصلة بين المرة والأخرى حتى استطاع أن يصل إلى ثلاث سجائر في اليوم. ثم... أضاع الجدول.

وقد اخترع منذ أسبوع نظاماً لترك علبة السجائر، وعلبة السيجار أيضاً، في دُرْج لا يستخدمه في أسفل خزانة ملفات المراسلات في القسم الخارجي من المكتب. وقال مبرراً ذلك: «سوف أشعر بالخجل عندما أجد نفسي مضطراً إلى الذهاب لإخراج سيجار من هناك طيلة اليوم فأجعل من نفسي أضحوكة أمام الموظفين. وبعد مضي ثلاثة أيام، صار معتاداً على ترك مكتبه، والسير إلى خزانة الملفات، وإخراج سيجار وإشعاله، من غير أن يدرك أنه يفعل ذلك.

اتضح له هذا الصباح أن فتح خزانة الملفات أمر شديد السهولة. عليه أن يقفلها... نعم، هذا هو الأمر! اندفع، وقد استولى عليه هذا الإلهام، فأقفل الخزانة على السيجار والسجائر، وعلبة الكبريت أيضاً. ثم خبّأ مفتاح الدُرج في مكتبه. لكن ما اقتضاه ذلك من عاطفة جياشة جعله متشوقاً للتدخين إلى حد جعله يستخرج المفتاح من مخبئه ويسير صوب خزانة الملفات ناسياً كرامته، ويُخرِج سيجاراً مع عود كبريت وحيد ـ «عود كبريت واحد فقط. وإذا انطفأ السيجار، فإن عليه أن يظل مطفأ!»... وفي ما بعد، عندما انطفأ السيجار، تناول بابت عود كبريت آخر من خزانة الملفات. وعندما جاء أحد البائعين مع موظف المبيعات للتشاور معه عند الحادية عشرة والنصف، كان عليه أن يعرض عليهما سيجاراً. اعترض ضميره على ذلك، «لماذا تفعل هذا؟ إنك تدخن معهما!»... لكنه أسكته، «أوه، اسكت! إنني مشغول الآن. طبعاً... شيئاً بعد شيء، سوف...». لم يكن هنالك أي «شيء بعد شيء»، لكن اعتقاده أنه تمكن من تحطيم هذه العادة الوسخة جعله يشعر بالنُّبل، وبفرح شديد أيضاً. وعندما اتصل ببول ريزلينغ، كان متحمّساً ومسروراً برَوعته الأخلاقية.

كان مولَعاً ببول ريزلينغ أكثر من أي شخص آخر على وجه الأرض، باستثناء نفسه وابنته تينكا. كانا زميلَيْن في المدرسة، وشريكَيْن في السكن، وزميلَيْن في جامعة الولاية أيضاً. لكنه كان دائماً يعتبر بول ريزلينغ أخاً أصغر له، بنحوله القاتم، وشعره المفروق بدِقّة، ونظارته الأنفية، وتردده في الكلام، وتقلب مزاجه، وحبه للموسيقى. وكان يشعر أن عليه أن يحميه ويعتني به. كان بول قد انضم إلى شركة والده بعد تخرّجه. وصار الآن

أحد بائعي الجملة، إضافة إلى كونه صاحب مصنع صغير لإنتاج صفائح القار المعدّة للسقوف. لكن بابِت كان يعتقد مخلصاً، ويشرح مطولاً لعالم الأشخاص الطيبين كله، أن بول كان يستطيع أن يصبح عازف كمان عظيماً، أو رساماً عظيماً، أو كاتباً عظيماً. «ماذا تظنون؟ إن الكلمات التي أرسلها لي هذا الصبي خلال رحلته إلى جبال روكي الكندية تجعلك ترى المكان تماماً كما لو أنك واقف هناك. صدّقوني، لقد كان قادراً على أن يجني مالاً أكثر بكثير مما يجنيه هؤلاء الكُتّاب الذين ازدهرت أحوالهم».

لكنهما لم يتبادلا على الهاتف إلا الكلمات التالية:

«جنوب 343. لا، لا، لا! لقد قلت: جنوب ـ جنوب 343. قل لي بحق الشيطان يا عامل المقسم، ما المشكلة؟ ألا تستطيع أن تصلني مع جنوب 343؟ سوف يردّون طبعاً. أوه، مرحباً، 343، أريد أن أتكلم مع السيد ريزلينغ. أنا السيد بابِت. مرحبا يا بول!».

«نعم!».

«أنا جورج بابِت».

«نعم».

«كيف حالك يا صاحبي؟».

«في أحسن حال. كيف حالك أنت؟».

«جيد، لا بأس! لا بأس، ما الذي تعرفه؟».

«أوه، لا أعرف الكثير».

«وأين أنت مختبئ؟».

«أوه، أتجوّل هنا وهناك. ماذا لديك يا جورجي؟».

«ما رأيك أن نتغدّى معاً بعد قليل؟».

«أنا جاهز، على ما أظن. في النادي؟».

«نعم. نلتقي هناك في الثانية عشرة والنصف».

«اتفقنا. الثانية عشرة والنصف. أراك هناك يا جورجي».

ـ 4 ـ

لم تكن فترة عمله الصباحية موزّعة إلى أقسام واضحة. كانت تتخللها مراسلات، وكتابة إعلانات، مع ألف تفصيل يثير الأعصاب: مكالمات من موظفين يبحثون من غير كلل آملين في العثور على خمس غرف مفروشة وحمّام مقابل ستين دولاراً في الشهر؛ وكذلك نصائح يقدمها إلى مات بينيمان عن كيفية تحصيل المال من المستأجرين الذين لا يملكون مالاً.

كانت مزايا بابِت باعتباره سمسار عقارات ـ لأنه خادم المجتمع في مجال العثور على بيوت من أجل العائلات والعثور على محلات من أجل موزعي الطعام ـ هي الثبات والاجتهاد. كان صادقاً مستقيماً على النحو التقليدي. وكان يحتفظ بسجلّات كاملة للمشترين والبائعين، وكانت لديه خبرة في عقود الملكية والإيجار، وذاكرة ممتازة في ما يتعلق بالأسعار!

كان كتفاه عريضين إلى الحد الكافي؛ وكان صوته عميقاً إلى الحد الكافي؛ وكانت نكهة الفاكهة النابعة من القلب لديه قوية إلى الحد الكافي. كان ذلك كله مما يجعله واحداً من أفراد الدائرة العليا بين الأشخاص الجيدين! لكن لعل اهتمامه الدائم ببني البشر كان منقوصاً قليلاً نتيجة جهله المطمئن الكبير بكل فنون العمارة باستثناء ذلك النوع من البيوت الذي تنتجه شركات البناء المضاربة؛ وكذلك جهله بكل ما يتعلق بالحدائق والبستنة باستثناء استخدام الممرات المتعرجة ورقعة مرج وست شجيرات عادية. كان جاهلاً أيضاً ببديهيات الاقتصاد الشائعة كلها. وكان يعتقد مخلصاً أن الغاية الوحيدة من القطاع العقاري هي جني المال من أجل جورج بابِت! نعم، لقد كانت مناسبات تناول الغداء في النادي دعاية جيدة كلها. وكذلك كانت مختلف أنواع الولائم السنوية التي يدعو إليها الأشخاص الجيدين حتى يتحدث حديثاً رناناً عن «الخدمة العامة الخالية من الأنانية»، وعن «واجب السمسار العقاري في المحافظة على ثقة عملائه من غير اهتزاز»، وكذلك عن الشيء الذي يدعونه «الأخلاق»... الشيء الذي كانت له طبيعة تسبب الارتباك، لكنك تكون من الناس الجيدين إذا امتلكته، وتكون مخادعاً أو بخيلاً أو وضيعاً إذا لم تمتلكه. إن هذه الفضائل توحي بالثقة وتمكّنك من التعامل مع عروض أكبر! لكنها لا تعني أن يكون المرء غير عملي وأن يرفض تقاضي ضعفي قيمة المنزل إذا كان المشتري شخصاً أحمق، أو إذا لم يكن قادراً على جعلك تنزل تحت السعر المعروض.

كثيراً ما كان بابِت يتكلم جيداً في هذه الاستعراضات الصاخبة للاستقامة التجارية! كان يتحدث عن «وظيفة سمسار العقارات عندما يستشرف مستقبل مجتمعه، وعندما يكون مهندساً رسولياً يفتح الطريق أمام التغيرات المحتومة» ـ يعني هذا أن سمسار العقارات يستطيع أن يجني المال عن طريق تخمين الوجهة التي سوف يتخذها نموّ المدينة. لكن بابِت يطلق على هذا التخمين كلمة أخرى... «رؤية».

وفي كلمة له في نادي بوسترز، أقر بابِت ذات مرة بأن «من واجب سمسار العقارات، وهي مزية له في الوقت نفسه، أن يعرف كل شيء عن مدينته ومحيطها. فعندما يكون لدينا جراح متخصص بكل عرق وبكل خلية غامضة في جسم الإنسان، وعندما يكون لدينا

مهندس يعرف كل شيء في الكهرباء بجميع أطوارها، أو كل مسمار في جسر ضخم يعبر بجلال فوق مجرى مائي عظيم، يكون على سمسار العقارات أن يعرف هذه المدينة، أن يعرف كل إنش فيها، وكل عيوبها وفضائلها».

وعلى الرغم من معرفته لأسعار السوق، إنشاً فإنش، في بعض مناطق زينيث، إلا أنه لم يكن يعرف إن كانت قوة الشرطة الموجودة في المدينة أكبر أو أصغر مما يجب، أو ما إذا كانت الشرطة متحالفة مع جماعة القمار والدعارة! كان يعرف الوسائل المستخدمة في المباني المقاوِمة للحرائق، وكان يعرف أيضاً العلاقة بين أسعار التأمين ومقدار حماية البناء من الحريق، لكنه لم يكن يعرف عدد الإطفائيين في مدينته، ولا مقدار تدريبهم، ولا أجورهم، ولا مدى اكتمال معداتهم. كان فصيحاً عند الحديث عن منافع قرب البيوت التي يؤجّرها من المدارس، لكنه لم يكن يعرف ـ وما كان يعرف أهمية أن يعرف ـ ما إذا كانت الصفوف في مدارس المدينة حَسَنة التدفئة أو الإنارة أو التهوية أو الأثاث. ولم يكن يعرف شيئاً عن كيفية اختيار المدرّسين فيها. صحيح أنه كان يتغنّى بأن «من الأشياء التي تفخر بها زينيث أننا ندفع رواتب جيدة لمعلمينا. لكن ذلك كان لأنه قرأ مقالة عن هذا الأمر في أدفوكات تايمز. أما هو نفسه، فما كان قادراً حتى على إعطاء تقدير تقريبي لراتب المعلم في زينيث أو في أي مكان آخر.

كان قد سمعهم يقولون إن «الشروط» في سجن المقاطعة، وفي سجن مدينة زينيث، ليست «علمية» كثيراً. وقد سبق له أن تصفّح مقالة للمحامية الراديكالية المتشائمة الشهيرة سيميكا دوان (كان ساخطاً عليها لأنها تنتقد زينيث) تؤكد فيها أن إلقاء الأولاد والفتيات الشابات في تلك الحظائر المزدحمة برجال مصابين بالسفلس والهذيان والجنون ليس طريقة جيدة لتعليمهم. وقد رد على ذلك مزمجراً: «إن الناس الذين يظنون أن السجن يجب أن يكون فندقاً مريحاً يصيبونني بالغثيان. إذا كان الناس لا يحبون السجن، فليتصرفوا تصرفاً حسناً حتى يظلوا خارجه. ثم إن دعاة الإصلاح هؤلاء يبالغون دائماً». كانت هذه بداية الأمر بالنسبة له، وكانت أيضاً نهاية ما يعرفه عن الجمعيات الخيرية والإصلاحيات في زينيث. وأما عن «مناطق الرذيلة» فقد كان يعبّر عن موقفه على النحو التالي: «هذه أشياء لا يستطيع أي رجل يحترم نفسه أن يتعامل معها بسخرية. ثم، في الحقيقة، أقول لكم صراحة: إنها حماية لبناتنا وللنساء الفاضلات أن تكون لدينا منطقة يستطيع أن يهتم بها أصحاب العقول الحمقاء. إن هذا يبقيهم بعيدين عن بيوتنا».

لكن بابِت فكر كثيراً في ما يتعلق بالشروط السائدة في المصانع. وقد يكون من الممكن عرض أرائه على النحو التالي:

«إن للنقابة العمالية الجيدة قيمة حقيقية لأنها تبعد عنا النقابات الراديكالية التي تتلف الممتلكات. لكن، لا يجوز إجبار أحد على أن يكون عضواً في نقابة. يجب ضرب كل المحرّضين العماليين الذين يحاولون إجبار الناس على الانضمام إلى النقابات. والحقيقة، هذا الكلام بيننا فقط، لا يجوز السماح بأي نقابات على الإطلاق. وبما أن هذه هي الطريقة الأفضل لمحاربة النقابات فإن على كل رجل أعمال أن ينتسب إلى جمعية من جمعيات أصحاب الأعمال وإلى غرفة التجارة أيضاً. إن في الاتحاد قوة! وهذا يعني أن كل رجل أعمال أناني لا ينتسب إلى غرفة التجارة يجب إرغامه على الانتساب إليها».

لم يكن بابِت بريئاً في شيء ـ بما أنه خبير تنتقل العائلات بناء على نصائحه إلى أحياء جديدة لتعيش فيها جيلاً من الزمن ـ مثل براءته في مجال علوم الصحة! لم يكن يعرف الفرق بين الجرذ والبعوضة التي تنقل الملاريا. ولم يكن يعرف شيئاً عن اختبارات مياه الشرب. وأما في مجال تمديدات المياه والصَّرف الصحّي، فكان جهله لا يقل عن طلاقة لسانه. كان غالباً ما يشير إلى تميّز الحمّامات التي يبيعها. وكان مغرَماً بشرح الأسباب التي تجعل الأوروبيين لا يستحمّون أكثر مما يجب. لقد أخبره شخص ما ذات مرة، عندما كان عمره اثنين وعشرين عاماً، أن خَزّانات مياه الصرف كلها غير صحية. وما زال يتخذ موقفاً معادياً لهذه الخَزّانات إلى اليوم. فإذا بلغت الوقاحة بشخص حداً يجعله يطلب منه أن يبيع بيتاً فيه خَزّان صرف، كان بابِت يصر على إبداء وجهة نظره في الأمر قبل أن يقبل تولّي مهمة بيع البيت. وعندما بدأ مشروع غلين أوريون للبناء... عندما مسح بابِت من الموقع الأشجار والمرج الكبير فسوّى المنطقة كلها وأزال وديانها وجعلها مستوية عارية تحت الشمس، ووضع فيها لوحات صغيرة تبين أسماء الشوارع المتخيلة، أنشأ فيها نظاماً متكاملاً للصرف أيضاً. جعله هذا يشعر بالتفوق، ومكّنه من إظهار السخرية المترفّعة إزاء مشروع مارتن لوسن للبناء الذي حمل اسم آفون ليا... لأنه كان مزوَّداً بخزان صرف ضخم. وقد أتاح له أن ينشر مجموعة من الإعلانات، على صفحة كاملة، تباهى فيها بجمال مشروع غلين أوريون وملاءمته وانخفاض أسعاره، إضافة إلى مقدار ما يوفره من مزايا صحّية كبيرة. لكن العيب الوحيد كان عدم وجود مَخرَج مناسب لنظام الصرف في غلين أوريون. وهذا ما جعل المياه تظل محصورة في الأنابيب. كان هذا أمراً غير لطيف! في حين كان خَزّان الصرف في مشروع آفون ليا مزوَّداً بحوض صحي حديث لمعالجة المياه.

لم يكن مشروع غلين أوريون مشروعاً شريفاً جداً، رغم أن بابِت كان يكره فعلاً الرجال الذين يُشار إليهم بصفتهم نصابين. لا يحب المشترون والقائمون على الإدارة أن ينافسهم سماسرة العقارات بأن يكونوا مشترين ومديرين بأنفسهم... كانوا يفضلون

أن يروهم مهتمين بمصالح عملائهم فقط! وكان المفروض أن يقتصر دور شركة بابِت ـ ثومبسون على السمسرة في ما يتعلق بمشروع غلين أوريون، وأن تخدم المالك الحقيقي الذي هو جيك أوفوت. لكن الحقيقة هي أن بابِت وثومبسون كانا يمتلكان اثنين وستين بالمئة من المشروع. ولم يكن رئيس الشركة، وهو وسيط الشراء أيضاً في شركة المواصلات في زينيث، يملك إلا ثمانية وعشرين بالمئة. وكان نصيب جيك أوفوت عشرة بالمئة فحسب (كان جيك مزيجاً بين السياسي، ورجل العصابات، والصناعي، والممثل الهزلي. كان يمضغ التبغ ويستمتع بأساليب السياسة القذرة. وكان دبلوماسياً في مجال الأعمال، وغشّاشاً في لعبة البوكر. وقد حصل أوفوت على نسبة العشرة بالمئة هذه من بابِت وشركة المواصلات مقابل «ترتيب أمر» مفتشي الصحة ومفتشي قسم الحرائق عن طريق أحد أعضاء لجنة النقل في الولاية.

لكن بابِت كان شخصاً مستقيماً! كان مؤيداً لحظر الكحول، رغم أنه لم يكن يطبق هذا الحظر على نفسه. وكان يمتدح القانون الذي يمنع سرعة السيارات الزائدة، لكنه لم يكن يلتزم به. وكان يسدد ديونه أيضاً، ويقدم تبرّعات للكنيسة وللصليب الأحمر، ولجمعية الشباب المسيحي أيضاً. كان يسير وفق تقاليد جماعته فلا يغشّ ولا يخادع إلا في الحالات التي توجد فيها سوابق تبرر ذلك. لكنه لم ينحدر يوماً إلى مستوى الخداع، رغم أنه شرح الأمر أمام بول ريزلينغ ذات مرة بالقول:

«لا أقصد القول طبعاً إن كل إعلان كتبته كان صحيحاً بشكل حَرْفيّ، ولا أنني أصدق كل شيء أقوله عندما أقدم لأحد المشترين عرضاً جذاباً قوياً. أنت ترى الأمر ـ هكذا هو: ربما يكون مالك العقار قد بالغ أصلاً عندما وضعه بين يديَّ. وليس من عملي بالتأكيد أن أبرهن على أنه كاذب! ثم إن أخلاق معظم الناس تكون معوَجّة بحيث يتوقعون سلفاً أن يكذب المرء عليهم قليلاً. فإذا كنت غبياً ولم أتخذ احتياطي بهذا الأمر مسبقاً... سوف يعتبرونني كاذباً على أي حال! وهكذا أدافع عن نفسي بأن أبالغ في الكلام قليلاً مثلما يفعل المحامي عندما يدافع عن موكّله ـ هذا واجبه، أليس كذلك؟ إن من واجبه أن يُظهِر النقاط الجيدة لدى المتهم الضعيف! إن القاضي نفسه لا يحترم المحامي الذي لا يفعل ذلك، حتى إذا كانا يعرفان كلاهما أن المتهم مذنب بالفعل. ورغم هذا كله، فأنا لا أغير الحقائق مثلما يفعل رونتري أو مثلما يفعل ثاير، أو بقية هؤلاء السماسرة كلهم. الحقيقة أنني أرى ضرورة إطلاق النار على من يكون مستعداً للكذب عمداً حتى يجني الفائدة لنفسه».

من النادر أن يظهر تقييم بابِت لعملائه بأفضل مما ظهر هذا الصباح، أي عند لقائه في الحادية عشرة والنصف مع كونراد لايت وأركيبال رودي.

-5-

كان كونراد لايت مضارباً عقارياً. وكان مضارباً عصبياً! يستشير الصيارفة والمحامين والمعماريين وشركات المقاولات قبل أن يقامر، إضافة إلى استشارة موظفيهم جميعاً وكتّاب الاختزال لديهم ممن كانوا مستعدّين لإعطائه بعض النصح. كان من رواد الأعمال الشجعان. وما كان يريد شيئاً أكثر من الأمان الكامل لاستثماراته، وتجنب التدقيق في التفاصيل، وكذلك الحصول على أرباح تتراوح من ثلاثين إلى أربعين بالمئة... إنها النسبة التي ترى السلطات كلها أن الروّاد يستحقونها بسبب إقدامهم على المخاطرة، وبسبب بُعْد نظرهم. كان رجلاً بديناً قصيراً له شعر مجعّد قصير يشبه القبعة. وكانت ملابسه تبدو متهدّلة عليه مهما تكن حَسَنة التفصيل. وكانت تحت عينيه هالتان نصف دائريتين كأنهما أثران باقيان لدولارين فضيين. كان لايت يستشير بابِت خاصة، على الدوام. وكان يثق بحذره البطيء.

علم بابِت منذ ستة أشهر أن شخصاً اسمه أركيبالد بوردي (يعمل بَقّالاً في منطقة سكنية غير محددة تماماً يطلقون عليها اسم لينتون) كان يتحدث عن اعتزامه افتتاح محل لبيع اللحوم إلى جانب بقالته. وعندما درس بابِت ملكية قطع الأراضي المجاورة لذلك المتجر اكتشف أن بوردي يملك متجره الحالي لكنه لا يملك قطعة الأرض الوحيدة المتوفرة بجانبه. وقد نصح كونراد لايت بأن يشتري قطعة الأرض، وذلك مقابل أحد عشر ألف دولار، رغم أن تقييم سعرها استناداً إلى الإيجارلم يكن يعطيها قيمة تتجاوز تسعة آلاف. قال بابِت إن الإيجارات منخفضة كثيراً. وقال إنهما يستطيعان، عن طريق الانتظار، أن يجعلا بوردي يوافق على السعر الذي يريدانه. (كانت هذه «رؤية»). لقد اضطر إلى إجبار لايت على الشراء. وكان أول ما فعله، باعتباره وكيلاً للايت، زيادة إيجار بناء المتجر المتداعي الموجود على قطعة الأرض تلك. لقد تلفّظ المستأجر ببعض الأشياء الفظة... لكنه دفع!

بدا بوردي مستعداً للشراء الآن؛ وسوف يكلفه تأخره عشرة آلاف دولار إضافية - إنها المكافأة التي قدمها المجتمع إلى السيد كونراد لايت لأنه استخدم سمساراً لديه «رؤية»، سمساراً يفهم كيف يتحدث، ويفهم القيم الاستراتيجية والمؤسسات الرئيسية، ويعرف كيف يعطي تقييمات أقل من الحقيقة... ويفهم سيكولوجيا مهنة البيع.

جاء لايت إلى الاجتماع مبتهجاً. كان مولعاً ببابِت هذا الصباح، فراح يدعوه «صاحبي القديم». وبدا بوردي، البقّال الرصين صاحب الأنف الطويل، قليل الاهتمام ببابِت وبالرؤية التي عند بابِت. لكن بابِت قابله عند باب المكتب المطل على الشارع وقاده إلى الغرفة الخاصة مطلِقاً صيحات عاطفية صغيرة من قبيل «من هنا، أخي بوردي،

من هنا». جلب من خزانة الملفات علبة السيجار كلها وألح على ضيفيه أن يدخنا. دفع بالكرسيين إنشين إلى الأمام وثلاثة إنشات إلى الخلف على نحو أوحى بحسن الضيافة، ثم جلس في كرسي المكتب مستنداً إلى الخلف فبدا ممتلئ الجسم ظريفاً. لكنه تحدث مع البقال ضعيف الجسم بنبرة صارمة.

«حسن الآن يا أخ بوردي! نتلقى بعض العروض المغرية فعلاً من جزّارين، ومن أشخاص كثر أيضاً، لشراء العقار المجاور لمحلك. لكنني أقنعت الأخ لايت بأن علينا أن نمنحك فرصة للفوز بذلك العقار قبل غيرك. قلت للأخ لايت «سيكون من العار، من العار حقاً، أن يأتي شخص آخر فيقيم محلاً للبقالة واللحوم مباشرة بجوار محل بوردي الصغير اللطيف الذي يعاني المتاعب». مال بابِت إلى الأمام وصار صوته خشناً... «وخاصة إذا شاء سوء الحظ أن يفتتح هناك واحدٌ من تلك المحلات المتسلسلة الحديثة التي تخفض الأسعار تحت حد التكلفة حتى تتخلص من المنافسة وتجعلك تستسلم خاسراً»».

سحب بوردي يديه النحيلتين من جيبيه، ورفع بنطاله قليلاً، ثم دسّ يديه في جيبيه ثانية وارتاح في كرسيّه الخشبي الثقيل... حاول أن يبدو مازحاً عندما قال بصعوبة: «نعم! إنها منافسة سيئة. لكن، أظن أنك لا تدرك أهمية الجاذبية الشخصية في متاجر الأحياء السكنية».

ابتسم بابِت العظيم: «هذا صحيح! تماماً مثلما ترى يا صاحبي. كنا نريد أن نمنحك الفرصة الأولى... لا بأس إذاً».

قال بوردي نائحاً: «انظر الآن! أعرف تماماً أن سعر عقار بهذا الحجم... لقد بيع عقار قريب مني بأقل من ثمانية آلاف وخمسمئة دولار. كان هذا منذ سنتين. والآن... تطلبون مني أربعة وعشرين ألف دولار! لماذا؟ سيكون علي أن أرهن محلّي ـ لا مانع عندي من دفع اثني عشر ألفاً ـ لماذا بربك، يا سيد بابِت، تطلبون مني أكثر من ضعفي قيمة المحل؟ وتهددون أيضاً بتدميري إذا لم أقبل!».

«لا أحب طريقتك في الكلام يا بوردي! لا أحبها أبداً! لماذا تفترض أننا، لايت وأنا، سيئان إلى درجة تجعلنا راغبَيْن في تدمير أخينا في الإنسانية؟ ألا تظن أننا ندرك أن من مصلحتنا الشخصية أن تكون أحوال كل شخص في زينيث مزدهرة؟ لكن هذا كله لا علاقة له بالموضوع. إليك ما سنفعله: سوف أخفض السعر إلى ثلاثة وعشرين ألفاً. تدفع خمسة آلاف ونحصل على الباقي من الرهن ـ وإذا أردت أن تهدم ذلك البناء القديم وتعيد إنشاءه، فأظنني أستطيع أن أجعل لايت يخفف شروطه قليلاً من أجل حصولك على رهن لتمويل عملية البناء بشروط جيدة. بحقك يا رجل... يسعدنا أن نسدي لك

معروفاً! لا نحب شركات البقالة الغريبة الضخمة هذه أكثر مما تحبها أنت! لكن، ليس من المنطق أن تتوقع منا التضحية بأحد عشر ألف دولار، أو أكثر، من أجل الجيرة فقط، أليس كذلك؟ ما رأيك في هذا يا لايت؟ هل أنت مستعد لتخفيض السعر؟».

بوقوفه في صف بوردي بهذه الحرارة كلها، تمكن بابِت من إقناع السيد الطيب لايت بتخفيض السعر إلى واحد وعشرين ألف دولار. وفي اللحظة المناسبة، أخرج بابِت من الدرج العقد الذي جعل الآنسة ماكغاون تطبعه منذ أسبوع، ووضعه بين يدي بوردي. رجّ قلم الحبر بحرارة حتى يضمن حُسن عمله، ثم قدمه إلى بوردي وراح ينظر إليه راضياً عندما وقّع عليه.

لقد تم العمل! ربح لايت أكثر من تسعة آلاف دولار. وجنى بابِت عمولة بلغت أربعمئة وخمسين دولاراً. وأما بوردي. فقد حصل، نتيجة الآليات الحساسة للأعمال المالية الحديثة، على محل جديد؛ وسرعان ما سيحصل سكان لينتون السعداء على لحوم بأسعار أعلى قليلاً من أسعار وسط المدينة.

كانت تلك معركة رجولية! لكن بابِت انطفأ بعد ذلك. كانت هذه العملية المسلية الحقيقة الوحيدة التي خطط لها. وما عاد لديه الآن إلا الاهتمام ببعض تفاصيل الإيجارات، وتقييم العقارات، والرهونات.

دمدم قائلاً: «شيء مزعج أن أتخيل لايت حاملاً معه معظم الربح رغم أنني قمت بالعمل كله... ذلك الخسيس! و... ماذا لديّ اليوم أيضاً؟ ... أحب أن أحظى بعطلة جيدة طويلة. رحلة بالسيارة. شيء ما!» هبَّ واقفاً على الفور وقد عاد إليه نشاطه عندما تذكر الغداء مع بول ريزلينغ.

الفصل الخامس

- 1 -

كانت استعدادات بابت للمغادرة وترك مكتبه وحيداً خلال ساعة ونصف سوف يمضيها في الغداء أقل قليلاً من الاستعداد لحرب أوروبية شاملة.

خاطب الآنسة ماكغاون منزعجاً: «متى ستذهبين إلى الغداء؟ طيب، احرصي على أن تكون الآنسة بانيغان موجودة في ذلك الوقت. اجعليها تفهم أن عليها، إذا اتصل ويدن فيلتد، أن تخبره بأنني أتابع موضوع ملكية العقار. ثم، أوه، بالمناسبة، ذكريني غداً بأن أجعل بينيمان يتابع هذا الأمر. والآن، إذا جاء أحد باحثاً عن بيت رخيص، فتذكري أنه علينا أن نتخلص من ذلك البيت في بانغور رود فنبيعه لأحد ما. وإذا احتجت إليّ، فسوف أكون في النادي الرياضي. ثم ـ آه ـ ثم ـ آه ـ سأعود عند الثانية».

نفض رماد السيجار عن صديريته. ثم وضع رسالة صعبة لم يجب عليها بعد فوق كومة من العمل غير المُنجز، وذلك حتى يتذكرها بعد الظهر. (إنه يضع هذه الرسالة فوق تلك الكومة كل يوم عند الظهر، منذ ثلاثة أيام). خربش شيئاً على قطعة من ورق التغليف الأصفر: (بحث عن... شقة... عنوانه). منحته كتابة هذه الملاحظة إحساساً لطيفاً بأنه رأى شيئاً مثل هذا على أبواب بعض الشقق السكنية.

اكتشف أنه راح يدخن سيجاراً جديداً. ألقاه محتجّاً: «اللعنة! ظننت أنك تركت التدخين!». أعاد، بشجاعة، علبة السيجار إلى خزانة المراسلات، ثم أقفلها وأخفى المفتاح في مكان أكثر صعوبة. قال غاضباً: «علي أن أهتم بنفسي! وعلي أن أقوم بمزيد من النشاط البدني... سأمشي حتى النادي... في ظهيرة كل يوم... هذا ما سوف أفعله... سوف أتخلى عن ركوب السيارة في فترة الظهر».

جعله هذا القرار يشعر أنه إنسان مثالي. لكنه اكتشف، بعد قراره هذا، أنه لم يعد يملك وقتاً كافياً للمشي!

اقتضى الأمر وقتاً أطول قليلاً حتى يتمكن من تشغيل سيارته والانضمام إلى سيل السيارات في الشارع... كان وقتاً أطول من الوقت الذي يقتضيه السير مسافة ثلاث بنايات ونصف حتى يصل إلى النادي.

ـ 2 ـ

قاد سيارته ملقياً على المباني كلها نظرة ألفة وولع.

لو ظهر شخص غريب فجأة في مركز الأعمال في مدينة زينيث لما استطاع معرفة إن كان في مدينة في ولاية أوريغون أو جورجيا أو أوهايو أو مين أو أوكلاهوما أو مانيتوبا! أما بالنسبة لبابِت، فإن كل إنش في هذه المدينة كان فريداً، ومثيراً. لاحظ، مثلما يلاحظ دائماً، أن مبنى كاليفورنيا على الناحية الأخرى من الشارع كان أقصر من غيره بثلاثة طوابق، أي أنه كان أقل جمالاً بثلاثة طوابق، أقل جمالاً من مبنى بابِت، مبنى ريفز، بثلاثة طوابق! وعندما مر من أمام متجر بارثينون لتلميع الأحذية (ذلك المبنى البائس المؤلف من طابق واحد! الذي يبدو أشبه بحمّام عمومي قابع تحت جرف إذا ما قورن بفخامة مبنى كاليفورنيا المصنوع من الغرانيت والقرميد الأحمر) قال، مثلما يقول دائماً: «أف! يجب أن ألمّع حذائي بعد الظهر. إنني أنسى ذلك دائماً». وعندما مرّ من أمام محل سيملكس للأثاث المكتبي، ومن أمام الهيئة الوطنية للسجلات المالية، أحس برغبة شديدة في الحصول على آلة اختزال أو آلة كاتبة يمكنها أن تقوم بعمليات الجمع والضرب أيضاً... تاق إلى هذا مثلما يتوق شاعر إلى مجموعة شعرية، أو مثلما قد يتوق طبيب إلى عنصر الراديوم.

وعندما صار قبالة محل نوبي لملابس الرجال، رفع يده اليسرى عن عجلة القيادة ليتلمّس وشاحه... اعتبر نفسه شخصاً مهماً لأنه يشتري ربطات عنق غالية «وأستطيع أن أدفع ثمنها نقداً أيضاً، بالطبع». ثم قال في نفسه عندما صار أمام محل يونايتد للسيجار، بلافتاته الملونة بالذهب والقرمزي: «لا أعرف إن كنت في حاجة إلى بعض السيجار ـ أحمق أنا!... نسيت مرة أخرى أنني بدأت أقلل هذا التدخين الغبي». نظر إلى مصرفه، مصرف ماينرز ودروفرز الوطني. وراح يفكر في أنه شخص قوي ذكي لأنه يتعامل مع هذه المؤسسة المزيّنة بالرخام. لكن اللحظة الكبرى جاءت عند التقاطع، عندما توقف قرب الزاوية تحت البرج الوطني الثاني المترف. كانت سيارته محصورة بين أربع سيارات أخرى تقف واحدة وراء أخرى مثل خيول فارغة الصبر، في حين انطلقت السيارات في الشارع الآخر... سيارات ركاب وشاحنات ضخمة ودرّاجات آلية... راحت تتدفق كلها متتابعة. وعند الزاوية الأخرى من الشارع، ترددت أصوات معدات البرشمة الهوائية قادمة

من بناء جديد على الهيكل. ومن وسط هذا الإعصار كله، لمح وجهاً مألوفاً. صاح به أحد زملائه العاملين في مهنته: «كيف حالك يا جورج؟»... لوّح له بابِت بحركة ودودة، ثم انطلق مع السيارات الأخرى عندما رفع شرطي المرور يده. لاحظ سرعة انطلاق سيارته. أحس بالقوة والتفوق... كأنه مكّوك صغير من الفولاذ اللامع ينطلق نشيطاً إلى عمله داخل آلة سريعة.

وكعهده دائماً، تجاهل بابِت المبنيَيْن اللذين أعقبا ذلك... مبنيَين متقادمين لم تجرِ إزالة سخام زينيث وضاعتها في العام 1885 عنهما. وعندما مر بمتجر الخمسة سنتات والعشرة سنتات، ثم شركة داكوتا للإسكان وصالة كونكورديا التي تحتوي على غرف للإيجار ومحلات لقارئات الفأل وللمعالجة اليدوية، راح يفكر في مقدار المال الذي يكسبه... أحس بقليل من الاعتزاز، وبقليل من القلق، ثم أجرى بعض الحسابات القديمة التي اعتادها منذ زمن:

«أربعمئة وخمسين دولاراً هذا الصباح من صفقة لايت. لكن يجب دفع الضرائب عنها. لنر إذاً: يجب أن يكون دخلي الصافي ثمانية آلاف هذا العام. فإذا وفرت ألفًا وخمسمئة من هذا المبلغ ـ لا، ليس إذا بنيت مرأباً جيداً للسيارة. لنر مرة ثانية: ستمئة وأربعين صافية الشهر الماضي... نضربها باثني عشر شهراً... النتيجة ـ لنر: اثنا عشر ضرب ستة يساوي سبعمئة دولار ـ أوه، فقط! على أي حال، سوف أجني ثمانية آلاف ـ يا للبؤس الآن... هذا ليس سيئاً جداً! إن عدد من يجنون ثمانية آلاف في السنة قليل جداً ـ ثمانية آلاف دولار حقيقي، جميل ـ أراهن أن نسبة من يجنون هذا المبلغ لا تتجاوز خمسة بالمئة من سكان الولايات المتحدة كلها... لا يجني أكثر من خمسة بالمئة زيادة عما يجنيه العم جورج، بالتأكيد! إنني في القمة! لكن ـ إن لدي مصاريف كثيرة ـ أسرتي تهدر البنزين... ملابسهم مثل ملابس أصحاب الملايين... وهي ترسل ثمانين دولاراً في الشهر إلى أمها. ثم لدي موظفي المبيعات والاختزال هؤلاء... يحرصون على انتزاع كل سنت يستطيعون انتزاعه مني...».

كانت نتيجة هذا التخطيط العلمي للموازنة هي أنه شعر بالانتصار، على الفور، ... إنه ثري... وفقير إلى حد خطر. أوقف سيارته وسط هذه الحسابات كلها ودخل محلاً صغيراً لبيع الصحف والأشياء المتنوعة فاشترى قدّاحة كهربائية كان راغباً فيها منذ أسبوع. راح يصخب ويتحرك كثيراً ليغطي على احتجاج ضميره... صاح بالموظف: «أظن أن هذه سوف تغطّي ثمنها من أعواد الكبريت التي ستوفرها!».

كانت القداحة قطعة جميلة... أسطوانة بلون فضي لامع لها حلقة تكاد تكون فضية حقاً من أجل تثبيتها إلى لوحة العدادات في السيارة. لم تكن مجرد شيء... هكذا شرح له

البائع... «زينة صغيرة لطيفة تضفي لمسة عصرية على سيارة الرجل»، بل هي أيضاً توفر الوقت إلى حد كبير. ستعفيه من إيقاف السيارة حتى يشعل عود الكبريت... وسوف توفر عليه عشر دقائق في الشهر، بكل سهولة!

راح ينظر إليها وهو يقود سيارته. قال بشيء من الحزن: «جميلة جداً! لقد كنت دائماً راغباً في واحدة منها. إنها شيء يحتاج إليه الشخص المدخّن أيضاً». تذكر عند ذلك أنه ترك التدخين!

قال آسفاً: «اللعنة! أوه، لا بأس، أظن أنني سأشعل سيجاراً من وقت لآخر. ثم إنها مفيدة جداً للأشخاص الآخرين. وقد يكون لها تأثير طيب على شخص يريد إجراء صفقة. وهي... بالتأكيد... تبدو لطيفة هنا. إنها شيء صغير ذكي بكل تأكيد. وهي تعطي مظهراً عصرياً أنيقاً. وأنا... طبعاً، طبعاً... أظن أنني أستطيع تحمل دفع ثمنها عندما أريدها! لن أكون الفرد الوحيد في الأسرة الذي يحرم نفسه من بعض الرفاهية!»

وهكذا، بعد مسيرة رومانسية امتدت مسافة ثلاثة مباني ونصف المبنى... وصلت السيارة إلى النادي وفيها ذلك الكنز الجديد.

- 3 -

إن نادي زينيث الرياضي ليس نادياً رياضياً! ... وهو ليس نادياً بالضبط!... إنه زينيث بنفسها، بكل كمالها! إن فيه غرفة بيليارد نشطة عابقة بالدخان. ومن بين أعضاء هذا النادي فرق في كرة القدم والبيسبول والسباحة والألعاب الأخرى... ويحاول عُشر هؤلاء على الأقل تخفيض رسوم الاشتراك. لكن القسم الأكبر من أعضاء النادي البالغ عددهم ثلاثة آلاف يستخدمه بمثابة مقهى لهم... يأتون إليه لتناول الطعام ولعب الورق وتبادل الحكايات ولقاء العملاء، وكذلك لقضاء بعض الوقت مع بعض كبار الشأن في المدينة على الغداء. إنه أكبر نوادي المدينة... وأهم خصومه نادي اتحاد المحافظين الذين يبدو أعضاؤه كلهم كأنهم أعضاء في حزب رياضي ما «حفرة عفنة متكبّرة بليدة غالية الثمن ... ليس فيها شخص جيد يستطيع المرء تحمل عشرته... لن أنضم إليه حتى لو دفعوا لي أجراً». تبين الإحصاءات أن أي عضو في النادي الرياضي لم يرفض أبداً انتخابه عضواً في الاتحاد. وأما من انتخبوا فعلاً، فقد أسرع سبعة وستون منهم إلى الانسحاب من النادي الرياضي... ثم سمعهم البعض يقولون، جالسين في أمان في صالة الاتحاد الناعس الذي يريح الأعصاب: «لعل النادي الرياضي يمكن أن يصبح مكاناً جيداً لو أنه كان أكثر حصافة في اختيار الأعضاء».

يتألف مبنى النادي الرياضي من تسعة طوابق. وهو مبنيّ بالقرميد الأصفر، وعلى

سطحه حديقة لها واجهات زجاج. وله في الأسفل رواق فسيح فيه أعمدة حجَر ضخمة. وكانت صالة المدخل جيدة، بأعمدتها السميكة المصنوعة من حجر الكاين المسامي، وتزييناتها المدبَّبة، وأرضيتها الحجرية اللامعة البنية كأنها خبز محمص. كانت تلك الصالة كأنها مزيج من سرداب في كاتدرائية ومطعم تحت الأرض. وكان الأعضاء يدخلون القاعة مندفعين مثل متسوّقين ليس لديهم الوقت الكافي للتسوق. ومثلهم دخل بابِت وصاح مخاطباً المجموعة الواقفة عند نافذة بيع السيجار: «كيف الأولاد؟ كيف الأولاد؟ نعم، نعم، إنه يوم جميل!»

ردوا تحيته بأصوات مرحة بشوشة ـ تاجر الفحم، فيرجيل غانتش. وسيدني فيلكنشتاين، متعهد شراء الملابس النسائية الجاهزة لدى محلات بارتشر وشتاين، والبروفسور جوزيف ك. بامفري، الذي يملك كلية رايت واي للأعمال وأستاذ الخطابة ولغة الأعمال وكتابة السيناريو والقانون التجاري. ومع أن بابِت كان معجباً بهذا الرجل العالم، وكان يقدّر أيضاً سيدني فيلكنشتاين باعتباره «مشترياً بارعاً جداً... ومنفقاً جريئاً للمال»، إلا أنه استدار متحمساً ناحية فيرجيل غانتش. كان السيد غانتش رئيس نادي بوسترز، وهو نادٍ يجتمع فيه الأعضاء للغداء كل أسبوع، وقد كان فرعاً للمؤسسة الوطنية التي تشجع صلات العمل الجيدة والصداقة بين أعضاء النادي المنتظمين. وكان أيضاً عضواً في جمعية الوعول لا يقل شأناً عن أبرز أعضائها الموقرين. بل كان يُقال همساً إنه سيكون مرشحاً لرئاسة الجمعية في الانتخابات القادمة. كان شخصاً مرحاً مولعاً بالخطابة محباً للفنون. يزوره مشاهير الممثلين والفنانين الهزليين عندما يزورون المدينة، ويعطيهم علب السيجار، ويخاطبهم من غير كلفة؛ بل كان ينجح ـ أحياناً ـ في جلبهم لتناول وجبة الغداء في نادي بوسترز حتى يمنح الشباب هناك تسلية مجانية. كان رجلاً ضخماً له شعر مثل الفرشاة. ويعرف أحدث النكت. لكن خداعه في لعبة البوكر كان أمراً شديد الصعوبة. كان بابِت في حفلة عنده عندما التقط فيروس الانزعاج الذي أصابه هذا الصباح.

صاح غانتش: «كيف حال البلشفي؟ كيف كان شعورك في الصباح بعد سهرة الأمس؟».

هدر بابِت قائلاً: «أوه، يا صاحبي! بعض الصداع! كانت تلك واحدة من الحفلات التي تقيمها دائماً يا فيرجيل! آمل أنك لم تنس فوزي بتلك الجائزة الأخيرة الصغيرة اللطيفة!» (كان على مسافة ثلاث أقدام من غانتش).

«لا بأس الآن! ماذا أعطيك في المرة القادمة يا جورجي؟ قل لي، هل لاحظت في الجريدة كيف وقفت الجمعية في نيويورك ضد الحمر؟»

«نعم لاحظت! كان هذا جيداً، أليس كذلك؟ الجو لطيف اليوم».

«إنه لطيف... يوم ربيعي جميل جداً. لكن الليل لا يزال بارداً».

«صحيح! معك حق، لا يزال بارداً. لقد تغطيت ببطانيتين الليلة الماضية، لأنني أنام في الشرفة. قل لي يا سيدني»... كان بابِت يستدير صوب فيلكنشتاين، متعهد الشراء... «لدي ما أريد سؤالك عنه. لقد اشتريت قدّاحة سجائر كهربائية من أجل السيارة قبل قليل، و...».

قال فيلكنشتاين: «شيء جيد!» ... بل إن البروفسور العالِم بامفري نفسه، وهو رجل سمين كالبصلة بشعر نصف شائب وصوت يشبه صوت الأرغن، علّق قائلاً: «إنها إضافة حسنة. تضفي القدّاحة الكهربائية لمسة لطيفة على السيارة».

«نعم! قررت أخيراً أن أشتري واحدة لنفسي. اشتريت أفضل ما في السوق، هكذا قال البائع. ودفعت خمسة دولارات ثمناً لها. لكني لا أعرف إن كان قد غشني! كم يتقاضون ثمناً لها في المحلات يا سيدني؟».

أكد له فيلكنشتاين أن خمسة دولارات ليست بالمبلغ الكبير... ليست بالمبلغ الكبير من أجل قدّاحة رفيعة المستوى حقاً، مفضضة ومزودة بوَصْلة رفيعة الجودة. «أقول دائماً ـ صدقوني، وأنا أقول هذا استناداً إلى خبرة تجارية واسعة جداً ـ أفضل الأشياء يصبح أرخصها على المدى البعيد. لكن، طبعاً، إذا أراد المرء أن يكون يهودياً، فإنه يستطيع شراء أشياء رخيصة... إنما، على المدى البعيد، فإن أرخص الأشياء ـ هي أفضل ما يمكنك الحصول عليه! خذوا هذا المثال منذ عدة أيام: قمت بتركيب سقف جديد لسيارتي، إضافة إلى شيء من تنجيد المقاعد. دفعت مئة وستة وعشرين دولاراً ونصف الدولار. يمكن طبعاً أن يقول لي أشخاص كثيرون إن هذا المبلغ كبيراً جداً، أكثر مما يجب ـ لطفك يا رب! إذا كان هؤلاء العجائز ـ يعيش أمثالهم في واحدة من تلك البلدات الريفية في أعلى الولاية ولا يستطيعون أبداً أن يفكروا مثلما يفكر ابن المدينة. ثم إنهم يهود أيضاً، بالطبع! سوف يسقطون أرضاً ويموتون إذا عرفوا أن سيدني دفع مئة وستة وعشرين دولاراً لإصلاح السيارة. لكنني لا أظن أنني تعرضت للغش يا جورج، على الإطلاق! سيارتي تبدو جديدة تماماً الآن. لا أقصد أنها قديمة جداً، بالطبع... إنها عندي منذ أقل من ثلاث سنوات. لكنني أتعبها كثيراً ولا أقودها بسرعة أقل من مئة ميل يوم الأحد، آه... أوه، لا أظن حقاً أنك تعرضت للغش يا جورج. فعلى المدى البعيد، أفضل الأشياء... يمكنني أن أقول هذا... يغدو أرخص الأشياء... من غير سؤال».

قال فيرجيل غانتش: «هذا صحيح! هكذا أنظر إلى الأمر أنا أيضاً. إذا كان المرء مرتبطاً بما يمكن أن ندعوه حياة مكثّفة، أي مثلما نعيش هنا في زينيث، مع كل هذا

الصخب والنشاط العقلي الجاري من حولنا، ... عليه أن يوفر أعصابه بأن يشتري الأفضل».

كان بابِت يومئ برأسه بعد كل خمس كلمات من هذا التيار العاصف المندفع من الآراء. وفي النهاية، قال غانتش بأسلوبه الفكاهي المعروف:

«لكن، رغم ذلك يا جورج... لا أعرف إن كنت تستطيع تحمّل هذا الثمن. سمعت أن الحكومة تراقب أعمالك أكثر من ذي قبل بعد أن قمت بسرقة ملحق حديقة إيثورن وبيعه!».

«أوه إنك صاحب نكتة عظيم يا فيرجيل! لكن، إذا أردنا المزاح فما رأيك بهذا الخبر الذي يقول إنك سرقت الدرجات المرمرية السوداء من مكتب البريد وبعتها على أنها فحم من نوعية ممتازة؟» ... ربت بابِت على ظهر غانتش فرحاً، وراح يمسّد ذراعه.

«لا بأس في هذا! لكن ما أريد معرفته هو: من هو قرش العقارات الذي اشترى مني ذلك الفحم حتى يستخدمه في البيوت التي يبنيها؟».

قال فيلكنشتاين: «أظن أن هذا سيجعلك تفكر قليلاً يا جورج! سوف أخبركم ما سمعته... سمعته فقط: ذهبت زوجة جورج إلى قسم الملابس الرجالية في محل بارتشر لتشتري له بعض الياقات. وقد أعطاها البائع عدداً من الياقات من مقاس ثلاثة عشر قبل أن تخبره عن المقاس المطلوب. قالت السيدة بابِت: «كيف عرفت المقاس؟» فقال الموظف: «إن الرجال الذين يجعلون زوجاتهم تشتري لهم الياقات يستخدمون هذا المقاس دائماً يا سيدتي»... كيف كانت هذه؟ هذه قوية، أليس كذلك؟ كيف كانت، كيف كانت؟ أظن أن هذه ضربة قاضية يا جورج!».

«أنا... أنا...» راح بابِت يفكر في إهانات لطيفة يردّ بها. لكنه توقّف وحدّق في اتجاه الباب. كان بول ريزلينغ قادماً. صاح بابِت: «أراكم في ما بعد يا أولاد». ثم مضى مسرعاً عبر الصالة. ما كان في تلك اللحظة ذلك الطفل العابث الذي ينام على الشرفة، ولا ذلك الطاغية البيتي الذي كان جالساً على طاولة الإفطار اليوم، ولا صانع الأرباح الماكر البارع في اجتماع لايت وبوردي، ولا الشخص الطيب المتألق، ولا عضو النادي الرياضي. كان أخاً أكبر لبول ريزلينغ... الأخ الذي يخفّ دائماً للدفاع عنه، الأخ المعجب به مع اعتزاز وحب حقيقي يتجاوز حب المرأة. تصافحا بحرارة. ابتسما مستحيين كأنهما مفترقان منذ ثلاث سنوات، لا منذ ثلاثة أيام.

«كيف حالك يا لص الخيول؟».

«بخير، على ما أظن. وكيف حالك أنت أيها الجمبري البائس؟».

«على أحسن ما يرام! ... يا قطعة الجبن الرديئة!».

قال بابِت متأثراً بقوة هذا الولع المتبادل بينهما: «ما أروعك! عشر دقائق تأخير!»... أجاب ريزلينغ ساخراً: «اعتبر نفسك محظوظاً عندما تسنح لك فرصة تناول الغداء مع سَيّد مهذّب». ابتسم الاثنان ثم مضيا إلى الحمّام الفخم حيث كان صف من الرجال المنحنين على المغاسل المصفوفة على امتداد بلاطة رخامية ضخمة. كانوا كأنهم متعَبّدون ساجدون أمام صورهم في المرآة الكبيرة التي أمامهم. كانت أصواتهم عميقة، راضية، آمرة... تتردد أصداؤها بين الجدران الرخامية وترتد منعكسة عن السقف المرصوف ببلاطات حليبية اللون يحيط بها إطار أرجواني. كان سادة المدينة هؤلاء، بارونات التأمين والقانون والأسمدة وإطارات السيارات، يضعون قوانين زينيث، ويعلنون أن ذلك اليوم كان دافئاً فعلاً وأن الربيع قد جاء من غير شك، وأن الرواتب أعلى مما ينبغي، وأن الفوائد على الرهونات أقل مما ينبغي، وأن لاعب البيسبول البارز بيب روث كان رجلاً نبيلاً، وأن «الأحمقَيْن اللذين يقدمان عرضهما في مسرح كلايماكس فودافيل هذا الأسبوع ممثلان ماهران بكل تأكيد». أما بابِت فظل صامتاً رغم أن صوته يكون عادة أكثر الأصوات ثقة وسلطوية. فقد كان يشعر بشيء من الخراقة في حضور بول ريزلينغ الخفيف القاتم، وكان راغباً في البقاء متماسكاً هادئاً ذكياً.

كانت ردهة المدخل على الطراز القوطي. وكانت غرفة الحَمّام على النمط الإمبراطوري الروماني. وأما الصالة نفسها فكانت أشبه بصالات الإرساليات الإسبانية. وكانت غرفة القراءة توحي بنمط إنكليزي صيني. لكن صالة التمرينات الرياضية في النادي كانت هي غرفة الطعام نفسها: قطعة فنية من صنع فرديناند ريتمان... أكثر معماريي زينيث انشغالاً. إنها صالة جليلة مغلّفة جزئياً بالألواح الخشبية؛ وفيها نوافذ مؤطرة باللون الرصاصي على الطراز التيودوري، إضافة إلى مشربية بارزة. كانت صالة تشبه صالة موسيقى، من غير موسيقيين! وكان فيها لوحات مطرَّزة يفترض أنها تعبر عما قدمته الماغنا كارتا! كانت عوارض السقف مزينة بأشغال يدوية من صنع ورشة جيك أوفوت. وأما الثريات فكانت من الحديد المشغول يدوياً. وكانت العوارض الخشب التزيينية المصنوعة من خشب السنديان مثبّتة بأسافين خشب يدوية الصنع أيضاً. وفي آخر الصالة كان ثمة موقد حجري ضخم مسقوف تظهر عليه نشرة إعلانية للنادي تؤكد أن هذا الموقد ما كان أكبر من مواقد القلاع الأوروبية كلها فحسب، بل أكثر علميةً منها أيضاً... بما لا يقاس! وكان أكثر نظافة منها كلها لأن أحداً لم يوقد فيه ناراً أبداً.

كان نصف الطاولات مصنوعاً من ألواح خشب ضخمة. وكانت الواحدة منها تتسع لجلوس ما يتراوح من عشرين إلى ثلاثين رجلاً. كان بابِت يجلس عادة إلى الطاولة القريبة من الباب مع مجموعة تضم غانتش وفيلكنشتاين والبروفسور بومفري وهاورد ليتلفيلد

وجاره أيضاً، كولمومندلي فرينك الذي كان شاعراً ووكيلاً للإعلانات، وأورفيل جونز صاحب أفضل مصبغة في زينيث. كان هؤلاء يشكلون نادياً ضمن النادي. وكانوا يطلقون على أنفسهم، مزاحاً، اسم «العنيفون». عندما مَرَّ بهم حيَّاه هؤلاء العنيفون قائلين: «تعالا، اجلسا معنا! ... لا يعقل أن تكونا متكبّريْن على تناول الطعام مع المساكين! هل تخاف أن يضربك أحد منا بزجاجة بيرة يا جورج؟ يفاجئني أنكما تصبحان منعزلَين كأنكما تظنان نفسَيْكما متميزَين عنا!».

هتف بابِت قائلاً: «أليس كذلك! لن نخاطر بتدمير سمعتنا بأن يرانا أحد نجلس معكم أيها البخيلون!». ثم قاد بول إلى واحدة من الطاولات الصغيرة في آخر المكان المخصص للموسيقيين. أحس بشيء من الذنب. ففي نادي زينيث الرياضي، تعتبر الخصوصية مظهراً سيئاً! لكنه أراد بول لنفسه فقط.

كان قد أقنع نفسه صباح هذا اليوم بأنه يجب أن يتناول طعاماً خفيفاً على الغداء. لكنه الآن لم يطلب إلا طبقاً من قطع لحم الخروف على الطريقة الإنكليزية، وفجلاً، وبازلاء، وطبقاً عميقاً من فطيرة التفاح، وبعض الجبن، وكوباً من القهوة مع الكريمة. ثم أضاف، مثلما يفعل دائماً: «ثم، آه ... أوه، أريد أيضاً صحناً من البطاطا المقلية على الطريقة الفرنسية». وعندما وصل طبق اللحم أضاف إليه، بحيوية فائقة، ملحاً وفلفلاً. كان يضيف الملح والفلفل إلى اللحم دائماً، بحيوية شديدة دائماً، حتى قبل أن يتذوّقه.

تحدث مع بول عن قدوم فصل الربيع وعن حسنات قَدّاحة السيجار الكهربائية، وعما فعلته جمعية ولاية نيويورك. وبعد أن شبع بابِت وشعر بثقل دهن لحم الخروف، قال مندفعاً:

«لقد أنجزت صفقة صغيرة لطيفة مع كونراد لايت هذا الصباح، صفقة جعلتني أضع خمسمئة دولار نظيفة في جيبي. لطيف جداً... لطيف جداً! ثم، لكن ـ لا أعرف ما هي مشكلتي اليوم! لعلها نوبة من نوبات حُمّى الربيع، ولعل هذا بسبب السهر حتى وقت متأخر عند فيرجيل غانتش، أو... قد يكون بسبب تراكم برد الشتاء. لكنني أشعر بشيء من الإحباط طيلة النهار. لن أتحدث عن هذا طبعاً أمام من يجلسون إلى طاولة العنيفين هناك... أما أنت... هل مَرّ بك هذا الشعور من قبل يا بول؟ كأنه شيء يجتاحني: إنني أقوم جيداً بكل ما عليّ أن أقوم به، وأعيل أسرتي، ولدَيَّ بيت جيد وسيارة بست أسطوانات: وقد بنيت شركة صغيرة لطيفة. وليست عندي عيوب كبيرة، باستثناء التدخين ـ لكنني أخفف التدخين، بالمناسبة! أذهب إلى الكنيسة، وألعب الغولف للمحافظة على مظهري، ولا أخالط إلا أشخاصاً محترمين لائقين. لكنني، رغم هذا، لا أشعر أنني راضٍ حقاً!».

قال هذا كله بينما كانت تقاطعه صيحات من الطاولات القريبة واستدعاءات كثيرة للنادلة. راح يطلق زفرات شديدة بعد أن جعلته القهوة يشعر بالدوار وعسر الهضم. استولى عليه الارتباك والشَكّ، لكن بول اخترق هذا الضباب بصوته الحاد:

«يا إلهي... جورج! كيف تظن أن هذا شيء جديد بالنسبة إليّ... أن نجد أنفسنا، نحن الذين نسبق الآخرين، نحن الذين نعتبر أنفسنا ناجحين جداً... كيف تظن أننا لا نشعر بهذا كلنا؟ يوحي شكلك الآن بأنك تتوقع مني إبلاغ السلطات عنك باعتبارك محرِّضاً خبيثاً! ألا تعرف كيف هي حياتي أنا؟».

«أعرف يا صديقي».

«كان يجب أن أكون عازف كمان، لكنني أبيع السقوف المطلية بالقطران! ثم... لديَّ زيلا... أوه، لا أريد التشكي، لكنك تعرف أيضاً، مثلما أعرف أنا، كم هي زوجة ممتازة... خذ ما حدث الليلة الماضية مثالاً: ذهبنا إلى السينما. وكان جمهور كبير ينتظر هناك في الردهة. أما نحن فكنا في آخر الصف. راحت زوجتي تشق طريقها بينهم مطلقة عبارات من قبيل «كيف تجرؤ يا سيد؟» ... عجيب... بشرفي، عندما أنظر إليها أحياناً وأراها دائماً متزيّنة تفوح منها روائح العطور... أراها تبحث عن المتاعب وكأنها تصرخ بالناس غاضبة دائماً: «أقول لكم إنني سيدة... اللعنة عليكم!»... ما هذا؟ ... أود أن أقتلها! وهكذا، تابعت شق طريقها في ذلك الحشد، وأنا من خلفها شاعراً بالعار والفخر أيضاً... حتى كادت تصل إلى الحبل المخملي... صرنا على وشك الدخول. لكن صيحة صغيرة صدرت عن رجل واقف هناك ـ لعله ينتظر منذ نصف ساعة ـ أعجبني ذلك الرجل بعض الشيء. استدار صوب زيلا وقال بأدب تام: «سيدتي، لماذا تحاولين تجاوزي؟». أما هي، فبكل بساطة ـ يا إلهي، لقد أحسست بالخجل! ... أجابته زاعقة: «أنت لست سيداً مهذباً»، ثم جذبتني من خلفها صارخة: «بول! لقد أهانني هذا الشخص»... وسرعان ما صار ذلك الرجل مستعداً للعراك.

تظاهرت بأنني لم أسمعهما... بالتأكيد! مثلما لا يسمع المرء صوت آلة هادرة بالقرب منه! حاولت أن أنظر في اتجاه آخر ـ أستطيع الآن أن أخبرك كيف كان شكل كل بلاطة من بلاطات السقف، بالضبط! هنالك بلاطة عليها بقع بنية، كأنها وجه الشيطان... وطيلة الوقت، كان الناس هناك. كانوا مكوّمين مثل أسماك السردين، وراحوا يطلقون ملاحظات عَنّا. وأما زيلا فتابعت كلامها عن ذلك الرجل قائلة إن «أشخاصاً مثله لا يجوز أن يُسمح لهم بالتواجد في مكان يُفترض أنه للسيدات والرجال المحترمين». وكانت تقول أيضاً: «بول! اطلب المدير من فضلك حتى أبلغه بما يفعله هذا الجرذ القذر!»... و... أووف! أظن أنني لم أكن سعيداً عندما تمكنت من الانسلال إلى الداخل والاختباء في الظلمة!

بعد أربعة وعشرين عاماً من أشياء من هذا النوع، لن تتوقع مني أن أسقط أرضاً وأن يخرج الزبد من فمي عندما تقول أنت إن هذه الحياة الحلوة النظيفة المحترمة الأخلاقية ليست مثلما يجب أن تكون حقاً، أليس كذلك؟ بل إنني لا أستطيع الحديث عن هذا الأمر، إلا معك أنت، لأن أي شخص آخر سوف يظن أنني صفراوي المزاج. قد أكون صفراوي المزاج! لست أبالي بعد الآن، اللعنة! أنت مضطر إلى سماع تذمّري هذا كله، وحدك دون غيرك، يا جورجي!».

«يا للعجب! الآن، يا بول، أنت لست واحداً ممن يبكون على أنفسهم. إنني أحياناً... إنني أفخر دائماً أمام ميرا والأولاد فأزعم أنني حوتٌ بين سماسرة العقارات. لكني أقول في نفسي أحياناً إنني لست شيئاً عظيماً مثلما أدّعي! لكني أظن إنني يمكن أن أدخل الجنة، بعد كل شيء، إذا مزحت معك قليلاً».

«ياه! ... أنت صعب فعلاً يا جورجي. أنت تقسو عليّ. لكنك أنت من ساعدني على الاستمرار».

«لماذا لا تطلّق زيلا؟».

«لماذا لا أطلقها؟ لو أني، فقط... لو أني أستطيع! لو أنها تعطيني فرصة! لا يمكن أبداً الاعتماد عليها في ذلك. ولا يمكن الاعتماد على أن تتركني بنفسها. إنها شديدة الولع ببيتها وبالمَسَرّات التي أوفّرها لها. لو أنها كانت فقط من ذلك النوع من النساء... أقصد... لو أنها غير مخلصة لي! جورج! لا أريد أن أبدو سيئاً جداً... عندما كنت في الكلية، كنت أظن أنه يجب إطلاق النار عند الفجر على أي رجل يقول هذا! لكن، بشرفي، سأضحك حتى الموت إذا ذهبَتْ حقاً ومارست الجنس مع أحد ما. ستكون فرصة ضخمة! إنها، بالطبع، تغازل الجميع ـ أنت تعرف كيف تمسك بالأيدي، وكيف تضحك... تلك الضحكة ـ تلك الضحكة النحاسية الرهيبة ـ وكيف تصرخ بعد ذلك «أنت رجل سيئ السلوك! عليك أن تنتبه وإلا فإن زوجي الضخم سوف يلاحقك!»... عند ذلك، ينظر ذلك الرجل صوبي، من فوق إلى تحت، ويقول في نفسه «ماذا؟ ما أنت أيها الشيء الصغير! اذهب الآن وإلا ضربتك!»... إنها تتركه يذهب إلى الحد الذي يجعلها تشعر ببعض الإثارة ثم تبدأ تمثيل دور البريئة المجروحة، ثم تمضي بعد ذلك وقتاً ممتعاً وهي تنوح قائلة: «لم أكن أظن أنك ذلك النوع من الناس». إنهم يتحدثون عن هذا النوع من أنصاف العذارى في القصص...».

«أنصاف ماذا؟».

«... لكن المرأة الحكيمة الصلبة التي تحافظ على نفسها، المرأة المتزوّجة منذ زمن، مثل زيلا، تكون أسوأ من أي فتاة تلوّح بشعرها وتمضي بجرأة في عاصفة الحياة هذه ـ

وتترك مظلتها تنزلق على كُمّها! لكن، يا للعجب! أنت تعرف ما هي زيلا! تعرف كيف تنقّ، وتنقّ، وتنقّ! أنت تعرف أنها تريد كل شيء أستطيع أن أشتريه لها، وتريد كثيرًا من الأشياء التي لا أستطيع أن أشتريها أيضاً... تعرف كم هي غير منطقية، بالمطلق. وعندما أغضب وأحاول أن أنهي الأمر معها، فإنها تلعب دور السيدة الكاملة، تلعبه على نحو جيد جداً... حتى إنها تخدعني أنا بذلك وتصطادني بعبارات كثيرة من قبيل «لماذا تقول هذا؟»، و«لم أقصد هذا». أقول لك يا جورجي: أنت تعرف أن ذوقي بسيط جداً ـ في ما يتعلق بالأكل على الأقل! ... بالطبع، وبما أنك تشتكي دائماً، أقول لك إنني أحب أنواع السيجار الجيدة ـ وليس السيجار من نوع فلور دو كاباغوس الذي تدخّنه أنت...».

«لا بأس الآن! كان هذا حديثاً جيداً. بالمناسبة، هل أخبرتك يا بول أنني قررت التخفيف من التدخين، فعلاً...».

«نعم، قلت لي... لكن، في الوقت نفسه، إذا كنت لا أستطيع الحصول على ما أريد، فلماذا... إنني أستطيع الاستغناء عنه! لا مانع عندي في القبول بشرائح اللحم المحروقة، ثم تناول الدرّاقن المعلّب والحلوى الجاهزة بعد ذلك. لكني أنزعج من التعاطف مع زيلا لأن مزاجها صار سيئاً جداً بعد أن كفّت الطبّاخة عن العمل لدينا. صارت زيلا مشغولة كثيراً إلى درجة تجعلها ترتدي ثيابها المنزلية طيلة بعد الظهر، وتقرأ عن بعض أبطال الويسترن الشجعان... وتستغرق في هذا إلى درجة لا تترك لها وقتاً للطبخ. أنت تتحدث دائماً عن «الأخلاق»... وتقصد الإشارة إلى عدم تعدد العلاقات النسائية، كما أفترض. لقد كنت دائماً الصخرة التي أستند إليها... لا بأس... لكنك، من حيث الأساس، شخص بسيط. أنت...».

«من أين أتيت بفكرة أنني شخص بسيط يا صغيري؟ دعني أقول لك...».

«... أحب أن أبدو صادقاً، وأن أقول للعالم كله إن «من واجب رجال الأعمال المسؤولين أن يكونوا أخلاقيين تماماً، ليكونوا مثالاً لمجتمعهم». لكنك، في الحقيقة، جِدّيّ أكثر مما يجب في ما يتعلّق بالأخلاق يا صديقي جورجي... لا أحب التفكير في مقدار قلة الأخلاق التي لا بد أنك تخفيها تحت هذا المظهر. لا بأس، يمكنك أن...».

«انتظر، انتظر الآن! ماذا...».

«... تحدّث عن الأخلاق قدر ما تريد، يا صاحبي... لكن، صدّقني، لولاك ولولا الأمسيات التي أمضيها أحياناً في عزف الكمان بينما يعزف تيريل أوفاريل على التشيلو، ولولا ثلاث أو أربع فتيات لطيفات يجعلنني أنسى هذه النكتة الوحشية التي يطلقون عليها اسم «الحياة المسؤولة» لكنت قتلت نفسي منذ سنين.

ثم العمل أيضاً! العمل في بيع السقوف! سقوف من أجل حظائر الأبقار! أوه، لا

أقصد القول إنني لا أستمتع بهذه اللعبة، لا أقول إنني لا أستمتع بجعل نقابات العمال تدفع ثمنها، وبالمال الكثير الذي يأتيني منها... ثم إن العمل في ازدياد أيضاً! لكن، ما فائدة هذا؟ أنت تعرف أن عملي ليس توزيع مواد السقوف ـ إنه، من حيث الأساس، منع المنافسين من توزيع مواد السقوف! الأمر نفسه عندك أيضاً! كل ما نفعله هو أن يقص أحدنا رقبة الآخر ثم يجعل الجمهور يدفع المال مقابل ذلك!».

«انظر إليّ الآن يا بول! لقد صرت تشبه الاشتراكيين كثيراً في كلامك هذا».

«آه، نعم! لا أقصد هذا بالضبط، بطبيعة الحال، أفترض... أوه!... إن المنافسة تأتي بالأفضل طبعاً: البقاء للأصلح. لكني، لكني أقصد القول: خذ مثلاً هؤلاء الأشخاص الذين نعرفهم جميعاً، ذلك النوع من الناس المعروفين في النادي الآن، أولئك الذين يبدون راضين تماماً بحياتهم البيتية وأعمالهم، الذين يباهون بمدينتنا زينيث وبغرفة تجارتها، الذين يريدون أن يصبح سكان المدينة مليون نفس. أراهنك أنك إذا استطعت الدخول إلى رؤوسهم فستجد أن ثلثهم راضٍ تماماً بالزوجة والأطفال والأصدقاء والمكتب. وستجد ثلثاً آخر يشعر بنوع من القلق وعدم الراحة، لكنه لا يعترف بهذا. وأما الثلث الأخير فهو البائسون... وهم يعرفون ذلك. إنهم يمقتون هذا الضجيج كله، وهذا الكلام الكبير، ولعبة الانطلاق إلى الأمام... وقد ملّوا من زوجاتهم... وهم يرون أن لديهم أسرة من الحمقى ـ على الأقل عندما يبلغ الواحد منهم أربعين أو خمسة وأربعين عاماً، فإنه يصاب بالملل ـ وهم يكرهون الأعمال، ويوَدّون الذهاب إلى أي مكان ـ ما هو سبب عمليات الانتحار «الغامضة» الكثيرة التي تحدث؟ وما السبب الذي جعل مواطنين متميزين كثيرين يذهبون إلى الحرب؟ أتظن أن ما يدفعهم إلى فعل ذلك هو الوطنية حدها؟».

قال بابت منزعجاً: «وماذا تتوقع؟ أتظن أننا أتينا إلى هذا العالم لكي نمضي فيه أوقاتاً هيّنة طيبة ـ ما هذا؟ ... أتظن أننا جئنا لننام على فراش من الزهور؟ أتظن أن الإنسان خُلِقَ ليكون سعيداً فقط؟».

«ولمَ لا؟ رغم أنني لم أعثر على أحد يعرف حقاً سبب وجود الإنسان!».

«نحن نعرف ـ ليس من الكتاب المقدس وحده، لكن الأمر منطقي ـ أن الإنسان الذي لا يتكاسل، والذي يقوم بواجبه، حتى إذا وجد هذا الواجب مملاً بعض الشيء، فإنه لا يكون إلا... طيبًا، إنه شخص ضعيف، ببساطة. بل يكون مدلَّلاً في الحقيقة! فما الذي تقترحه؟ انظر في الحالات العملية! إذا مل الرجل زوجته، فهل يجب أن أفهم منك فعلاً أن من حقه أن يرميها بعيداً ويتسلل إلى غيرها، أو حتى أن يقتل نفسه؟».

«يا ربي! لا أعرف ما هو من «حق» الرجل! ولست أعرف علاجاً للملل. ولو أنني أعرف، لكنت أول فيلسوف يملك العلاج الشافي من أجل الحياة. لكنني أعرف عشر مرات أن أناساً كثيرين يجدون حياتهم بليدة، بليدة من غير ضرورة، ولا يعترفون بهذا. وأعتقد أننا إذا أفصحنا عما في نفوسنا واعترفنا بذلك أحياناً، بدلاً من أن نظل لطيفين صابرين أوفياء ستين عاماً، ثم لطيفين صابرين موتى إلى الأبد... فلماذا؟... ربما... لعلنا نستطيع أن نجعل الحياة أكثر متعة».

غرق الاثنان في متاهة من الأفكار. بلغ انزعاج بابِت حَدّاً فظيعاً. كان بول جريئاً، لكنه لم يكن واثقاً تماماً من أنه جريء. ومن حين لآخر، كان بابِت يوافق بول فجأة على ما يقوله فيقرّ بأشياء تناقض كل دفاعه عن الواجب وعن الصبر المسيحي. وكان يشعر بمتعة غريبة طائشة مع كل إقرار من جانبه. وفي النهاية قال:

«انظر هنا يا صديقي بول! لقد تحدثت كثيراً عن مواجهة الأمور، لكنك لا تواجه شيئاً! لماذا لا تواجه؟».

«لا أحد يواجه! فالعادة قوية جداً. لكن... يا جورجي، أنا أفكر منذ فترة في فتاة لطيفة ـ أوه، لا تقلق، يا نصير المرأة الواحدة! ما أتحدث عنه أمر لائق تماماً. والظاهر أن الأمر قد سُوّي الآن، أليس كذلك؟ ... هذا بالرغم، طبعاً، من أن زيلا لا تزال تطالبني برحلة مكلفة إلى نيويورك وإلى أتلانتيك سيتي... الأضواء الساطعة، وحفلات الكوكتيل المسروقة، وزوج من الأحذية الجلدية من أجل الرقص... لكنَّ أسرتينا، أسرتَيْ بابِت وريزلينغ، سوف تذهبان إلى بحيرة سوناسكوام، أليس كذلك؟ لماذا لا نستطيع، أنا وأنت، أن نجد عذراً ما ـ لنقل مثلاً إن لدينا عملاً في نيويورك ـ ونذهب إلى ولاية مين قبلهم بأربعة أيام أو خمسة؟ ... وهناك نتسكّع على هوانا، وندخّن، ونطلق الشتائم، ونكون طبيعيين؟».

قال بابِت معجباً: «عظيم! فكرة عظيمة!».

منذ أربعة عشر عاماً، لم يذهب بابِت في عطلة واحدة من غير زوجته. وما كان أحد منهما يصدّق أنه قادر على ارتكاب هذه الفِعْلة المتهورة. كان في نادي الرياضيين أعضاء كثر يذهبون في رحلات تخييم من غير زوجاتهم. لكنهم كانوا مهتمين، رسمياً، بالصيد، وبصيد الأسماك؛ بينما كانت أنواع الرياضة المقدَّسة، التي لا تتغير، لدى بابِت وبول ريزلينغ الغولف والسيارات ولعبة البريدج. ومن شأن قيام هواة صيد الأسماك أو الغولف بتغيير عاداتهم أن يكون خروجاً عن الانضباط المفروض ذاتياً! وقد يسبب صدمة لكل مواطن سليم التفكير.

قال بابِت متبجحاً: «ولماذا لا نذهب إلى بيوتنا ونقول «سنسبقكم، هذا كل ما في الأمر؟»... هذه ليست جريمة! يمكنك أن تقولها لزيلا بكل بساطة».

«لا تستطيع أن تقول لزيلا أي شيء ببساطة. وماذا تظن يا جورجي؟... إنها من دعاة الأخلاق، مثلك تقريباً، وإذا قلت لها الحقيقة فسوف تظن أننا ذاهبان لملاقاة بعض السيدات في نيويورك. بل حتى ميرا ـ تلك التي لا تنق أبداً مثلما تفعل زيلا ـ سوف تقلق هي أيضاً. وستقول «ألا تريدني أن أذهب معك إلى مين؟ لن أذهب أبداً إذا كنت لا تريدني أن أذهب». وبعد ذلك تستسلم أنت حتى تحافظ على مشاعرها. أوه، يا للشيطان! دعنا نلعب لعبة صيد البط الآن!».

خلال لعبة صيد البط، وهي نوع مصغَّر من لعبة البولينغ، ظل بول صامتاً. وعندما خرجا وهبطا درجات النادي (ليس بعد أكثر من نصف ساعة على موعد رجوع بابِت إلى المكتب بحسب قوله للآنسة ماكغاون)، تنهّد بول وقال: «انظر يا صاحبي! ما كان يجوز أن أتحدث عن زيلا مثلما فعلت».

«وماذا في الأمر يا رجل! إنه تنفيس للضغط».

«أوه، أعرف هذا! بعد إنفاق فترة الظهيرة كلها متحدثاً في أشياء تقليدية، أصبح تقليدياً إلى حد يجعلني أخجل من محاولة إنقاذ حياتي من خلال التنفيس عما في صدري من مشكلات حمقاء!».

«يا بول، يا صاحبي، إن أعصابك متعبة بعض الشيء. سوف آخذك بعيداً. سوف أصلح هذا الأمر. سوف تكون لديّ صفقة مهمة في نيويورك ـ بالطبع، بالتأكيد! ... وسوف أحتاج إلى مشورتك في ما يتعلق بسقف ذلك البناء في نيويورك! سنفعل ما تحدّثنا عنه قبل قليل. وبعد ذلك لن يكون لدينا ما نفعله إلا أن نذهب إلى مين. وأنا... بول، عندما يكون الأمر هكذا بالنسبة لي، فلست أبالي بأن أنفّس عما في صدري. نعم... أحب أن أظهر كأنني واحد من الأقوياء! لكن، كلما كنت في حاجة إلى مساعدتي، فسوف أكون موجوداً في أي وقت! ليس هذا لأن... لكن أنت... لا أقصد طبعاً أنك لن تفعل شيئاً يمكن أن ... يمكن أن يعرِّض مركزك للخطر... هل تفهم ما أعنيه؟ إنني أخرق غريب الأطوار بعض الشيء، وأحتاج إلى وجودك. ونحن... أوه، اللعنة، لا أستطيع أن أقف هنا متكلّماً طيلة النهار! إلى العمل! إلى اللقاء! لا تسمح لأحد بأن يغشّك يا بول! أراك قريباً! إلى اللقاء!».

الفصل السادس

ـ 1 ـ

نسي كل شيء عن بول ريزلينغ نتيجة بعض التفاصيل المزعجة بعد الظهر. فبعد عودته إلى المكتب الذي بدا أنه قد عانى الكثير في غيبته، اصطحب بابِت «عميلاً محتملاً» لرؤية مبنى سكني من أربعة طوابق في منطقة لينتون. وقد سُرّ كثيراً لأن هذا العميل المحترم كان معجَباً بقدّاحة السجائر الجديدة. جعلته جِدّتها هذه يستخدمها ثلاث مرات... ويرمي سجائره من السيارة قبل أن تصل إلى منتصفها قائلاً: «عليّ أن أترك التدخين، بالتأكيد!».

قادتهما مناقشتهما المستفيضة لكل تفصيل من تفاصيل قَدّاحة السجائر الجديدة إلى الحديث عن المكاوي الكهربائية وأدوات تدفئة الفراش. اعتذر بابِت عن كونه تقليدياً إلى درجة مزرية لأنه لا يزال يستخدم كيس الماء الساخن. لكنه أعلَن أنه سوف يوصل التمديدات الكهربائية إلى شرفة النوم على الفور. كان لديه إعجاب شاعري هائل بالأجهزة الميكانيكية كلها، رغم قلة فهمه الفاضحة في هذا المجال. كانت هذه الآلات رمزاً للحقيقة والجمال عنده. وقد تعلم أن يكرر جملة واحدة تبدو واقعية عندما يرى أي آلية ذكية جديدة ـ مخرطة المعادن، أو مفحم السيارة ذي الفوّهتين، أو بندقية رشاشة، آلة اللحام بالأوكسي أسيتيلين ـ وكان يستخدم هذه الكلمات مرة بعد مرة مع إحساس مبهج بأنه صار من العارفين بالأمور التقنية.

كان عميله يشاركه عبادة الآلات. وصلا مسرورَيْن إلى المبنى، وراحا يتفحّصان ألواح السقف البلاستيك، والأبواب الخشب، والأرضية التي تقارب سماكتها سنتيمترين. ثم بدأت دبلوماسيات المفاجآت وإبداء الاستعداد للخضوع تحت الضغط، ثم فعل ما هو متفق على فعله أصلاً... هذا كله مما يمكن أن يؤدي إلى إبرام صفقة البيع ذات يوم.

وفي طريق عودته، اصطحب بابِت شريكه، والد زوجته، هنري ت. ثومبسون، من

ورشته لصنع خزانات المطابخ. مضيا إلى زينيث الجنوبية التي كانت منطقة ملوَّنة صاخبة مثيرة: مصانع جديدة مبنية من القرميد المفرد ولها نوافذ عملاقة من الزجاج والقضبان المعدنية، ومصانع قديمة من القرميد الأحمر وقد لطّخها القطران، وخَزّانات مياه عالية، وشاحنات حمراء كبيرة تشبه القاطرات، وأكثر من عشر شاحنات ضخمة تنقل السيارات من محطة نيويورك المركزية، وتنقل التفاح من البساتين ومن المنطقة الشمالية العظيمة ومن سهول القمح، وتأتي بالبرتقال من البساتين الجنوبية على المحيط الهادي.

أجريا حديثاً مع سكرتيرة شركة زينيث للمعادن، وذلك في ما يتعلّق بمشروع فَنّي مهمّ - سياج من الحديد المصبوب من أجل مقبرة ليندن لين. ثم انطلقا إلى شركة زيكو للسيارات حيث قابلا مدير المبيعات رويل رايلاند للحصول على سعر مخفَّض لسيارة من سيارات الشركة من أجل ثومبسون. كان بابِت ورايلاند عضوَين في نادي بوستر. وما كان أي عضو في هذا النادي يشعر بالارتياح إذا اشترى من عضو آخر شيئاً من غير الحصول على سعر مخفَّض. لكن هنري ثومبسون صاح: «أوه! فلتذهب هذه الشركة إلى الجحيم! لن أذهب إليهم زاحفاً حتى أتسوّل هذا التخفيض... لن أذهب إلى أحد». كان هذا أحد الاختلافات بين ثومبسون، الذي كان شخصاً على النمط القديم... رجل أعمال أميركي تقليدي متصلّب شمالي يحب المظاهر، وبين بابِت الذي كان ممتلئاً، ناعماً، فَعّالاً، مسايراً لزمانه... حديثاً إلى حد الكمال! وكلما قال ثومبسون بصوته الخارج من أنفه: «ضع توقيع جون هانكوك هنا». (كان جون هانكوك أحد الموقّعين على إعلان الاستقلال الأميركي. والمقصود: ضع توقيعك هنا)، كان بابِت يحس برغبة في الضحك بسبب هذه النزعة الريفية العتيقة... مثلما يشعر أي إنكليزي حقيقي برغبة في الضحك عندما يسمع أسلوب حديث الأميركيين. كان يعرف أنه شخص حَسَن النشأة بالمجمل، وأنه أكثر من ثومبسون رهافة وإحساساً بالجمال: إنه خريج كلية... وهو يلعب الغولف... وغالباً ما يدخّن السجائر بدلاً من السيجار... وعندما يذهب إلى شيكاغو، فإنه يحجز لنفسه غرفة لها حمّامها الخاص. كان يقول شارحاً الأمر لبول ريزلينغ: «المسألة كلها هي أن هؤلاء العجائز أصحاب الأطوار الغريبة يفتقرون إلى الرهافة الضرورية في زماننا هذا».

لكن بابِت كان يرى أن بعض الأشخاص يذهبون إلى أبعد مما يجب في هذه الرهافة المدنية. كان نويل رايلاند، مدير المبيعات في شركة زيكو، واحداً من خريجي جامعة برينستون التافهين. أما بابِت فكان بضاعة قياسية صحيحة آتية من الدكان الكبير الذي اسمه جامعة الولاية. كان رايلاند متأنّقاً؛ وكان يكتب رسائل مطوَّلة عن تخطيط المدن والغناء المجتمعي؛ ورغم كونه عضواً في نادي بوستر، فقد كان معروفاً عنه أنه يحمل في

جيبه أجزاء صغيرة من دواوين شعرية بلغات أجنبية. كان هذا! أكثر مما يجب بكثير! كان هنري ثومبسون حالة متأخرة عن الزمن الحاضر كثيراً؛ أما نويل رايلاند فكان متقدّماً إلى حد متطرّف. وأما من كان يقف بينهما... من يدعم الولاية فعلاً... من يدافع عن الكنائس الإنجيلية وعن الازدهار المحلي والأعمال السليمة... فكان هو بابِت نفسه، وأصدقاؤه.

مع هذا التقييم المنصف لنفسه، عاد بابِت إلى مكتبه منتصراً بعد أن تلقى وعداً بالحصول على تخفيض من أجل سيارة ثومبسون.

لكنه تنهَّد فجأة عندما دخل ممر مبنى ريفز: نسيت بول! علي أن... أوه، اللعنة على نويل رايلاند! اللعنة على تشارلي ماكيلفي! فقط، فقط لأنهما يجنيان مالاً أكثر مني... يجعلهما هذا يظنان أنهما أحسن مني! لن أقتل نفسي من أجل الانضمام إلى ناديهما! أنا... لا أعرف... اليوم... لا أشعر برغبة في العودة إلى العمل. أوه، طيب...».

ـ2ـ

رد على مكالمات هاتفية. وقرأ البريد عند الساعة الرابعة. ووقّع على رسائله الصباحية التي ظلت تنتظره. وتحدث مع أحد المستأجرين عن بعض الإصلاحات. وكافح أيضاً مع ستانلي غراف!

كان ستانلي غراف، موظف المبيعات الخارجي الشاب، يلمِّح دائماً إلى أنه يستحق زيادة في العمولة. وقد قال اليوم شاكياً: «أظن أنني يجب أن أحصل على علاوة إذا استطعت إنجاز بيع منزل هيلر. إنني ألاحق الأمر، وأعمل عليه كل مساء... تقريبًا!»

كثيراً ما كان بابت يقول لزوجته إن من الأفضل «إكرام الموظفين في المكتب وجعلهم سعداء بدلاً من التهجّم عليهم ودفعهم إلى العمل دفعاً ـ هذا ما يجعلهم يشتغلون أفضل!»... لكن عدم التقدير الذي سمعه من غراف أزعجه فعلاً. استدار إليه قائلاً: «انظر يا ستان! فلنجعل الأمر واضحاً! إن لديك فكرة، لا أعرف كيف، أنك أنت من يقوم بالبيع. من أين أتيت بهذا؟ وأين تظن نفسك يمكن أن تكون إذا لم يكن رأسمالنا من خلفك، وكذلك العقارات المعروضة لدينا، وكل الآفاق التي نعثر عليها من أجلك؟ كل ما عليك فعله هو التقيّد بنصائحنا وإنجاز الصفقة. إن حمال الحقائب نفسه يستطيع أن يبيع العقارات التي تعرضها شركة بابِت ـ ثومبسون! تقول إنك قد خطبت فتاة، لكن عليك أن تنفق كل أمسية في مطاردة المشترين. لا أفهمك... لماذا لا تريد أن تفعل هذا؟ ماذا تريد أن تفعل؟ تريد أن تجلس ممسكاً يدها؟ دعني أقول لك يا ستان... إذا كانت فتاتك تستحق الطعام الذي تأكله، فعليها أن تكون سعيدة عندما تعرف أنك ذاهب

لتكافح وتجني بعض المال من أجل عشّ الزوجية بدلاً من الجلوس معها مثل حمامتين عاشقتين. إن الشخص الذي يتذمّر من العمل وقتاً إضافياً... الذي يريد قضاء الأمسيات في قراءة قصص لا قيمة لها أو في المغازلة أو في تبادل أحاديث تافهة وسخافات مع فتاة من الفتيات... ليس شاباً طموحاً حيوياً... ليس صاحب رؤية!... ليس هو الشخص الذي نريده هنا. ما رأيك في هذا؟ ما هي فكرتك على أي حال؟ هل تريد أن تكسب المال وأن تكون عضواً مسؤولاً في المجتمع، أم أنك تريد أن تكون كسولاً من غير طموح ولا سمعة حسنة؟».

لم يكن غراف سهل التأثر بالكلام عن الرؤية والصفقات، كعادته: «تعرف أنني أريد أن أكسب المال! وهذا ما يجعلني أطلب علاوة! صدقني يا سيد بابِت!... لا أريد أن أغيّر اتفاقنا، لكن منزل هيلر هذا مصيبة. لن يشتريه أحد؛ فالأرضية متعفّنة والشقوق تملأ الجدران».

«هذا ما أعنيه بالضبط! إن المشكلات الصعبة من هذا القبيل هي ما يبعث الإلهام في نفس البائع الذي يحب مهنته؛ وهي ما يجعله يبذل أفضل ما يستطيع. ثم، يا ستان... الحقيقة أننا، ثومبسون وأنا، ضد فكرة العلاوات... هذه مسألة مبدأ! إننا نحبّك، ونريد مساعدتك حتى تستطيع الزواج، لكننا لا نستطيع أن نظلم موظفينا الآخرين. إذا بدأنا تقديم العلاوات... ألا ترى أننا سوف نجرح مشاعر بينيمان ولايلوك، ألا ترى أننا سنظلمهم؟ الصحيح هو الصحيح! والتمييز بين الناس ظلم! لن يكون في مكتبنا شيء من هذا! هل وصلتك الفكرة يا ستان؟ كان الحصول على موظفي مبيعات أمراً صعباً خلال الحرب. أما الآن، فثمة رجال كثيرون لا عمل لهم. ولا أظن أنك يمكن أن تعثر على أي شاب لامع لا يمكن أن يكون سعيداً إذا تمتّع بالفرص المتاحة لك... ولن يتصرف كما لو أنه يعتبرنا، ثومبسون وأنا، عدوَّين له... فلا يقوم بأي عمل من غير الحصول على علاوة. ماذا تقول... آه؟ ما رأيك في هذا؟».

تنهّد غراف متراجعاً ليخرجَ من الغرفة: «أوه ... طيب ... نعم ... بالطبع...».

قليلاً ما يخوض بابِت جدلاً مع موظفيه. فهو يحب أن يحب الناس الموجودين من حوله. وكان ينزعج عندما لا يحبه أحد منهم. ولم يكن يصيبه ذلك الذعر الذي يدفعه إلى الغضب إلا عندما يهاجمون المحفظة المقدسة. لكن، حتى في تلك الحالة، فإنه يوبخهم مستمتعاً بالمفردات التي يستخدمها وبحرارة فضائله... إنه خطيب موهوب صاحب مبادئ رفيعة. لقد كان شديد الانغماس في تقييم نفسه اليوم... وهذا ما جعله يتساءل إن كان ما قاله لستان عادلاً تماماً:

«لم يعد ستان ولداً... بعد كل حساب. ما كان يجوز لي أن أقسو عليه هكذا. لكن،

عجباً.. صار علي الآن أن أشوي الناس على الفحم من أجل مصلحتهم هم! إنه واجب مزعج، لكن... ربما كان ستان غاضباً الآن! ما الذي يقوله لماكغاون هناك؟».

هبّت من القسم الخارجي من المكتب ريح الكراهية الصقيعية فدمرت ارتياحه المعتاد عند المساء، قبل الذهاب إلى البيت. أزعجه أن يفقد تحبيذ موظفيه، التحبيذ الذي يجب أن يحرص المدير عليه دائماً! كان يغادر المكتب عادة تاركاً خلفه تعليمات كثيرة، ممتعة، في ما يتعلّق بالمهمات الضرورية من أجل الغد... حتى تحرص الآنستان ماكغاون وبانيغان على الوصول في وقت مبكر... وحتى يذكره أحد بأن يتصل مع كونراد لايت فور وصوله إلى المكتب. لكنه غادر المكتب اليوم بحيوية مصطنعة توحي بالارتباك. كان خائفاً من وجوه موظفيه الجامدة... من العيون المسلطة عليه ـ كانت الآنسة ماكغاون منكبّة على الآلة الكاتبة، لكنها رفعت رأسها محدقة فيه. وراحت الآنسة بانيغان تنظر من فوق دفتر حساباتها. ونظر إليه مات بينيمان من خلف مكتبه في زاويته المظلمة. أما ستانلي غراف فظل متجهّم الوجه من غير تعبير... أحسّ كأنه محدث نعمة واقف أمام لباقة خادمه المتجهّمة. أزعجته فكرة أنهم سوف يضحكون خلف ظهره! بذل جهداً حتى يصطنع بهجة عابرة، ثم مشى مضطرباً بهيئة ودية خرقاء، وخرج من الباب أخيراً.

لكنه نسي بؤسه كله عندما رأى سحر فلورال هايتس من شارعه: السقوف المصنوعة من قرميد أحمر وألواح خضر، والشرفات الزجاج المتألقة في الشمس، والجدران المصنوعة من فولاذ لا يصدأ.

توقف حتى يخبر جاره العالم هاورد ليتلفيلد بأن المساء يمكن أن يكون بارداً، رغم أن النهار كان ربيعياً! دخل منزله صائحاً بزوجته «أين أنت؟»... من غير رغبة محدّدة في معرفة مكانها. تفحّص المرج أمام البيت ليرى إن كان العامل قد شذّبه ومشّطه جيداً. وبشيء من عدم الرضا، بعد مناقشة مسهبة لهذا الأمر مع السيدة بابِت وتيد وهاورد ليتلفيلد، توصل أخيراً إلى أن العامل لم يقم بعمله كما يجب. ذهب وقصّ خصلة أو اثنتين من الأعشاب مستخدماً أكبر مقص موجوداً على طاولة زينة زوجته، ثم أخبر تيد أن من السخافة استخدام عامل لهذه الغاية... «عندما يكون لدينا شخص كبير مثلك، فإن عليه أن يقوم بهذه الأعمال حول المنزل بنفسه». لكنه قال في نفسه إنه أمر حسن أن يلاحظ الجيران كلهم أن أحواله مزدهرة إلى درجة تجعل ابنه غير مضطر إلى الاهتمام بالعمل خارج المنزل.

وقف في شرفة النوم وأدى تمريناته الرياضية لذلك اليوم: اليدان ممدودتان جانباً مدة دقيقتين... مرفوعتان إلى الأعلى مدة دقيقتين. وخلال ذلك كان يبربر: «علي أن أزيد هذه التمرينات... أن أحافظ على شكلي». ذهب بعد ذلك ليرى إن كانت ياقة قميصه في حاجة إلى تبديل قبل العشاء. وكالعادة، كان من الواضح أن لا حاجة إلى تبديلها!

قرعت جرس العشاء الخادمة اللتوانية ـ الكرواتية التي كانت امرأة ضخمة قوية.

كان اللحم المشوي، والبطاطا المحمَّرة، والفاصولياء الخضراء، في غاية الروعة هذا المساء. وبعد كمية كافية من الكلام عن تحسّن أحوال الطقس، وعن عمولة الأربعمئة والخمسين دولاراً التي تقاضاها اليوم، وعن تناوله الغداء مع بول ريزلينغ، وكذلك عن المزايا المؤكدة لقدّاحة السجائر الجديدة، انتقل إلى الإعلان الوقور... «أفكر، نوعاً ما، في شراء سيارة جديدة. لا أظن أننا سنشتريها قبل السنة القادمة... لكن، ربما، مع ذلك».

صاحت ابنته الكبرى فيرونا: «أوه، يا أبي، إذا اشتريت سيارة جديدة، فلماذا لا تشتري سيارة لها سقف؟ ستكون أنيقة تماماً! السيارة المغلقة مريحة أكثر من السيارة المفتوحة... بكثير».

«حسنًا... لا أعرف! لكنني أحب السيارات المفتوحة. يحصل المرء على كمية أكبر من الهواء المنعش في السيارات المفتوحة».

قال تيد: «أوه، كيف هذا... هذا لأنك لم تجرب سيارة مغلقة من قبل. فلنشتر سيارة مغلقة. إنها تعطي المرء مظهراً أكثر أهمية».

وقالت السيدة بابِت: «إن السيارة المغلقة تحافظ على أناقة الملابس». وقالت فيرونا: «وهي تحمي الشعر من الهواء». قال تيد: «مظهرها رياضي أكثر». وقالت تينكا الصغيرة: «أوه! اشتر لنا سيارة مغلقة! إن لدى والد ميري إيلين سيارة مغلقة». صاح تيد: «أوه! إن لدى الناس جميعاً سيارات مغلقة... إلا نحن!».

واجههم بابِت: «لا أظن أن لديكم أي شيء مزعج جداً يجعلكم تشتكون وتتذمَّرون! وعلى أي حال فإنني لا أقتني سيارة لمجرد جعلكم تبدون من أصحاب الملايين... أيها الأولاد! أنا أحب السيارة المكشوفة. يستطيع المرء إنزال الغطاء في أمسيات الصيف ليتمتع بقيادةِ السيارة وبالهواء اللطيف المنعش. ثم... إن السيارة المغلقة تكلف مالاً أكثر».

قال تيد مندفعاً: «آ... عجيب، عجيب... إذا كان آل دوبلبراو يستطيعون شراء سيارة مغلقة، فأظن أننا نستطيع شراء سيارة مغلقة أيضاً».

«هاه! إنني أكسب ثمانية آلاف في السنة مقابل الآلاف السبعة التي يكسبها هو! لكنني لا أنفقها كلها ولا أبددها هنا وهناك مثلما يفعل هو! لست من المقتنعين بالذهاب هنا وهناك وإنفاق كمية ضخمة من المال من أجل التفاخر فقط...».

تابعا حديثهما بحماسة وصولاً إلى أجسام السيارات الانسيابية، وقدرتها على تسلّق المنحدرات، والإطارات الحديثة، والفولاذ المقوّى بالكروم، وأنظمة الإشعال... وألوان السيارات أيضاً! كان ذلك أكثر بكثير من دراسة في مجال النقل... كان طموحاً وتطلّعاً إلى مراتب الفروسية العليا.

في مدينة زينيث، في القرن العشرين البربري، كانت سيارة الأسرة تشير إلى مكانتها الاجتماعية، تماماً مثلما تشير رتبة النبالة إلى موقع المرء في الأسرة الإنكليزية المالكة... بل كانت أكثر دقة منها في واقع الأمر إذا أخذنا في الاعتبار رأي عائلات المقاطعة القديمة في بارونات المشروبات وفيكونتات مصانع القطن الذين ظهروا حديثاً. لكن تفاصيل الأسبقية لم تكن محددة تحديداً رسمياً على الإطلاق! فلا وجود لبلاط يقرر ما إذا كان الابن الثاني لسيارة بيرسي آرو يجب أن يدخل إلى قاعة الطعام قبل الابن الأول لسيارة بويك رودستر!... لكن، ما كان هنالك شك أبداً في الأهمية الاجتماعية لكل منهما. كان بابِت طامحاً إلى رئاسة البلاد عندما كان صبياً؛ أما ابنه تيد فطموحه منحصر في الحصول على سيارة باكارد توينيسيكس، وفي الوصول إلى موقع معترَف به في عالم أصحاب السيارات.

سرعان ما تبخّرت الحظوة التي نالها بابِت لدى أفراد أسرته بحديثه عن السيارة الجديدة عندما أدركوا أنه لم يكن يعتزم شراءها هذا العام. قال تيد متحسّراً: «أوه، عجباً! إن سيارتنا القديمة تبدو كأن فيها براغيث وتقشُّر طلاءها». وقالت السيدة بابِت شاردة الذهن: «أنت أب كثير الكلام». قال بابِت لابنه غاضباً: «وإذا كنت من أحسن الناس...أنت... وأشياء من هذا القبيل، لست في حاجة إلى أخذ السيارة هذا المساء». قال تيد موضحاً: «لم أكن أقصد...». واستمرت جلسة العشاء هكذا... ببهجتها العائلية المعتادة... حتى وصلت إلى نقطة محتومة قال بابِت عندها محتجّاً: «هيا، هيا الآن، لا نستطيع أن نظل جالسين هنا طيلة المساء، أعطوا الفتاة فرصة لتنظيف الطاولة».

كان بابِت غاضباً... «ما هذه الأسرة؟ لا أعرف كيف نتوصل كلنا إلى الشجار بهذه الطريقة! أحِب أن أذهب إلى مكان حيث أستطيع أن أستمع إلى أفكاري... بول... ولاية مين... ارتداء البنطلون القديم... والضحك... والوقت الممتع». قال لزوجته بطريقة حذرة: «جرت مراسلات بيني وبين رجل في نيويورك. وهو يطلب مني أن أراه هناك من أجل صفقة عقارية... قد لا يحدث ذلك حتى الصيف. آمل ألا يستدعيني في الوقت الذي حددناه مع آل ريزلينغ للذهاب إلى مين. سيكون معيباً ألا نتمكن من الذهاب إلى تلك الرحلة معاً. لا بأس... لا فائدة من القلق بسبب ذلك الآن».

هربت فيرونا بعد العشاء مباشرة... من غير أي مناقشة، باستثناء ملاحظة آلية من بابِت: «لماذا لا تسهرين في البيت أبداً؟».

وفي غرفة الجلوس، عند زاوية الطاولة، جلس تيد يراجع دروسه: الهندسة المستوية، وخطب شيشرون، واستعارات ألبير كامو المرهِقة.

قال محتجّاً: «لا أعرف لماذا يطلبون منا قراءة هذه الأشياء البالية العتيقة التي كتبها وردزوورث وميلتون وشكسبير، وكل هؤلاء الذين عاشوا منذ زمن بعيد! أوه... أظن

أنني أتحمل أن أشاهد مسرحية لشكسبير إذا كانت فيها مناظر جميلة وطُرف كثيرة... أما أن أجلس هنا بدم بارد لأقرأها... هؤلاء المعلّمون... كيف يفعلون بنا هذا؟».

قالت السيدة بابِت متأمِّلة وهي ترتق الجوارب: «نعم! أتساءل أيضاً عن السبب. لا أريد طبعاً أن أعارض الأستاذة، ولا أن أعارض أحداً، لكنني لا أظن أن لدى شكسبير شيئًا... لا أقول هذا لأنني قرأت شيئاً من أعماله،... لكن، عندما كنت صغيرة، كانت الفتيات تُسمِعنني بعض المقاطع. ولم تكن تلك المقاطع، في الحقيقة، لطيفة على الإطلاق».

نظر بابِت منزعجاً وقد رفع رأسه عن القصص الهزلية في صحيفة إيفنيغ إدفوكات. هذه القصص هي الأدب والفن الذي يفضِّله... هذه القصص اليومية المصوَّرة... حيث يضرب السيد موت السيد جيف بالبيض الفاسد؛ وحيث تصحِّح الأم كلمات الأب السوقية بالشوبك الذي تستخدمه لمد العجين. وبوجه تلوح عليه معالم الوقار والإخلاص، كان بابِت يتنفس تنفّساً ثقيلاً من فمه المفتوح ويبحر بفروسية عبر الصور واحدة بعد أخرى. كان يكره أن يقاطعه أحد خلال طَقْسِهِ هذا. كما شعر أيضاً أنه ليس مرجعاً حقيقياً في ما يتعلق بشكسبير. لم تزوِّده افتتاحيات إدفوكات تايمز ولا إيفنيغ إدفوكات، ولا نشرة مجلة غرفة تجارة زينيث بأي آراء في هذا الموضوع. وكان بابِت يرى أن من الصعب تكوين رأي أصيل في أي موضوع قبل أن تتناوله واحدة من هذه الصحف. لكنه ما كان قادراً على البقاء بعيداً عن جَدَل مفتوح، حتى وإن خاطر بالخوض في مياه يجهلها.

«سأقول لك لماذا يتعيّن عليك أن تدرس شكسپر، وكل هؤلاء. ذلك لأنهم مطلوبون من أجل دخول الكلية... هذا كل ما في الأمر! شخصياً، لا أعرف لماذا يتمسَّك بهم نظام التعليم العصري الموجود لدينا في الولاية! وسوف يكون أفضل كثيراً أن تتلقى دروساً في لغة الأعمال، وأن تتعلم كيف تكتب إعلاناً، أو أن تتعلم كتابة رسائل تستطيع أن تجذب الناس. لكن، هكذا هو الأمر... ولا مجال للجَدَل أو المناقشة فيه! المشكلة عندك يا تيد هي أنك تريد أن تفعل شيئاً مختلفاً! إذا كنت ستذهب إلى كلية الحقوق... وهذا ما سوف تفعله! ـ لم تسنح لي فرصة الذهاب إليها بنفسي؛ لكنني سأحرص على أن تذهب أنت ـ إذاً، عليك أن تدرس كل ما تستطيع دراسته في اللغتين الإنكليزية واللاتينية».

«يا للهول! لا أعرف فائدة كلية الحقوق ـ ولا حتى فائدة إنهاء المدرسة الثانوية؟ لكنني لا أريد الذهاب إلى الكلية تحديداً! صدقني... هنالك أشخاص كثيرون تخرّجوا من الكليات ولم يفلحوا حتى الآن في تحقيق دخل كالذي يحققه الأشخاص الذين ذهبوا إلى العمل في سن مبكرة. خذ شيني بيتر مثلاً... أستاذ اللاتينية في المدرسة الثانوية... إنه خِرّيج... لا أعرف ماذا... وفي جامعة كولومبيا. وهو يمضي الليل كله

في قراءة كتب قديمة ويتكلم كلاماً كبيراً عن «قيمة اللغات»... لكن هذا المسكين لا يجني أكثر من ألف وثمانمئة دولار في السنة!... مبلغ لا يقبل به أي بائع متجوِّل! أعرف ما أحب فعله. أحب أن أصبح طياراً، أو أن يكون عندي مرأب كبير للسيارات، أو... كان أحد أصدقائي يخبرني عن هذا أمس... أريد أن أكون واحداً من هؤلاء الذين ترسلهم شركة ستاندرد أويل إلى الصين. هناك تعيش في مجمَّع سكني ولا يكون عليك أن تعمل أبداً. هناك ترى العالم، وتلك الأبراج في الصين، والمحيط، وكل شيء! وعند ذلك، أستطيع أن أتلقّى دروساً بالمراسلة. إن هذا شيء حقيقي!! لا يكون عليك أن تجيب على أسئلة سيدة عجوز جليدية الوجه تحاول التباهي أمام مديرها، بل تستطيع أن تدرس أي موضوع يعجبك. استمع إلى هذه! لقد قصصت بعض الإعلانات عن دورات رائعة».

أخرَجَ من الغلاف الخلفي لكتاب الهندسة كمية ضخمة من إعلانات دورات الدراسة المنزلية... تلك الدورات التي تجسِّد المساهمة التي قدمتها حيوية التجارة الأميركية وعمق بصيرتها إلى علوم التربية والتعليم. كانت في الإعلانات صورة بالحجم الكامل لرجل شاب له حاجب مرسوم، وفَكٌّ حديديٌّ، وجوارب حرير، وشعر لامع كأنه مصنوع من الجلد. كان واقفاً يدسّ إحدى يديه في جيب بنطاله ويمد يده الأخرى مشيراً بإصبعه... كان يمارس سحره على جمهور مكوَّن من رجال لهم لحى رمادية وكروش كبيرة ورؤوس صلعاء، وعليهم كل علامات الحكمة والازدهار المادي. ومن فوق الصورة كان هنالك رمز تربويّ متألّق... لم يكن الرمز ذلك المصباح العتيق، ولا المشعل، ولا بومة الحكمة... بومة مينيرفا، بل صف من علامات الدولار. كان النص على النحو التالي:

$ $ $ $ $ $ $ $ $ $

القوة والثروة في القدرة على التحدث أمام الجمهور

قصة رُوِيَت في النادي

من تظنون أنني صادفت تلك الليلة في مطعم ديلوكس؟ إنه صاحبي القديم فريدي دوركي... ذاك الذي كان يعمل، بكل قواه، كموظف شحن في شركتي القديمة. كنا نضحك وندعو ذلك الزميل العزيز باسم السيد فأر. وذات يوم... لأنه كان خجولاً وجباناً... أصابه الذعر أمام المدير... ولم يحظَ بأي اعتراف بالجهد الذي كان يبذله. هل صادفت ذلك الرجل في مطعم ديلوكس؟ نعم، نعم! لو لم يكن قد طلب كمية ضخمة من الطعام مع كل «الإضافات»، من الكرفس حتى الجوز! ... وبدلاً من رؤيته محرَجاً عند مخاطبة النادلات، مثلما كنت أرى ذلك المسكين خلال بداية فترة شركتنا

القديمة في لانغساين، كان يتكلم معهن بلهجة آمرة ويرسلهنّ هنا وهناك كما لو أنه مليونير!

سألته، حذراً، عما كان يفعله هناك. ضحك فريدي ثم قال: «انظر يا صاحبي العزيز! أظن أنك تتساءل عما أصابني. سوف تسعدك معرفة أنني الآن مساعد المدير في الشركة القديمة؛ وأنني أسير في طريق مباشر إلى السلطة والثراء؛ وأنني أعتزم شراء سيارة باثنتي عشرة أسطوانة؛ كما أن زوجتي تُظهرني بأفضل صورة في أعلى الدوائر الاجتماعية، ويدرس أولادي في مدارس من الطراز الأول».

* * *

التعليم الذي نقدّمه لك

كيف تخاطب مجموعتك؟

كيف تقترح الأنخاب؟

كيف تروي قصصاً حوارية؟

كيف تتقدم لخطبة سيدة؟

كيف تقيم الولائم؟

كيف تجري محادثات مقنعة من أجل المبيعات؟

كيف تبني لنفسك مجموعة مفردات كبيرة؟

كيف تبني شخصية قوية؟

كيف تصبح مفكراً عقلانياً قوياً أصيلاً؟

كيف تكون الرجل الأول؟

* * *

البروفسور و. ف. بيت

مؤلف كتاب «دورة مختصرة في «التكلّم أمام الجمهور». يمكن بسهولة اعتباره الشخصية الأولى في ميدان الأدب العملي وعلم النفس والخطابة. خريج إحدى جامعاتنا الكبرى. وهو أيضاً محاضر كثير الأسفار، مؤلف كتب وأشعار، إلخ. رجل يمتلك الشخصية الفريدة التي تتمتع بها العقول الكبرى. وهو مستعد لأن يعطيك كل أسرار ثقافته وقوّته الجارفة من خلال بضعة دروس سهلة لا تتعارض مع مشاغلك الأخرى.

* * *

«هكذا حدث الأمر! صادفت إعلاناً عن دورة يزعمون أنها تعلّم الناس كيف يتحدثون بسهولة من غير اضطراب، وكيف يجيبون عن الشكاوى، وكيف يطرحون

اقتراحاً على المدير، وكيف يُقنعون المصرف بمنحهم قرضاً، وكيف يجعلون جمهوراً كبيراً من المستمعين مسحوراً بهم وبنكتهم وروح الطرافة والإلهام لديهم، إلخ. وكان الخطيب الممتاز، البروفسور والدو ف. بيت هو واضع منهاج هذه الدورة. لقد كانت عندي شكوك أيضاً! لكني كتبت إلى المؤسسة التي نشرت هذه الدروس (على بطاقة بريدية عادية عليها الاسم والعنوان) ـ أرسلوا لي نسخة للتجربة... يردّون لك المال إذا لم تعجبك النتيجة. كانت عبارة عن ثمانية دروس بسيطة بلغة واضحة يفهمها كل إنسان، فدرستها كلها خلال بضع ساعات في الليل، ثم بدأت تطبيق ما تعلمته على زوجتي. وسرعان ما وجدت أنني صرت قادراً على الحديث بطلاقة، حتى مع المدير! وحصلت على ما أستحقه من تقدير مقابل العمل الجيد الذي كنت أقوم به. وهكذا راحوا يقدّرون عملي ويمنحونني ترقيات سريعة. قل لي يا صاحبي... كم تظن أنهم يدفعون لي الآن؟ ستة آلاف وخمسمئة دولار في السنة! ثم إنني وجدت نفسي أيضاً قد صرت قادراً على التكلم في أي موضوع أمام أي جمهور كبير فأسحره تماماً. وبما أنك صديقي فإنني أنصحك بالكتابة إليهم وطلب الحصول على هذه الدروس (لست ملزماً بذلك) إضافة إلى لوحة قيّمة بأسلوب الفن الحر. إليك العنوان:

شركة منشورات التعليم المختصر

ديسك ـ وا ـ ساندبيت، أيوا

هل أنت من أصحاب المئة بالمئة، أم أنك من أصحاب العشرة بالمئة؟».

* * *

ومن جديد، وجد بابِت نفسه من غير سلاح يمكّنه من إعطاء رأي فاصل في الموضوع. لم يرَ من قبل، في عالم السيارات أو العقارات، شيئاً يشير إلى ما يجب أن يراه المواطن القوي والشخص الطبيعي في ما يتعلق بتكوين الثقافة عن طريق البريد. بدأ كلامه بشيء من التردد:

«طيب... يبدو هذا مقنعاً. شيء جيد بالتأكيد أن يستطيع المرء الخطابة. أفكر أحياناً أن موهبتي في هذا الأمر محدودة بعض الشيء. وأعرف تماماً أن من الأسباب التي تجعل بعض الأشخاص، منَ أمثال تشان موت، قادرين على تحقيق إنجازات طيبة في عالم العقارات، إنهم يستطيعون أن يتحدّثوا جيداً، حتى عندما لا يعرفون ما يقولون! طريقة ظريفة بالتأكيد... طريقتهم في إصدار هذه الدورات في أيامنا هذه، في مواضيع كثيرة. لكنني أقول لك رغم ذلك: لا حاجة إلى إنفاق كثير من المال على هذه الأمور طالما أن المرء قادر على الحصول على دورات تعليمية من الطراز الأول، في الفصاحة

واللغة الإنكليزية، في مدرسته نفسها ـ مدرسة لديها واحد من أكبر المباني المدرسية في البلاد كلها!».

قالت السيدة بابِت مرتاحة: «هكذا هو الأمر». لكن تيد قال متذمراً:

«نعم، لكن... يا أبي، إنهم يعلّمون في المدرسة الكثير من الأشياء القديمة التي لا فائدة عملية لها على الإطلاق ـ ما عدا التدريب اليدوي والآلة الكاتبة وكرة السلة والرقص ـ أما في دورات المراسلة هذه، فأنت تستطيع الحصول على مختلف الأشياء التي يسهُل تعلّمها. انظر... استمع إلى هذه:

«هل تستطيع أن تكون رجلاً؟

إذا كنت تمشي مع أمك أو أختك أو صديقتك، وتفوّه أحد ما بملاحظة جارحة أو استخدم لغة غير مناسبة، فهل ستشعر بالعار إذا لم تتمكن من الدفاع عنها؟ حسن جداً... لكن، هل تستطيع الدفاع عنها؟

إننا نعلمك الملاكمة والدفاع عن النفس، عن طريق المراسلة. كتب إلينا تلاميذ كثر يقولون إنهم صاروا قادرين، بعد بضعة دروس، على ملاكمة خصوم أكبر منهم وأثقل منهم وزناً والتغلب عليهم. تبدأ الدروس بحركات بسيطة تنفذها أمام المرآة ـ تمد يدك أمامك لتجعلها هدفاً لك... بحركة تشبه حركة اليد عند السباحة الصدرية، إلخ. وقبل أن تدرك ذلك، تصبح قادراً على تسديد اللكمات بشكل علمي، وعلى الغطس إلى الأسفل، ومراقبة الخصم وخداعه، كما لو أن لديك خصماً حقيقياً واقفاً أمامك».

قال تيد: «أوه! ربما يعجبني هذا! سوف أجعل العالم كله يرى قدراتي! أحب أن أمسك بذلك الشخص الذي أعرفه في المدرسة... صاحب اللسان الطويل... أن أمسك به وحده...».

قال بابِت غاضباً: «كلام فارغ! فكرة لا معنى لها! أسخف ما سمعته في حياتي كلها».

«طيب... افترض أنني كنت ماشياً مع ماما أو مع روني، وأطلق أحد الناس ملاحظة مزعجة أو استخدم لغة غير مناسبة. ماذا تفعل؟».

«لماذا... ستهرب! أظن أنك سوف تحطم الرقم القياسي في سباق المئة متر!».

«لن أفعل هذا، لن أفعل هذا! سوف أقف في وجه أي شخص تافه يقول كلاماً مزعجاً عن أختي... وسوف أجعله يرى...».

«انظر... أيها الملاكم الشاب العظيم! إذا أمسكت بك تعارك أحداً فسوف أشبعك ضرباً ـ سوف أفعل هذا من غير أن أتدرَّب على مد يدي أمامي قبالة المرآة أيضاً!».

قالت السيدة بابِت بطريقة هادئة: «لماذا يا عزيزي تيد؟ هذا ليس لطيفاً أبداً! ليس لطيفاً أن تتكلم عن العراك بهذه الطريقة!».

«طيب... يا ربي! ألا ترون أنها طريقة جيدة لكي يتحسَّن المرء ـ ثم افترضي أنني كنت ماشياً معك، يا ماما، ووجَّه إليك أحدهم ملاحظة مزعجة...».

قال بابت: «لن يوجِّه أحد ملاحظة مزعجة إلى أي شخص. لن يحدث هذا إذا ظل المرء جالساً في بيته يراجع دروس الهندسة ويهتم بشؤونه الخاصة بدلاً من التجوال كثيراً هنا وهناك وبدلاً من الذهاب إلى صالات الألعاب والمشروبات وإلى الأماكن التي لا عمل له فيها!».

«لكن يا أبي... إذا حدث ذلك!».

قالت السيدة بابِت مزقزقة: «طيب... إذا حدث هذا... فلن أمنحهم شرف الالتفات إلى كلامهم! ثم إن هذا لا يحدث أبداً! يسمع المرء دائماً كلاماً عن امرأة لحق بها شخص ما ووجَّه إليها إهانات، وكل هذه الأشياء. لكني لا أصدِّق كلمة واحدة من هذا... أو يمكن أن يحدث ذلك بسبب غلطتها هي... بسبب طريقة نظر المرأة إلى شخص من الأشخاص. أما أنا... فمن المؤكد أن أحداً لم يوجه لي أي إهانة...».

«أوووف... أمي... افترضي فقط أن ذلك حدث معكِ ذات مرة! افترضي فقط! ألا تستطيعين افتراض شيء؟ ألا تستطيعين تخيّل شيء؟».

«أستطيع بالتأكيد أن أتخيل الأشياء! الفكرة هي...».

«تستطيع أمك أن تتخيَّل الأشياء طبعاً ـ وتستطيع أن تفترض أيضاً! أتظن أنك الشخص الوحيد الذي يملك خيالاً في هذه الأسرة؟ لكن ما فائدة هذه الافتراضات كلها؟ لا تفيدك الافتراضات شيئاً. ولا معنى لافتراض حدوث أشياء غير موجودة عندما يكون لديك وقائع حقيقية كثيرة يجب أن تأخذها في الاعتبار...».

«انظر يا أبي! افترض... أقصد، فقط... افترض أنك كنت في مكتبك وجاء أحد منافسيك من جماعة العقارات...».

«سمسار عقاري».

«... سمسار عقاري ممَّن تكرههم... جاء إليك...».

«أنا لا أكره أي سمسار عقارات».

«لكن، افترض أنك تكرهه!».

«لا أريد أن أفترض شيئاً من هذا القبيل! إن في مجال عملي زملاء كثيرين يحسدون منافسيهم ويكرهونهم. لكن، إذا كنت أكبر سناً بقليل، وإذا كنت تفهم في الأعمال، بدلاً من الذهاب كثيراً إلى السينما والجري هنا وهناك حول كثير من الفتيات الحمقاوات...

بفساتينهن القصيرة التي تصل إلى الركبة، ووجوههن المرسومة المغطاة بالبودرة وأحمر الشفاه... ولا يعلم إلا الله بماذا أيضاً... إذا كنَّ من فتيات الكورس، فسوف تعرف عند ذلك ـ وسوف تفترض أيضاً ـ أن الشيء الوحيد الذي أؤيده في مجال الأعمال العقارية في زينيث هو أن علينا جميعاً أن نتحدث في ما بيننا بروح الوِدّ والصداقة، وأن نشيع جواً من الأخوَّة والتعاون. وهكذا ترى أنني، بالتأكيد، لا أستطيع أن أفترض، ولا أستطيع أن أتخيَّل، أنني يمكن أن أكره أي سمسار عقارات... ولا حتى ذلك القذر، الذي يشبه حَيّة في المجتمع، سيسيل رونتري!».

«لكن...».

«لا مجال لأي«إذا» أو «أو» أو «لكن» في هذا الأمر! لكن، إذا كان من المحتمل أن أضرب أحداً، فلن أكون في حاجة إلى أي غطسات بديعة أو حركات أمام المرآة تشبه حركات السباحة، أو أي شيء من هذه التعليمات والحركات الأنيقة! افترض أنك كنت في مكان ما وأسمَعَك أحد الأشخاص كلمات بذيئة! هل تظن أنك ستكون راغباً في الملاكمة، في القفز من حوله هنا وهناك مثلما يفعل معلّم الرقص؟ سوف تسدّد إليه لكمة واحدة تطرحه أرضاً (آمل، على الأقل، أن يستطيع ابني فعل هذا!)... ثم تنفض يديك بعد ذلك وتذهب إلى متابعة شؤونك... وهذا كل ما في الأمر... ثم إنك لن تتلقّى أي دروس ملاكمة عن طريق المراسلة أيضاً!».

«طيب، لكن... نعم... أردت فقط أن أجعلك ترى مقدار تنوّع الأشياء التي يقومون بها عن طريق المراسلة... بدلاً من هذه الأشياء المتعفّنة التي يجعلوننا نتعلمها في المدرسة».

«لكنني أظن أنهم يعلّمونكم الملاكمة في صالة الرياضة في المدرسة».

«ذلك أمر مختلف! إنهم يجعلونك تقف هناك حتى يتسلّى بك شخص ضخم ويوجه إليك اللكمات قبل أن تسنح لك فرصة تعلّم أي شيء. شيء عجيب! لا تتعلّم أي شيء أبداً! لكن، استمع، استمع إلى بعض الإعلانات الأخرى!».

كانت تلك الإعلانات شيئاً بشرياً حقاً! حمل أحدها العنوان المثير التالي: «المال! المال!! المال!!!». وقال إعلان آخر: «كان السيد ب. ر. يجني ثمانية عشر دولاراً في الأسبوع من عمله في محل للحلاقة. وقد كتب إلينا يقول إنه، بعد أن تلقّى دروسنا، يكسب الآن خمسة آلاف دولار من عمله في مجال الإحياء العَظمي». وجاء في الإعلان الثالث: «كانت الآنسة ج. ل. تعمل في أحد المتاجر منذ فترة وجيزة. كانت تعمل في تغليف المواد! وهي الآن تتقاضى عشرة دولارات في اليوم مقابل إعطاء دروس نظامنا الهندي للتنفس الاهتزازي والتحكّم العقلي».

كان تيد قد جمع خمسين أو ستين إعلاناً من النشرات السنوية ومن المطبوعات الدورية التي توفّرها مدرسة الأحد، وكذلك من المجلات القصصية المصوَّرة والمجلات الحوراية. وفي أحد هذه الإعلانات كان أحد فاعلي الخير يناشد القارئ قائلاً: «لا تكن منزويًا مثل زهرة تنمو على جدار! ... كن أكثر شعبية واكسب مالاً أكثر!... تستطيع أن تكون قيثارة، وأن تغني ما بنفسك في المجتمع! بفعل المبادئ السرية لنظام مكتَشَف حديثاً من أجل تعليم الموسيقى، يستطيع أي شخص... رجل، امرأة، طفل... من غير تمرينات مرهقة أو تدريب خاص أو زمن طويل في الدراسة، ومن غير إضاعة الوقت أو المال أو الطاقة، أن يتعلم العزف على النوتة: بيانو، بانغو، كورنيت، كلارينيت، ساكسوفون، كمان، طبل... ويستطيع أن يتعلم كيف يعزف المقطوعات ويغنّيها بمجرد النظر إلى النوتة الموسيقية».

وكانت في إعلان آخر دعوة جذّابة جداً: «مطلوب محقِّقو بصمات ـ دخل مرتفع!».
كان الإعلان يؤكد ما يلي: «أيها الرجال الشجعان، أيتها النساء الشجاعات، هذه هي المهنة التي تبحثون عنها! وهنا تحصلون على المال، على كثير من المال، إضافة إلى التنقل من مكان لآخر، ... هنا السّحر والاهتمامات الرائعة... هذا ما تتوق إليه عقولكم النشطة وأرواحكم المغامرة! ما رأيك في أن تكون الشخصية الأولى، العنصر الموجِّه في حل الألغاز الغريبة والجرائم المحيرة؟ إن هذه المهنة الرائعة تجعلك على صلة بالأشخاص النافذين... تضعك على قَدَم المساواة معهم. وتجعلهم يطلبون منك غالباً أن تسافر إلى كل مكان... ربما إلى بلاد بعيدة أيضاً ـ كل المصاريف مدفوعة! المستوى التعليمي غير مطلوب».

صاح تيد فرحاً: «أوه، يا سلام! أظن أن هذا أفضل إعلان! ألن يكون رائعاً أن يسافر المرء إلى كل مكان، وأن يلقي القبض على بعض المجرمين المشهورين؟».

«أنا لا أحب هذا في الحقيقة. من الممكن جداً أن يُصاب المرء بالأذى. لكن تلك الطريقة في دراسة الموسيقى تبدو جيدة فعلاً. لا أعرف لماذا... إذا كان خبراء الكفاءة والفعالية مهتمين بالأمر مثلما يهتمون بتسلسل سير المنتجات في المصانع... لا أعرف لماذا لا يبتكرون خطة ما تريح الإنسان من كل هذه المشقة وكل هذه التمارين حتى يتعلم الموسيقى؟».

كان بابِت متأثّراً فعلاً... كانت لديه مشاعر فرحة أبوية لأنهما، رجلا العائلة، كانا متفاهمين!

راح يستمع إلى إعلانات جامعات المراسلة التي تعلّم الناس كتابة القصة القصيرة وتطوير الذاكرة، والتمثيل في أفلام الصور المتحركة وتطوير القدرات الروحية،

والأعمال المالية واللغة الإسبانية، والعناية بالقدمَين والتصوير الضوئي، والهندسة الكهربائية وتركيب النوافذ، وتربية الدواجن والكيمياء.

«طيب... طيب...». كان بابِت يبحث عن تعبير ملائم لإعجابه... «شيء مثير فعلاً! كنت أعرف أن قطاع التعليم عن طريق المراسلة قد صار لعبة مربحة كثيراً ـ يبدو العمل في قطاع العقارات شيئاً تافهاً بالمقارنة معه!... لكني لم أكن أعرف أنه قد صار قطاعاً اقتصادياً رئيسياً! لا بدّ أنه الآن أهم من متاجر البقالة وصناعة الأفلام. كان يخطر في بالي دائماً أنه سيأتي يوم نرى فيه أشخاصاً من أصحاب العقول اللامعة يبادرون إلى إنقاذ قطاع التعليم من هؤلاء المنظّرين غير العمليين، دودات الكتب، ليجعلوا منه قطاعاً مهماً. هكذا أستطيع أن أفهم الآن ما يجعلك مهتماً بكثير من هذه الدورات. يجب أن أسأل أصدقائي في النادي إن كانوا يعرفون ـ لكن، في الوقت نفسه يا تيد، أنت تعرف ما يفعله أصحاب الإعلانات... بعض أصحاب الإعلانات... إنهم يبالغون! كل ما يهمّهم هو أن يجعلوا الناس يصدِّقون ما يقولون... بأقصى سرعة».

«طبعاً يا أبي، طبعاً!» كان تيد يشعر بسعادة كبيرة ناضجة... سعادة الصبي الذي يستمع إليه الكبار ويحترمون كلامه. راح بابِت ينظر إليه نظرة مودة وحب:

«أستطيع أن أرى التأثير الذي يمكن أن يكون لهذه الدورات على موضوع التعليم كله. لن أعترف بهذا علناً، بطبيعة الحال... فشخص مثلي، خرّيج جامعة الولاية... تقتضي اللياقة والوطنية منه أن يقول كلاماً كبيراً وأن يفخر بجامعته ـ لكن، في واقع الأمر... إنهم يضيّعون الكثير من الوقت الثمين، حتى في الجامعة... يضيّعون الوقت في دراسة الشعر واللغة الفرنسية وأمور لا يمكن أن يكسب منها الإنسان قرشاً واحداً! لا أدري... لكن، من الممكن أن تبرهن دورات المراسلة هذه على أنها من أهم الاختراعات الأميركية.

لكن مشكلة كثير من الناس أنهم مصنوعون من مادة غير صالحة! إنهم لا يرون الجانب الروحي العقلي في التفوّق الأميركي: يظنون أن اختراعات من قبيل الهاتف والطائرة واللاسلكي... لا، لا، إن هذه الأشياء من اختراع بعض المهاجرين... لكن، على أي حال: يظنون أن هذه التطويرات الميكانيكية هي كل ما لدينا، في حين يستطيع المفكّر الحقيقي أن يرى الجانب الروحي... التوجّهات التي تمسك بالدقّة، كدعاة الكفاءة، ونوادي الروتاري، وحظر التبغ والكحول، والديمقراطية أيضاً... هذه هي ثروتنا العميقة الحقيقية! وقد يكون هذا المبدأ الجديد في التعليم المنزلي عنصراً آخر أيضاً... لعله عامل آخر! أقول لك يا تيد إن علينا أن نمتلك رؤية...».

«أظن أن دورات المراسلة هذه شيء بائس!».

تنهّد الفيلسوف منزعجاً! كانت هذه الملاحظة صادرة عن السيدة بابِت! ... هي التي أفسدت هذا الانسجام الروحي! كان من فضائل السيدة بابِت أنها، باستثناء حفلات العشاء حيث تتحول إلى مضيفة صاخبة... تعتني بالبيت ولا تزعج الذكور بتفكيرها.

تابعت السيدة بابِت تقول بنبرة صرامة: «يبدو لي الأمر مخيفاً... تلك الطريقة التي يغرون بها الشباب البائسين فيجعلونهم يظنون أنهم يتعلّمون شيئاً وأنهم ليسوا في حاجة إلى مساعدة من أحد... أنتما الاثنان تتعلّمان بسرعة كبيرة، أما أنا فقد كنت بطيئة دائماً. لكن، مهما يكن الأمر...».

أجابها بابِت: «هذا كلام فارغ! يحصل المرء على النتيجة نفسها عندما يدرس في البيت. لا يمكن أن تظنّي أن المرء يمكن أن يتعلم أكثر عندما يبدّد الأموال التي تعب والده في جنيها حتى يجلس على كراسي فاخرة في مهجع من مهاجع جامعة هارفارد المترَفة، مع لوحات ودروع وأغطية للطاولات، وكل هذه السخافات، ألا ترين هذا؟ أقول لك... إنني خريج كلية ـ أعرف هذا! لكن معك حق في الاعتراض من ناحية واحدة. إنني في حقيقة الأمر أعارض أي مسعى يرمي إلى أخذ كثير من الناس من المصانع ومحلات الحلاقة لكي ينضموا إلى عالم المحترفين. إن عالم المحترفين مزدحم أكثر مما يجب، منذ الآن... ثم من أين نأتي بالعمال إذا ذهب هؤلاء جميعاً وتعلّموا؟».

كان تيد مسترخياً في مقعده. وكان يدخّن سيجارة من غير أن يوبِّخه أحد! كان، في هذه اللحظة، مندمجاً ضمن تأمّلات بابِت السامية... تماماً كما لو أنه بول ريزلينغ، أو حتى د. هاورد ليتلفيلد.

قال: «إذن، ماذا تظن يا أبي؟ ألن تكون فكرة طيبة أن أذهب إلى الصين، أو إلى أي مكان رائع، وأن أدرس الهندسة أو شيء آخر عن طريق المراسلة؟».

«لا! وسوف أقول لك السبب يا ولدي. لقد اكتشفت أن من الجيد جداً أن يقول المرء إنه يحمل شهادة جامعية. إن بعض العملاء، ممن لا يعرفون ما أنت، ممّن يظنون أنك مجرد رجل أعمال عادي، يحبون أن يتكلموا كثيراً عن الاقتصاد أو الأدب أو ظروف التجارة الخارجية. لكنك تستطيع إسكاتهم بأن تقول: «عندما كنت في الكلية... أنا أحمل شهادة جامعية طبعاً... في علم الاجتماع وكل تلك الأشياء...». أوه، هذا ما يستطيع أن يسكتهم تماماً! لكن، ليس من التميّز في شيء أن يقول المرء: «إنني حاصل على درجة لحس الطوابع من جامعة بيزوزوزو البريدية!». أنت تعرف... كان أبي عجوزاً أبله طيباً، ولم يكن متميزاً في أي شيء. كان عليَّ أن أبذل جهداً كبيراً حتى أكسب المال خلال دراستي في الكلية. لا بأس... كان الأمر يستحق ذلك! ... حتى تستطيع مخالطة أفضل السادة في زينيث، في النوادي وغيرها... وأنا لا أريدك أن تكون خارج طبقة هؤلاء

الناس... الطبقة التي تضم أشخاصاً شجعاناً مثل الناس العاديين، لكن لديها السلطة والمسؤولية أيضاً. سوف أتألم إذا فعلت ذلك يا صاحبي!».

«أعرف هذا يا أبي! بالتأكيد! لا بأس. سوف أظل في الكلية. أوه! عجيب... ما أسوأ هذا! لقد نسيت كل ما يتعلّق بأولئك الأولاد الذين سآخذهم إلى تدريبات الكورس. عليَّ أن أسرع الآن!»

«لكنك لم تنجز واجباتك البيتية».

«سأنجزها في الصباح الباكر».

«طيب...»

كان بابِت قد قال له ست مرات خلال ستين يوماً مضت: «لن تنجز شيئاً في الصباح الباكر! اجلس وانجِز عملك الآن!». لكنه قال الليلة: «لا بأس، عليك أن تسرع!» ... كانت ابتسامته تحمل ذلك الإشعاع الخجول النادر... كأنه يبتسم لبول ريزلينغ.

- 4 -

قال للسيدة بابِت: «إن تيد فتى طيّب».

«أوه، إنه طيّب!»

«هل تعرفين الفتيات اللواتي سيأخذهن إلى التدريب؟ هل هنَّ فتيات لطيفات لائقات؟».

«لا أعرف. أوه، يا عزيزي! لم يعد تيد يخبرني أي شيء. لا أعرف ما الذي يصيب الأطفال في هذا الجيل. كنت أخبر بابا وماما بكل شيء؛ لكن يبدو أن أطفال اليوم قد أفلتوا من كل رقابة».

«آمل أن يكنَّ فتيات لائقات مهذبات. لم يعد تيد طفلاً، بالطبع، ولا أريده أن... آآآ... أن يتصرف تصرّفات خاطئة... وكل شيء».

«جورج: أليس من الأفضل أن تأخذه جانباً وتكلّمه عن... تلك الأشياء!» ... احمرَّ وجهها وخفضت عينيها.

«حسن... لا أعرف! أظن يا ميرا أن الإيحاء لعقل الصبي بأشياء غريبة ليس إلا أمراً لا معنى له! سوف يتوصل إلى شقاوات كثيرة بنفسه. لكنني أتساءل... أوه إنها مسألة صعبة! لا أعرف رأي ليتلفيلد في هذا».

«إن بابا متفق معك بالطبع! وهو يقول إن هذه ـ التوجيهات ـ ليست لائقة».

«أو، إنه يقول هذا، أليس كذلك؟ طيب... اسمحي لي بإخبارك أن كل ما يفكر فيه

هنري ت. ثومبسون ـ أقصد عن الأخلاق... رغم أن المرء لا يستطيع أبداً أن يتغلب على ذلك العجوز الأحمق...».

«ماذا تقول؟ ما هذه الطريقة في الكلام عن بابا؟».

«... إنني، ببساطة، لا أستطيع التفوّق عليه في مجال إبرام الصفقات. لكن، سأقول لكِ إن كل ما ينبع عن أفكار تتعلق بالأشياء العليا وبالتعليم... أعرف تماماً أنني أفكر بطريقة معاكسة! قد تعتبرينني صاحب عقل عظيم لكن، صدّقيني، أصلح لأن أكون رئيس كلية جامعية إذا ما قورنت بالسيد هنري ت.! نعم... عجباً!... سوف آخذ تيد جانباً وأحدِّثه عمّا يجعلني أتمسك بحياة أخلاقية تماماً».

«أوه، ستفعل هذا! متى؟»

«متى؟ متى؟ ما فائدة محاولة تقييدي بأسئلة من قبيل متى ولماذا وأين وكيف؟ هذه هي المشكلة مع النساء... وهذا ما يجعلهنَّ غير قادرات على تولّي مناصب رفيعة في الإدارة. ليس لديهن حِسّ دبلوماسي! عندما تسنح الفرصة، أو عندما تأتي مناسبة... يأتي الأمر بشكل طبيعي... لماذا لا يكون حديثاً صغيراً وديّاً بيني وبينه... و... هل هذا صوت تينكا في الأعلى؟ يجب أن تكون نائمة الآن، منذ زمن!».

سار عبر غرفة المعيشة ثم وقف في الغرفة المشمسة... تلك الغرفة ذات الجدران الزجاجية وكراسي القشّ والأريكة المتأرجحة... الغرفة التي يستمتعون بالجلوس فيها بعد ظهر أيام الأحد. لم يكن مرئياً في الخارج غير أضواء بيت دوبلبراو وشبح شجرة الدردار التي يحبها بابِت، وطراوة تلك الليلة النيسانية.

«جيد أننا تحدثنا عن الصبي! لقد تجاوزت شعوري بالقلق والنزق هذا الصباح، وبالاضطراب أيضاً! لكن، عجباً... سوف أمضي بضعة أيام مع بول، وحدنا في مين!... تلك الشيطانة زيلا! ... لكن... ولدي تيد بخير! الأسرة كلها بخير. والعمل جيد. لا يكسب أشخاص كثيرون أربعمئة وخمسين دولاراً في يوم واحد... وهم خاصة لا يكسبون نحو نصف ألف دولار بهذه السهولة مثلما فعلت اليوم! ربما... عندما نتشاجر... أكون أنا مخطئاً أيضاً، مثلهم! لا يجوز أن أكون حانقاً ضيّق الصدر مثلما أكون عادة. لكن... أتمنى لو كنت رحّالة جوّالاً مثلما كان جدي! لكن، لن يكون لي بيت مثل هذا البيت عند ذلك! أنا... أوه... شيء عجيب... لا أعرف!»

جرت أفكاره على هواها! فكر في بول ريزلينغ، وفي شبابهما معاً، وفي الفتيات اللواتي عرفاهن معاً.

عندما تخرَّج بابِت في جامعة الولاية منذ أربعة وعشرين عاماً، كان قد عقد العزم على أن يصبح محامياً. كان مجادِلاً من العيار الثقيل في الكلية. وكان لديه إحساس بأنه

خطيب مفوَّه. بل كان يرى نفسه حاكماً للولاية في المستقبل. وكان يعمل سمساراً عقارياً إلى جانب دراسة القانون. كان يوفِّر المال، ويسكن في بيت للطلبة، ويعيش على البيض المسلوق مع قليل من اللحم. وأما بول ريزلينغ النشط الحيوي (كان سيذهب بالتأكيد إلى أوروبا لدراسة الكمان... في الشهر التالي، أو في السنة التالية)، فكان ملجأه... إلى أن... إلى أن سحرته زيلا كولبيك التي كانت تضحك وترقص وتجعل الرجال يجرون خلفها بإشارة من إصبعها الممتلئ المازح.

كانت أمسيات بابِت قاحلة جرداء. ولم يكن يجد راحة إلا مع إحدى بنات عمومة بول، ميرا ثومبسون... فتاة رشيقة لطيفة كانت تعبِّر عن قدراتها من خلال مسايرة بابِت الشاب المتحمّس بالقول إنه سيصبح، طبعاً، حاكماً للولاية ذات يوم. وعندما كانت زيلا تسخر منه قائلة إنه صبي ريفيّ، كانت ميرا تقول غاضبة إنه أكثر صلابة من الشباب المتأنّقين المولودين في مدينة زينيث العظيمة ـ كانت البلدة قد صارت مستوطنة قديمة في عام 1897 إذ بلغ عمرها مئة وخمس سنين، وبلغ عدد سكانها مئتي ألف، وصارت ملكة الولاية وأعجوبتها كلها... في نظر جورج بابِت، الصبيّ القادم من قرية كاتاوبا... كانت كبيرة جداً، صاخبة جداً، مُترَفة جداً، إلى درجة تجعله يشعر بإطراء كبير لأنه يعرف فتاة تستطيع أن تفخر بأنها مولودة في زينيث.

لم يكن بينهما أي كلام عن الحب! كان يعرف أنه لن يستطيع الزواج قبل سنين، إذا أراد دراسة القانون. وقد كانت ميرا فتاة جيدة تماماً... فتاة لا يقبّلها المرء أبداً ولا «يفكر فيها بتلك الطريقة أبداً» إلا إذا كان يعتزم الزواج منها. لكنها كانت رفيقة يستطيع الاعتماد عليها. كانت جاهزة دائماً للتزلّج ولنزهات المشي؛ وكانت راضية دائماً بأن تستمع إلى خطاباته عن الأشياء العظيمة التي سيقوم بها، وعن الفقراء المعذَّبين الذين سيدافع عنهم في وجه الأغنياء الظالمين، والكلمات التي سوف يلقيها في المآدب، وضلالات التفكير الشائعة التي سوف يصحِّحها.

وذات مساء، عندما كان متعَباً غير قادر على التفكير السليم، رآها تبكي لأن زيلا استثنتها من حفلة تقيمها. وبطريقة غير واضحة له... صار رأسها على كتفه، وكان يمسح دموعها بشفتيه. رفعت رأسها وقالت بنبرة واثقة: «بعد أن صرنا مخطوبَين الآن، فهل نتزوج قريباً أم ننتظر؟»

مخطوبان!؟ كانت تلك أول إشارة إلى الأمر. صارت عاطفته تجاه هذه المرأة اللطيفة ذات الشعر البنّي باردة حذرة؛ لكنه لم يستطع أن يجرحها، ولم يستطع إساءة استخدام ثقتها به. غمغم شيئاً عن الانتظار، ثم هرب. تمشّى ساعة من الزمن محاولاً العثور على طريقة لتوضيح أن ذلك الأمر كان غلطة. وقد اقترب مرات كثيرة من إخبارها

خلال الشهر التالي، لكن وجود فتاة بين ذراعيه كان أمراً ظريفاً! صارت قدرته أقل، ثم أقل، على إهانتها بالقول لها إنه لا يحبها. لم يكن لديه أي شك في الأمر! كان المساء الذي سبق زواجه عذاباً؛ وكانت عنده في الصباح رغبة مجنونة في الفرار.

لقد جعلت من نفسها ما يطلَق عليه اسم زوجة صالحة! كانت مطيعة، مجتهدة... بل مَرِحة أيضاً في بعض الحالات النادرة. وقد تجاوزت بعض التقزّز الذي شعرت به نتيجة علاقتهما الحميمة... نعم، اجتازت ذلك فوصلت إلى ما كان يبشّر بعاطفة مشبوبة؛ لكن الأمر سرعان ما تحول إلى روتين مضجِر. لكنها لم تكن تهتم إلا به وبالأطفال؛ وكانت شديدة الأسف، مثلما كان هو نفسه، عندما ترك كلية القانون وراح يخوض في درب الأعمال العقارية.

قال بابت في نفسه، واقفاً في ظلام الغرفة المشمسة: «يا للطفلة المسكينة! لم تكن في حياتها أوقات جيدة كثيرة... مثلي! لكن... ليتني استطعت أن أجرِّب حظي في القانون والسياسة... لأجعل الناس يرون ما أستطيع فعله. لا بأس... ربما أجني نقوداً أكثر في وضعي الحالي».

عاد إلى غرفة المعيشة. وقبل أن يجلس مَرَّ بيده على شعر زوجته. رفعت رأسها ناظرة إليه سعيدة ... فاجأتها تلك الحركة قليلاً.

الفصل السابع

-1-

أنهى، بوقار، العدد الأخير من «المجلة الأميركية». أما زوجته فتنهَّدت ووضعت الجَورب الذي ترتقه جانباً، ثم ألقت نظرة حسد على تصميمات الملابس الداخلية في مجلة نسائية.

كانت الغرفة شديدة السكون.

كانت غرفة متقيّدة بأفضل المعايير في فلورال هايتس. وكانت جدرانها الرمادية مقسَّمة، كأنها ألواح خشب اصطناعية، بخطوط من لون صنوبري ضاربٍ إلى البياض. ومن منزل آل بابِت القديم، جاء إلى هذه الغرفة كرسيّان هزازان شديدا الانحناء؛ لكن الكراسي الأخرى كانت جديدة... ثابتة وعميقة جداً... منجَّدة بقماش مخمليٍّ أزرق مقلَّم بالذهبي. وفي مواجهة الموقد، جثمت أريكة مخملية زرقاء. ومن خلفها كانت طاولة من خشب الكرز مع مصباح أرضي طويل له قبّة من حرير ذهبي (إن في ثلث البيوت في فلورال هايتس أريكة مقابل الموقد، وطاولة من الخشب الفاخر، أو من تقليد الخشب الفاخر، ومصباح أرضي، أو مصباح قراءة، له ظلة من الحرير الأصفر أو الوردي).

وكان على الطاولة مَفرَش من قماش صيني فيه خيوط ذهبية، وأربع مجلات، وعلبة فضي فيها بعض السجائر، وثلاثة «كتب مجّانية» ـ إصدارات ضخمة مكلِفة من قصص الأطفال المزيَّنة برسوم فنانين إنكليز... ما كان أحد من آل بابِت قد قرأ هذه الكتب، ما عدا تينكا!

وفي زاوية قرب النوافذ الأمامية، كان لديهم فونوغراف ضخم. (هنالك فونوغراف ضخم في ثمانية من أصل تسعة بيوت في فلورال هايتس).

ومن بين اللوحات المعلّقة في مراكز المستطيلات الجدارية الرمادية تماماً، كان

هنالك تقليد للوحة صيد إنكليزية، وتقليد آخر بائس للوحة فرنسية مع كتابة فرنسية كان بابِت يشك دائماً في مدى أخلاقيتها. وكانت على الجدار أيضاً «صورة ملوَّنة باليد» لغرفة استعمارية ـ بساط من القماش وعذراء تغزل الخيوط، وفراش للقطّة، وكل هذا أمام موقد أبيض. (كان في 19 بيتًا من أصل 20 في فلورال هايتس لوحة صيد، أو لوحة «مخدع السيدة» الفرنسية، أو صورة ملوَّنة لبيت في ولاية نيوإنغلاند، أو صورة لجبال روكي... أو كلها معاً).

كانت هذه الغرفة أكثر راحة بكثير من «الردهة» في طفولة بابِت، مثلما كانت سيارته متقدمة كثيراً على عربة أبيه. صحيح أن الغرفة ما كان فيها شيء مثير للاهتمام فعلاً، لكنها خالية من أيّ شيء مزعج أيضاً! كانت غرفة أنيقة، سلبية، مثل قطعة من الجليد الاصطناعي. وكان الموقد نظيفاً... من غير رماد ولا قرميدات لوَّثها السخام؛ وكانت قضبانه لامعة تماماً؛ وأما قوائمه فكانت تشبه نماذجَ معروضة في واجهة محل، أشياء تجارية معزولة... غير مرغوبة... ميتة.

وكان في الغرفة أيضاً بيانو بجانب الحائط، ومعه مصباحٌ أرضيٌّ آخر. لكن أحداً لم يكن يستخدم هذا البيانو، باستثناء تينكا! كان صوت الفونوغراف مُرْضياً لهم جميعاً! وكان مخزونهم من أسطوانات الجاز يُشعِرهم بالثراء والثقافة. ما كانوا يعرفون عن عزف الموسيقى شيئاً إلا تصحيح وضع إبرة الفونوغراف. كانت الكتب على الطاولة نظيفة مرتبة. وما كان في البساط الممدود على الأرض أي زاوية مثنية. وما كان المرء يجد في هذه الغرفة عصاً للهوكي، أو كتاباً مصوراً ممزقاً، أو قبعة قديمة، أو كلباً اجتماعياً يثير الفوضى.

ـ 2 ـ

لم يكن بابِت يستطيع الاستغراق في القراءة في بيته. كان يستطيع التركيز إلى الحد الكافي في المكتب! أما هنا، فكان يضع ساقاً فوق ساق، ويتململ كثيراً. وإذا كانت القصة التي يقرأها مثيرة، كان يحرص على قراءة أفضل مقاطعها، أي أكثرها طرافة، لزوجته. أما إذا لم تكن القصة جذّابة له فإنه يتنحنح ويسعل ويحك كاحله وأذنه اليمنى، ويدخل إبهام يده اليسرى في جيب صداره، ويهز ساعته الفضة، ويلعب بقَطّاعة السيجار وبالمفاتيح المعلقة إلى السلسلة، ويتثاءب ويفرك أنفه، ويجد لنفسه مهمات طارئة كثيرة. صعد إلى الطابق العلوي لكي يجلب حذاءه المنزلي ـ حذاءه المنزلي المصنوع من جلد بنّي على شكل أحذية القرون الوسطى. ثم جلب تفاحة من البرميل المنتصب إلى جوار الخزانة الضخمة في القبو.

«تفاحة في اليوم تبعد المرض عن الإنسان». قال هذا لكي يوسِّع مَدارك زوجته... إنه يقولها للمرة الأولى منذ أربع عشرة ساعة.

«هذا صحيح».

«التفاح أفضل ما ينظّم الحياة».

«نعم، إنه...».

«المشكلة لدى النساء هي أنّ عقولهنّ لا تساعدهنّ في تكوين عادات منتظمة».

«لكن، أنا...».

«تقضم المرأة دائماً شيئاً ما، وتأكل بين الوجبات».

رفعت رأسها عن مجلتها: «جورج، هل تناولت غداء خفيفاً اليوم مثلما اتفقنا؟ أنا... فعلت ذلك!».

أثاره هذا الهجوم الخبيث الغادر الذي جاء من غير سبب: «ممم، ربما لم يكن الغداء خفيفاً جداً ـ تناولت الغداء مع بول، ولم تكن هنالك فرصة من أجل تطبيق النظام الغذائي. أوه... لماذا تبتسمين كأنك قطّة صغيرة! لو لم أكن أراقب الأمور وأنتبه إلى نظامنا الغذائي ـ إنني الشخص الوحيد في الأسرة الذي يقدِّر قيمة الشوفان على الفطور. وأنا...».

عادت إلى قراءة قصتها. أما هو فراح يقطع تفاحته بوَرَع حقيقي. راح يأكل التفاحة متابعاً كلامه: «فعلت شيئاً واحداً: قللت تدخيني. جَرَت اليوم مشادة بيني وبين غراف، في المكتب! إنه مشاكس جداً أحياناً. أقبل بهذا عند إجراء صفقة جيدة؛ لكن علي أن أؤكد على سلطتي أحياناً! قلت له... ستانلي!... نعم، لقد جعلته يفهم وضعه جيداً. إنه يوم غريب! يجعل المرء يشعر بالعصبية».

«نعم...» ثم «آآآآ آه...» هذا التثاؤب الكبير، أكثر الأصوات نعاساً في العالم! هكذا تثاءبت السيدة بابِت ثم نظرت إليه شاكرة عندما قال مدندناً: «لقد حان وقت النوم! أظن أن روني وتيد لن يعودا قريباً! نعم... كان يوماً غريباً! لم يكن دافئاً جداً، لكنه... نعم، نعم، أحب أن... أحب أن أذهب في نزهة طويلة بالسيارة ذات يوم».

أجابت متثائبة: «نعم، سوف نستمتع بذلك».

أشاح بوجهه بعيداً عنها عندما أدرك أنه لم يقصد أن يتمنّى وجودها معه في تلك الرحلة. وعندما راح يقفل الأبواب، ويتأكد من إغلاق النوافذ، ويضبط منظّم الحرارة حتى يعمل الموقد تلقائياً في الصباح، تنهد قليلاً وقد أثقل عليه شعور بالوحدة... شعور يحيّره ويخيفه. كان شارد الذهن إلى درجة جعلته غير قادر على تذكر مقابض النوافذ التي تحقَّق منها. وهكذا سار في الظلمة متعثراً بالكراسي الخطيرة غير المرئية... تلمَّس طريقه

عائداً للتأكد من النوافذ كلها مرة ثانية. كان وقع أقدامه صاخباً على السلم عندما صعد إلى الطابق الثاني بعد نهاية يوم عظيم حافل بالمنغِّصات الخَفية.

-3-

كان يعود دائماً، قبل الفطور، إلى أيام طفولته في تلك القرية في أعلى الولاية... فينكمش على نفسه متوجِّساً من متطلّبات حياة المدينة المعقّدة... حلاقة الذقن، والاستحمام، وتقرير ما إذا كان القميص الذي لبسه أمس نظيفاً إلى حد يسمح بلبسه يوماً آخر. وكان يذهب إلى فراشه في وقت مبكر، كلما أمضى المساء في بيته، ويقوم بهذه المهام المزعجة كلها. كانت لديه عادة تشعره برفاهية كبيرة... حلاقة ذقنه وهو جالس مسترخياً في حوض الحمام الحار. يمكن النظر إليه الليلة على أنه رجل صالح قصير أصلع ممتلئ ناعم ورديّ اللون (بعد أن تجرد من مظهر الأهمية الذي تمنحه النظارة) راكعاً في الماء الذي يصل إلى صدره، ماراً على خدين كساهما الصابون بشفرة الحلاقة الآمنة التي تشبه آلة صغيرة لجز العشب... كان يضع يده في الماء باحثاً، بحركة كئيبة، عن الصابونة الزلقة التي لا تزال صالحة للاستعمال.

جعلته الحرارة اللطيفة على وشك النوم. وكان الضوء ينعكس على قعر حوض الحمام مطلِقاً خطوطاً ناعمة متكسرة تتلألأ بلون أخضر على البورسلين المنحني مع كل حركة للماء الصافي. راقب بابِت هذه الأشعة كَسِلاً، ولاحظ كيف كانت فقاعات صغيرة جداً تتجمع على شعر ساقه فتشكل رغوة متشابكة. ربّت بيده على الماء وراح ينظر إلى انعكاسات الضوء تتكسّر وتقفز وتتراقص. كان راضياً، مثل طفل يلعب! حلق بقعة من الشعر على بطة ساقه الممتلئة.

كان الماء يقطر عبر أنبوب التصريف... أغنية حية عذبة: ترررت ترت ترررت، ترررت ترت ترررت. سحره هذا الصوت. نظر إلى المغسلة المتينة، وإلى الحنفيات الفضية وجدران الحمام المبلّطة... أحس بالقوة لأنه يمتلك هذه الروعة كلها.

نهض، وبدأ يتحدّث بصرامة مع لوازم الحمام: «تعالي! كفاكِ هرباً!»... كان بهذا يوبّخ الصابونة الخبيثة التي تهرب منه دائماً. ثم قال لفرشاة الأظافر الخشنة: «أوه! وأنتِ أيضاً، وأنت أيضاً!». مر بقطعة الصابون على جسمه كله، ثم أزال الصابون بالماء، ثم بدأ يجفّف نفسه بقوة. لاحظ ثقباً في المنشفة التركية. أدخل إصبعه في ذلك الثقب متأمّلاً... ثم عاد إلى غرفة النوم... مواطناً جاداً لا يتزعزع.

جاءت لحظة من الحيرة الرائعة، لمحة مأساوية، كالتي تأتيه عند قيادة السيارة في

الزحام، عندما أخرج ياقة نظيفة فاكتشف أنها قد اهترأت عند مقدمتها. مزّقها، فأصدرت صوتاً رائعاً... ززززت.

كان إعداد الفراش وشرفة النوم أهم الأشياء على الإطلاق!

ليس من الواضح تماماً ما إذا كان بابِت يستمتع بشرفة نومه هذه لأن الهواء فيها نظيف منعش أو لأن من الأشياء المألوفة أن يكون لدى المرء شرفة للنوم.

وبما أنه كان عضواً في جمعية الوعول، وفي نادي بوستر، وكذلك عضواً في غرفة التجارة، وكذلك لأن قساوسة الكنيسة البريسبوريترية يحدّدون له قناعاته الدينية، ولأن أعضاء مجلس الشيوخ المسيطرين على الحزب الجمهوري يقرِّرون، في غرفة صغيرة عابقة بالدخان في واشنطن، ماذا يجب أن تكون أفكاره عن نزع التسلح، والتعرفة الجمركية، وألمانيا... ومثلهم كان يفعل أصحاب الإعلانات على المستوى الوطني فيرسمون السطح الخارجي لحياته... يحدّدون ما يجعله مقتنعاً بأنه يمثل شخصيته الفردية. كانت هذه الأشياء التي يعلن عنها هؤلاء... معجون الأسنان، والجوارب، وإطارات السيارات، والكاميرات، وسَخّانات الماء الفورية، رموزاً للتميز، بل برهانٌ على التميز! كانت في البداية رموزاً للفرح والولع والحكمة، ثم صارت بديلاً عنها كلها!

لم يكن بين هذه الرموز الإعلانية كلها، رموز النجاح المالي والاجتماعي، شيء أكثر أهمية من شرفة النوم هذه ومن الغرفة المشمسة في الأسفل.

كانت شعائر إعداد الفراش دقيقة مدروسة لا تتغير! يجب ثني البطانيات إلى الداخل عند أسفل الفراش. (أيضاً، يجب مناقشة السبب الذي يجعل الخادمة تمتنع عن ثنيها بهذه الطريقة مع السيدة بابِت). كان يعدّل وضع البساط القماشي بحيث تقع قدماه العاريتان عليه تماماً عندما ينهض من فراشه في الصباح. ضبط الساعة المنبِّهة، ثم ملأ زجاجة الماء الحار ووضعها على بُعد قدمين، بالضبط، من أسفل الفراش.

أنجز هذه المهام الكبرى بتصميم واضح. وكان يعلن عنها، واحدة بعد أخرى، للسيدة بابِت حتى تأخذ علماً. زال انزعاجه أخيراً، وانطلق صوته بقوة رجولية: «تصبحين على خير!». لكن، لا تزال ثمة حاجة إلى بعض الشجاعة. فعندما اندسّ في فراشه لينام، تماماً مع بداية الاسترخاء اللذيذ، عادت سيارة جاره دوبلبراو إلى البيت! عادت إليه اليقظة. قال متحسراً: «لماذا، بحق الشيطان، لا يستطيع بعض الناس أبداً أن يعودوا إلى البيت في ساعة معقولة؟». كانت عملية إيواء سيارته مألوفة عنده تماماً... إلى درجة جعلته يظل مستيقظاً... ينتظر كل خطوة يقوم بها جاره... كأنه جَلّاد صدر عليه حكم بأن يعذِّب نفسه بنفسه.

كان صوت السيارة بهيجاً إلى حد مزعج عندما سارت في الممر. فُتح باب السيارة، ثم أغلق؛ ثم انزلق باب المرأب منفتحاً... محتكاً قليلاً عند حافته. باب السيارة من جديد. علا صوت المحرك عندما صعدت السيارة المنحدر الصغير قبل أن تدخل في المرأب، ثم صدر عن المحرك صوت آخر، صوت انفجاري، قبل أن يصمت تماماً. انفتح باب السيارة ثم أغلق مرة أخيرة. وبعد هذا، صمت... صمت مخيف... صمت الانتظار، بينما كان السيد دوبلبراو يتفحص متمهّلاً إطارات سيارته. أغلق بعدها باب المرأب. وعلى الفور، نام بابِت ونَعِمَ بنسيان كل شيء.

- 4 -

في تلك اللحظة، في مدينة زينيث، كان هوراس أبدايك يمارس الحب مع لوسيل ماكيلفي في غرفة الاستقبال الليلكية في بيتها في رويال ريدج؛ وذلك بعد عودتهما من محاضرة ألقاها قاصّ إنكليزي بارز؛ كان أبدايك عازباً محترفاً في زينيث: رجل نحيل الخصر في السادسة والأربعين، له صوت مخنّث، وعنده ذوق في الأزهار وأنواع القماش، وفي الفتيات المتحرِّرات من أعراف المجتمع. وكانت الآنسة ماكيلفي حمراء الشعر، حليبية، ساخطة، رائعة، فظة... وصادقة أيضاً. جرَّب أبدايك مناورته الأولى التي لا تتغير... لمس معصمها القلق!

قالت: «لا تكن أحمق!».

«هل تمانعين؟».

«لا! هذا ما لا أحبه!».

انتقل أبدايك إلى أسلوب الحديث. كان مشهوراً بقدرته الكلامية. وكان يتحدث، بطريقة معقولة، في التحليل النفسي، ولعبة البولو في لونغ آيلاند... وكذلك في ما يتعلق بطبق صيني من عهد أسرة مينغ وجده في فانكوفر. وعدته أن تراه في ديوفيل الصيف القادم. لكنها تنهّدت قائلة: «رغم أنها تصبح مبتذلة إلى حد مخيف... لا شيء فيها غير الأميركيين وبارونات إنكليزيات بائسات».

في تلك اللحظة في زينيث، كان موزّع كوكايين جالساً مع مومس يتناولان الكوكتيل في صالة هيلي هانسون في فرونت ستريت. وبما أن حظر الكحول كان ساري المفعول الآن، وبما أن زينيث مشهورة بأنها مدينة ملتزمة بالقانون، فقد كانا مضطرين إلى شرب الكوكتيل في فناجين شاي بريئة المظهر. ألقت السيدة محتويات فنجانها على رأس رجل الكوكايين. أخرج مسدسه من جيب في كمه وقتلها بحركة اعتيادية.

في تلك اللحظة في زينيث، كان رجلان جالسين في مختبر. إنهما يعملان منذ سبعة وثلاثين ساعة على تقرير عن أبحاث في مجال المطاط الصناعي.

في تلك اللحظة في زينيث، كان أربعة من مسؤولي النقابات مجتمعين لدراسة ما إذا كان اثنا عشر ألفاً من عمال مناجم الفحم، ضمن دائرة قطرها مئة ميل حول المدينة، يجب أن يعلنوا الإضراب. كان واحد منهم يشبه بقالاً غنياً عصبي المزاج؛ وكان واحد يبدو مثل نَجّار من الشمال، وكان الثالث يشبه موظفاً في شركة للصودا. وأما الرابع فكان ممثلاً يهودياً من روسيا. كان اليهودي الروسي يستشهد بأقوال لكاوتسكي ويوجين دبس، وبمقتطفات من أبراهام لينكولن أيضاً.

في تلك اللحظة، كان أحد المحاربين القدامى يرقد محتضراً. لقد جاء من الحرب الأهلية إلى المزرعة، مباشرة! ومع أن المزرعة كانت ضمن حدود مدينة زينيث من الوجهة الرسمية، إلا أنها كانت مزرعة بدائية، كالغابات البعيدة. لم يركب هذا الرجل سيارة أبداً، ولم يرَ في حياته حوض استحمام، ولم يقرأ أي كتاب عدا الإنجيل ومختارات ماكغوفي وبعض النشرات الدينية. كان مؤمناً بأن الأرض مسطّحة، وبأن الشعب الإنكليزي هو الأسباط العشرة الضائعة من بني إسرائيل، وأن الولايات المتحدة بلد ديمقراطي.

في تلك اللحظة، كانت مدينة الفولاذ والإسمنت التي يتكوَّن منها مصنع شركة بولمور للسيارات الثقيلة في زينيث يعمل نوبة ليلية من أجل تلبية طلبية شاحنات للجيش البولوني. كان المصنع يئزّ مثل مليون نحلة... كان متوهجاً عبر نوافذه الواسعة كأنه بركان. وعلى امتداد السور المرتفع المعزَّز بالأسلاك الشائكة، كانت الأنوار الكاشفة تمسح الباحات بما فيها من فضلات معدنية ودروب تبادلية ودوريات من رجال مسلحين.

في تلك اللحظة، كان مايك موندي على وشك إنهاء أحد الاجتماعات. كان السيد موندي في ما مضى ملاكماً يقاتل من أجل الفوز بالجوائز. وهو الآن كاهن إنجيلي متميّز... أشهر الكهنة البروتستانتيين في أميركا. لم يكن الشيطان عادلاً في تعامله مع موندي. لم يخرج الرجل من الملاكمة إلا بأنف مكسورة، ومجموعة من المفرَدات الشهيرة، وحضور بارز على المِنَصّة. كانت خدمة الرب مربحة أكثر! وهو الآن على وشك التقاعد بعد أن جنى ثروة. فاز بهذه الثورة عن جدارة؛ وذلك، كما قال آخر تقرير، لأن «المحترم السيد موندي، النبي صاحب القبضة الحديد، أظهر أنه أعظم بائعي الخلاص في العالم، وتمكن عبر تنظيمه الفعال من تقليل كلفة الإحياء الديني الروحي إلى مستوى غير مسبوق. لقد أفلح في هداية مئتي ألف روح ضالة لا تقدَّر بثمن بكلفة وسطية لم تصل إلى عشرة دولارات».

من بين المدن الكبيرة في هذه البلاد، كانت زينيث وحدها مترددة في تسليم مفاتيحها لمايك موندي ومجموعة خبراء الإصلاح التي معه. لقد صوَّتت أبرز المؤسسات الناجحة في المدينة لصالح دعوته ـ كان السيد جورج ف. بابِت قد امتدحه في كلمة له في نادي بوستر! لكن المعارضة كانت آتية من بعض الدوائر النافذة في الأسقفية وفي الكونغرس... أولئك المرتدّون الذين يدعوهم السيد موندي، بطريقة رائعة، «حفنة من رافضي القربان المقدس، ممن يفضِّلون الماء على دم المسيح... عصبة من النابحين الخوَنة ممن يجب أن يتعلموا معنى الشقاء ومعنى الرجولة». لكن هذه المقاومة تحطمت تماماً عندما أعلن أمين سر غرفة التجارة أمام لجنة من أصحاب المصانع أن السيد موندي تمكّن، في كل مدينة زارها، من تحويل تفكير العمال عن الاهتمام بزيادة الأجور وتقليل ساعات العمل إلى أشياء أكثر سموّاً. وهذا ما جعلهم يرفضون الإضراب! بعد هذا دُعي مايك موندي إلى زيارة المدينة فوراً.

أقيم صندوق اكتتاب من أجل نفقات الزيارة... صندوق بأربعين ألف دولار. أقيمت خيمة ضخمة واسعة على أرض المعارض في المدينة لكي تضم خمسة عشر ألف شخص، جلوساً. وفي هذه اللحظة، كان النبي في الخيمة يختتم رسالته قائلاً:

«لدينا في هذه المدينة كثير من أساتذة الكليات الأذكياء، ومن القذرين الذين يدمنون الشاي! وهم يقولون إنني جلف جاهل لا أفقه شيئاً، وإن معرفتي بالتاريخ لا تساوي شيئاً. أوه!... ثمة عُصبة من قملات الكتب بشوارب صوفية تشبه شوارب القطط... وهم يظنّون أنهم يعرفون أكثر من الرب نفسه، ويفضّلون العلوم البربرية والانتقادات الألمانية القذرة على كلمة الله البسيطة المباشرة! وهنالك عدد غير قليل من الأولاد الكسالى، شاربي عصير الليمون، أصحاب الوجوه التي تشبه الفطائر، الكافرين، التافهين شاربي البيرة... الذين يطلقون كلاماً كبيراً من أفواههم القذرة ويصيحون قائلين إن مايك موندي شخص جَلِف مليء بالتوافه. يقول هؤلاء الحمقى الآن إنني أسيء استخدام الكتاب المقدس، وإنني أفعل هذا من أجل المال! لا بأس... استمعوا الآن يا ناس! سوف أمنح هذه العصافير فرصة! يستطيعون الوقوف الآن، هنا، ليقولوا لي في وجهي إنني محتال، وإنني كاذب، وإنني جاهل أخرق! إذا فعلوا هذا، فقط... إذا فعلوا هذا... فلا تدهشوا إلى حد الإغماء إذا تلقى بعض هؤلاء الكاذبين المدمنين على الخمور لكمة سريعة من مايك، لكمة أضع فيها غضب الإيمان الرباني الملتهب كله! هيا، هيا يا ناس! من سيقولها؟ من يقول إن مايك موندي بهيمة لا يفقه شيئاً؟ هاه! هاه! أين هم؟ لا أرى أحداً يقف هنا!... لا بأس، فليكن هذا! أظن الآن أن الناس في مدينة الرجال هذه سوف يكفّون عن الاستماع إلى تلك الوقوقة من وراء

السياج! أظن أنكم ستكفّون عن الاستماع إلى هؤلاء الأشخاص الكاذبين المخادعين الحمقى الأغبياء الذين يتقيأون إلحاداً قذراً ... وسوف تأتون جميعاً، بكل ما لديكم من حيوية، بكل ما لديكم من احترام، فتبجِّلون، كلّكم، يسوع المسيح ورحمته وحنانه الأبديَّيْن».

ـ 5 ـ

في تلك اللحظة في زينيث، كان المحامي الراديكالي سينيكا دوين، واختصاصي الهيستولوجيا الدكتور كورت يافيتش (هو من جعل تقريره عن تخريب الخلايا الظهارية بتأثير الراديوم اسم زينيث معروفاً في ميونيخ وبراغ وروما) يتحدثان في مكتبة دوين.

قال دوين متأملاً: «إن زينيث مدينة لها قوة عملاقة ـ بنايات عملاقة، وآلات عملاقة، ووسائل نقل عملاقة».

قال د. يافيتش بوَداعة: «أكره مدينتكم! إنها تضفي طابعاً قياسياً على جَمال الحياة كله. إنها محطة قطارات واحدة ضخمة ـ يحجز الناس كلهم فيها تذاكرهم من أجل أفضل مقبرة».

قال دوين مستثاراً: «فلأمت مشنوقاً إذا كان الأمر هكذا! أنت تُشعرني بالغثيان يا كورت... بنواحك المستمر على «الطابع القياسي». ألا تظن أن ثمة أُممًا أخرى «قياسية» أيضاً؟ هل تعرف بلداً أكثر قياسية من إنكلترا حيث يأكلون، في كل بيت يستطيع أن يدفع ثمن ذلك، الفطائر نفسها، عند ساعة الشاي نفسها؛ وحيث يذهب كل جنرال متقاعد إلى صلاة العصر نفسها، في الكنيسة الحجرية الرمادية نفسها التي لها البرج المربَّع نفسه؛ وحيث يقول كل متزلّف في حلبات الغولف في هاريس توديز «معك حق!» لكل حمار ثري؟ لكني أحب إنكلترا! وأما في ما يتعلق بإضفاء الطابع القياسي، فعليك فقط أن تنظر إلى مقاهي الرصيف في فرنسا وإلى ممارسة الحب في إيطاليا!

إن الطابع القياسي أمر ممتاز في حد ذاته! عندما أشتري ساعة ماركة إنغرسول من أجل سيارتي، فسوف أحصل على أداة ممتازة مقابل مال أقل، وسأعرف بالضبط ما سأحصل عليه. وهذا ما يفسح لي مزيداً من الوقت والطاقة حتى أكون فرداً! و... أتذكر أنني رأيت مرة في لندن صورة لضاحية أميركية، في إعلان لمعجون أسنان على الغلاف الأخير لصحيفة ساتردي إيفنينغ: شارع يكسوه الثلج ويحفّ به صَفّان من أشجار الدردار، وتلك البيوت الجديدة، بعضها على النمط الجورجي وبعضها بسقوف مائلة منخفضة ـ تماماً مثل شارع يمكن أن تراه هنا في زينيث، في فلورال هايتس مثلاً! الفضاء المفتوح... الأشجار... العشب. شعرت بالحنين! لا وجود لهذه البيوت الجميلة في أي

مكان آخر في العالم. ولست أبالي إذا كانت ذات طابع قياسي. إنه طابع قياسي رائع!
والآن... فإن ما أحاربه في زينيث هو إضفاء الطابع القياسي على التفكير، ... وأحارب أيضاً، طبعاً، تقاليد المنافسة. إن الأوغاد الحقيقيين في زمن السلم هم أولئك الرجال، أصحاب العائلات النظيفون اللطيفون المجدّون الذين يستخدمون كل أنواع الاحتيال والقسوة لكي يضمنوا ثروة لفراخهم. أسوأ ما في هؤلاء الناس أنهم جيدون جداً، وأنهم أذكياء جداً ـ في عملهم على الأقل. لا تستطيع أن تكرههم كما ينبغي؛ لكن عقولهم القياسية هي العدو.
ثم، زيادة على ذلك... لديّ فكرة تتسلل إلى رأسي دائماً وتقول إن زينيث هي أفضل مكان للعيش، أفضل من مانشستر أو غلاسكو أو برلين أو توريلو...».
تمتم د. يافيتش: «إنها ليست كذلك... لقد عشت في هذه المدن كلها».
«لا بأس، إنها مسألة ذوق! أما أنا شخصياً، فأفضّل مدينة لها مستقبل غير معروف يثير مخيّلتي. لكن ما أريده عملياً...».
قال د. يافيتش: «أنت! أنت ليبرالي بنصف قلبك فقط. وليست لديك أدنى فكرة عما تريد! أما أنا، بما أنني شخص ثوري، فأنا أعرف ما أريد تماماً... أريد شراباً الآن».

-6-

في هذه اللحظة في زينيث، كان السياسي جيك أوفوت مجتمعاً مع هنري ت. ثومبسون. قال أوفوت: «ما يجب فعله هو أن تجعل صهرك الأحمق، بابِت، ينجز الأمر. إنه واحد من أولئك الشباب الوطنيين! وعندما يمسك بين يديه عقاراً ليعرضه على الناس، فإنه يجعل الأمور تبدو كأننا نموت حباً بهذا العقار العزيز... وأنا أحب فعلاً أن أشتري الاحترام... بسعر معقول طبعاً! لا أعرف كم نستطيع الاستمرار في هذا يا هانك! إننا في أمان طالما ظل الأولاد، الذين هم مثل جورج بابِت، وكل هؤلاء القادة العماليين المحترمين، يظنّون أننا وطنيون مندفعون، أنا وأنت! ثمة اندفاع إلى الحصول على سياسيين صادقين هنا يا هانك: مدينة كاملة تعمل من أجل تزويدنا بالسيجار والدجاج المقلي والمارتيني... وتسير خاشعة خلف رايتنا، أوه... يا لخشوعها!... وعندما يأتي شخص زاعق مثل سينيكا دوين هذا! صدقاً، يا هانك، إن على أي شخص مثلي أن يخجل من نفسه إذا لم يحلب هذه الأبقار، خاصة عندما تأتي من حولك وتخور طالبة أن تحلبها! لكن شركة المواصلات ما عادت قادرة على الإفلات بالسرقات الكبيرة مثلما كانت تفعل. لكنني أتساءل... يا هانك... أتمنى أن نستطيع تدبير شيء ما لإخراج سينيكا دوين من المدينة. إما هو أو نحن!».

في تلك اللحظة في زينيث، كان ثلاثمئة وأربعون ألفاً من الناس العاديين، أو ثلاثمئة وخمسون ألفاً، نائمين... ظلمة شاسعة لا سبيل إلى اختراقها. وفي الحي الفقير الواقع خلف معابر السكة الحديد، كان شاب أمضى ستة أشهر محاولاً البحث عن عمل، قد فتح الغاز وقتل نفسه مع زوجته.

في تلك اللحظة، كان لويد مالان، الشاعر صاحب مكتبة هافيز، موشكاً على الانتهاء من مقطوعة موسيقية تبيّن كم كانت الحياة مسلية وسط العداوات الخفية في فلورنسا في العصور الوسطى، وكم هي بليدة الآن في أماكن واضحة مكشوفة مثل زينيث.

وفي تلك اللحظة تقلّب جورج بابِت في فراشه تقلّباً ثقيلاً - أفاد تقلّبه الأخير أنه قد نال كفايته من صعوبات الاستغراق في النوم، وصار نائماً حقاً.

سرعان ما صار في حلمه السحري! كان في مكان ما، بين أشخاص مجهولين يسخرون منه. تملّص منهم، وجرى في ممرات حديقة ليلية كانت صبية الحكايات تنتظره عند بوابتها. داعبت يدها الغالية الهادئة وجنته. كان شجاعاً، حكيماً، محبوباً حقاً! وكان ذراعاها من عاج دافئ... ومن خلف المستنقعات الخطرة، كان بحر جريء يتلألأ.

الفصل الثامن

- 1 -

جرت أحداث كبرى في ربيع بابِت هذا العام: ترتيب أمر الشراء المبدئي، سراً، لبعض العقارات في لينتون لصالح بعض المسؤولين في شركة المواصلات قبل الإعلان الرسمي عن تمديد خط المواصلات في جادة لينتون حتى يصل إلى ذلك المكان؛ وكذلك دعوة العشاء التي قال عنها لزوجته منتشياً إنها لم تكن مجرَّد «مناسبة اجتماعية معتادة، بل شأنٌ رفيع المستوى بالتأكيد... في وجود أكثر العقول توقّداً وألمع مجموعة من النساء في المدينة». استحوذت عليه هذه المناسبة إلى درجة كاد معها ينسى مشروعه للهرب إلى ولاية مين مع ريزلينغ.

ورغم ولادته في قرية كاتاوبا، ارتقى بابِت حتى بلغ مستوى التخطيط لدعوة ما يصل إلى أربعة أشخاص معاً إلى العشاء من غير التحضير لذلك قبل أكثر من ليلة أو اثنتين. لكن دعوة عشاء لاثني عشر شخصاً، مع أزهار تأتي من محل الأزهار، ومع كل تلك الكؤوس الفاخرة، كانت أمراً مدوّخاً... حتى بالنسبة لآل بابِت.

ظل الزوجان أسبوعين كاملين يدرسان ويناقشان قائمة الضيوف، ويختلفان ويتشاجران عليها.

قال بابت متعجباً: «نحن أناس عصريون بطبيعة الحال! لكنني، عندما أفكر في أننا ندعو شاعراً شهيراً مثل تشام فرينك الذي لا يكتب أكثر من قصيدة أو اثنتين كل يوم، وبعض الإعلانات، ثم يكسب خمسة عشر ألف دولار في السنة! ...».

قالت السيدة بابِت: «نعم! وهاورد ليتلفيلد أيضاً. هل تعرف أن أونيس أخبرتني تلك الليلة أن والدها يتكلم ثلاث لغات؟».

«هاه! هذا لا شيء! وأنا أيضاً أتكلم الأميركية والبيسبول والبوكر!».

«لا أظن أن المزاح في شيء كهذا أمر لطيف. فكر... كم يكون رائعاً أن يتحدّث

المرء ثلاث لغات، وكم يكون مفيداً أيضاً... وفي وجود أشخاص من هذا النوع، لا أفهم لماذا ندعو شخصاً مثل أورفيل جونيسز!».

«اسمعي الآن... أورفيل شخص متحضِّر واعد جداً!».

«نعم، أعرف هذا!... لكن... مغسلة الملابس!».

«سوف أعترف بأن محل غسل الملابس ليس في مستوى الشعر، أو العقارات. لكن أورفيل شخص عميق جداً، رغم ذلك. هل سمعته يتحدّث عن الزراعة؟ هل تعرفين أنه يستطيع أن يقول لك اسم كل نوع من أنواع الأشجار، ويعرف أسماء بعضها باليونانية واللاتينية أيضاً! ثم إننا مدينون لجونيسز بدعوة عشاء أيضاً! كما يجب أن يكون لدينا شخص عادي حتى يستمع عندما يبدأ الفنانون الكبار كلامهم... أقصد فرينك وليتلفيلد».

«طيب يا عزيزي... أردت أن أقول لك أمراً... أظن أنك، باعتبارك مضيفاً... عليك أن تجلس وتستمتع فقط. عليك أن تترك لضيوفك فرصة الكلام من وقت لآخر!».

«أوه! هذا ما تريدين، أليس كذلك؟ بالتأكيد! تقولين إنني أتكلم طيلة الوقت! وإنني مجرد رجل أعمال... أوه، بالتأكيد! ... لا أحمل شهادة الدكتوراه في الفلسفة مثل ليتلفيلد، ولست شاعراً، وليس لدي ما أقوله! دعيني أقول لك شيئاً... ذلك اليوم جاءني تشام فرينك الذي تعتبرينه عظيماً... جاءني في النادي طالباً رأيي في مسألة رابطة المدارس التي اقترحها سبرينغفيلد. ومن قال له؟ من أعطاه رأياً؟ إنه أنا! تستطيعين أن تراهني بحياتك على أنني أنا من أعطاه ذلك الرأي! أنا، الشخص البسيط! نعم، لقد فعلت ذلك! جاء إلي وطلب مني تلك الخدمة، فأخبرته كل شيء عن الأمر! هل رأيت؟ كان سعيداً جداً عندما استمع إلى ما قلت... واجبي كمضيف! أظن أنني أعرف واجبي عندما أكون مضيفاً؛ واسمحي لي أن أقول لك...».

وأخيراً، جرت دعوة أورفيل جونيسز إلى العشاء.

-2-

كانت السيدة بابِت مضطربة صبيحة يوم الدعوة.

«والآن، يا جورج، أريدك أن تحرص على العودة إلى البيت باكراً هذه الليلة. تذكر أن ترتدي ثيابك».

«واو! يقولون في صحيفة إدفوكات إن الجمعية العامة للكنيسة البريسبوريترية صوّتت في صالح الانسحاب من حركة الكنائس المتحدة العالمية. هذا...».

«جورج! هل سمعت ما قلت؟ عليك أن تعود إلى البيت في الوقت المناسب، وأن ترتدي ثيابك هذا المساء».

«أرتدي ثيابي! عجباً... إنني مرتد ثيابي الآن! أتظنين أنني ذاهب إلى المكتب بملابسي الداخلية؟».

«لا يجوز أن تقول كلمات غير لائقة أمام الأولاد! وعليك أن ترتدي جاكيت العشاء أيضاً».

«أظن أنك تقصدين تلك الجاكيت الطويلة! إنه من أتفه السخافات العجيبة التي اختُرعت...»

استؤنفت المناقشة نفسها بعد ثلاث دقائق، وبعد أن صاح بابِت: «طيب! لا أعرف إذا كنت سأرتدي تلك الجاكيت أو لا». قالها بطريقة يتّضح منها أنه سيرتديها.

«لا تنس يا جورج أن عليك أن تتذكر التعريج على محل فيتشيا في طريق عودتك لتجلب البوظة. إن سيارة التوصيل عندهم معطّلة. ولا أريد أن أعهد إليهم بإرسالها مع...».

«طيب، فهمت! لقد قلت لي هذا قبل الفطور».

«فقط... لا أريدك أن تنسى. سوف يكون عليَّ أن أعمل طيلة اليوم، وأن أدرِّب الفتاة التي ستساعدني في تحضير العشاء...».

«إنه أمر سخيف، على أي حال، أن نستأجر فتاة إضافية من أجل الطعام. إن ماتيلدا تستطيع تماماً...».

«... وعلي أن أخرج لأشتري الزهور، ثم أنسّقها، ثم أحضّر الطاولة، وأطلب اللوز المملَّح، وأتابع أمور المطبخ، وأرتب عشاء الأولاد في الطابق العلوي، و... أنا مضطرة، ببساطة، إلى الاعتماد عليك من أجل الذهاب إلى محل فيتشيا من أجل البوظة».

«طيييب! يا إلهي... سوف أحضر البوظة!».

«ليس عليك إلا أن تدخل وتقول إنك تريد البوظة التي طلبَتها السيدة بابِت أمس بالهاتف. وسوف يكون كل شيء جاهزاً».

اتصلَت به عند العاشرة والنصف حتى لا ينسى إحضار البوظة من المحل.

فاجأته فكرة عند ذلك... صعقته تماماً! تساءل ما إذا كانت دعوات العشاء في فلورال هايتس تستحق هذا العناء كله. لكنه سرعان ما ندم على فكرته هذه عندما تذكّر مقدار الإثارة في شراء المواد اللازمة من أجل إعداد الكوكتيل.

والآن... كانت مهمته الآن أن يحصل على الكحول في ظل حالة الحظر الظاهرية:

قاد سيارته خارجاً من الشوارع المستقيمة في مركز الأعمال إلى الطرق الفرعية المتشابكة في البلدة القديمة ـ بنايات مزدحمة... كلها مستودعات وشقق صغيرة... وصل إلى آربور التي كانت ذات يوم مكاناً لطيفاً لكنها صارت اليوم ركاماً من الفنادق

الرخيصة وبيوت الإيجار والمواخير. سرت في ظهره ومعدته قشعريرة رائعة، وراح ينظر إلى كل شرطي ببراءة فائقة، كما لو أنه محب للقانون، معجَب بقوة الشرطة... كما لو أنه توّاق إلى التوقف لكي يلعب معهم قليلاً. أوقف سيارته قبل بناية واحدة من صالون هيلي هانسون. وفكر قلِقاً: «الآن، عجباً... إذا رآني أحد فسوف يظن أنني هنا من أجل العمل».

دخل مكاناً يبدو، إلى حد غريب، مثل صالونات الشراب قبل أيام الحظر. كان في الصالون بار متسخ طويل أمامه نشارة خشب على الأرض ومن خلفه مرآة مخططة. كان في البار أيضاً طاولة من خشب الصنوبر جلس إليها عجوز وسخ حالماً أمام كأس فيه شيء بدا كأنه ويسكي. رأى عند البار أيضاً شخصين يشربان شيئاً بدا له كأنه بيرة. كانا يعطيان انطباعاً بوجود جمهرة من الناس، ذلك الانطباع الذي يكفي وجود شخصين في صالون لتكوينه. وأما عامل البار الذي كان شاباً سويدياً طويلاً شاحباً له ماسة في ربطة عنقه الليلكية، فحدّق إلى بابِت عندما جاء إلى البار مطبطباً ثم همس: «أريد، أوه... أرسلني أحد أصدقاء السيد هانسون. أريد بعض الجن».

نظر عامل البار إليه من فوق مثلما ينظر أسقف غاضب: «أظن أنك أخطأت المكان يا صديقي. نحن لا نبيع هنا إلا مشروبات غير كحولية». مَسَح الرجل البار بخرقة بدت هي نفسها في حاجة إلى شيء من التنظيف، وراح ينظر إلى مرفقه المتحرك نظرة آلية.

قال الحالم العجوز الجالس إلى الطاولة مستعطفاً عامل البار: «أقول... استمع يا أوسكار».

لم يستمع إليه أوسكار!

«أو، أقول لك... أوسكار، استمع، من فضلك! استمع!».

حل على بابِت شعور بالخَوَر عندما راح يستمع إلى صوت العجوز المتبطّل الناعس المتهاوي وشم لذعة رواسب البيرة اللذيذة. اتجه عامل البار صوب الرجلين متجهّماً. تبعه بابِت برشاقة، كأنه قطّة، وقال مستعطفاً: «اسمع يا أوسكار، أريد أن أتحدث مع السيد هانسون».

«ماذا تريد منه؟».

«أريد أن أتحدث إليه فقط. ها هي بطاقتي».

كانت بطاقة جميلة، لها حروف نافرة! بطاقة مطبوعة بلون أسود فاحم على خلفية حمراء فاقعة... تقول إن السيد جورج ف. بابِت يعمل في العقارات والتأمين والإيجارات. حملها عامل البار وكأنه يحمل شيئًا وزنه خمسة كيلوغرامات. ثم قرأها كما لو أن فيها مئة كلمة. لم يتخلَ عن وقاره الأسقفي، لكنه غمغم قائلاً: «سأرى إن كان هنا».

عاد من الغرفة الخلفية ومعه شاب يبدو كبير السن على نحو غريب... رجل هادئ

حاد النظرات في قميص حريري أصفر وصديرية مفتوحة وبنطلون بلون بني محروق... إنه السيد هيلي هانسون! لم يقل السيد هانسون إلا: «نعم؟» ... لكن عينيه القاسيتين المحتقرتين سبرتا أغوار روح بابِت. لم يظهر عليه أي تأثر بالبدلة الرمادية الداكنة الجديدة التي دفع بابِت مئة وعشرين دولاراً ثمناً لها. هذا ما أكده لكل شخص يعرفه في النادي الرياضي.

«مسرور بلقائك يا سيد هانسون. آه، نعم... أنا جورج بابِت من شركة بابِت وثومسون العقارية. وأنا من أصدقاء جيك أوفوت المقرَّبين».

«حسنًا... ما الأمر؟».

«سأقول، أوه... سوف أقيم حفلة. وقد أخبرني جيك أنك تستطيع تأمين بعض الجن». قال هذه الكلمات حذراً متذلّلاً بينما بدأ الملل يظهر في عيني هانسون... «اتصل بجيك واسأله عني إذا أردت».

أجابه هانسون بأن أشار برأسه صوب مدخل الغرفة الخلفية، ثم استدار ودخل. تبعه بابِت بحركات ميلودرامية، كأنه يزحف زحفاً، فدخل الغرفة التي كان فيها أربع طاولات مستديرة، وأحد عشر كرسياً، وتقويماً من إصدار شركة البيرة، ورائحة بيرة أيضاً. ظل هناك منتظراً. سار هيلي هانسون متئداً في الغرفة ثلاث مرات، مدندناً شيئاً ما، واضعاً يديه في جيبه، متجاهلاً بابِت.

كان بابِت قد توصل عند ذلك إلى تعديل قراره الحازم الذي اتخذه في الصباح «لن أدفع سنتاً واحداً أكثر من سبعة دولارات لربع الغالون»، فجعله «قد أدفع عشرة». وعندما اقترب منه هانسون قال له: «هل تستطيع تدبير ذلك؟» ... كشّر هانسون وقال بصوت جاف: «انتظر دقيقة... بحق القديس بيتر... دقيقة فقط!». وبوداعة متزايدة، ظل بابِت منتظراً إلى أن ظهر هانسون من جديد حاملاً ربع غالون من الجن ـ ما يطلقون عليه مجازاً اسم ربع غالون. كان يحمله بيديه الطويلتين البيضاوين المترفّعتين.

قال بنبرة قاطعة: «اثنا عشر دولاراً!».

«لكن، أوه... لكن قل لي يا كابتن... قال جيك إنك تستطيع تأمينه مقابل ثمانية دولارات أو تسعة دولارات».

«لا! اثنا عشر دولاراً. هذا جن حقيقي مهرب من كندا. إنه ليس الكحول الذي اعتدت أن تحصل عليه... مع نقطة من خلاصة زيت العرعر». ثم أضاف ذلك التاجر الشريف بصوت مخلص: «اثنا عشر دولاراً... إذا كنت تريده! أنت تدرك طبعاً أنني أفعل هذا لأن جيك صديقي».

«بالتأكيد! بالتأكيد! أفهم هذا!» ... مد بابِت يده باثني عشر دولاراً وهو يلهج

بكلمات الشكر. أشعره ذلك اللقاء بالاعتزاز عندما تثاءب هانسون ودسّ النقود في جيبه من غير أن يعدّها. دسها في جيب صديريته اللامعة، ثم ابتعد مختالاً.

انتابته مخاوف كثيرة عندما سار مخبّئاً زجاجة الجن تحت معطفه، ثم عندما أخفاها في مكتبه. ظل فترة بعد الظهر كلها يمزح ويضحك مبتهجاً بقدرته على إعطاء الفتيان «حقنة» هذه الليلة. كان في الحقيقة مبتهجاً إلى حد جعله يتذكر، فقط قبل أمتار قليلة من بيته، أن زوجته قالت له شيئاً عن جلب البوظة من محل فيتشيا. قال مبرراً موقفه لنفسه: «طيب، لا بأس، فليكن...»، ثم قاد سيارته راجعاً.

ما كان محل فيتشيا محل حلويات ومرطبات فحسب، بل كان محل الحلويات والمرطبات الأكثر أهمية في زينيث. كان القسم الأكبر من الحفلات التي تقام خارج البيوت يجد مكاناً له في الصالة البيضاء الذهبية لدى فيتشيا. وفي دعوات الشاي اللطيفة كلها، كان الضيوف يستمتعون بسندويشات فيتشيا بأنواعها الخمسة، وبأنواع المعجنات الخمسة لدى فيتشيا أيضاً. وكان كل عشاء ناجح ينتهي، على إيقاع واحد، ببوظة نابولي من فيتشيا... في شكل من أشكالها الثلاثة: شكل البطيخة، والشكل المدوَّر مثل كعكة مسطحة، وشكل القرميدة المتطاولة.

كان محل فيتشيا مكسواً كله بخشب أزرق شاحب، وبزخرفات من الورود الجصّية. وكان العاملون فيه يرتدون صديريات مزركشة. وفيه رفوف زجاجية عليها «قبلات» بكل الأشكال التي يمكن صنعها من بياض البيض. أحس بابت بأنه ثقيل أخرق وسط هذه الأناقة الناعمة كلها. وبينما كان ينتظر استلام البوظة، أدرك... مع وخزات حارة في أعلى ظهره... أن إحدى المشتريات في المحل... فتاة... كانت تضحك ساخرة منه. عاد إلى البيت منزعجاً قليلاً. وكان صوت زوجته القلق أول شيء يسمعه: «جورج! هل تذكرت المرور على محل فيتشيا لجلب البوظة؟».

«قولي لي! انظري إلي! هل نسيت أن أفعل شيئاً في حياتي؟».

«نعم! غالباً!».

«هيا الآن! نادراً ما يحدث هذا. إنه أمر متعب حقاً... أن يذهب المرء إلى صالة شاي وردية، مثل محل فيتشيا، ويكون عليه أن يقف هناك وينظر إلى صبايا كثيرات نصف عاريات... شفاههن مطلية كأنهن في الستين... يأكلن كميات كبيرة من أشياء تؤذي صحتهن...».

«أوه! هذه أخبار سيئة عنك! لقد لاحظت كم تكره النظر إلى الفتيات الجميلات!».

أدرك بابت مصدوماً أن زوجته كانت منشغلة إلى حد يجعلها غير قادرة الآن على التأثر بذلك السخط الأخلاقي الذي يحكم الذكور العالم من خلاله. مضى مستكيناً

إلى الطابق العلوي حتى يرتدي ثيابه. لمح في طريقه غرفة الطعام المتألقة، والكؤوس الكريستالية، والشموع، والخشب الملمع، والمفارش المخرمة، والفضيات، والورود. وبقلب راجف، مثلما يليق بمسألة مهمة من قبيل دعوة العشاء هذه، تخلى عن رغبته الشديدة في مواصلة ارتداء قميصه المتسخ يوماً رابعاً. أخرج قميصاً نظيفاً تماماً. ثم سوّى ربطة عنقه السوداء ومسح حذاءه الجلدي الأنيق بمنديل. نظر مبتهجاً إلى أزراره المصنوعة من العقيق والفضة. عدّل وضع جواربه وربت على كاحليه اللذين تحوّلا نتيجة الجوارب الحريرية، من ساقي جورج بابِت القويتين إلى طرفين رشيقين يليقان بما يطلق عليه اسم «رجل النوادي». وقف أمام المرآة ذات الإطار المزخرف، ناظراً إلى الجاكيت الأنيق وإلى بنطلونه ذي الطيات الثلاث؛ وراح يهمهم بغبطة إيقاعية «عجباً... لا يبدو مظهري سيئاً... لا أبدو رجلاً من كاتاوبا. لو رآني أهل قريتي في هذه الملابس لفقدوا الوعي».

تحرك بمظهره المهيب؛ ثم نزل ليحضّر الكوكتيل. وبينما كان يحظّر قطع الجليد، ويعصر البرتقال، ويجمع ما عنده من زجاجات وكؤوس وملاعق فيضعها كلها إلى جانب المجلى في حجرة تحضير الطعام، أحس بأنه شخصية مهمة... مثل عامل البار في صالون هيلي هانسون. صحيح أن السيدة بابِت قالت إنه واقف في طريقها، وأن ماتيلدا والخادمة المستأجَرة من أجل تلك الأمسية كانتا تصطدمان به عند مرورهما، وتدفعانه وتزعقان «افتح الباب من فضلك!» وهن يسرن حاملات الصواني، لكنه استطاع أن يتجاهلهن كلّهنّ في هذه اللحظة العظيمة.

إضافة إلى زجاجة الجن الجديدة، كان مخزونه الكحولي مؤلفاً من نصف زجاجة من ويسكي بوربون، وربع زجاجة من الفيرموث الإيطالي، ونحو مئة نقطة من خلاصة البرتقال التي تضاف إلى الكوكتيل. لم يكن عنده خَلّاط خاص لإعداد الكوكتيل. إن وجود الخلاط دليل على الميل إلى الإسراف في الشراب... إنه يرمز إلى شخص سكّير! كانت شدة كره بابِت لأن يعتبر سكّيراً أقوى حتى من محبته احتساء الشراب. بدأ يصب الكوكتيل من وعاء متطاول قديم في دورق من غير مقبض. كان يصبّ الشراب بوقار نبيل ممسكاً بالوعاء عالياً تحت تلك اللوحة المزيَّنة. كان وجهه حاراً؛ وكانت مقدمة قميصه بيضاء لامعة... وكان المجلى النحاسي يتألق بلون ذهبي محمَرّ.

تذوَّق الخليط المقدس! «والآن، واو!... إنه كوكتيل رائع! يشبه كوكتيل برونكس، لكنه يشبه كوكتيل منهاتن أيضاً. مممم! ميرا... هل ترغبين في رشفة صغيرة قبل وصول الضيوف؟».

كانت السيدة بابِت تندفع مسرعة إلى غرفة الطعام فتعدّل وضع كل كأس بضعة

ميليمترات، ثم تندفع عائدة إلى المطبخ بتصميم كبير لا يفارق وجهها. وكانت تضع منشفة قطنية كبيرة تحمي بها فستان الحفلات الرمادي المزيَّن بالدانتيلا الفضية. حدّقت فيه منزعجة، وقالت موبّخة: «قطعاً لا!».

أجابها بطلاقة فَكِهة: «لا بأس! أظن أن العجوز سوف يشرب قليلاً».

ملأه الكوكتيل بهجة مدوِّخة لاحت له بعدها رغبات مدمرة... الاندفاع من مكان إلى آخر بسيارة سريعة، تقبيل الفتيات، الغناء، المرح! حاول استعادة وقاره المفقود بأن صاح بماتيلدا:

«سوف أضع دورق الكوكتيل هذا في البراد. كوني حريصة عليه».

«حاضر».

«أقول لكِ... احرصي عليه! لا تضعي شيئاً في الرف العلوي».

«حاضر».

«طيب! احرصي...» أصابه دوار النشوة. كان صوته نحيلاً كأنه آت من مكان بعيد. أمرها من جديد قائلاً بنبرة واثقة مؤكدة: «إذن... كوني حريصة الآن». ثم تهادى ماشياً إلى أمان غرفة المعيشة. سأل نفسه إن كان قادراً على إقناع «هذه المجموعة البطيئة... ميرا وليتلفيلد... بالذهاب إلى مكان ما بعد العشاء للتدخين، وربما للعثور على مزيد من الشراب أيضاً». أدرك الآن أن لديه مواهب في التهتّك والخلاعة... لكنه يهملها!

كان فراغ رمادي ضخم قد حل محل الدوّامة اللطيفة في رأس بابت بعد الوقت الذي انقضى حتى وصل الضيوف، بمن فيهم الزوج الذي وصل متأخراً حتماً... الزوج الذي انتظره الآخرون بكل لطافة، رغماً عنهم. صار عليه الآن أن يجبر نفسه إجباراً على الترحيب الحار الصاخب المناسب لاستقبال الضيوف في فلورال هايتس.

كان الضيوف هاورد ليتلفيلد، الدكتور في الفلسفة الذي يرعى شؤون الدعاية والحسابات في شركة المواصلات؛ وفيرجيل غوتنش، تاجر الفحم الذي كان عضواً بارزاً في جمعية الوعول وفي النادي الرياضي أيضاً؛ وإيدي سوانسون، وكيل شركة جافلن للسيارات الذي يعيش في البيت المقابل في الشارع نفسه؛ وأورفيل جونسز، صاحب مغسلة السوسنة البيضاء للملابس... المحل الذي كان يدعو نفسه، بحق، «أكبر وأهم مغاسل الملابس في زينيث، وأكثرها انشغالاً». لكن أهم المدعوين، بطبيعة الحال، كان السيد ت. كولموندلي فرينك. لم تكن أهمية هذا الرجل مقتصرة على أنه مؤلف «التأمّلات الشعرية» التي تنشر يومياً في سبعة وستين صحيفة مهمة، والتي منحته شهرة وجمهوراً يعادلان ما يحظى به أهم شعراء العالم، بل كان أيضاً محاضراً متفائلاً، وكان شخصاً مبدعاً في فن «الإعلانات التي تضيف شيئاً». وعلى الرغم من الفلسفة

العميقة والأخلاقيات الرفيعة في أشعاره، كانت هذه الأشعار فكاهية سهلة الفهم لأي طفل في الثانية عشرة من عمره. وكان مما يزيد شعره لطافة أنه يكتبه نثراً! كان السيد فرينك معروفاً، من أقصى الولايات المتحدة إلى أقصاها، بلقب «الزميل».

كانت معهم ست زوجات، أو نحو ذلك... كان التمييز صعباً في هذه الساعة المبكرة من المساء لأن النساء بدَوْنَ متشابهات جميعاً... قلن جميعاً: «أوه! أليس هذا لطيفاً؟»... بالنبرة نفسها وبالحيوية المصطنعة المقصودة نفسها. كان الرجال يبدون أقل تشابهاً: ليتلفيلد، العالِم المتحفظ الطويل ذو الوجه الخشن؛ وتشام فرينك، الرجل الضئيل بشعره الناعم الذي يشبه شعر الفأر. كانت مهنته الشعرية ظاهرة عليه لأن نظارته كانت معلقة بخيط من الحرير؛ وفيرجيل غانتش ذو المنكبين العريضين والشعر الخشن الممشط؛ وإيدي سوانسون، الشاب الأصلع خفيف الحركات الذي كانت أناقته ظاهرة في جاكيت السهرة السوداء الطويلة الحريرية ذي الأزرار الزجاجية؛ وأورفيل جونسز القصير البدين المتين، بشاربه الذي يشبه فرشاة أسنان بلون القنب. لكنهم كانوا جميعاً نظيفين يبدو عليهم حسن التغذية. صاحوا كلهم «مساء الخير يا جورجي!»... قالوا ذلك بقوة وإلفة جعلتهم يبدون كأنهم من أبناء عمومته. الغريب أن النساء يبدون للمرء أقل تشابهاً كلما عرفهم منذ مدة أطول؛ أما عندما يعرف الرجال مدة أطول، فإن أشكالهم الصلعاء تبدو أكثر تشابهاً!

كان تناول الكوكتيل طقساً محسوباً تماماً، مثل إعداده. وبمشقّة وأمل، انتظر الضيوف تقديمه متبادلين عبارات قصيرة متوترة عن الطقس الذي صار أكثر دفئاً، مع أنه بارد قليلاً. لكن بابت لم يقل شيئاً عن الشراب حتى الآن! أصابهم القنوط. لكن، عندما وصل الزوج الأخير من الضيوف (آل سوانسون)، قال بابِت: «حسنًا يا أصدقاء! هل تظنّون أنكم قادرون على خرق القانون قليلاً؟». نظروا كلهم إلى تشام فرينك... سيد اللغة المعترف به. جذب فرينك خيط نظارته الحرير كأنه حبل الجرس. ثم تنحنح قائلاً ما يقوله المرء عادة في هذا الموقف المهيب:

«سأقول لك يا جورج: إنني شخص ألتزم القوانين. لكنهم يقولون إن فيرجيل غانتش صاحب مزاج دائماً! وهو أكبر مني بالتأكيد. لا أستطيع معرفة ما يمكنني أن أفعل إذا حاول إرغامي على فعل شيء غير قانوني».

انفجر غانتش ضاحكاً: «لا بأس، سوف أغامر...». عندها، رفع فرينك يده وتابع قائلاً: «إذن يا جورج... إذا كنتم مصرين، أنت وفيرجيل، فسوف أوقف سيارتي في مكان ممنوع الوقوف فيه لأنني متأكد من أن هذه هي الجريمة التي تلمحون إليها».

ضحك الضيوف كثيراً. وقالت السيدة جونسز مؤكدة: «إن السيد فرينك يقتلنا من شدة الضحك!... قد يظن المرء أنه بريء جداً!».

صاح بابِت: «كيف حزرت هذا يا تشام؟ عليك الآن أن تنتظر لحظة واحدة ريثما أجلب الـ... ريثما أجلب لك مفاتيح سيارتك! وفي جو من البهجة، جاء بابِت بالوعد المتألق اللامع... صينية ضخمة عليها كؤوس كثيرة وفي وسطها دورق زجاج فيه الكوكتيل الأصفر الغائم. بربر الرجال قائلين: «أوه! ... يا للمنظر الجميل!»، و... «هكذا يجب أن يكون!»... «دعني أتذوقه!». لكن تشام فرينك، الرجل كثير الأسفار... الذي أَلِف الأهوال، صدمته فكرة أن هذا الدواء السحري يمكن أن يكون مجرّد عصير فاكهة فيه قليل من الكحول غير المسكر. بدا الرجل وجلاً عندما حمل بابِت... المبتهج المولّه بتوزيع هذه الخيرات... كأساً من الكؤوس وقدّمه له. تذوّق فرينك الشراب ثم قال متعجباً: «أوه... يا رجل! دعني أحلم! هذه ليست حقيقة، لكن لا توقظني! يا للحلم الجميل!».

قبل ساعتين فقط، كان فرينك قد أنجز كتابة قصيدة نثرية لإحدى الصحف. كان مطلعها على النحو التالي:

جلست وحدي شاكياً متفكّراً. حككت رأسي ثم غمغمت وتنهّدت. للأسف، لا يزال هنالك من يحب مكان الشراب القديم. ذلك الوكر الذي يجعل العاقلين مجانين. تلك الصالة العتيقة الخاطئة التي تفوح رائحتها! لن أشتاق أبداً إلى ذلك الشراب السامّ لأنني قادر على الشرب من هذا النبع الفَوّار الذي يجعل ذهني في الصباح نظيفاً مثل طفل وليد.

راح بابِت يشرب مع الآخرين. زال عنه اكتئابه العابر. وأدرك أن ضيوفه أفضل الأشخاص في العالم. أراد أن يقدّم لهم ألف كوكتيل. قال لهم: «أظن أنكم تستطيعون تحمل كأس إضافية!»، رفضت الزوجات، متضاحكات. أما الرجال فقالوا جذلين... بأصواتهم العريضة المتمهلة: «نعم! لا نستطيع إغضابك يا جورجي».

قال لكل منهم: «ستحصل على حصة إضافية صغيرة». أجابوه: «اعصرها يا جورجي... اعصرها!».

عندما فرغ الدورق... للأسف... راحوا جميعاً يتحدّثون عن حظر الكحول. وقف الرجال مستندين إلى كعوبهم واضعين أيديهم في جيوبهم. راحوا يعرضون وجهات نظرهم بالعمق وبعد النظر اللذين يميزان ذكوراً أثرياء يرددون عبارات مكرورة عن مسألة لا يعرفون عنها شيئاً.

قال فيرجيل غانتش: «سأقول لكم الآن... هكذا أفهم الأمر! وأنا أعرف هذا لأنني تحدثت مع أطباء كثيرين ومع أشخاص ممن يعرفون. أرى أن التخلص من تلك الصالات أمر جيد. لكن يجب أن يسمحوا للمرء بشراء البيرة والنبيذ الخفيف».

آدلي هاورد ليتلفيلد بدلوه: «ما لا يدركه الناس عامة هو أن الاعتداء على الحق في الحرية الشخصية أمر خطر! خذوا هذا مثلاً: أصدر ملك... بافاريا؟ أظن أنه كان ملك بافاريا... نعم، بافاريا، إنها بافاريا... في عام 1862... في آذار 1862، إعلاناً منع فيه رعي الماشية في الأراضي العامة. كان الفلاحون قد تحملوا زيادة الضرائب من غير شكوى. لكنهم تمردوا عندما صدر هذا الإعلان. أو لعل هذا حدث في ساكسونيا!... المقصود هو إظهار خطورة الاعتداء على حقوق الحرية الشخصية».

قال أورفيل جونسز: «نعم، هكذا... لا يحق لأحد أن يعتدي على الحرية الشخصية».

قال فرجيل غانتش: «رغم ذلك، لا يجوز نسيان أن حظر الكحول شيء جيد جداً من أجل العُمّال. إنه يبعدهم عن تبديد مالهم وعن تقليل الإنتاجية».

قال هاورد ليتلفيلد مصراً: «نعم، هكذا هو! لكن المشكلة كامنة في أسلوب فرض ذلك. لا يفهم الكونغرس نظام الحقوق! لو كنت أنا من يدير الأمور لرتَّبت المسألة كلها على نحو يقتضي إصدار ترخيص للشخص الذي يريد أن يشرب الكحول. وعند ذلك يمكن تدبّر أمر العمال المزعجين... يمكن منعهم من الشرب... من غير التورّط في الاعتداء على الحقوق ـ الحرية الشخصية... حقوق الناس الذين هم مثلنا».

رفعوا رؤوسهم جميعاً وراحوا يتبادلون نظرات الإعجاب. ثم قالوا: «هكذا بالضبط! هذه هي الطريقة الصحيحة».

تنهد إيدي سوانسون قائلاً: «ما يقلقني هو أن كثيراً من هؤلاء الناس سوف يلجأون إلى الكوكايين».

أومأوا برؤوسهم موافقين، وقالوا: «هذا صحيح! إنه أمر خطير».

قال تشام فرينك: «أو، هل تعرفون؟ لقد حصلت منذ أيام على وصفة جديدة رائعة لتحضير البيرة منزلياً. تأخذون مقدار...».

قاطعه غانتش: «انتظر! دعني أقول لك وصفتي!...».

لكن ليتلفيلد نخر منزعجاً: «بيرة! بئس الأمر! الشيء الصحيح هو تخمير عصير التفاح». لكن جونسز ظل مصراً: «لقد حصلت على الوصفة المناسبة». قال سوانسون متوسلاً: «أو، دعني أقول... دعني أخبرك بالقصة...». لكن فرينك تابع كلامه بكل تصميم: «احتفظ بقشور البازلاء. صب ستة غالونات من الماء على بوشل[1] من هذه القشور. ثم عليك أن تغلي المزيج حتى...».

1- البوشل وحدة قياس انكليزية تستعمل للسلع الزراعية الجافّة وتسمى «مِدّ» وهي تساوي 14.5 كلغ من القمح مثلاً أو الشعير أو الذرة...

استدارت السيدة بابِت نحوهم بحركة حلوة مترَقِّبة. أسرع فرينك حتى ينهي وصفته المفضلة لإعداد البِيرة قبل أن تتكلم. قالت السيدة بابِت بصوت مرح: «العشاء جاهز».

جرى كثير من النقاش الودّي بين الرجال عندما راح كل منهم يدعو غيره لأن يسبقه إلى غرفة الطعام. وعندما كانوا يجتازون الصالة منتقلين من غرفة المعيشة إلى حيث المائدة، جعلهم فرجيل غانتش يضحكون عندما قال بصوت مرتفع: «إذا لم أكن أستطيع الجلوس إلى جانب ميرا بابِت لأمسك بيدها تحت الطاولة، فلن ألعب معكم. أنا ذاهب إلى البيت». وقفوا في غرفة الطعام محرَجين بينما راحت السيدة بابِت تقول: «والآن، دعوني أرى، أوه! كنت أود تحضير بطاقات اسمية للأماكن من أَجلكم، بخط اليد، لكن... أوه، دعوني أرى: اجلس هنا يا سيد فرينك!».

كان العشاء بأفضل صورة يمكن أن يراها المرء في المجلات النسائية: قُدّمت السلطة في أنصاف تفاحات مفرغة. وكانت أصناف الطعام كلها، عدا الدجاج المقلي الذي لا يتحمّل أي مزاح، مقدَّمة بحيث تبدو كأنها أشياء أخرى. كان الرجال يجدون عادة أن الحديث مع النساء أمر صعب عليهم. إن التودّد إلى النساء فنٌّ غير معروف في فلورال هايتس!... كانت مملكتا المكاتب والمطابخ مملكتين متباعدتين. لكن الحديث، تحت تأثير الكوكتيل، ظل حيوياً عنيفاً. لا يزال لدى كل رجل من الرجال أشياء مهمة يحب أن يقولها في ما يتعلق بحظر الكحول. وقد صار لكل منهم الآن مستمعة مخلصة جالسة إلى جانبه يستطيع أن يقول لها رأيه:

«وجدت مكاناً أستطيع الحصول فيه على ما أريد من شراب مقابل ثمانية دولارات لربع الغالون...».

«هل قرأت عن ذلك الشخص الذي دفع ألف دولار مقابل عشرة صناديق من الويسكي تبينَ فيما بعد أنها مليئة بالماء؟ يبدو لي أنه كان واقفاً عند زاوية الشارع ثم جاءه شخص و...».

«يقولون إنهم صادروا طوفاً كاملاً مهرَّباً في ديترويت...».

«ما أقوله دائماً هو أن ما لا يعرفه الناس عن حظر الكحول...».

«وعند ذلك يحصل المرء على هذه السموم المخيفة كلها... كحول الخشب، وكل الأشياء...».

«أنا مقتنع به من حيث المبدأ، بطبيعة الحال! لكني لا أقبل أن يملي عليَّ أحد أفكاري وأفعالي. لا يقبل أي أميركي بهذا الشيء!».

على أنهم شعروا جميعاً بقلة ذوق أورفيل جونسز (لم يكن أحداً يعتبره من الظرفاء

ضمن تلك المجموعة أصلاً) عندما قال: «الحقيقة هي أن مسألة حظر الكحول كلها غير متعلقة بالتكلفة الأولية... إنها مسألة الرطوبة».

لم يصبح الحديث عاماً إلا بعد أن انتهت معالجة الموضوع الأول!

غالباً ما يُقال، بإعجاب، عن فيرجيل غانتش «عجيب!... يستطيع هذا الشخص أن يرتكب جريمة قتل ثم يفلت من غير عقاب! طبعاً... يستطيع أن يقول كلاماً بذيئاً في وسط مختلَط ويجعل السيدات كلهن يضحكن حتى الموت. أما أنا... يا للهول... إذا قلت شيئاً مختلفاً، ولو قليلاً، فإنني أتلقى عقابي على الفور!». والآن... أبهجهم غانتش عندما صاح بزوجة إيدي سوانسون، وهي الأصغر سناً بين الحاضرات: «لويتا! لقد نجحت في سرقة مفاتيح باب بيتكم من جيب إيدي. ما رأيك أن نتسّلل معاً من غير أن ينتبه إلينا أحد؟ عندي شيء في غاية الأهمية يجب أن أقوله لك». قال الجملة الأخيرة مع غمزة شهوانية رائعة. تلوَّت المرأة من الضحك. وشعر بابِت بحماسة لأن يتشاقى هو أيضاً: «اسمعوا يا ناس... أتمنى لو أنني أجرؤ على أن أجعلكم تشاهدون كتاباً استعرته من دوك باتن».

قالت السيدة بابِت محذرة: «جورج!... الآن... هذه الفكرة!».

«إن هذا الكتاب مفعم بالحيوية ـ أليست هذه كلمة مناسبة؟ إنه نوع من تقرير أنثروبولوجي عن ... عن التقاليد في جزر البحار الجنوبية. وهل من شيء لا يقوله هذا الكتاب؟ إنه كتاب لا تستطيعون شراءه. سوف أعيرك إياه يا فيرجيل».

قال إيدي سوانسون ملحّاً: «أنا أولاً! يبدو كتاباً مثيراً!».

قال أوليفر جونسز: «سمعت منذ أيام قصة عن شخصين سويديين وزوجتيهما...». وبأفضل لكنة يهودية لديه، تابع سرد قصته العظيمة حتى نهايتها التي كانت بذيئة بعض الشيء. أراد غانتش أن يتابع من بعده. لكن أثر الكوكتيل بدأ يتراجع. وعاد الجميع إلى نوع من الصحو الواقعي الحذر.

قام غانتش فرينك مؤخراً بجولة محاضرات في عدة مدن صغيرة. قال مبتسماً: «رائع فعلاً أن يعود المرء إلى الحضارة! لقد كنت في بعض البلدات الريفية! أقصد... إن الناس هناك من أحسن الناس في الدنيا، بطبيعة الحال. لكن، ماذا أقول... الحياة في تلك البلدات الريفية شديدة البطء. وأنتم يا أصدقائي لا تدركون معنى أن تكونوا هنا مع الناس الأحياء حقاً!».

قال أورفيل جونسز مسرعاً: «بكل تأكيد! إنهم أحسن الناس على وجه الأرض... أهل تلك البلدات الصغيرة. لكن، أوه... يا أمي! أي أحاديث لديهم! لا يستطيعون الحديث إلا عن الطقس وعن سيارة الفورد الجديدة، مع بعض الشراب!».

قال إيدي سوانسون: «صحيح ما تقول! إنهم يتحدّثون عن الأشياء نفسها... كلهم».
قال فيرجيل غانتش: «هذا ما يفعلونه! إنهم يقولون الأشياء نفسها مرة بعد مرة».
قال هاورد ليتلفيلد: «نعم! هذا واضح حقاً. يبدو أنهم يفتقرون إلى أي قدرة على النظر إلى الأشياء نظرة غير شخصية. إنهم يعيدون الكلام نفسه مرة بعد مرة، عن السيارات والطقس، وهكذا».

قال تشام فرينك: «لكننا لا نستطيع لَوْمَهم على هذا. ليست لديهم الحوافز الثقافية المتوفرة لدينا هنا في المدينة».

قال بابِت: «هذا صحيح طبعاً! لا أريدكم، باعتباركم مثقّفين، أن تصبحوا معجَبين بأنفسكم كثيراً؛ لكن عليَّ القول إن ما يجعل المرء يحافظ على نفسه هو أن يجلس مع هذا الشاعر ومع هاورد، هذا الرجل البارع في الاقتصاد! أما هؤلاء الناس في البلدات الصغيرة، الذين ليس لديهم غير أنفسهم لتبادل الأحاديث... لا عجب في أن يكونوا أجلافاً غير متحضّرين في كلامهم، ومتخلّفين في تفكيرهم!».

قال أورفيل جونسز معلقاً: «انظروا أيضاً إلى المزايا الأخرى التي نتمتع بها ـ السينما، على سبيل المثال. يظن الناس في بلدة يابفيل أنهم محظوظون إذا سنحت لهم فرصة الذهاب إلى السينما مرة في الأسبوع. أما هنا، في المدينة، فإنك تستطيع الاختيار بين عشرة أفلام مختلفة في أي وقت تريد».

قال إيدي سوانسون: «بالتأكيد! ثم لديك أيضاً الإلهام الذي تحصل عليه من الاحتكاك بأشخاص نشيطين متزاحمين رفيعي المستوى، كل يوم، وبأن تشرب كأس الحياة مترَعاً كل يوم».

قال بابِت: «لا معنى أحياناً لالتماس الأعذار لهؤلاء الريفيين الحَمقى. ليس للمرء أن يلوم إلا نفسه إذا لم يستطع أظهار روح المبادرة والذهاب إلى المدينة ليعيش فيها... مثلما نفعل... مثلما فعلنا! أقول لكم... أتحدث الآن بين أصدقائي فقط... إنهم يغارون من أهل المدينة غيرة شديدة. كلما ذهبت إلى كاتاوبا، يكون عليَّ أن أعتذر من جميع من عشت معهم في طفولتي لأنني كنت ناجحاً، إلى هذا الحد أو ذاك، أما هم ففاشلون. وإذا تحدث المرء معهم على نحو طبيعي، مثلما نفعل هنا، وأظهر شيئاً من الذكاء وطرح ما يمكن أن تدعونه رأياً... فإنهم يظنونه متكبّراً عليهم! خذوا مثلاً أخي غير الشقيق، مارتين، الذي يدير المتجر القديم الذي كان يديره أبي. أراهنكم أنه لم يسمع بعد بوجود شيء اسمه جاكيت السهرة، أو جاكيت العشاء. وإذا أتى إلى هنا الآن، فسوف يظن أننا مجموعة من... من... لا أعرف! أقسم أنه لن يعرف بماذا يفكر عند ذلك! نعم يا سيدي، إنهم يغارون!».

قال تشام فرينك موافقاً: «هكذا هو الأمر! لكن ما يعجبني فيهم، رغم هذا، هو افتقارهم إلى الثقافة وإلى تقدير ما هو جميل... اعذروني إذا بدوت متكبّراً! الآن، عندما أكون جالساً معكم هنا، أحب أن ألقي محاضرة رفيعة المستوى، وأن أقرأ بعض أفضل ما عندي من شعر ـ ليس ذلك الشعر الذي ينشرونه في الصحف، بل الشعر الذي في المجلات! أما عندما أخرج إلى البرية، بين الأعشاب المرتفعة، فلن يكون عندي شيء يصلح للقول إلا بعض القصص القديمة العادية، والكلمات العامّية، والتفاهات من ذلك النوع الذي إذا قاله أحد منا هنا فسوف يجد نفسه مطروداً خارجاً من الباب بسرعة تجعل رأسه يدور».

لخّص فيرجيل غانتش الموضوع: «الحقيقة هي أننا محظوظون كثيراً لأننا نعيش بين أهل المدينة الذين يدركون الأشياء الفنّية ولديهم حِسّ بالأعمال أيضاً. يصيبنا الغَمّ إذا علقنا في بلدة ريفية صغيرة وحاولنا نُصح غريبي الأطوار الذين يعيشون فيها بأن يعيشوا حياة كالتي نعيشها هنا. لكن، أظن أن هذا ما يجب قوله لهم: تحاول كل بلدة أميركية صغيرة أن تزيد سكانها وأن تعزّز المُثُل الحديثة. سوف يفهمون الأمر بطريقة عكسية تماماً! سوف يروح واحد منهم يباهي بتقاطع الطرق البائس فيقول لك إن هذا المكان كان شارعاً واحداً موحلاً في عام 1900. وسوف يكرر قوله تسعمئة من تلك الرخويات البشرية. لا بأس، عُدْ إلى البلدة نفسها عام 1920! ستجد أرصفة جيدة وفندقاً صغيراً لطيفاً. وستجد أيضاً أول محل لبيع الملابس النسائية الجاهزة. لا يجوز أن تنظر إلى حال هذه البلدات الصغيرة الآن. يجب أن تدرك ما تريد أن تكون عليه. لديهم كلهم طموح لأن تصبح بلداتهم، على المدى البعيد، أفضل مكان في الأرض... يريدون جميعاً أن يصبحوا مثل زينيث!

ـ3ـ

رغم صلتهم الوثيقة مع ت. كولموندلي فرينك باعتباره جاراً لهم، وباعتباره يستعير منهم الأدوات وآلة جز العشب، فقد كانوا يعرفون أيضاً أنه شاعر شهير، وأنه شخصية متميزة في مجال الإعلانات. كانوا يعرفون أن بساطته وسهولة تعامله تخفي أسراراً أدبية عميقة خلفها... أسرارٌ لا يستطيعون سبر غورها. لكنه في هذه الليلة... في جو الثقة الذي خلقه تناول الجن... راح يطلعهم على أسراره:

«عندي مشكلة أدبية تقلقني كثيراً. أكتب الآن سلسلة إعلانات من أجل سيارات زيكو. وأريد أن أجعل كل إعلان من هذه الإعلانات جوهرة حقيقية صغيرة ـ مادة نموذجية! أنا مع النظرية التي تقول إن الكمال هو الهدف، ولا شيء آخر أبداً! إن هذه

الإعلانات من أصعب ما اشتغلت عليه حتى الآن. قد تظنون كتابة الشعر أصعب منها... كل تلك المواضيع القلبية: البيت والأصدقاء والسعادة. هذه أشياء في غاية السهولة! لا يستطيع المرء أن يخطئ عندما يكتب عنها. فهو يعرف المشاعر التي يجب أن تكون عند كل شخص طبيعي سليم العقل عندما يكون في تلك الحالات. وليس على المرء إلا أن يكتب عن تلك المشاعر. لكن شعر الصناعة شيء آخر... إنه مجال أدبي يفتح أرضاً جديدة. أنتم لا تعرفون الشخص الذي هو عبقري أميركا الحقيقي! الشخص الذي لا تعرفون اسمه، ولا أعرفه أنا، لكن عمله سوف يظل باقياً حتى تحكم الأجيال في المستقبل على تفكيرنا الأميركي وعلى أصالتنا الآن... إنه الشخص الذي كتب إعلان تبغ برينس آلبرت! استمعوا إلى هذا، استمعوا فقط:

وحده تبغ جيمس آلبرت يستطيع إدخال البهجة إلى الغليون العتيق. لعلكم سمعتم كثيراً ذلك الكلام عن تجريب هذا النوع وذاك النوع، وعن «تعرَّف على هذا النوع، ولو قليلاً!». نعم، هكذا يفعل البعض حقاً! لكن، بيني وبينكم، عليكم أن تقتنعوا سريعاً بالمساوئ التي تأتيكم نتيجة تدخين تلك الأصناف الرديئة ـ قفوا كلكم خلف ذلك الغليون القديم المتوهِّج بأفضل أنواع التبغ... برينس آلبرت.

برينس آلبرت هو ما يجب أن يكون... استمتع دائماً بالنكهة، النكهة البهيجة المعطرة! هل استخدمت من قبل تبغاً مضبوط المواصفات إلى هذا الحد؟ مختوماً بهذا الشكل؟ ممتعاً إلى هذا الحد؟

أمسك الغليون الآن ـ أسرع... املأه تبغاً، ثم اشعِله! إذا كنت تدخن برينس آلبرت فأنت قادر على فعل كل شيء! وأنت تعرف معنى هذا».

قال وكيل السيارات، إيدي جونسون: «هذا ما أدعوه أدباً رجولياً! إن الشخص الذي كتب هذا الإعلان من أجل تبغ برينس آلبرت... رغم أنه لا يمكن أن يكون شخصاً واحداً فقط. لا بد أن هيئة كبيرة من الأدباء ذوي المستوى الرفيع اجتمعت! لكن، على أي حال: لم يكتب هذا من أجل الشباب الذين يطيلون شعورهم ويقودون السيارات! كُتب هذا من أجل رجال حقيقيين، كُتب من أجلي! وإنني أرفع القبعة احتراماً له! الأمر الوحيد هو: هل حقّق مبيعات جيدة؟ على غرار الشعراء كلهم، ترك صاحب إعلان تبغ برينس آلبرت أفكاره تجري على هواها. إن قراءة هذا الإعلان رائعة؛ لكنه لا يقول شيئاً! لن أذهب لأشتري هذا التبغ بعد قراءة الإعلان لأنه لا يقول لي شيئاً عن المادة نفسها. إنه مجرّد كلمات رائعة».

واجهه فرينك قائلاً: «أوه، ماذا! هل أنت مجنون؟ هل تظن أنني سوف أعطيك سر الأسلوب؟ على أي حال، هذا هو نوع المادة التي أحب أن أكتبها من أجل سيارات زيكو.

لكنني لا أستطيع ذلك، ببساطة! وهكذا فقد قررت أن ألتزم الأسلوب الشعري المباشر، وأن أجرب حظي في إعلان أدبيّ رفيع من أجل زيكو. ما رأيكم في هذا:

الدرب الأبيض الطويل يناديني... يناديني ويمضي فوق التلال، يمضي بعيداً إلى كل رجل أو امرأة، إلى كل من يجري في عروقه دم حقيقي وتصدح على شفتيه أغنية قديمة، أغنية المغامرين. يمضون مبتعدين عن وقع الحياة الرتيب! السرعة... السرعة الرائعة... إنها ليست حلاوة اللحظة وحدها... إنها الحياة، لك ولي! إنها الحقيقة العظيمة الجديدة التي حرص من يصنعون سيارة زيكو عليها مثل حرصهم على السعر وجمال الشكل. سيارة تجري كالغزال، ناعمة مثل انزلاق السنونو في الهواء، لكنها قوية مثل فيل ضخم. سيارة يظهر مستواها الرفيع في كل خط من خطوطها. اسمع يا أخي! لن تعرف أبداً فن ركوب السيارات قبل أن تجرّب أروع ما في الحياة... سيارة زيكو!».

تابع فرينك مخاطباً نفسه: «نعم! إن في هذا الكلام لوناً جميلاً! لكنه لا يزال في حاجة إلى بعض السحر الأصيل!».

تنهّد الجميع... معجَبين متعاطفين!

الفصل التاسع

-1-

كان بابِت مولعاً بأصدقائه. وكان يحب أن يشعر بالأهمية عندما يكون مضيفاً لهم ويصيح: «بالتأكيد سوف تتناول المزيد من الدجاج... هذا ضروري!». وكان معجباً بذكاء فرينك أيضاً. لكن الحيوية التي سببها الكوكتيل زالت الآن. وراح سروره يتناقص كلما أكل أكثر. وعند ذلك، تبددت بهجة العشاء بفعل النقّ المتبادل بين سوانسون وزوجته.

كان في فلورال هايتس، وفي غيرها من الأحياء المزدهرة في زينيث... في «مناطق المتزوّجين حديثاً»، خاصةً، نساء كثيرات ليس لديهن ما يفعلنه. ورغم قلة الخدم لديهن، كانت المواقد الغازية والغسالات الكهربائية وآلات غسل الأطباق والمكانس الكهربائية وجدران المطابخ المبلّطة تجعل بيوتهن مريحة بحيث لا يبقى لديهن إلا قليل من الأعمال المنزلية. كما كان أكثر الطعام يأتي من المخابز ومحلات المأكولات الجاهزة. وما كان لدى الواحدة منهن إلا طفلان، أو طفل واحد... أو من غير أطفال. وعلى الرغم من الأسطورة القائلة إن الحرب العظمى جعلت العمل أمراً محترماً، إلا أن الأزواج كانوا يعارضون «تضييع الوقت واكتساب أفكار معوّجة كثيرة» في العمل الاجتماعي المجاني. كما كان العمل المأجور يحمل خطر سريان شائعات تقول إن الأزواج لا يستطيعون إعالة زوجاتهن! كان لدى الزوجة عمل منزلي يستمر ساعتين، أو نحو ذلك، وكانت تمضي بقية نهارها في أكل الشوكولاته والذهاب إلى السينما والتسوّق. وكانت الزوجات تجتمعن، امرأتين أو ثلاث نساء... للعب الورق وتبادل النمائم وقراءة المجلات، إضافة إلى أفكار حية مترددة وجِلة عن عشّاق لا يأتون أبداً، وإلى تراكم قدر كبير من القلق والانزعاج لا يستطعن التخلص منه إلا بالنق على أزواجهن. وكان الأزواج يردون على النق بالنق.

كان الزوجان سوانسون نموذجاً حقيقياً لهؤلاء النقّاقين.

خلال العشاء كله، كان إيدي سوانسون يتذمّر، أمام الآخرين، من فستان زوجته

الجديد. قال إنه قصير جداً، منخفض الياقة جداً، رقيق إلى حد فاضح، وغالٍ أكثر مما يجب. قال مستنجداً ببابِت:

«صدقاً يا جورج، ما رأيك في هذه الخرقة التي ذهبت لويتا واشترتها؟ ألا تظن أنها بالغت؟».

«ما الذي يزعجك في فستاني يا إيدي؟ إني آراه فستاناً رائعاً».

قالت السيدة بابِت محتجة: «أوه! إنه جميل يا سيد سوانسون. إنه فستان لطيف».

صاحت لويتا بزوجها: «هكذا... هل ترى الآن يا ذكي؟ أنت خير من يعرف في الملابس!». أما الضيوف فراحوا يسترقون النظر إلى كتفيها العاريين.

قال سوانسون: «لا بأس الآن! أعرف بالقدر الكافي الذي يسمح لي بالقول إن فستانك كان هدراً للمال. يزعجني أنك لا تريدين استخدام شيء من خزانة ملابسك الملأى. قلت رأيي في هذا سابقاً. وأنت تعرفين أنك لا تهتمين بما قلته على الإطلاق. عليَّ أن أتابعك دائماً إذا أردت منك أن تفعلي أيّ شيء...».

استمر هذا الحديث زمناً غير قليل. ساهم الجميع فيه، إلا بابِت! صار كل شيء من حوله باهتاً، باستثناء معدته... كانت تزعجه إزعاجاً شديداً. قال في نفسه بما يشبه الأنين: «لقد أكلت كثيراً. ما كان يجب أن آكل كل هذه الأشياء!»... لكنه تابع الأكل فالتهم شريحة كبيرة لزجة من البوظة وأتبعها بكعكة جوز هند طرية كأنها معجون حلاقة. أحس أنه محشوٌّ طيناً، وأن جسده على وشك الانفجار؛... أحس أن دماغه صار وحلاً حاراً. اقتضاه الأمر جهداً وعذاباً حتى يتمكن من مواصلة الابتسام لهم والصياح معهم كما يليق بصاحب دعوة في فلورال هايتس.

لولا وجود ضيوفه... لرغب الآن في الخروج والمشي حتى يتخلص من سموم الطعام الذي أكله. لكنهم بدوا له في الضباب الذي لَفَّ الغرفة كلها في عينيه، كأنهم جالسون إلى الأبد، يتحدثون ويتحدثون... أما هو فيتعذّب... «كان غباءً مني أن آكل هذه الكمية كلها... لن آكل أي لقمة أخرى». لكنه اكتشف أنه مستمر في تذوّق البوظة التي ذابت في صحنه. ما كان في أصدقائه أي سحر. ولم يتأثر البتّة عندما أخرج هاورد ليتلفيلد من علبة العجائب العلمية التي في عقله معلومات تقول إن الرمز الكيميائي للمطاط الخام هو ($C_{10}H_{16}$)، وإنه يتحول إلى مادة الإيزوبرين ($2C_5H_8$). وعلى نحو مفاجئ، من غير سوابق، ما عاد بابِت ضجِراً فحسب، بل صار معترفاً بضجره. ما أروع أن يستطيع الفرار من هذه الطاولة، من الكرسي مستقيم الظهر الذي يعذّبه، وأن يستلقي على الأريكة في غرفة المعيشة.

وأما الآخرون، فبدا عليهم أنهم يعانون من مشقة الحياة الاجتماعية ومن أهوال الطعام اللذيذ... مثله تماماً. استنتج هذا من حديثهم المتقطّع غير المقنع، ومن تعبير

الاختناق المؤلم الذي بدا عليهم. وافقوا جميعاً، مرتاحين، على اقتراح بأن يلعبوا الورق.

تخلص بابِت من إحساسه بالموت. فاز في لعبة الورق! وصار قادراً من جديد على احتمال مودة فيرجيل غانتش التي لا ترحم. لكنه تخيَّل أيضاً تسكعه مع بول ريزلينغ قرب بحيرة في ولاية مين. كانت تلك الفكرة طاغية، خيالية كأنها حنين إلى بيت بعيد. لم يرَ مين في حياته كلها، لكنه احتضن صورة جبالها المغطاة بالغيوم وبحيرتها المسائية الهادئة. تمتم قائلاً لنفسه: «إن الفتى بول يساوي هؤلاء المثقفين الصاخبين كلهم معاً. ليتني أذهب بعيداً عن... كل شيء».

حتى لويتا سوانسون لم تكن مثيرة في نظره الآن.

كانت السيدة سوانسون جميلة لدنة الجسم. صحيح أن بابِت ما كان خبيراً في النساء، إلا من حيث أذواقهن عند بحثهن عن بيت مفروش للإيجار؛ إلا أنه كان يصنِّف النساء إلى سيدات حقيقيات، ونساء عاملات، وعجائز، ودجاجات مزعجات. كان يستمتع برؤية جمال النساء، لكنه كان يرى أنهن كلهن (عدا نساء أسرته) ... «متخلّفات»، «غامضات»! وكان يعرف بالغريزة أن استمالة لويتا سوانسون أمر ممكن. كانت عيناها رطبتين، وشفتاها أيضاً. وكان وجهها مثلثياً: جبهة عريضة وذقن دقيقة. أما فمها فكان رقيقاً، لكنه قوي شَرِه. وبين حاجبيها، ظهرت طيّتان واضحتان عاطفيتان. لعلها كانت في الثلاثين، أو أصغر من ذلك. لم تتناولها الشائعات أبداً، لكن كل رجل كان يجد نفسه يميل ميلاً طبيعياً إلى المجاملة والغزل عندما يتحدث معها. وكانت كل امرأة تنظر إليها نظرة حجرية خالية من أي تعبير.

وفي الفترات التي تخللت جولات لعب الورق، كان بابِت جالساً على الأريكة يتحدث مع لويتا بالقدر الضروري من الكياسة... كياسة فلورال هايتس الطنّانة التي لا تحمل غزلاً أبداً، بل التي تفرّ من الغزل مذعورة: «تبدين كأنك آلة جديدة للمشروبات الغازية يا لويتا!»

«هل أبدو كذلك؟»

«إن صديقي إيدي غاضب منك».

«نعم! إن غضبه يسبب لي الملل!»

«لا بأس! عندما تنزعجين من الزوج، يمكنك أن تهربي مع العم جورج».

«إذا هربت... أوه. إذن...»

«هل أخبرك أحد من قبل أن يديك جميلتان جداً؟»

«نظرت إلى يديها ثم شدّت فوقهما الدانتيلا التي على أكمامها. لكنها لم تفعل شيئاً غير ذلك. كانت سارحة في تخيّلات لم تعبِّر عنها.

كان بابِت فاتر الهمة إلى حد كبير هذا المساء إلى درجة منعته من القيام بواجبه في أن يكونَ ذكراً جذّاباً (أخلاقياً تماماً!). عاد متمهّلاً إلى لعبة الورق. ولم يبتهج كثيراً عندما اقترحت السيدة فرينك، وهي سيدة مزقزقة صغيرة الحجم، أن «نحاول القيام ببعض الأشياء الروحانية ـ تعرفون أن تشام يستطيع استحضار الأرواح... صدّقوني، إنه يخيفني فعلاً».

كانت السيدات صامتات طيلة الأمسية. أما الآن فقد أمسكن بزمام المبادرة لأنهن جنس ميال إلى الروحانيات في حين يميل الرجال إلى الأشياء المادية. رحن يقلن: «أوه... فلنفعل هذا!».

كان الرجال أميل إلى الوقار في الضوء الخافت، وإلى الحماقة أيضاً. لكن الزوجات الطيبات صرن مرتجفات مولّهات عندما جلسن من حول الطاولة. وعندما كان الرجال يمسكون أيديهن في تلك الحلقة، كن يقلن ضاحكات: «الآن، كن شخصاً جيداً وإلا أخبرت الآخرين!».

أحس بابِت بوخزة، باستيقاظ بسيط بحب الحياة عنده، عندما أطبقت يد لويتا سوانسون على يده وشدت عليها بقوة هادئة.

انحنوا على الطاولة جميعاً متحفزين. ثم أجفلوا عندما شهق أحدهم. بدوا، في الضوء المغبر الآتي من الصالة، غير حقيقيين... متحرّرين من وجودهم المادي. أطلقت السيدة غانتش زعقة منخفضة حادة فقفزوا في أماكنهم كأنهم يمزحون، لكن فرينك أسكتهم من جديد فغرقوا في رهبة مكبوتة. وعلى نحو لا يصدَّق، سمعوا فجأة صوت طرقات. نظروا إلى يدي فرينك نصف الظاهرتين من كميه فوجدوهما ممدودتين أمامه على الطاولة، ساكنتين. تجاهلوا الأمر وتظاهروا بعدم التأثر.

تكلم فرينك بصوت جدي: «هل من أحد هنا؟» سمعوا صوت خبطة... «هل تعني خبطة واحدة «نعم»؟» ... خبطة! ... «وهل تعني خبطتان «لا»؟» ... خبطة!

غمغم فرينك قائلاً: «والآن، أيتها السيدات، أيها السادة، هل نطلب من الدليل أن يصلنا بروح واحد من العظماء المتوفّين؟».

قالت زوجة أورفيل جونسز راجية: «أو! فلنتحدث مع دانتي! درسناه في حلقة القراءة. أنت تعرف دانتي يا أورفي!».

قال زوجها شاعراً بشيء من الإهانة في سؤالها: «أعرفه طبعاً! الشاعر العظيم... أين تظنين أنني نشأت؟».

قال بابِت: «بالتأكيد... إنه صاحب الرحلة إلى الجحيم. لم أتعمَّق في شعره، لكننا درسنا شيئاً عنه في الجامعة».

قال إيدي سوانسون مترنماً: «اطلب السيد دانتيييي!».

قالت لويتا سوانسون: «لا بد أن استحضار دانتي سهل عليك يا سيد فرينك، لأنكما زميلان... شاعران».

قال فيرجيل غانتش معترضاً: «زميلان شاعران، عجباً! من أين أتيت بهذه الفكرة؟ أظن أن دانتي لم يكن شخصاً قليل الشأن في زمانه العتيق ـ لا أقصد أنني قرأته، بالطبع ـ لكن الحقيقة أن شخصاً مثله لم يكن ليستطيع الصمود طويلاً إذا كان عليه التعامل مع الأدب العملي في زماننا، وإذا كان عليه أن يكتب قصيدة كل يوم من أجل الجرائد... مثلما يفعل تشام».

قال إيدي سوانسون: «معك حق! كانت تلك الطيور القديمة مناسبة لزمانها. أستطيع أن أكتب الشعر، أنا... أنا نفسي، إذا كانت لدي سنة كاملة من أجل ذلك، وإذا لم يكن علي إلّا أن أكتب تلك السخافات العتيقة التي كتب عنها دانتي».

قال فرينك آمراً: «اصمتوا الآن! سوف أستدعيه... أوه، يا صاحب العينين الضاحكتين... اظهر هنا وأحضر لنا روح دانتي حتى نستمع، نحن الفانين، إلى كلماته الحكيمة».

قال غانتش مع ضحكة صغيرة: «نسيت أن تعطيه عنوانه: 1658، جادة براينستون، مرتفعات النار، جهنّم». لكن الآخرين أحسوا أن مزاحه لا يليق بهذا الموقف. ثم أيضاً... «لعل تشام هو الذي يصدر هذه الخبطات! لكن، إذا كان في هذا شيء صحيح، فمن المثير إجراء حديث مع شخص عاش في... منذ زمن بعيد...».

سمعوا صوت خبطة. حضرت روح دانتي... صارت في غرفة الجلوس في بيت جورج بابت.

بدا أنه مستعد تماماً للإجابة عن أسئلتهم. سَرَّه أن يكون معهم هذا المساء.

بدأ فرينك أسئلته عن طريق ذكر حروف الأبجدية متسلسلة إلى أن جاءت خبطة الوسيط عند ذكر الحرف الصحيح.

سأله ليتلفيلد بنبرة العارف: «هل يعجبك الوضع في السماء يا سيدي؟».

أجابه دانتي: «إننا سعداء جداً هنا، في الأعلى، يا سيدي. ويسعدنا أنكم تدرسون هذه الحقائق الروحانية العظيمة».

ارتعش أفراد الجماعة كلهم وصدرت خشخشة خاشعة عن أثواب النساء وقمصان الرجال. «فلنفترض... فلنفترض أن ثمة أمرًا حقيقيًا في هذا!».

كانت لدى بابِت قلق من نوع آخر. «لنفترض أن تشام فرينك واحد من هؤلاء الأشخاص الروحانيين حقاً! كان تشام يبدو دائماً، رغم كونه من أهل الأدب، شخصاً

عادياً... كان من المتردّدين على الكنيسة البريسبوريترية في شارع تشاثام. وكان يذهب إلى الغداء في النادي ويحب السيجار والسيارات والقصص الجريئة. لكن، إذا افترضنا أنه... سِرّاً... رغم كل شيء... لا يستطيع المرء أن يخمّن شيئاً في ما يتعلق بهؤلاء المثقفين! إن كونه شخصاً روحانياً حقاً يمكن أن يكون شيئاً يشبه... تقريباً... أن يكون اشتراكياً!».

ما كان أحد يستطيع أن يحافظ على الجدية زمناً طويلاً في حضور فيرجيل غانتش. قال بصوت مرتفع: «اسأل دانتي عن أحوال شكسبير وعن العجوز فيرجيل... ذلك الذي أطلقوا عليه اسمي... هل هم بخير؟ ألا يرغبون في الظهور في السينما؟»... سرعان ما حَلَّ المرح على الجميع. صرخت السيدة جونسز؛ وأراد إيدي سوانسون أن يعرف ما إذا كان دانتي قد أصيب بالزكام لأنه لا يرتدي شيئاً إلا سحابة أثيرية!

سُرَّ دانتي بهذا السؤال. وأجاب إجابة متواضعة.

لكن انزعاج بابِت الملعون كان يعذّبه من جديد. قال في نفسه متثاقلاً، في تلك الظلمة النسبية التي تخفي المشاعر الشخصية «لا أعرف... نثرثر كلنا، ونظن أننا أذكياء. ويكون أمامنا شخص... شخص مثل دانتي... ليتني قرأت شيئاً من شعره. لا أظن أنني سأقرأ شيئاً بعد الآن».

كان لديه إحساس لا تفسير له بأنه يرى جَرْفاً هائلاً يقف فوقه شبح ومن خلفه غيوم منذرة بالسوء... شَبَح وحيد عابس. انزعج عندما شعر بالاحتقار تجاه أقرب أصدقائه. أمسك بيد لويتا سوانسون... وجد فيها راحة الدفء البشري. عاد إلى نفسه، عاد ذلك المحارب القديم؛ ونفض كل شيء من ذهنه: «ماذا يصيبني هذا المساء؟».

ربّت قليلاً على يد لويتا لكي تفهم أنه لم يكن يقصد شيئاً ملتوياً عندما شدَّ على يدها. ثم قال لفرينك: «اسمع! ... انظر إذا كنت تستطيع أن تجعل العجوز دانتي يسحرنا بشيء من شعره. تحدث معه. قل له «صباح الخير يا سيدي؛ كيف حالك؟ أسمعنا قصيدة صغيرة يا سيدي»!».

- 2 -

عاد الضوء من جديد. كانت النساء جالسات على حواف كراسيهن. كانت لهن تلك الهيئة المترقِّبة المصمِّمة التي تظهر على كل زوجة إشارةً على أنها، فور انتهاء من يتحدث الآن مما يقوله، سوف تقول لزوجها: «حسن يا عزيزي! ربما حان وقت ذهابنا». هذه المرة، لم يندفع بابِت في جهوده الصاخبة من أجل المحافظة على استمرار السهرة. كان عليه أن... كان ثمة شيء يتمنى أن يستطيع الاهتداء إليه! ... لكن تلك التجربة الروحانية جعلتهم

يندفعون في الحديث من جديد. («لماذا لا يذهبون؟ لماذا لا يذهبون إلى بيوتهم؟»). صحيح أنه تأثر بعمق تلك العبارة التي قالها هاورد ليتلفيلد، إلا أن حماسته كانت فاترة قليلاً: «الولايات المتحدة هي الأمة الوحيدة التي تعتبر فيها الحكومة مثالاً أخلاقياً لا مجرَّد ترتيب اجتماعي فحسب». («صحيح-صحيح-صحيح-لكن، ألن يذهبوا إلى بيوتهم»). كان يبهجه عادة أن يسمع «قول أحد العارفين» في ما يتعلق بالسيارات؛ أما الليلة فكان غير قادر تقريباً على الاستماع إلى ما كشف عنه إيدي سوانسون: «إذا كنت تريد أن تذهب إلى ما هو أفضل من مستوى سيارة جافلين، فإن زيكو هي السيارة التي يجب أن تشتريها حقاً. منذ أسبوعين، اسمحوا لي أن أخبركم، جرى اختبار مباشر وواضح في المعرض... لقد أتوا بسيارة زيكو عادية وجعلوها تصعد إلى قمة جبل توناواندا. قال لي أحد الأشخاص...». («أف، أعرف أن زيكو سيارة جيدة، لكن... هل يعتزمون البقاء هنا طيلة الليل»).

لكنهم كانوا موشكين على الذهاب حقاً... مع ثرثرات كثيرة من قبيل «لقد أمضينا وقتاً رائعاً!».

كان بابِت أفواههم في إظهار مشاعر الصداقة! لكنه، خلال ثرثرته الوداعية، كان يفكر: «لقد استطعت الاحتمال حتى النهاية؛ لكنني ظننت بعض الوقت أنني لن أصمد». صار الآن مستعداً لتذوّق تلك المسرة التي يجنيها كل مضيف بعد انصراف ضيوفه: السخرية من الضيوف في هدأة منتصف الليل. وعندما أغلق الباب من خلفهم، تثاءب بعمق فارداً صدره دافعاً كتفيه إلى الخلف. ثم استدار ساخراً صوب زوجته.

كانت ابتسامتها عريضة: «أوه، كان ذلك لطيفاً، ألم يكن كذلك؟ أعرف أنهم استمتعوا بكل دقيقة. ما رأيك؟».

لكنه لم يستطع فعل ذلك! ما كان قادراً على السخرية. ستجعله السخرية يبدو كمن يكشّر في وجهِ طفل سعيد. قال كاذباً... بتثاقل: «بالتأكيد! أفضل حفلة في هذه السنة... أفضل بكثير!».

«ألم يكن العشاء جيداً! أظن أن الدجاج المقلي كان لذيذاً جداً!».

«طبعاً، طبعاً! دجاج مقلي يناسب ذوق الملكة. أفضل دجاج مقلي أتذوقه منذ زمن بعيد».

«قَلَته ماتيلدا بشكل جميل! ألا تظن أن الحساء كان لذيذاً أيضاً!».

«بالتأكيد، بالتأكيد! كان رائعاً! أفضل حساء أتذوّقه منذ كان محل هيك مطعماً!»... لكن صوته كان يذوي بعيداً. كانا واقفين في الصالة تحت المصباح الكهربائي في ظِلّته المكعّبة المصنوعة من زجاج أحمر ولمسات من اللون الفضي على إطارها. حدَّقت زوجته فيه: «ماذا يا جورج؟ ... لا تبدو... تبدو كأنك لم تستمتع حقاً!».

«استمتعت طبعاً! بالتأكيد... استمتعت!».

«جورج! ما الأمر؟».

«أوه، أظن أنني متعَب بعض الشيء. كان العمل صعباً في المكتب اليوم. عليَّ أن أذهب إلى مكان ما لأرتاح قليلاً».

«لا بأس... إننا ذاهبون إلى مين بعد بضعة أسابيع من الآن يا عزيزي»... «نعم...». لكن جورج قالها صريحة، عارية، من غير تحفظ: «ميرا: أظن أن أفضل شيء لي أن أذهب مبكّراً بعض الشيء».

«لكن عليك أن تقابل ذلك الرجل في نيويورك من أجل العمل».

«أي رجل؟ أو... نعم، نعم، بالتأكيد! ذلك الرجل! ... أوه، نسيت ذلك. لكنني أريد أن أذهب إلى مين مبكراً... أصطاد قليلاً... سأحاول اصطياد سمكة كبيرة!»... ضحك ضحكة عصبية مصطنعة.

«لا بأس! لماذا لا نذهب في وقت أبكر! فيرونا وماتيلدا تستطيعان تدبير شؤون المنزل في ما بينهما. أما أنا وأنت فنستطيع الذهاب في أي وقت... إذا كنت تظن أننا نستطيع أن نتحمّل كلفة ذلك».

«لكن هذا... إنني أشعر بكثير من العصبية في الآونة الأخيرة. أظن أن من الأفضل... لا أعرف... أن أذهب وحدي... وأن أتخلص من هذا الإحساس».

«جورج! ألا تريدني معك؟»... كان سؤالها صادقاً كثيراً... لم تقل ذلك بطريقة مأساوية، ولم يظهر أنها شعرت بأي إساءة، ولا أي شيء... عدا ضعفها واحمرار وجهها كأنها شمندرة مسلوقة ساخرة.

«أريدك معي طبعاً! لا أقصد إلّا...». تذكر أن بول ريزلينغ تنبّأ بحدوث هذا. كان الآن يائساً، مستميتاً، مثلما كانت هي... «أقصد... أمر طيب أحياناً بالنسبة لشخص مثلي... أن يذهب... وأن يخرج قليلاً عن نظامه المعتاد». حاول أن يتحدث بطريقة أبوية: «بعد ذلك، عندما تصلين مع الأولاد... كنت أفكر أنني يمكن أن أذهب إلى مين قبلكم بعدة أيام... عندها سأكون مستعداً من أجل رحلة حقيقية. هل تفهمين قصدي؟».

راح يسترضيها بابتسامات عذبة وأصوات مرتفعة... مثلما يفعل واعظ محبوب في قداس عيد الفصح... مثلما يفعل محاضر صاحب نكتة عندما يصل إلى ختام محاضرته الفصيحة... مثلما يفعل كل من يرتكبون حِيَلاً وألاعيب شَقية.

نظرت إليه وقد غاضت فرحة الأمسية من وجهها: «هل أُزعجك عندما نكون معاً في رحلة؟ ألا أضيف أي سرور إليها؟».

سكت بابِت! وفجأة، صار هستيرياً على نحو عجيب... صار طفلاً صغيراً راجياً: «نعم، نعم، نعمَ! عجباً... نعم! لكن، ألا تستطيعين أن تفهمي أنني محطَّم؟ تعبت كثيراً! عليَّ أن أنتبه إلى نفسي! أقول لك... عليَّ أن... سئمت من كل شيء، ومن الجميع! يجب أن...».

صارت الآن هي الشخص الناضج الواعي العطوف: «كيف... طبعاً! عليك أن تذهب وحدك! لماذا لا تأخذ معك بول أيضاً؟ اذهبا واصطادا الأسماك... امضيا وقتاً طيباً!»... ربّتت على كتفه ـ بعد أن مطّت نفسها قليلاً ـ أما هو فكان مشلولاً عاجزاً... لم يكن في تلك اللحظة مولَعاً بها بفعل العادة وحدها، بل متعلّقاً بقوَّتها!

صاحت مرحة: «والآن، انطلق إلى الأعلى! ... اذهب إلى الفراش! سوف نرتب كل شيء. سوف أتفقد الأبواب. انطلق الآن!».

طيلة دقائق كثيرة، طيلة ساعات كثيرة، طيلة زمن أبدي فارغ كئيب، ظل بابِت راقداً، مستيقظاً، مرتجفاً، مرتداً إلى ذعره البدائي... مدركاً أنه فاز بالحرية، متسائلاً عما يمكن أن يفعله بشيء يجهله إلى هذا الحد... بحرية تُحرِجه إلى هذه الدرجة.

الفصل العاشر

- 1 -

لا وجود في زينيث كلها لبناية شقق سكنية تحتوي على قدر من التركيز الواثق المجرَّب مثل بناية ريفيلستون آرمز التي يملك بول وزيلا ريزلينغ شقّة فيها. تتحول غرف النوم إلى غرفة معيشة لأنه يمكن جعل الأسرّة تنزلق داخل خزاناتها الصغيرة! وأما المطابخ فهي حجرات تحتوي كل واحدة منها على فرن مع موقد كهربائي، أو على مجلى نحاسي، أو برّاد زجاجي... وقد تجد في تلك المطابخ، في أحيان قليلة، خادمة بلقانية أيضاً. كان كل شيء في بناية آرمز حديثاً على نحو مفرط. وكان كل شيء فيها مضغوطاً... عدا مرائب السيارات.

كان الزوجان بابِت في زيارة عند آل ريزلينغ في هذه البناية. إن زيارة آل ريزلينغ مغامرة غير معروفة العواقب!... مغامرة مثيرة، لكنها مزعجة أحياناً. كانت زيلا شقراء ناهدة الصدر ممتلئة صادحة الصوت شديدة النشاط. وتصير مسلّية على نحو يثير الأعصاب قليلاً عندما تتلطف وتتنازل ويصير مزاجها حسناً. كانت ملاحظاتها عن الناس هجائية لاذعة تخرق ذلك الحد من النفاق الذي يقبله الناس عادة. وكان المرء لا يملك إلا أن يقول لها: «هكذا هو الأمر!»... ثم يبدو عليه الخجل والإذعان. كانت ترقص رقصاً جامحاً، وتطالب العالم كله بأن يكون مَرِحاً سعيداً، لكنها تنقلب ناقمة ساخطة وسط ذلك كله. كانت ساخطة دائماً! كانت الحياة كلها مؤامرة دنيئة ضدها... وكانت تواجه هذه المؤامرة مواجهة شرسة.

لكنها كانت أنيسة لطيفة المَعْشَر هذه الليلة. وبمرح ألمحت أن أورفيل جونسز كان يضع شعراً مستعاراً، وأن غناء زوجة تشولوموندلي فرينك كان يشبه صوت سيارة فورد تتسلّق منحدراً، وأن السيد أوتيس ديبل، عمدة زينيث المرشَّح لعضوية الكونغرس، ليس إلا شخصاً فارغاً أحمق (كان هذا صحيحاً!). جلس الزوجان بابِت والزوجان ريزلينغ

على الكراسي المزركَشة، القاسية مثل الصخر، في غرفة المعيشة في تلك الشقة. كان في غرفة المعيشة رَفٌّ للموقد، لكن من غير موقد. وكان فوق البيانو الضيّق مَفرَش من قماش لامع ثقيل. جلسوا جميعاً... غير مستقرين... إلى أن زعقت السيدة ريزلينغ: «هيا! هيا إلى شيء من المرح! هات الكمان يا بول، وسوف أحاول أن أجعل جورجي يرقص جيداً».

كان الزوجان بابِت هنا في مهمّة صادقة. كانا يخططان مسألة الهرب إلى مين. لكن، عندما لمّحت السيدة بابِت إلى الأمر مبتسمة ابتسامة واسعة: «هل أصاب الإرهاق بول، مثل جورجي، بعد عمل فصل الشتاء كله؟»، حتى تذكّرت زيلا إساءة أصابتها، جرحها! عندما تتذكر زيلا ريزلينغ إساءَةً أصابَتها، فإن العالم كله يتوقف ريثما يتم فعل شيء في ما يتعلق بذلك.

«هل أصابه الإرهاق؟ لا... إنه لا يتعب أبداً، بل يجنّ فقط... هذا كل ما في الأمر! هل تظنّين بول شخصاً منطقياً... أو، نعم، وهو يحب أن يقوم بدور الخروف المسكين، لكنه عنيد مثل بغل. أو، لو كان عليك أن تعيشي معه...! ستعرفين حلاوته! يتظاهر بالوداعة حتى يحصل على ما يريد. أما أنا، فيقولون عني إنني امرأة مخيفة غير طبيعية! لكني إذا لم أخرج عن طَوْري من فترة لأخرى حتى أجعله يبدأ شيئاً ما، فإننا يمكن أن نذوي ونموت جوعاً. لا يريد أن يذهب إلى أي مكان، لماذا؟... اسمعي، الليلة الماضية، لمجرَّد أن السيارة لم تشتغل ـ هذا بسببه هو أيضاً لأنه كان يجب أن يأخذها إلى محطة الخدمة حتى يفحصوا البطارية ـ ولم يرغب أيضاً في الذهاب إلى السينما بالمواصلات العامة. لكننا ذهبنا آخر الأمر. كان الجابي في الحافلة وقِحاً. لكن بول لم يفعل شيئاً.

«كنت واقفة على الرصيف منتظرَة حتى يفسح لي الناس مجالاً لأصعد إلى الحافلة. ثم زعق هذا الجابي الحيوان قائلاً: «هيا، أنتِ، تحرَّكي!»... لماذا... في حياتي كلها، لم يكلّمني أحد بهذه الطريقة! دهشت تماماً. استدرت إليه ـ ظننت أنني مخطئة، فقلت له... بطريقة لطيفة تماماً: «هل كنت تخاطبني؟». لكنه فعلها ثانية وصاح بي: «نعم! أخاطبك أنتِ! أنتِ تؤخّرين انطلاق الحافلة». رأيت عند ذلك أنه واحد من أولئك الريفيين القذرين سيئي التربية... حرام أن يقول له المرء كلاماً لطيفاً. وهكذا تقدّمت قليلاً ونظرت إليه مباشرة ثم قلت: «عفواً! أنا لا أفعل هذا. الناس الذين أمامي لا يسمحون لي بالصعود. ودعني أيضاً أقول لك أيها الشاب إنك شخص منحطٌّ سفيهٌ فظٌّ قليل الأدب. لستَ شخصاً مهذَّباً! وسوف أبلغ عنك... سوف نرى! هل يجوز أن يوجه الإهانات إلى سيدة أيّ أحمق سكّير يرتدي هذا اللباس الموحد البائس! أكون شاكرة لك إذا احتفظت بقلّة أدبك الوسخة لنفسك». وانتظرت بعد ذلك أن يبرهن بول على أنه نصف رجل على

الأقل، وأن يأتي ويدافع عني. لكنه ظل واقفاً هناك متظاهراً أنه لم يسمع كلمة مما قيل. وهكذا قلت له: «طيّب!...»».

قال بول بصوت متألم: «أوه! كفى، كفاك يا زيلا! نعرف كلنا أنني شخص ضعيف لا نفْعَ منه. ونعرف أنك برعم رقيق. كفانا كلاماً في هذا الأمر!».

«كفانا كلاماً في هذا الأمر؟»... تغضّن وجهها مثل وحشٍ خرافيٍّ مخيف. وصار صوتها مثل خنجر نحاسيٍّ مثلّم. كانت استمتاعها باستقامتها وسوء مزاجها في أقصاه! صارت كأنها محارب من أجل قضية مقدسة... صارت متوحّشة مثل أيّ محارب من أجل أيّ قضية مقدسة. كانت سعيدة بأن تسنح لها فرصة التوحّش باسم الفضيلة: «تريدني أن أنسى الأمر؟ لو عرف الناس عدد الأشياء التي أنساها...».

«أوه! كفّي عن هذا التنمُّر!».

«نعم... ستكون شخصاً رائعاً إذا لم أتنمَّر عليك! سوف تستلقي في سريرك حتى الظهر ثم تعزف على كمانك الغبيّ حتى منتصف الليل! لقد ولدتَ كسولاً، ولدت قليل التدبير، ولدت جباناً... يا بول ريزلينغ...».

قالت السيدة بابِت محتجّة: «أوه، الآن... لا تقولي هذا يا زيلا! أنت لا تقصدين أي كلمة من هذه الكلمات!».

«سوف أقولها. وأنا أعني كل كلمة من كلماتي».

قالت السيدة بابِت بصوت أموميّ متعجل: «أوه... الآن، يا زيلا... إن الفكرة!». لم تكن أكبر من زيلا سناً، لكنها بدت كذلك... في البداية! كانت هادئة سمينة ناضجة؛ أما زيلا، وهي في الخامسة والأربعين، فكانت تضع المساحيق على وجهها وترتدي مشدّاً ضيّقاً حول وسطها فلا يعرف المرء إلا أنها أكبر سنّاً مما تبدو عليه. تابعت السيدة بابِت: «فكرة الكلام مع بول المسكين بهذه الطريقة!».

«إنه مسكين حقاً! ولولا دفعي له دائماً لكنا، نحن الاثنان، فقيرَين... لكنّا في ملجأ الفقراء الآن».

«لماذا تقولينِ هذا الآن يا زيلا؟ لم نقل، جورجي وأنا، إلا أن عمل بول طيلة السنة أمر صعب. وقد فكّرنا أنه سيكون أمراً لطيفاً أن يذهب الاثنان وحدهما في البداية. إنني أحاول إقناع جورج بأن يذهب إلى مين قبلنا ليتخلص من متاعب العمل قبل أن نصل. وأظن أن تمكّن بول من الذهاب والانضمام إليه سيكون أمراً لطيفاً».

عند هذا الانكشاف لمؤامرة الهرب، صار بول منتبهاً وتخلّى عن سلبيته. بدأ يفرك أصابعه ويكوِّر قبضتيه.

عوت زيلا: «نعم! أنت محظوظة! تستطيعن أن تتركي جورج يذهب من غير أن

تراقبيه. جورجي العجوز البدين! إنه لا يسترق النظر إلى امرأة أخرى! ليست لديه شجاعة ليفعل هذا!».

«أتقولين إنني لا أملك الشجاعة لفعل هذا؟»... بدأ بابِت يدافع بحماسة عن قلة الأخلاق التي لا تقدَّر بثمن؛ لكن بول قاطعه ـ بدا بول خطيراً في تلك اللحظة! نهض سريعاً وخاطب زيلا بلطف:

«أظن أنك تلمّحين أن عندي حَبيبات كثيرات».

«نعم... إنني أقول هذا».

«إذن، يا عزيزتي... اسمعي، طالما أنك تريدين هذا... لم يمرّ وقت خلال السنوات العشر الماضية لم أجد لنفسي فيه فتاة لطيفة تُشعِرني بالراحة. وطالما أنك مستمرة في لطفك هذا، فسوف أتابع خداعي لك، على الأرجح. ليس الأمر صعباً. فأنت غبية جداً».

تلعثمت زيلا ثم جأرت... فما عاد ممكناً تمييز الكلمات في سيل الإهانات الذي اندفع من فمها.

عند ذلك، حدث تحوّل على جورج بابِت المعتدل اللطيف. إذا كان بول خطيراً، وإذا كانت زيلا غضَباً ساماً كالأفاعي، وإذا كانت المشاعر الرقيقة اللطيفة التي تناسب مبنى ريفيلستون آرمز قد دُمّرت تحت وطأة هذه الكراهية الواضحة، فإن بابِت هو الذي سيكون رهيباً أكثر من غيره! قفز واقفاً. بدا ضخماً جداً. أمسك بكتف زيلا. اختفت من وجهه ملامح سمسار العقارات الحذرة المنتبهة. كان صوته قاسياً فظاً:

«شبِعت من هذه السخافة الملعونة كلها. أعرفك منذ خمسة وعشرين عاماً يا زيلا. لم تضيّعي أبداً أي فرصة لإظهار انزعاجك من بول. أنت لست شريرة. أنت أسوأ من ذلك. أنت غبيّة حمقاء. دعيني أقول لك إن بول أفضل فتى خلقه الله. كل شخص عاقل يشعر بالقرف والتعب من استغلالك الدائم لكونك امرأة، ولكونك لا تفوّتين أية فرصة تخطر على بالك للتعريض بالناس والإساءة إليهم. فمن أنت حتى يتعيّن على شخص مثل بول أن يطلب إذناً منك حتى يذهب معي؟ أنت تتصرّفين كأنك كيلوباترا والملكة فكتوريا مجتمعتين معاً! أنتِ، أيتها الحمقاء، ألا تستطيعين رؤية كيف يضحك الناس وكيف يهزأون منكِ؟».

بدأتِ زيلا تقول منتحبة: «لم يحدث من قبل... أبداً، أبداً... لم يحدث من قبل أن تكلم أحد معي بهذه الطريقة... في حياتي كلها!».

«أعرف هذا. لكنهم يتكلمون هكذا في غيابك! دائماً! يقولون إنك عجوز سليطة اللسان. يا إلهي!»

حطّمها هذا الهجوم الجبان. صارت عيناها خاليتين من أي تعبير. بكَت. لكن بابِت

ظل يحدِّق فيها من غير رحمة. أحس بأنه المسؤول ذو السلطة الكلية... أحس بأن بول والسيدة بابِت ينظران إليه نظرة خوف وإجلال... أحس بأنه هو الذي يجب أن يسوّي هذه المسألة كلها.

تلوت زيلا ثم قالت متوسلة: «أوه! إنهم لا يقولون هذا!».

«بل يقولون هذا!».

«إنني امرأة سيئة! وأنا آسفة جداً! سوف أقتل نفسي! سأفعل أي شيء. أوه... سأفعل كل ما تريدون!»

أذلّت نفسها كلياً. لكنها كانت مستمتعة بذلك! فبالنسبة لمن يتذوّقون الحالة فعلاً، لا شيء أكثر إمتاعاً من المسكنة والذِّلّة الأنانية الميلودرامية الشاملة.

قال بابِت آمراً: «أريدك أن تتركي بول يذهب معي إلى مين».

«وكيف أستطيع أن أمنعه! كنت تقول لي إنني حمقاء وأن أحداً لا يلتفت إلي».

«بل تستطيعين منعه، نعم، نعم! ما عليك فعله هو أن تكفّي عن التلميح إلى أنه سوف يجري خلف تنورة ما إذا غاب عن نظرك قليلاً. الحقيقة هي أن هذا ما يجعله غاضباً منك. يجب أن يكون عندك شيء من الفهم...».

«سيكون عندي، سيكون... صدقاً سيكون... يا جورج! أعرف أنني كنت سيئة. أو، سامحني، سامحوني كلكم...».

كانت مستمتعة بهذا!

ومثلها كان بابِت مستمتعاً أيضاً. كان فظيعاً هائلاً عند الإدانة، عطوفاً رقيقاً عند الصفح. وعندما خرج مختالاً مع زوجته راح يشرح الأمر لها بعظمة وخيلاء:

«من العار أن أهجم على زيلا بهذا الشكل؛ لكنها الطريقة الوحيدة لضبطها! يا إلهي... لقد جعلتها تزحف على بطنها!».

أجابته بهدوء: «نعم. لقد كنتَ فظيعاً. كنت تستعرض. كنت مستمتعاً برؤية مدى روعتك وعظمتك!».

«طيب... يا ربي! هل تستطيعين فعل شيء آخر؟ لقد توقعت منك، بالطبع، ألا تقفي في صفي! توقعت نوعاً ما أن تفضّلي اتخاذ جانب بنت جنسك».

«نعم! مسكينة زيلا. إنها تعيسة. إنها تتحامل على بول. ليس لديها ما تفعله في تلك الشقة الصغيرة. وهي تجلس وحدها أكثر مما يجب. كانت جميلة كثيراً، مرحة كثيراً، وهي غاضبة لأنها فقدت ذلك. أما أنت، فكنت وضيعاً مقرفاً إلى أقصى حد تستطيعه. لستُ فخورة بك أبداً... ولا ببول الذي راح يباهي بعلاقاته الغرامية!».

ظلَّ بابِت عابساً صامتاً. ظلَّ على مزاجه السيئ... ظلَّ محتفظاً بسوية مرتفعة من

غضبه النبيل طيلة المسافة إلى البيت. وعند الباب، تركها متعجرفاً معجَباً بنفسه، وسار عبر المرج.

جاءته فكرة صدمته: «عجباً! أتساءل إن كانت محقّة... إن كانت محقّة جزئياً!». لا بد أن كثرة العمل قد جعلته مفرط الحساسية إلى حد غير طبيعي. كانت تلك واحدة من المرات القليلة في حياته التي يضع فيها تميّزه الأبدي موضع تساؤل. راح يستمتع بالليلة الصيفية ويشم عبير العشب الرطب. قال: «لست أبالي! لقد أنجزت الأمر. وسوف نذهب ونمضي وقتاً ممتعاً. إنني مستعد لفعل أي شيء من أجل بول».

ـ2ـ

ذهبا إلى محل الأخوين آيجيمس لشراء لوازم الرحلة إلى مين. إنه متجر كبير للأدوات الرياضية. وكان يساعدهما ويليس آيجيمس الذي كان، هو أيضاً، عضواً في نادي بوسترز. كان بابِت مستثاراً كأنه مخبول. كان يتحرك كثيراً ويصيح كثيراً. قال لبول: «انظر! هذا جميل جداً، إيه! جميل أن نشتري الأشياء، إيه! جاء معنا صديقنا الطيب ويليس آيجيمس بنفسه ليساعدنا! لو عرف هؤلاء الأشخاص الذين يحضّرون الآن عدّتهم للذهاب إلى البحيرات الشمالية أننا ذاهبون مباشرة إلى مين، فسوف تصيبهم نوبة قلبية، إيه!... هيا، هيا يا أخي آيجيمس ـ أقصد... يا ويليس. أنت محظوظ لأننا زوج من المشترين المندفعين! هيا... دعنا نشتري! سوف أشتري المحل كله».

أعجب كثيراً بسنارة صيد طويلة وبزوج ممتاز من الجزمات التي تصل حتى الحوض. أعجب أيضاً بالخيام ذات النوافذ المصنوعة من النايلون، وبالكراسي القابلة للطي، وبصناديق التبريد. أراد... بطيبة قلبه... أن يشتريها كلها! كان بول هو الذي يحميه دائماً، على نحو غامض، من الاندفاع وراء رغباته السّكرى هذه.

لكن بول نفسه رقّ قلبه عندما راح ويليس آيجيمس، البائع المسلح بالدبلوماسية والشعر معاً، يناقش أمر طعوم الصيد. قال لهما: «والآن، أنتما تعرفان طبعاً! ثمة فارق كبير بين الطعوم الجافة والطعوم الرطبة. أفضّل الطعوم الرطبة شخصياً. إنها أكثر رياضية».

«هذا صحيح! أكثر رياضية بكثير». قال بابِت هذا رغم أنه لا يعرف إلا القليل جداً عن الطعوم سواء كانت جافة أو رطبة.

«والآن... إذا كنت ستأخذ بنصيحتي يا جورجي، فسوف تتزود جيداً بهذه الطعوم الليلية، وبالطعوم الفضية، وبطعوم النمل الأحمر. أوه... يا صاحبي، إنها طعوم حقيقية... النمل الأحمر!».

قال بابِت مسحوراً: «بالفعل! إنها كذلك... إنها طعوم جيدة!»

قال آيجيمس: «نعم يا سيدي، النمل الأحمر. إنه طُعم ممتاز!».

«أوه... أظن أن السيدة سمكة الترويت لن تستطيع التردّد أبداً عندما ألقي واحداً من طعوم النمل الأحمر في الماء!»... قالها بابِت مؤكداً على الفكرة. وراح معصماه الغليظان يقلّدان حركة إلقاء السنّارة بحركة نَشوى.

«نعم! وسوف تبتلعه سمكة سَلَمون المياه الحلوة أيضاً». أضاف آيجيمس الذي لم يرَ سمكة من هذا النوع في حياته.

«سلمون! ترويت!... قل لي يا بول، هل تستطيع أن تتخيل صديقنا جورج ببنطلونه الكاكي يلقي بسنارته في الماء ذات صباح... في السابعة صباحاً؟ واو!».

ـ 3 ـ

سافرا في قطار نيويورك إكسبرس. وعلى نحو لا يصدَّق، توجَّها صوب مين... على نحو لا يصدق، من غير أسرتيهما. كانا حُرَّيْن، في عالم الرجال، في مقصورة المدخِّنين في حافلة القطار الفخمة.

عند النظر إلى خارج الحافلة، كانت نوافذها غاطسة في ظلمة تغشاها أنوار ذهبية متقطعة غامضة. كان بابِت واعياً تماماً لاهتزاز الحركة، لأصوات القرقعة، للمضي بعيداً، للمضي إلى الأمام. مال صوب بول وقال: «يا سلام! ما أجمل أن نذهب في رحلة، إيبيبه!».

كانت الغرفة الصغيرة، بجدرانها الحديد البنية الصفراء، ملأى بذلك النوع من الرجال الذين يعتبرهم بابِت أفضل رجال يمكن أن يصادفهم المرء ـ رجال حقيقيون طيبون. كان أربعة منهم جالسين على المقعد الطويل: رجل بدين له وجه فطن ممتلئ، ورجل حاد القَسَمات يضع قبّعة من القطيفة الخضراء، وشاب صغير السن يحمل مشرباً للسجائر من الكهرمان المقلَّد، ومعهم بابِت. وفي الناحية المقابلة، على المقعدين الجلديين القابلين للطي، جلس بول ورجل طويل ضامر تقليدي المظهر. كان وجه الرجل ماكراً. وكانت له غضون تحيط بفمه من الجانبين. كانوا كلهم يقرأون الصحف والمجلات التجارية... عن الأحذية والموسيقى! كانوا منتظرين متعة الحديث، كلهم. بدأ الكلام أصغرهم سناً، ذلك الذي في مقتبل شبابه. كانت هذه أول رحلة له في حافلة قطار فخمة.

قال مبتهجاً: «هل تعرفون أنني أمضيت وقتاً عظيماً جامحاً في زينيث؟ عندما يعرف المرء كيف يتحرك هناك، فإنه يستطيع أن يمضي وقتاً صاخباً، كما في نيويورك».

ضحك البدين: «ياه! ... أراهن أنك أنت الذي ربّى الشيطان نفسه. عرفت أنك شخص سيئ تماماً منذ رأيتك صاعداً إلى العربة!».

ابتهج الجميع... أنزلوا الصحف التي في أيديهم.

قال الصبيّ محتجاً: «طيب... لا بأس! أظن أنني رأيت في منطقة آربور أشياء لم يسبق لك رؤيتها».

«أوه، أراهن أنك فعلت ذلك! أراهن أنك شربت الكثير من البيرة... مثلما يفعل أي عفريت صغير».

تجاهلوا الصبي بعد أن أدّى مهمته، بعد أن فتح الحديث... اندفعوا الآن في حديث حقيقي، حديث رجال. وحده بول ظل منفرداً بنفسه يقرأ قصة مسلسلة في صحيفة. كان الوحيد الذي لم ينضمّ إليهم. اعتبروه كلهم، عدا بابِت، متكبّراً شاذاً... شخصاً لا روح له.

ما كان معروفاً مَنْ منهم قال ذلك الشيء، وَمْن منهم قال شيئاً آخر... ما كان هذا مهماً... لأنهم كانوا يحملون الأفكار نفسها ويعبّرون عنها دائماً بالطريقة الواثقة الصادحة الخرقاء نفسها. وعندما لم يكن بابِت هو من يطلق الأحكام فإنه، على الأقل، كان ينظر مبتسماً إلى المتكلّم الخبير الذي يطلقها.

قال أولهم: «هكذا، رغم ذلك، فهم يبيعون مشروبات جيّدة فعلاً في زينيث. أظن أنها في كل مكان. لا أعرف ما هو شعوركم في ما يتعلق بحظر الكحول. لكن ما يدهشني في الأمر أن هذا الحظر مفيد جداً للضعفاء... للأشخاص الذين لا يمتلكون إرادة قوية مثلنا. إنه اعتداء على الحرية الشخصية!».

قال الثاني: «هذه هي الحقيقة! ليس للكونغرس حق في التدخل في الحرية الشخصية لأي إنسان».

دخل رجل إلى مقصورة التدخين. لكن المقاعد كانت ممتلئة كلها، فظل واقفاً خلال تدخين سيجارته. كان شخصاً دخيلاً! ما كان واحداً من أهل مقصورة التدخين القدامى! نظروا إليه نظرات من غير تعبير. وبعد أن حاول الرجل إظهار ارتياحه بتفحّص ذقنه في المرآة، ترك الأمر كله ومضى خارجاً من غير أن يقول شيئاً.

قال واحد من المجموعة: «كنت في رحلة عبر الجنوب منذ فترة. إن الأعمال ليست في حال جيدة هناك».

«هل هذا صحيح؟ ليست جيدة تماماً، هاه؟».

«ليست جيدة! لم يفاجئني أنهم ليسوا في أحوالهم المألوفة».

«ليسوا في أحوالهم المألوفة، إيه؟».

«لا! لا أستطيع أن أقول إنهم كذلك».

راح أفراد المجموعة كلهم يهزون رؤوسهم بتعقل، ثم توصلوا إلى نتيجة واضحة «نعم! ليست أحوالهم على ما يرام».

«إن الأعمال في الغرب ليست كما يجب أيضاً... ليست كما يجب أبداً».

«هذا صحيح. وأظن أن قِطاع الفنادق يشعر بهذا الأمر. إن في هذا نقطة إيجابية، رغم ذلك: تلك الفنادق التي كانت تتقاضى خمسة دولارات في اليوم... بل ستة... أو سبعة!... سوف يكونون سعداء الآن بأن يحصلوا على أربعة دولارات مقابل غُرَفهم البائسة... وقد يقدمون معها بعض الخدمة أيضاً».

«هذا كلام صحيح. قل لي، هاه، بمناسبة الحديث عن الفنادق... ذهبت إلى شارع سان فرانسيس في سان فرانسيسكو للمرة الأولى، منذ فترة... أظن أنه أفضل مكان في المدينة».

«أنت على حق يا أخي! شارع سان فرانسيس مكان رائع... من الدرجة الأولى تماماً».

«معك حق! أوافقك على هذا. إنه مكان من الدرجة الأولى».

«والآن، قولوا لي... هل سبق لأحد منكم يا شباب أن نزل في فندق ريبلتون في شيكاغو؟ لا أريد أن أسيء إلى سمعة الفندق ـ أؤمن بالدعاية الجيدة حيثما يستطيع المرء ذلك ـ لكن، من بين كل تلك الأماكن المتعفّنة التي تزعم أنها فنادق من الدرجة الأولى... ذلك الفندق هو الأسوأ بينها كلها. سوف أواجه هؤلاء يوماً من الأيام؛ وسأقول لهم هذا! تعرفون كيف أنا... ربما لا تعرفون... لكنني معتاد على فنادق الدرجة الأولى. وأنا مستعد تماماً لأن أدفع سعراً غير قليل. وصلت إلى شيكاغو في وقت متأخر تلك الليلة. إن فندق ريبلتون قريب من المحطة. لم أذهب إليه من قبل؛ لكنني قلت لسائق التاكسي ـ أؤمن دائماً بأن على المرء أن يذهب بالتاكسي عندما يصل متأخراً. قد تكون كلفة هذا الأمر زائدة بعض الشيء، لكن الأمر يستحق ذلك عندما يكون عليك أن تنهض باكراً في الصباح التالي وتذهب لقضاء أشغالك ـ قلت لسائق التاكسي: «خذني إلى فندق ريبلتون».

وصلنا إلى الفندق. اندفعت إلى موظف الاستقبال وقلت له: «مرحباً يا أخي! هل لديك غرفة جيدة لها حمام من أجل ابن عمك بيل؟» ... واو! قد تظنون أنني غششته في البيع، أو أنني طلبت منه أن يعمل في يوم عطلة اليهود! نظر إليَّ تلك النظرة الباردة... الحارقة... ثم قال بصوت جاف: «لا أعرف يا صديقي. سوف أرى». ثم غطس خلف ذلك الشيء الذي يحتفظون فيه بسجلّات الغرف. طيب... أظن أنه اتصل مع اتحاد

المصارف ومع رابطة الأمن الأمريكية ليرى إن كنت شخصاً جيداً. غاب زمناً طويلاً... أو لعله ذهب ونام! لكنه عاد أخيراً ونظر إليَّ بطريقة توحي أن النظر في وجهي يسبب له ألماً، ثم قال: «أظن أننا نستطيع أن نعطيك غرفة مع حمّام». قلت: «لا بأس! هذا لطف منك. آسف لأنني أزعجتك. كم تريد؟» هكذا قلت له، بلطف وعذوبة. أجابني: «تكلف الغرفة سبعة دولارات في اليوم يا صديقي».

«طيب، ماذا أفعل؟ كان الوقت متأخِّراً على أي حال. تم تسجيل المبلغ على حساب المصاريف ـ يا إلهي! لو كنت أنا الذي يدفع هذا المبلغ بدلاً من الشركة، لذهبت أتجوّل في الشوارع طوال الليل قبل أن أسمح لذلك الخان البائس بأن يسرق مني سبعة دولارات جميلة مدوَّرة... صدِّقوني! وهكذا ترون أنني لم أثر أي مشكلة. قرع الموظف الجرس فأيقظ شاباً صغيراً لطيفاً... جعله يقفز قفزاً ـ شاب جيد ـ لم يكن يتجاوز سبعة عشر عاماً، ولو بيوم واحد ـ يظن نفسه أنه قد خاض معركة غيتسبرغ، لكنه لا يعرف أنها انتهت ـ أعتقد أنه حسبني واحداً من الاتحاديين! أقول هذا بسبب الطريقة التي نظر إليَّ بها ـ أخذني هذا البطل فصعدنا حتى وصلنا إلى ذلك الشيء ـ اكتشفت لاحقاً أنهم يعتبرونه غرفة! لكنني ظننت في البداية أنهم قد أخطأوا ـ ظننت أن ذلك لم يكن غرفة، بل صندوقٌ لجمع التبرعات من أجل جيش الخلاص! سبعة دولارات لكل غرفة من هذه الغرف... كل يوم! يا لطيف!».

«نعم! لقد سمعت أن فندق ريبلتون رديء جداً. أما أنا، عندما أذهب إلى شيكاغو، فإنني أنزل دائماً في فندق بلاكستون، أو لاسال ـ هذان فندقان من الدرجة الأولى».

«أخبروني يا أصدقاء... هل نزل أحد منكم في فندق بيرتشديل في شارع تيرهوت؟ كيف هو؟».

«أوه! إن بيرتشديل فندق من الدرجة الأولى».

(انقضت اثنتا عشرة دقيقة في استعراض حالة الفنادق في ساوث إند، وفيلنت، ودايتون، وتولسا، وويتشيتا، وفورت وورث، ووينونا، وإيري، وفارغو، وموث زو).

قال الرجل الذي يضع قبّعة من المخمل وهو يلعب بسن الوَعل المعلّق بسلسلته الثقيلة: «بمناسبة الحديث عن الأسعار، أتمنى أن أعرف من أين يأتون بهذه الأسعار العجيبة للملابس. خذوا مثلاً هذه البدلة»... قرص ساق بنطلونه... «منذ أربع سنوات، دفعت اثنين وأربعين دولاراً وخمسين سنتاً ثمناً لها. وقد كانت بدلة رفيعة الجَودة حقاً. وأما الآن... ذهبت منذ أيام إلى أحد المحلات في مدينتي وطلبت أن أرى بدلة. ناولني ذلك الشخص بدلة تكاد تقول متوسِّلة «اشتريني من فضلك»... بدلة لا يمكن أن أجعل موظفاً عندي يرتديها. سألته، من باب الفضول فقط: «كم تأخذون ثمناً لهذه البضاعة

الرديئة؟» قال: «رديئة! ماذا تعني بقولك إنها رديئة؟ إنها بضاعة ممتازة... من الصوف الخالص»... بحق الجحيم! كانت قطعة من الصوف النباتي... آتية من تلك المزرعة القديمة! قال لي: «إنها من الصوف الخالص! نبيعها بسبعة وستين دولاراً وثمانين سنتاً». قلت: «أوه! هكذا تبيعونها، أليس كذلك؟ لن تأخذوا هذا المبلغ مني». ثم خرجت من المحل. أتعرفون ماذا فعلت؟ قلت لزوجتي: «لا بأس! طالما أنك تملكين القوة لكي تضعي مزيداً من الرقع على بنطلون زوجك، فسوف نستغني عن شراء الملابس»».

«هذا صحيح يا أخي. ثم انظر إلى الياقات أيضاً، فمثلاً...».

صاح البدين محتجّاً: «هاه! مهلاً... انتظروا!... ما مشكلة الياقات؟ إنني أبيع الياقات! هل تدركون أن كلفة العمل على الياقات لا تزال تبلغ مئتين وسبعة بالمئة فوق...».

سرعان ما توافقوا جميعاً، بما أن صاحبهم البدين يبيع الياقات، على أن أسعار الياقات على خير ما يرام... مثلما يجب أن تكون! أما بقية أنواع الملابس كلها فهي أغلى بكثير مما يجب. كان كل منهم معجَباً برفاقه الآخرين، محباً لهم. مضوا عميقاً في علوم الأعمال؛ وأشاروا إلى أن البيع هو الغاية من صنع محراث أو قطعة قرميد! ما عاد البطل الرومانتيكي في نظرهم ذلك الفارس الذي كان في الزمن الماضي، ولا الشاعر الجوال، ولا راعي البقر، ولا الطيار، ولا محامي الأرياف الجريء الشاب، بل مدير المبيعات الناجح العظيم الذي تقبع مجلة «تحليل مشكلات التجارة» على سطح مكتبه الزجاجي... الذي يتمثل لقب النبالة عنده في عبارة «اذهب واحصل عليها». إنه ذلك الذي يكرِّس نفسه... الذي يكرِّس فتوّته الشجاعة كلها... من أجل غاية البيع الكَونيّة ـ لا يتعلّق هذا ببيع أي شيء بعينه لأي شخص بعينه أو لأي غاية بعينها، بل يتعلّق بالبيع ذاته.

أفلح حديث المتاجر هذا في إثارة بول ريزلينغ أخيراً. صحيح أنه كان يعزف الكمان؛ وصحيح أنه زوج غير سعيد بزواجه لدرجة تستحق الاهتمام؛ لكنه كان أيضاً رجل مبيعات متميّز القدرات في سوق مواد السقوف. استمع إلى ما قاله البدين عن «قيمة المجلات والأجهزة المنزلية من حيث إنها طريقة مناسبة لتنشيط الناس...». ثم قدّم هو أيضاً فكرة، أو فكرة ممتازة، أو فكرتين ممتازتين، عن استخدام الطوابع ذات السِّنْتين من أجل توزيع النشرات الدعائية. لكنه ارتكب بعد ذلك إساءة في حق القانون المقدس، قانون جماعة الأشخاص الجيّدين: لقد صار يتحدّث مثل المثقفين!

كانوا يدخلون إحدى المدن في ذلك الوقت. وفي ضواحي المدينة، مروا بمصنع للحديد كانت نيرانه تتألق أرجوانية برتقالية تلعق ألسنتها الجدران المغلّفة بالصفائح الحديد وأكوام النفايات الضخمة ومحولات الحديد ذات المظهر المتجهم. قال بول: «يا إلهي! انظروا إلى هذا... الجمال!».

قال صاحب القبّعة المخملية بوقار: «شيء جميل بالتأكيد يا صديقي! إنه مصنع شيلينغ هورتون للفولاذ. قيل لي إن العجوز جون شيلينغ جنى ثلاثة ملايين دولار من إنتاج الذخيرة خلال الحرب».

قال بول: «لم أقصد... أقصد أن إضاءة النار تلك الباحة ذات المنظر الرائع كانت جميلة حقاً... باحة تناثرت فيها البقايا المعدنية... باحة تقفز هكذا من قلب الظلام».

حدَّقوا فيه جميعاً في حين نعق بابِت: «إن لدى بول، بالتأكيد، عينًا تلتقط الأماكن الرائعة والمناظر الغريبة، وكل تلك الأشياء. كان يجب أن يصبح كاتباً أو شيئاً ما لو أنه لم يمضِ في طريق تجارة مواد السقوف».

بدا الانزعاج على بول. (كان بابِت يتساءل أحياناً إن كان بول يقدِّر مديحه الوفيّ هذا حق قدره). قال صاحب القبّعة المخملية: «من ناحيتي أظن أن مصانع شركة شيلينغ هورتون قذرة إلى حد مخيف. كأنها أماكن للمتسكّعين! لكنني لا أظن أن هنالك أي قانون يمنع اعتبارها مناظر رائعة... إذا كان المرء يرى ذلك».

عاد بول إلى مجلّته عابس الوجه. وكان من المنطقي عند ذلك أن ينتقل الحديث إلى موضوع القطارات.

سأل بابِت: «متى نصل إلى بيتسبرغ؟».

«بيتسبرغ؟ أظن أننا نصل في ـ لا، هذا جدول مواعيد السنة الماضية، لا ـ انتظر لحظة ـ فلنر هنا ـ إن لديّ جدول المواعيد هنا».

«لا أعرف إن كنا متأخّرين أو لا!».

«نعم، بالتأكيد، لابد أننا سنصل في الوقت المحدد».

«لا! لن نصل في الوقت المحدد... كنا متأخرين سبع دقائق في المحطة السابقة».

«هل كنا متأخرين حقاً؟ لماذا، غريب، ظننت أننا نصل في الموعد».

«لا! إننا متأخرون سبع دقائق تقريباً».

«نعم، معك حق! إننا متأخرون سبع دقائق».

دخل عامل الخدمة. كان زنجياً في جاكيت بيضاء لها أزرار نحاسية.

سأله البدين: «كم من الوقت تأخرنا يا جورج؟».

أجابه: «في الحقيقة لا أعرف يا سيدي. أظن أننا نصل في موعدنا تقريباً». ثم راح يطوي المناشف ويلقيها بحركة ماهرة على الرف فوق المغسلة. نظرت الجماعة إليه نظرة مكفهرّة. وعندما ذهب بدأ صياحهم:

«لا أعرف ماذا أصاب هؤلاء الزنوج في هذه الأيام. إنهم لا يجيبون إجابة متحضِّرة أبداً».

«صحيح ما تقول! إنهم يتصرفون كأنهم لا يحملون تجاه المرء أي ذَرّة احترام. كان الزنوج في الماضي أشخاصاً طيبين ـ كانوا يعرفون موقعهم ـ أما هؤلاء السكّيرون الشباب الآن فلا يريدون أن يكونوا عمّالاً ولا يريدون أن يشتغلوا في حقول القطن. أوه، لا! صار عليهم أن يصبحوا محامين وأساتذة... الله يعلم ماذا أيضاً! أقول لكم إن هذا الأمر بدأ يصبح مشكلة خطيرة فعلاً. علينا أن نقف معاً وأن نجعل الأسود يرى... نعم، والأصفر أيضاً... مكانه الصحيح. ليس عندي ذَرّة تحيّز عرقي على الإطلاق. فأنا أوّل من يكون سعيداً عندما ينجح أحد الزنوج... طالما ظل حيث ينتمي ولم يحاول اغتصاب السلطات والقدرات العملية التي هي من حق البيض».

أجابه صاحب قبعة القطيفة (كان اسمه يهودياً: كوبلينسكي): «هكذا هو الأمر! علينا أن نفعل شيئاً آخر أيضاً! علينا أن نمنع هؤلاء الأجانب الأنجاس من دخول البلاد. أحمد الله على أننا صرنا نضع قيوداً على الهجرة. هؤلاء اللاتينيون، وهؤلاء القادمون من شرق أوروبا... عليهم أن يفهموا أن هذه البلاد للبيض، وأنهم غير مرغوب فيهم هنا. عندما نستوعب الأجانب، فإننا نعرف كيف نعلّمهم مبادئ الروح الأميركية، وكيف نحوِّلهم إلى أناس طبيعيين؛ فلماذا نتعب أنفسنا ونسمح للمزيد منهم بدخول البلاد؟».

«هذا هو الكلام. هذه هي الحقيقة!» ... هكذا قالوا جميعاً ثم انتقلوا إلى مواضيع أخف وزناً. وسرعان ما استعرضوا أسعار السيارات، والأميال التي يستطيع اجتيازها كل نوع من أنواع إطارات السيارات، وأسهم النفط، وصيد الأسماك، وتوقّعات محاصيل القمح في ولاية داكوتا».

لكن البدين لم يطِق صبراً على تبديد الوقت. كان مسافراً متمرّساً متحرراً من الأوهام. لقد أكد لهم منذ البداية أنه «رجل عجوز». أما الآن فقد مال إلى الأمام مستقطباً انتباههم جميعاً عندما دمدم بسخرية ماكرة: «أوه، يا للجحيم أيها الفتيان! فلننته من الرسميات! دعوني أخبركم بعض القصص!».

وسرعان ما دبّ فيهم النشاط والحيوية.

اختفى بول والشاب الصغير... صارا خارج الدائرة. انزلق البقية في المقعد الطويل. وفكوا أزرار صديرياتهم. رفعوا أقدامهم على الكراسي. قرّبوا إليهم المباصق النحاسية الفخمة. ثم جعلوا ستارة النافذة تنزل على سكّتها الصغيرة ليحجبوا أنفسهم عن الغرباء المزعجين في ظلمة الليل. وبعد كل نوبة من الضحك كانوا يصيحون: «اسمع يا صاحبي... اسمع هذه القصة عن...». كان حديث بايت صريحاً مكشوفاً... فحولياً. وعندما توقف القطار في محطة من المحطات المهمة، نزل الرجال الأربعة ليتمشّوا على الرصيف الأسمنتي تحت السقف الضخم الذي اكتسب لونه من دخان القطارات فصار

مثل سماء من دخان تنطلق خلالها سلالم مرتفعة. تمشوا بين أقفاص البط وصناديق لحم البقر... في مدينة يجهلون اسمها. ساروا متحاذين، كأصدقاء قدامى في غاية الرضا. وعندما سمعوا صيحة ممطوطة «الجميييييع إلى القطاااااار»، صيحة مثل نداء جبلي في الغسق، أسرعوا عائدين إلى حجرة التدخين، ثم واصلوا حكاياتهم الممتعة حتى الثانية بعد منتصف الليل. صارت أعينهم دامعة من الضحك ودخان السجائر. وعندما افترقوا أخيراً... تصافحوا وقالوا مبتسمين: «حسن يا سادة... كان لقاؤنا رائعاً. من المؤسف أنه ينتهي الآن. يسعدني أنني التقيت بكم».

استلقى بابِت مستيقظياً في ذلك القبر المغلَق الحار، في حجرة التدخين. اهتز عندما تذكر قصةً ضاحكة رواها البدين عن سيدة أرادت أن تنفلت على هواها. رفع ستارة النافذة ثم عاد إلى الاستلقاء واضعاً يده السمينة بين رأسه والوسادة الهزيلة. راح ينظر إلى أشباح الأشجار المنزلقة خارج النافذة، وإلى مصابيح القرى تمر مثل إشارات التعجب.

كان في غاية السعادة.

الفصل الحادي عشر

-1-

لا بد من الانتظار أربع ساعات في نيويورك ريثما يحين موعد القطار. ما كان بابِت يريد أن يرى شيئاً إلا فندق بنسلفانيا الذي بُني بعد زيارته الأخيرة إلى هذه المدينة. رفع رأسه محدِّقاً في مبنى الفندق، متمتماً: «وألفان ومئتا غرفة، وألفان ومئتا حمام! هذا أكثر من أي شيء في العالم! يا إلهي، لا بد أن يكون إيرادهم هنا ـ طيبًا، لأفرض أن أسعار الغرف تتراوح من أربعة إلى ثمانية دولارات في اليوم، ولأفرض أيضاً أن سعر بعض الغرف عشرة دولارات... إذا ضربنا ألفين ومئتين... لنقل... بستة... ألفان ومئتان... لا بأس... على أي حال، مع المطاعم وكل شيء... في الصيف، يمكن القول... ما بين ثمانية آلاف وخمسة عشر ألفاً في اليوم! كل يوم! لم يخطر لي أبداً أنني سأرى شيئاً كهذا! يا لهذه المدينة! لكن، طبعاً... يتمتع الإنسان العادي في زينيث بقدر من المبادرة الفردية أكثر من هؤلاء المستعجلين هنا... لكن عليَّ أن أعترف بتفوّق نيويورك! نعم، نعم يا سيدتي المدينة... أنت على حق... بطريقة ما! طيّب يا صديقي، طيب! أظن أننا رأينا كل ما يستحق الرؤية هنا. كيف نقتل بقية الوقت؟ سينما؟».

لكن بول أراد أن يرى واحدة من السفن عابرة المحيطات. قال متنهّداً: «رغبت دائماً في الذهاب إلى أوروبا. وسوف أذهب إليها أيضاً... سأذهب يوماً ما، قبل أن أموت».

ومن رصيف خشن على نورث ريفر، راحا يتأملان مؤخرة سفينة آكويتانيا وصواريها وهوائي اللاسلكي المرتفع فوق مبنى إدارة الرصيف الذي كان يقسم السفينة إلى نصفين.

قال بابِت بنبرة متكاسلة رتيبة: «يا إلهي! ليس أمراً سيئاً أن يذهب المرء إلى البلاد القديمة ويلقي نظرة على تلك الآثار كلها وعلى مسقط رأس شكسبير. ثم فكر في أن تكون قادراً على طلب الشراب كلما أردت! ادخل فقط إلى أحد البارات وقل بأعلى

صوتك «أعطني كوكتيلاً، واللعنة على الشرطة!». ليس هذا سيئاً أبداً! ماذا تريد أن ترى هناك يا صديقي؟».

لم يجبه بول. استدار بابت صوبه. كان بول واقفاً يشدّ على قبضتيه خافضاً رأسه محدِّقاً إلى السفينة... مذعوراً. بدا جسده النحيل هزيلاً كجسد طفل أمام خلفية الألواح الخشبية الباهتة التي لوّحتها الشمس.

قال من جديد: «أين تحب أن تذهب في الناحية الأخرى يا بول؟».

همس بول ملقياً نظرة عابسة صوب السفينة، كان صدره يعلو ويهبط: «أوه، يا إلهي!...». نظر إليه بابِت قلقاً، لكنه قال له: «هيا! دعنا نذهب من هنا!». ثم سار على الرصيف مسرعاً من غير التفات.

قال بابِت في نفسه: «أمر غريب! لم يكن هذا الصبي مهتماً برؤية عابرات المحيط أبداً. ظننت أنه مهتم بها!».

-2-

رغم ابتهاج بابِت، فإن هذا لم يمنعه من إعلان تقديراته الحصيفة لاستطاعة محرك القاطرة. وعندما راح القطار يصعد سفح جبل مين، نظر بابِت من تلك القمة إلى دربهما اللامعة بين أشجار الصنوبر. وعندما اكتشف أن محطة كاتادومكوك، محطة نهاية الخط، ما كانت إلا عربة شحن قديمة، قال: «أوه! يا إلهي!»... ثم جاءت لحظة اتقاد مشاعره عندما جلسا على رصيف خشب صغير على شاطئ بحيرة سوناسكوام منتظرَين زورقاً من الفندق. راح طَوْف خشب يتقدم في البحيرة حتى بلغ الشاطئ. كان الماء بين أخشاب الطوف والشاطئ شفافاً، رقيقاً، يلمع فيه سرب من أسماك فضية. وكان ثمة مرشد سياحيّ يضع قبّعة لبادية ويحمل صنّارات صيد سمك الترويت ويرتدي قميصاً قطنياً بلون أزرق جريء. كان الرجل جالساً على جذع شجرة، مهموماً صامتاً. وكان ثمة كلب، كلب ريفي حقيقي، كلب أسود مع شيء من اللون الرمادي الصوفي، كلب مستمتع بالفراغ والتأمل... حكَّ الكلب جسده ثم نخر راضياً ونام. كان ضوء الشمس الكثيف منصبّاً على المياه اللامعة، وعلى أطراف شجرة ذهبية خضراء، وعلى أغصان البتولا، وعلى السرخس المداري... وفي الناحية الأخرى من البحيرة، كانت حرارة الشمس تلفح أكتاف الجبال. خيّم سلم قدسي فوق كل شيء.

تسكعا صامتَيْن على حافة الرصيف. ثم جلسا مدليين سيقانهما فوق الماء. استحوذت رقة المكان كلها على بابِت... تغلغلت فيه، فقال متمتماً: «أحب أن أجلس هنا فقط... أن أجلس بقية عمري كله... أن أتأمل... أن أجلس ولا أسمع صوت آلة كاتبة

أبداً، ولا أسمع ستان وغراف يثرثران على الهاتف، ولا روني وتيد يتشاجران... أجلس فقط.. يا إلهي!

ربّت على كتف بول قائلاً: «كيف ترى هذا يا صديقي الناعس؟».

«أوه! جميل جداً يا جورجي. ثمة شيء... كأنه أبديّ في هذا».

هذه المرة، فهمه بابِت!

-3-

التفّ الزورق عند المنعطف. وفي رأس البحيرة، تحت سفح الجبل، شاهدا كوخ الطعام المركزي في الفندق، ومن حوله هلال من أكواخ خشبية صغيرة. كانت تلك الأكواخ غرف نوم. هبطا من الزورق؛ وتحمّلا النظرات المتفحّصة التي ألقاها عليهما النزلاء القدامى... الذين مضى عليهم هنا أسبوع كامل. وفي كوخهما ذي الموقد الحجري المرتفع راحا يسرعان حتى، بحسب تعبير بابِت، «نرتدي شيئاً من ملابس الرجال». خرجا من الكوخ. كان بول مرتدياً بدلة رمادية قديمة مع قميص ناعم أبيض. وكان بابِت في قميص كاكي اللون وبنطلون ضخم واسع كاكي اللون أيضاً. كان بنطلونه جديداً إلى حد مفرط. أما نظارته التي من غير إطارها فكانت تنتمي إلى عالم المكتب في المدينة. ما كان وجهه ملوَّحاً بالشمس، بل وجه وردي آتٍ من المدينة. أصدر أصواتاً شكسة متناثرة في ذلك المكان؛ لكنه راح يخبط على ساقيه راضياً كل الرضا ويغني: «انظر... إنهما تعودان إلى طبيعتهما، أليس كذلك؟».

وقفا على الرصيف أمام الفندق. غمز لبول ثم أخرج من جيبه الخلفي قطعة من تبغ المضغ. كان تبغ المضغ شيئاً سوقياً محظوراً في منزل آل بابِت. ابتسم وهو يقضم قطعة منه ويهز رأسه: «مممم! مممم! لا أظنني كنت جائعاً إلى تبغ المضغ إلى هذه الدرجة قبل الآن. أتريد منه؟».

تبادلا ابتسامتين، ونظرتين متفاهمتين. أخذ بول قطعة التبغ وقضم شيئاً منها. وقفا ساكنَيْن وفكّاهما يعملان. بصقا بوقار واهتمام، واحداً بعد الآخر في المياه الساكنة. تمطّيا سعيدين بأذرع مرفوعة وظهرين متقوّسَيْن. ومن خلف الجبال، جاءت قعقعة قطار عابر من بعيد. قفزت سمكة ترويت ثم عادت إلى الماء صانعة دائرة فضية فيه. تنهّدا معاً.

-4-

كان لديهما أسبوع قبل وصول أسرتيهما. كانا يخططان كل ليلة للاستيقاظ والصيد قبل الإفطار. لكنهما كانا يَظلان مستلقيين في السرير، كل صباح، إلى أن يقرع جرس

الإفطار. كانا يستلقيان هناك مستمتعين بمعرفة أن زوجتيهما النشطتين لا تستطيعان جعلهما ينهضان الآن. كانت الصباحات باردة. وكان الموقد يبعث فيهما دفئاً لطيفاً عندما يرتديان ملابسهما.

كان بول هادئاً نظيفاً إلى حد محبط. أما بابِت فكان مستمتعاً بإهمال صحّي عميق... كان مستمتعاً بأنه ليس مضطراً إلى حلاقة ذقنه قبل أن تدعوه روحه نفسها إلى الحلاقة. وكان مسروراً بكل بقعة زيت على بنطلونه الكاكي الجديد، وبكل حرشفة سمك أيضاً.

كانا يمضيان الصباح كله في الصيد الكسول، أو يتسكّعان في دروب يتسلل إليها الضوء رطباً عبر سراخس مرتفعة وطحالب تتخللها أجراس قرمزية. ينامان طيلة بعد الظهر، ثم يلعبان البوكر مع المرشدين السياحيين حتى منتصف الليل. كانت لعبة البوكر مسألة جدية تماماً عند المرشدين. وما كانوا يضيّعون وقتهم في الثرثرة. يخلطون الورق السميك المشحم بحركات ماهرة عنيفة، ويهدّدون «الرياضيين». وكان جو برادايس، ملك المرشدين، شديد السخرية من المستهترين الذين يوقفون اللعبة، حتى لو كان ذلك من أجل تسجيل النتائج.

وعند منتصف الليل، عندما يسير مع بول متخبّطين صوب كوخهما فوق لسعات العشب الرطب، متعثرين بجذور الصنوبر الخبيئة في الظلام، كان بابِت يعلن فرِحاً أنه ليس مضطراً الآن لأن يشرح أمام زوجته سبب غيابه عن البيت طيلة السهرة.

لم يتحدثا كثيراً! اختفت بينهما ثرثرة نادي زينيث الرياضي العصبية والميل إلى طرح الآراء. وعندما كانا يتكلّمان، كانا ينزلقان إلى ذكريات ساذجة من أيام الدراسة. وذات مرة، قادا زورقاً حتى ضفة مياه سوناسكوام... جدول محاط بدغل كثيف من شجيرات الرمحية.

كانت الشمس تسوط الدغل الأخضر، لكن سلماً ناعساً ساد الظلال تحته؛ وكان الماء ذهبياً تجري موجات رقيقة على صفحته. غمس بابِت يده في مجرى الماء البارد وقال مفكراً: «لم نفكر أبداً من قبل في المجيء إلى مين معاً!».

«صحيح! لم نفعل أبداً أي شيء من الأشياء التي كنا نظن أننا نريد أن نفعلها. كنت أتوقع أن أعيش في ألمانيا مع أهل جدي، وأن أدرس الكمان».

«معك حق! وهل تذكر أيضاً كيف كنت أريد أن أصبح محامياً، وأن أخوض غمار السياسة؟ لا أزال أرى أنني يمكن أن أنجح فيها. عندي موهبة التحدث... وأنا أستطيع الارتجال أيضاً، وأن أقول كلاماً يدير رؤوس الناس، في كل شيء تقريباً! هذا ما يلزم في السياسة طبعاً! فليكن... سوف يذهب تيد ويدرس القانون، حتى إذا لم أفعلها بنفسي!

طيب... أظن أن الأمور كلها سارت سيراً طيباً. إن ميرا زوجة جيدة. وزيلا نياتها حسنة يا صديقي».

«نعم! خلال وجودي هنا... أفكر في كل الأشياء التي تجعلها مسرورة. أشعر أن الحياة سوف تصبح مختلفة الآن بعد أن حظينا باستراحة جيدة وصرنا قادرَين على العودة والبدء من جديد».

قال بابِت: «آمل هذا يا صديقي!» ... ثم أضاف بصوتٍ هادئ: «اسمع! أتعرف... كان لطيفاً جِداً أن نجلس ونتسكّع ونقامر... ونتصرف على هوانا... أنا وأنت... يا لِصّ الخيول العجوز!».

«أنت تعرف معنى هذا بالنسبة لي يا جورجي. لقد أنقذ حياتي!».

طغى عليهما إحساس بالخجل بعد هذه العواطف المكشوفة. تبادلا بعض الشتائم حتى يثبتا أنهما رجلان حقيقيان صلبان طيّبان. وفي الصمت الرقيق، راح بابِت يصفر وراح بول يدندن. ثم عادا إلى الفندق بخطى متثاقلة.

- 5 -

مع أن بول هو الذي كان يبدو مرهقاً، ومع أن بابِت هو الذي قام بدور الأخ الكبير الحامي، إلا أن بول صار مرِحاً واضح التفكير في حين غرق بابِت في حالة من النزق وسرعة التهيّج. راح يزيل طبقة بعد طبقة من تعبه الدفين. قام في البداية بدور المهرِّج الحاذق من أجل بول، وأراد تسليته. وفي النهاية، صار بول الضعيف مثل ممرّضة، وقبل بابِت هذا الكرم بذلك التواضع الراضي الذي يبديه المريض لممرضته.

وفي الليلة التي سبقت وصول أسرتَيهما، قالت لهما نزيلات الفندق: «أوه! أليس هذا لطيفاً؟... لابد أنكما تشعران بالإثارة الآن». اقتضت آداب اللياقة أن يظهر شيء من الإثارة على بابِت وبول. لكنهما ذهبا إلى النوم متجهّمَي الوجه... أبكر من المعتاد.

قالت ميرا فور ظهورها: «والآن نريد منكما أيها الولدان الطيبان أن تواصلا العبث كما لو أننا غير موجودتَين».

في الليلة الأولى، ظل بابِت يلعب البوكر مع المرشدين. وعندما عاد، قالت له ببهجة مسالمة: «عجباً! اتضح أنك سيئ فعلاً!». أما في الليلة الثانية، فقالت بأنين ناعس: «يا الله!... أظن أنك ستسهر خارجاً كل ليلة!». وفي الليلة الثالثة... لم يلعب البوكر.

كان يشعر الآن أنه متعب... في كل خلية من خلايا جسده. قال متحسراً: «عجيب! يبدو أن هذه الرحلة لم تفدني في شيء. صار بول نشطاً مثل مسدس؛ لكني... أقسم أنني صرت أكثر عصبية وقلقاً مما كنت عندما وصلت».

أمضى ثلاثة أسابيع في مين. بدأ يشعر بالهدوء في نهاية الأسبوع الثاني؛ وصار مهتماً بالحياة. خطّط من أجل رحلة تسلّق إلى جبل ساكيم؛ وأراد أن يمضوا الليلة في خيمة عند بركة بوكسكار. كان ضعيفاً إلى حد غريب، لكنه كان مبتهجاً كأنه نظّف عروقه من الطاقة السامّة ثم أعاد ملئها بدم سليم معافى.

كفّ عن الانزعاج بسبب افتتان تيد بإحدى النادلات (كانت هذه سابع علاقة مأساوية له هذا العام). لعب معه لعبة «الحقني وأمسك بي»؛ وعلّمه معتزاً كيف يرمي الصنارة في صمت ظلال السرو المحيطة ببركة سكوتويت.

وفي النهاية تنهّد قائلاً: «كفى! بدأت أستمتع برحلتي. لكنني أشعر بأنني أفضل من قبل بكثير. ستكون هذه السنة عظيمة! وقد ينتخبني المجلس العقاري رئيساً بدلاً من تشان موت المزيف التقليدي الغريب».

وفي طريق العودة، كان يشعر بالذنب كلما ذهب إلى حجرة التدخين تاركاً زوجته. وكان يشعر بالغضب أيضاً لأنها تتوقع منه هذا الشعور. لكنه كان يهتف لنفسه كل مرة: «أوه! ستكون هذه السنة عظيمة... سنة رائعة عظيمة!».

الفصل الثاني عشر

-1-

خلال طريق العودة كله، كان بابِت واثقاً من أنه تغيَّر. لقد انتقل إلى حالة من الصفاء والهدوء. سوف يكفّ عن القلق في ما يتعلق بالعمل. وسوف تكون لديه «اهتمامات» أكثر ـ المسرح والشؤون العامة والقراءة! وفجأة، عندما أنهى تدخين سيجار كان ثقيلاً على نحو خاص، قرر أن يتوقف عن التدخين.

اخترع أسلوباً جديداً ممتازاً. لن يشتري التبغ؛ بل سيعتمد على الاستعارة. وبطبيعة الحال، فإن الإكثار من الاستعارة سيكون أمراً مخجلاً. وفي نوبة من الاستقامة والشَّجاعة، ألقى بكيس السيجار من نافذة حجرة التدخين في القطار. عاد إلى مقعده. وكان لطيفاً مع زوجته بشكل عام... من غير تحديد. كان معجَباً بنقائه، وقال مصمِّماً: «أمر بسيط جداً! قوة إرادة، لا أكثر». بدأ قراءة قصة في إحدى المجلات عن محقِّق يعتمد الطرق العلمية في التحَرّي. وبعد عشرة أميال، أدرك أنه راغب في التدخين. جذب رأسه بين كتفيه مثل سلحفاة تنسحب إلى درعها. بدا عليه الانزعاج... وتخطى صفحتين في قصته من غير أن ينتبه. وبعد خمسة أميال، قفز واقفاً وصاح بموظف القطار: «قل لي، آه، يا جورج... هل لديك...؟». نظر الرجل متسائلاً، صابراً... «هل لديك جدول زمني للرحلة؟». قضي الأمر، وانتهت مقاومة بابِت! نزل في المحطة التالية واشترى سيجاراً. وبما أن ذلك السيجار سيكون الأخير قبل وصوله إلى زينيث، فقد دخّنه حتى لم يكد يترك منه شيئاً.

تذكر بعد أربعة أيام أنه توقّف عن التدخين. لكنه كان شديد الانهماك في متابعة شؤون المكتب فعجز عن تذكر الأمر بعد ذلك.

-2-

قرر أن تكون لعبة البيسبول هوايته الممتازة: «لا معنى لأن يرهق المرء رأسه.

سوف أحضر المباريات ثلاث مرات في الأسبوع. ثم إن على الإنسان أن يشجّع الفريق المحلي».

ذهب فعلاً، وشجع الفريق، وزاد في أمجاد زينيث بأن صاح مع الصائحين: «هيااااا!» و«سيءءءء!»... كان يؤدي هذه الشعائر بدِقّة. كان يضع منديلاً قطنياً حول ياقته؛ ويتعرَّق كثيراً؛ ويفتح فمه في ابتسامة رخوة واسعة؛ ويشرب الصودا مع الليمون من زجاجة. ذهب إلى الملعب ثلاث مرات في الأسبوع... أسبوعاً واحداً. ثم اكتفى بمتابعة النتائج على لوحة إدفوكات تايمز الإعلانية. كان يقف وسط الحشد الكبير المتحمّس؛ وعندما يقوم الصبي الواقف فوق المنصة المرتفعة بتسجيل إنجازات بيغبيل بوستويك، كان رامي الكرات المتحمس بابِت يصيح قائلاً لأشخاص حوله لا يعرفهم أبداً: «رائع حقاً! عمل جيد!»... ثم يسرِع عائداً إلى مكتبه.

كان مقتنعاً صادقاً بأنه يحب البيسبول. صحيح أنه لم يلعب البيسبول منذ خمسة وعشرين عاماً، ما عدا بعض الرميات الخلفية للتدريب على الكرة مع ابنه تيد... بلطف شديد، ولفترة محددة بصرامة: عشر دقائق! لكن هذه اللعبة كانت تقليداً لدى جماعته. وكانت تنفيساً عن غرائز القتل والتحيّز التي كان بابِت يدعوها «الروح الوطنية» و«حب الرياضة».

راح يمشي أسرع، فأسرع، مع اقترابه من المكتب. وكان يدمدم قائلاً لنفسه: «أظن أن من الأفضل أن أسرع». كانت المدينة كلها مسرعة من حوله... من أجل السرعة فقط! كان رجالٌ يقودون سياراتهم مسرعين ليتجاوز أحدهم الآخر ضمن سيل السيارات المسرعة. وكان رجال يسرعون من أجل اللحاق بعربة الترولي رغم أنّ عربة أخرى تأتي بعد دقيقة واحدة. وكانوا يقفزون من عربات الترولي واجتياز الرصيف هرولة ليلقوا بأنفسهم في مداخل المباني، وفي مصاعد مسرعة أيضاً. وكان رجال في المطاعم يسرعون فِي ابتلاع طعام أسرع الطباخون في إعداده. ورجال في محلات الحلاقين يقولون منزعجين: «احلق شعري دفعة واحدة. عليَّ أن أسرع». ورجال يبذلون محاولات محمومة للتخلص من الزائرين عن طريق لافتات تزينها عبارات تقول: «إنني مشغول اليوم»، و«خلق الرب العالم في ستة أيام ـ تستطيع أن تقول كل ما لديك في ست دقائق» ـ وأما الرجال الذين جنوا خمسة آلاف في العام قبل الماضي، وعشرة آلاف في العام الذي قبله، يحثّون أجساداً لا تتذمَّر وأدمغة نضب معينها حتى يجنوا اثني عشر ألفاً هذا العام. وكان الرجال الذين انهاروا بعد أن جنوا اثني عشر ألف دولار مسرعين أيضاً للّحاق بقطاراتهم حتى يتمكنوا سريعاً من قضاء العطلة التي نصحهم بها أطباء مسرعون بدورهم.

وبين هؤلاء جميعاً، أسرع بابِت عائداً إلى مكتبه ليجلس من غير أن يكون لديه ما يفعله إلا مراقبة الموظفين والحرص على أن يبدوا عليهم جميعاً مظهر أشخاص مسرعين في عملهم.

-3-

كان يخرج مسرعاً بعد الظهر كل سبت منطلقاً إلى ناديه الريفي. وينطلق مسرعاً أيضاً لإنجاز الحفر التسع في لعبة الغولف لتكون استراحة له بعد إسراعه الأسبوع كله.

كان ضرورياً في زينيث أن يكون لكل رجل ناجح انتماء إلى نادٍ ريفي. فتلك ضرورة تماثل ضرورة استخدام الياقات الكتّانية. وكان بابِت يرتاد نادي آوتينغ للغولف وكذلك النادي الريفي الذي كان مبنى بهيج المظهر رمادي اللون له مدخل مرتفع. وكان واقعاً على جرف مرصّع بالأقحوان مشرف على بحيرة كينيبوز. وكان هنالك نادٍ آخر، هو نادي توناواندا الريفي، يذهب إليه كل من تشارلز ماكيلفي وهوراس أبدايك، وغيرهم من الرجال الأثرياء الذين لا يتناولون الغداء في النادي الرياضي بل في نادي الاتحاد! وكان بابِت يوضح موقفه بطريقة قاطعة سريعة: «لن أذهب إلى توناواندا حتى إذا دفعوا لي مالاً... حتى إذا كان لديّ مئة وثمانون دولاراً أرميها لأدفع رسم الانتساب. لدينا في نادي آوتينغ حفنة من الزملاء البشريين حقاً، ولدينا أروع مجموعة من النساء في البلدة؛ نساء تُجِدن الحديث والمزاح مثل الرجال... أما في توناواندا فليس لديهم شيء إلا أولئك الذين يريدون الذهاب إلى نيويورك لشرب الشاي! كلهم كلاب. ماذا! لن أنضم إلى توناواندا حتى إذا... لن أنضم إليه ولو أجبروني!».

يستريح بابِت قليلاً بعد أن يلعب أربع أو خمس حفر... بعد أن يبدأ خفقان صدره من كثرة التدخين ويتراخى صوته حتى يصير ممطوطاً مثلما كانت أصوات أسلافه الفلاحين قبل مئة جيل.

-4-

مرة واحدة في الأسبوع على الأقل، كان السيد بابِت والسيدة بابِت وتينكا يذهبون إلى السينما. كانت شاتو دار السينما المفضلة لديهم، فهي تستوعب ثلاثة آلاف مشاهد، وفيها أوركسترا من خمسين عازفاً تستطيع أن تعزف مختارات من الأوبرا ومقطوعات من قبيل «يوم في المزرعة» أو «أربعة إنذارات للحريق». وفي صالتها المستديرة، المزينة بمقاعد مخملية موشاة بتيجان ذهبية ومطرزات تكاد تكون من القرون الوسطى، كان ثمة ببغاوات جاثمة فوق أعمدة مذهبة كثيرة.

كان بابِت يعبِّر عن إعجابه بصالة شاتو من خلال عبارات من قبيل «أوه!... يا سلام...»، و«لا بد أن يكون المرء قد ذهب إلى أماكن فخمة كثيرة حتى يستطيع أن يألَفَ هذا كله». كان يحدِّق عبر آلاف الرؤوس، عبر منبسَط رماديّ من الضوء الخافت، ويشم رائحة الملابس النظيفة والعطور اللطيفة والعلكة، فيشعر مثلما شعر عندما رأى جبلاً أول مرة فأدرك متعجّباً مقدار ما فيه من التراب والصخور.

كان يحب ثلاثة أنواع من الأفلام: الأفلام التي تعرض فتيات جميلات مستحمّات عاريات السيقان؛ وأفلام رجال الشرطة أو رعاة البقر التي فيها مسدسات تطلق النار من غير انقطاع؛ وأفلام الرجال البدناء المضحكين الذين يأكلون السباغيتي. وكان يبتسم ابتسامة عريضة وتغرورق عيناه عاطفة خلال الفواصل عندما يعرضون الجراء والقطط الصغيرة والأطفال الرضّع الممتلئين. وكان يذرف الدموع على أسرّة المحتضرين وعلى أمهات عجائز يرقدن مريضات في أكواخ مرهونة. وكانت السيدة بابِت تفضِّل الأفلام التي تعرض نساء شابات جميلات في ملابس مترَفة يتنقلن بين غرف يفترض أنها غرف الاستقبال لدى أصحاب الملايين في نيويورك. وأما تينكا فكانت تفضِّل، أو كان يُعتقد أنها تفضل، ما يقول لها أبوها وأمها أن تفضِّله.

كانت سبل استرخائه كلها ـ البيسبول والغولف والأفلام ولعبة البريدج وقيادة السيارة والأحاديث الطويلة مع بول في النادي الرياضي أو في مطعمَيْ غودريد بيث وأولد إنكليش تشوب هاوس ـ أموراً ضرورية عند بابِت لأنه كان الآن في مستهل سنةٍ من نشاط لم يعرف له مثيلاً من قبل.

الفصل الثالث عشر

-1-

حظي بابِت، مصادفةً، بفرصة إلقاء كلمة أمام «ساريب».

إن «س. ا. ر. ي. ب.»، كما يدعوها أعضاؤها نتيجة ذلك المَيْل العام إلى استخدام الأحرف الأولى على نحو غامض يوحي بالأهمية، هي «جمعية المجالس العقارية في الولاية»! أي أنها منظمة تضم سماسرة العقارات ومشغّليها. وكان مقرراً أن تعقد الجمعية مؤتمرها السنوي في مدينة مونارك، منافسة زينيث الأولى بين مدن الولاية. كان بابِت موفداً رسمياً، ومثله سيسيل رونتري الذي كان بابِت معجَباً ببنايته ذات الشكل الغريب رغم كرهه له بسبب موقعه الاجتماعي ولأنه حاضر دائماً في أجمل الحفلات الراقصة في رويال ريدج. كان رونتري على رأس لجنة إعداد برنامج المؤتمر.

كان بابِت قد قال له: «تزعجني تلك العَظَمة التي يضفيها الأطباء وأساتذة الجامعات والواعظين على أنفسهم عندما يقولون إنهم «اختصاصيون». لابد أن لدى أي وسيط عقاري معرفة ورهافة أكثر من أي واحد منهم».

قال رونتري مقترحاً: «أنت على حق! اسمع: لماذا لا تكتب هذا الكلام وتلقيه أمام مؤتمر ساريب؟».

«حسنًا! إذا كان هذا يساعدك في إعداد البرنامج ـ دعني أقول لك... هكذا أنظر إلى الأمر: علينا أولاً الإصرار على أن يدعونا الجميع باسم «وسطاء عقاريين» لا باسم «سماسرة العقارات». إن هذا يبدو أقرب إلى الإيحاء بعمل اختصاص طبيعي. الأمر الثاني ـ ما الفارق بين العمل الإختصاصي من ناحية والتجارة أو الأعمال أو أي وظيفة، من ناحية أخرى؟ ما هو؟ إنه الخدمة العامة، والمهارات أيضاً، المهارات المصقولة المدرَّبة، والمعرفة، و... كل ذلك. أما حين يكون المرء مندفعاً وراء جني المال فقط، فإنه

لا يفكّر في الخدمة العامة أبداً، ولا في المهارات المدرّبة المصقولة، وهكذا دواليك. والآن، باعتباري اختصاصياً...».

«مهلاً! مهلاً، هذا شيء قويٌّ جداً! ممتاز جداً! اكتبه، سجِّله على الورق». قال له رونتري هذه الكلمات بينما كان يستدير مبتعداً عنه بسرعة وقوّة.

ـ 2 ـ

رغم اعتياده كتابة الإعلانات والمراسلات، أصاب القنوط بابِت ليلة جلس من أجل إعداد الورقة التي يجب أن تستغرق قراءتها في المؤتمر عشر دقائق.

وضع أمامه على طاولة الخياطة القابلة للطي التي تستخدمها زوجته كرّاساً مدرسياً جديداً، كرّاساً ثمنه خمسة عشر سنتاً. كان هذا في غرفة الجلوس. أجبر أهل البيت كلهم على الصمت. طُلب من فيرونا وتيد أن يختفيا تماماً. وهُددت تينكا على النحو التالي «إذا سمعت صوتاً واحداً آتياً منك ـ إذا صِحتِ طالبة كأساً من الماء، مرة واحدة فقط ـ من الأفضل ألا تفعلي هذا!»... وجلست السيدة بابِت قرب البيانو تخيط ثوباً للنوم وتنظر إليه نظرة احترام، في حين راح بابِت يكتب على إيقاع اهتزاز طاولة الخياطة وصرير قوائمها.

وعندما نهض متعَباً منزعجاً ـ كان يشعر بما يشبه الغبار في حلقه بسبب السجائر ـ قالت له مسرورة: «لا أعرف كيف تستطيع الجلوس هكذا واختراع الكلام من رأسك مباشرة!».

«أوه! ... هذا نتيجة التدرّب على التخيّل البنّاء. وهو ما يحصل عليه المرء في حياة الأعمال الحديثة».

كان قد كتب سبع صفحات. هكذا كانت بداية الصفحة الأولى:

(الصور محذوفة: تتألف من عدد من الرسومات ومن «1: مهنة، 2: ليس الأمر مجرد صفقة تجارية، 3: المهارة والرؤية، 4: يجب أن يقال «وسيط عقاري» وليس «سمسار عقارات»).

وكانت الصفحات الست الأخرى شبيهة بالأولى.

وعلى امتداد أسبوع كامل، ظل يتجول هنا وهناك وقد بدا عليه مظهر الأهمية. كان كل صباح، خلال ارتداء ثيابه، يفكر بصوت مسموع: «لا أستطيع أن أكفّ عن التفكير، يا ميرا، في أن أي بلدة لا بد لها، قبل أن يكون فيها بنايات أو ازدهار اقتصادي أو أي شيء من هذه الأشياء، لا بد لها من وسيط عقاري يوفّر الأرض اللازمة لذلك! إن الحضارات كلها تبدأ من الوسيط العقاري. هل خطر هذا في بالك قبل الآن؟». وفي النادي الرياضي، كان يقتاد إلى ناحية من النواحي رجالاً غير راغبين في هذا الحديث ليقول لهم: «قل لي،

إذا كان عليك أن تقرأ ورقة أمام اجتماع كبير، فهل تبدأ ببعض الفكاهات أم تدخل في الموضوع مباشرة؟» -كما طلب من هاورد ليتلفيلد «مجموعة من الأرقام الإحصائية عن المبيعات العقارية... أرقام جيّدة تُحدِث تأثيراً في النفس». وقد زوّده ليتلفيلد بشيء مؤثر، بشيء جيّد إلى حدّ فاق توقّعاته.

لكن بابِت استعان بتشولموندلي فرينك أكثر من غيره. كان يمسك به في النادي بعد الظهر، كل يوم. وكان يقول لفرينك الذي يحاول مراوغته والتفلّت منه: «قل لي يا تشام: إنك من حيتان الكتابة... كيف تكتب هذه الجملة... انظر هنا في المخطوط... أين هو المخطوط بحق الشيطان؟... أوه، نعم، ... ها هو! هل تقول «لا يجوز أن نفكر فقط» أم «لا يجوز فقط أن نفكر»؟ ... أو...».

وذات مساء، عندما كانت زوجته خارج البيت وما كان لديه أحد يستطيع أن يثير إعجابه، نسي بابِت كل ما يتعلق بالأسلوب وترتيب الكلمات، وغير ذلك من خفايا الكتابة السرية الغامضة، وكتب كل ما يراه في ما يتعلق بالأعمال العقارية، وبنفسه أيضاً. وسرعان ما وجد كلمته مكتوبة أمامه، جاهزة. وعندما قرأها لزوجته قالت معجبة: «واااو، يا عزيزي... إنها رائعة! مكتوبة بطريقة جميلة، وواضحة جداً، ومثيرة للاهتمام، وفيها أفكار ممتازة! كيف أقول؟ إنها... إنها رائعة!».

وفي اليوم التالي، حاصر تشام فرينك في موقع لا يستطيع الفرار منه، وصاح مبتهجاً: «نعم يا صديقي! لقد أنجزت كتابتها ليلة أمس. أنجزتها ضربة واحدة! كنت أظن أنكم، أهل الكتابة، تتعبون كثيراً في كتابة تلك الأشياء. لكن، يا إلهي... اتضح أنها في غاية السهولة! إن عملكم هيّن؛ ولابد أنكم تكسبون مالاً كثيراً بكل سهولة! ذات يوم، عندما أصبح جاهزاً للتقاعد... أظن أنني سوف أبدأ الكتابة وأريكم، يا أولاد، كيف تقومون بهذا. كنت أرى دائماً أنني أستطيع كتابة أشياء أفضل، أشياء فيها أصالة ونكهة مميزة... أكثر من تلك الأشياء التي تراها مطبوعة. أما الآن، فقد صرت واثقاً من هذا!».

طبع أربع نسخ من ورقته... طبَعَها بلون أسود مع عنوان أحمر رائع؛ ثم جعل لكل نسخة غلافاً أزرق من الورق المقوّى. وقدّم، بلطف، نسخة منها إلى إيرا رونيون، مدير تحرير صحيفة إدفوكات تايمز. أثنى الرجل على الورقة... نعم، أثنى عليها ... كان شديد السعادة، وقال إنه سيقرأها كلها... بكل تأكيد... عندما يجد وقتاً لها.

لم تستطع السيدة بابِت أن تذهب معه إلى مونارك. كان لديها اجتماع في النادي النسائي. قال بابِت لها إن هذا أمر مؤسف.

- 3 -

إضافة إلى المندوبين الرسميين الخمسة إلى ذلك المؤتمر - بابِت، رونتري، وو. أ. روجرز، وألفين ثاير، وآلبرت وينغ - ذهب أيضاً خمسون من الموفَدين غير الرسميين، وذهبت زوجات أكثرهم معهم أيضاً.

التقوا عند محطة الاتحاد لانتظار قطار منتصف الليل الذاهب إلى مونارك. وكانوا جميعاً (عدا سيسيل رونتري الذي كان متكبّراً لا يقبل أن يحمل أي نوع من الشارات) يضعون أزرار بلاستيك كبيرة، بحجم الدولار، كُتب عليها «نهتم بزينيث». كان الموفدون الرسميون قد وضعوا أشرطة رائعة، فضية وأرجوانية. وكان ابن مارتن لومنسن الصغير حاملاً راية مزيّنة مكتوباً عليها: «زينيث مدينة النشاط - حماسة واندفاع وسرعة - مليون نسمة في 1935». لم يأتِ الموفدون في سيارات أجرة، بل في حافلة عائلية كبيرة قادها أكبر أولاد ابن العم فريد. شكّلوا موكباً مرتجلاً في قاعة الانتظار في المحطة.

كانت قاعة الانتظار جديدة وواسعة لها أعمدة رخامية ضخمة ولوحات جدارية تمثل استكشاف بير إيميل فوثوكس وادي نهر كالوسا عام 1740. كانت مقاعدها على شكل رفوف من خشب الماهوغاني وفيها كشك رخامي لبيع الجرائد له واجهة من قضبان نحاس. سار الجميع في الصالة التي راحت تردد صدى أصواتهم... ساروا خلف راية ويلي لومنسن. كان الرجال يلوّحون بسيجاراتهم. وكانت النساء متباهيات بفساتينهنّ الجديدة وعقودهنّ الخَرَزية. وكانوا جميعاً ينشدون أغنية على لحن النشيد الرسمي لمدينتهم «أولد لانغ ساين»، أغنية كتبها تشام فرينك:

زينيث العزيزة الطيبة،
مدينة أهلنا وأقاربنا،
أينما كنا،
نرفع قبّعاتنا،
نتغنى بازدهارك،
ولا نبالي بشيء.

كان سمسار العقارات، وارن ويتبي، موهوباً في كتابة قصائد الشعر من أجل المآدب وأعياد الميلاد. أضاف هذا الرجل مقطعاً خاصاً إلى أغنية فرينك من أجل مؤتمر الوسطاء العقاريين:

وها نحن هنا!
أتينا من زينيث،
مدينتنا النشيطة،

أتينا نريد أن نقول:

في عالم العقارات، لا أحد مثلنا!

انتابت بابِت حالة هستيرية من الوطنية. قفز على أحد المقاعد صائحاً بالحشد:

«ما المشكلة في زينيث؟».

«إنها على خير ما يرام!».

«وما هي أفضل مدينة في الولايات المتحدة الأمريكية؟».

«زينيييييث».

نظر الناس المساكين الصابرون المنتظرون قطار منتصف الليل إلى هذه المجموعة من غير أي حسد!... نساء إيطاليات متجوّلات بأوشحتهنّ الكبيرة، ورجال مسنّون متعَبون بأحذية بالية، وشبّان صغار مرتحلون على الطرقات ببدلات كانت لامعة عندما كانت جديدة لكنها صارت مجعّدة باهتة الألوان.

ظن بابِت أن عليه أن يحظى بمزيد من الاحترام لأنه موفد رسمي. راح يتمشى مع وينغ وروجرز على الرصيف الأسمنتي قبالة عربات القطار المنتظرة. كانت حاملات الأمتعة الآلية تمضي مسرعة على ذلك الرصيف فتبثّ جواً من النشاط. وكان معها حمالون بقبّعات حمر ينقلون الحقائب. وكانت المصابيح القَوْسية تتأرجح متوهّجة فوق الرؤوس. بدت عربات النوم الصفراء اللامعة متألّقة. حرص بابِت أن يكون صوته وقوراً محسوباً. نفخ صدره وبطنه ثم صاح: «علينا أن نحرص أن يجعل مؤتمرنا أعضاء الكونغرس يفهمون أين أخطأوا في مسألة فرض الضرائب على انتقال الملكيات العقارية». أطلق وينغ همهمات الموافقة فابتهج بابِت... وفرح.

ارتفعت ستارة إحدى المقصورات في عربة من العربات، ونظر بابِت إلى عالم لم يألَفه. كانت لوسيل ماكغيلفي في تلك المقصورة! إنها زوجة المقاول المليونير الجميلة. فكر بابِت مسحوراً في أنها قد تكون ذاهبة إلى أوروبا! وإلى جانبها، على المقعد، رأى باقة من أزهار البنفسج والأوركيد، وكتاباً له غلاف أصفر من الورق المقوّى. بدا الكتاب أجنبياً! وبينما كان ينظر إليها، التقطت الكتاب ثم ألقت نظرة من النافذة... كما لو أنها تشعر بالملل. لابد أنها نظرت إليه مباشرة... كان قد التقاها ذات مرة، لكنها لم تبدِ الآن أي إشارة إلى معرفته. جذبت الستارة بحركة فاترة. أما هو فظل واقفاً مع إحساس بارد في قلبه... إحساس بقلة أهميته.

لكنه استعاد كبرياءه عندما صار في القطار والتقى المندوبين القادمين من سبارتا وبايونير، وبقية المدن الصغيرة في الولاية. راحوا كلهم يصغون باحترام عندما تحدث إليهم ذلك الشخص البارز من المدينة الكبيرة زينيث: تحدث في السياسة وفي قيمة

الإدارة الجيدة السليمة الآتية من عالم الأعمال. ثم انخرطوا جميعاً في أحاديث العمل... أنقى الأحاديث وأكثرها مَرَحاً وبهجة... على الإطلاق:

«كيف سيجني المال ذلك الشخص، رونتري، من الفندق الضخم الذي يعتزم إقامته؟ ماذا سيفعل؟ هل يصدر سندات من أجل تمويل المشروع؟»... كان هذا سؤالاً من أحد سماسرة العقارات في سيارتنا.

قال بابِت: «حسنًا!... سأقول لك. لو كنت أنا من يتولى الأمر...».

لكن آلبرت وينغ كان يقول بنبرة رتيبة: «وهكذا... استأجرت نافذة العرض تلك مدة أسبوع. ووضعت فيها لافتة تقول: «بلدة من الألعاب من أجل الأطفال الصغار». ووضع تحت اللافتة عدداً من بيوت الألعاب والأشجار الصغيرة الأنيقة. ثم وضعت في الأسفل لافتة أخرى تقول «يحب الأطفال بيوت الألعاب، لكن بابا وماما يفضّلان البيوت الجميلة التي نعرضها عليهم». تعرفون... هذا ما جعل الناس يتحدثون. لقد بعنا في الأسبوع الأول...».

بدأت عربات القطار تغني «ترك ـ تك، ترك ـ تك» عندما سار القطار ثم اجتاز الضاحية الصناعية. كانت الأفران تطلق لهيبها، والمطارق الآلية تسقط هادرة. اندفعت أضواء حمر وخضر... ثم ضوء أبيض ساطع. أحس بابِت بالأهمية من جديد، وبالحماسة أيضاً.

ـ 4 ـ

قام بشيء رائع مبهِج: طلب كيّ ثيابه في القطار! وفي الصباح، قبل نصف ساعة من وصولهم إلى مونارك، جاء الموظف إلى مقصورته وهمس: «ثمة مقصورة فارغة يا سيدي. وضعت بدلتك فيها». سار بابِت في الممر المفروش بسجادة خضراء مرتدياً معطفاً خريفياً بني اللون فوق بيجامته. ذهب يستمتع بالمجد في أول مقصورة خاصة في حياته. أشار الموظف إلى أنه يدرك أن بابِت معتاد على وجود خادم من الرجال: أمسك نهايتي بنطلون بابِت حتى لا يلمس القماش الجميل الأرض فيتسخ. ثم ملأ الحوض في الحمّام الخاص ووقف منتظراً حاملاً المنشفة.

كان الحمام الخاص رفاهية حقيقية. لكن، ومهما تكن مقصورة التدخين حيوية في الليل، فإنها تصبح شيئاً محبِطاً في الصباح... حتى بالنسبة لبابِت... تكون مزدحمة برجال بدناء في قمصانهم الداخلية الصوفية. وتكون أماكن تعليق الثياب كلها مليئة بقمصانهم القطنية، وأدوات الحلاقة الوسخة مكومة على المقعد الجلدي، وهواء الحجرة يثير الغثيان بكل ما فيه من روائح الصابون ومعجون الأسنان. لم يكن بابِت كثير الاهتمام

بخصوصيته عادةً، لكنه كان مستمتعاً بها الآن... مستمتعاً بوجود خادمه. هِزَّ مثل قط سعيد عندما أعطى الرجل بقشيشاً، دولاراً كاملاً ونصف الدولار!

نزل من القطار في مونارك آملاً أن يحظى ببعض الانتباه بثيابه المكوية حديثاً... وبالحَمّال المتفاني الذي تولى أمر حقيبته.

كان عليه أن يتقاسم الغرفة في فندق سيدغويك مع و. أ. روجرز، الرجل الذكي ذو المظهر الريفي الذي يعمل في تجارة الأراضي الزراعية في زينيث. حظيا بفطور عظيم معاً، إضافة إلى الكعك المُحلّى وإلى القهوة التي تناولاها في أكواب ضخمة، لا في فناجين صغيرة ضئيلة. أحس بابِت بالعظمة، وراح يحدّث روجرز عن فن الكتابة. أعطى العامل في ردهة الفندق ربع دولار لكي يأتيه بصحف الصباح. ثم أرسل بطاقة بريدية إلى تينكا: «يتمنى بابا لو كنتِ معه الآن حتى تتجوّلا معاً».

ـ 5 ـ

عُقدت اجتماعات المؤتمر في قاعة ضخمة في مبنى آلان هاوس. وفي غرفة خلفية كان مكتب رئيس اللجنة التنفيذية. كان هذا الرئيس أكثر الرجال انشغالاً في المؤتمر كله. كان منشغلاً إلى درجة جعلته لا ينجز شيئاً أبداً. جلس خلف طاولة خشب كبيرة في غرفة ملأتها أوراق كثيرة مكرمشة. وعلى امتداد اليوم كله، كان يأتيه مناصرو البلدات المختلفة، ومن يحشدون الآراء من أجل هذه القضية وتلك، وخطباء يريدون أن يتولوا قيادة المناقشات. كانوا يهمسون له جميعاً. أما هو فكان يبدو عليه الغموض ويقول بسرعة: «نعم، نعم، هذه فكرة جيدة. سنفعل هذا». ثم ينسى كل ما قالوه على الفور؛ ثم يشعل سيجاراً ثم ينساه أيضاً. كان الهاتف يرن من غير رحمة؛ وكان رجال من حوله يخاطبونه راجين: «قل لنا، يا سيادة الرئيس... قل لنا يا سيادة الرئيس!»... لكن أصواتهم لم تكن تبلغ أسماعه السامية.

وفي غرفة العرض انتشرت مخططات ضواحي سبارتا الجديدة، وصور لعاصمة الولاية الجديدة في غالوب دوفاش، وأكواز ضخمة من الذرة الصفراء مع لافتة تقول «ذهب الطبيعة من مقاطعة شيلبي، حديقة بلاد الرب».

كان المؤتمر الحقيقي مؤلَّفاً من رجال يتبادلون بعض الكلام في غرف الفندق أو في مجموعات منتشرة بين الجمهور المرصع بالشارات المختلفة في ردهة الفندق. لكن الجو كله كان يوحي باجتماع عام.

افتُتحت الجلسة الأولى بترحيب عمدة مونارك. وجاء قسّيس أول كنيسة مسيحية في مونارك: كان رجلاً ضخماً له خصلة شعر رطبة على جبهته. تولّى هذا الرجل إبلاغ الرب أن جماعة قطاع العقارات موجودين هنا الآن.

ثم قرأ الوسيط العقاري المحترم الجذاب، ميجور كارلتون توكي، ورقةً شجب فيها المخازن التعاونية. وقدم ويليام لاركين من بلدة أوريكا تنبؤات مطمئنة عن «الأفاق المحتملة لزيادة نشاطات البناء»، وذكّرهم بأن أسعار الزجاج قد انخفضت نقطتين.

وتواصلت أعمال المؤتمر.

حظي المندوبون بأنواع كثيرة من التسالي، من غير توقف. دَعَتهم غرفة تجارة مونارك إلى وليمة. وأقامت لهم جمعية الصناعيين حفل استقبال بعد الظهر جرى فيه توزيع أطواق من الأقحوان على السيدات، ومحافظ جَيْب جلدية على الرجال كان مكتوباً عليها «من مونارك، المركز العظيم لتجارة السيارات».

فتحت السيدة كروزبي نولتون، زوجة صاحب مصنع ليتوينغ للسيارات، حديقتها الإيطالية الشهيرة أمامهم، وقدَّمت لهم الشاي. تجوَّل ستمئة من الوكلاء العقاريين وزوجاتهم في تلك الممرات الخريفية. لعل ثلاثمئة منهم كانوا غير مرئيين في تلك الممرات؛ ولعل ثلاثمئة منهم قالوا متعجبين: «إنها بقعة جميلة، أوه!». ثم قطفوا خلسة آخر زهور الحديقة فدسّوها في جيوبهم، ثم حاولوا الاقتراب من السيدة نولتون إلى حد يسمح لهم بمصافحة يدها اللطيفة. ومن غير أن يطلب أحد منهم ذلك، اجتمع مندوبو زينيث (عدا رونتري) حول تمثال حورية مرمرية راقصة وراحوا يغنون: «ها نحن هنا... أبناء زينيث، مدينتنا النشطة».

تصادَفَ أن كان مندوبو بلدة بايونير جميعاً من أعضاء جمعية الوعول للأخوة والحماية: حملوا بيرقاً ضخماً كتبوا عليه «أحسن الناس على وجه الأرض ـ عاشت بايونير». ولم تتأخر بلدة غالوب دوفاش، عاصمة الولاية، عن غيرها! كان زعيم وفد تلك البلدة رجلاً ضخماً مدوَّراً أحمر؛ لكنه نشطٌ. خلع معطفه، وألقى بقبعته اللبادية الكبيرة السوداء أرضاً، ثم طوى أكمام قميصه وتسلق الساعة الشمسية الحجرية. ثم بصق وصاح:

«سوف نخبر العالم، والسيدة الطيبة التي استضافتنا هذا اليوم، أن غالوب دوفاش أجمل بلدة في ولاية الرجال هذه. لكم، يا فتيان، أن تتحدثوا عن نشاط مدنكم وحيويتها؛ لكن دعوني أهمس لكم أن في غالوب أكبر نسبة في الولاية كلها من المواطنين الذين يمتلكون بيوتهم. لا يشرع الناس في تنظيم الاضطرابات العمالية عندما يمتلكون بيوتهم. فهُم يهتمون بتربية أطفالهم بدلاً من المشاكل! غالوب دوفاش!... بلدة الناس الطيبين! البلدة التي تأكلهم أحياء! قولوا للعالم إذاً».

انصرف الضيوف؛ وحَلَّ الهدوء في الحديقة. لكن السيدة كروزبي نولتون تنهّدت عندما نظرت إلى مقعد حجري ما زال دافئاً بعد خمسمئة صيف قضاها في بلدة أمالفي

الإيطالية. على وجه تمثال أبي الهول المجنّح الذي حمل ذلك المقعد، كان أحدهم قد رسم شارباً بقلم من الفحم. كانت المناديل الورقية المكرمشة مكوَّمة بين زهور الأقحوان. وفي الممر، كانت منثورة بتلات آخر وردة جميلة... كأنها قطع لحم ممزق. كانت أعقاب السجائر تعوم في بركة الأسماك الذهبية وتنشر من حولها بقعاً وسخة مع تفتّتها. وتحت مقعد من المقاعد الرخامية، كانت شظايا فنجان شاي مكسور ملمومة معاً بكل عناية.

ـ 6 ـ

قال بابِت في نفسه، في طريق عودته إلى الفندق، «لو كانت ميرا هنا لاستمتعت بهذا العناء الاجتماعي كله». من ناحيته، لم يكن شديد الاهتمام بذلك الحفل في الحديقة، بل كان أكثر اهتماماً بجولات السيارات التي نظّمتها غرفة التجارة في مونارك. تفحَّص، من غير تعب، خزّانات المياه، ومحطات الترولي في الضواحي، ومدابغ الجلود. تلقّى الأرقام الإحصائية المقدَّمة له، وقال لزميله في غرفة الفندق السيد روجرز: «ليست هذه البلدة شيئاً بالمقارنة مع زينيث، بطبيعة الحال؛ ليس لديها المناظر الموجودة عندنا، ولا الموارد الطبيعية! لكن هل كنت تعرف... أنا لم أكن أعرف قبل اليوم... أنهم أنتجوا سبعمئة وثلاثًا وستين مليون قدم مكعّبة من الأخشاب في السنة الماضية؟ ما رأيك في هذا؟».

كان عصبياً متوتراً عندما اقترب موعد إلقاء كلمته. ولما وقف على المنصة المنخفضة قبالة المؤتمر راح يرتعِد ولم يرَ أمامه إلا غمامة أرجوانية. لكنه كان مصمِّماً عاقد العزم! وعندما أنهى كلمته الرسمية، راح يحدّث الجمهور واضعاً يديه في جيبيه. وبدا وجهه تحت النظارة أشبه بقرص لامع... مثل صحن واقف على حافته في ضوء مصباح. صاحوا: «هذا هو الكلام!»... وفي المناقشات التي تلت ذلك، كانوا يشيرون إليه معبّرين عن تأثّرهم ويقولون: «صديقنا وأخونا السيد جورج ف. بابِت». تحول بابِت، في ربع ساعة، من مندوب ثانوي إلى شخصية معروفة مثل دبلوماسي عالم الأعمال سيسيل رونتري... تقريباً! وبعد الاجتماع، قال له المندوبون من أنحاء الولاية كلها: «كيف حالك يا أخي بابِت؟» ... وخاطبه ستة عشر رجلاً غريباً تماماً عنه باسمه الأول من غير ألقاب. وأخذه ثلاثة رجال جانباً ليقولوا له: «يسعدنا كثيراً أنك جريء إلى حد جعلك تقف هنا وتعطي مهنتنا حَقَّها. نحن نقول دائماً...».

وفي الصباح التالي، بحركة اعتيادية إلى حد رهيب، طلب بابِت صحف زينيث من الفتاة في كشك الجرائد في الفندق. لم يرَ شيئاً في صحيفة «بريس»، لكنه شهق عندما فتح الصفحة الثالثة من إدفوكات تايمز. لقد طبعوا صورته مع مقالة امتدت على نصف عمود

في تلك الصفحة. كان العنوان «أنباء مثيرة من المؤتمر السنوي للوسطاء العقاريين. ج. ف. بابِت، الوسيط العقاري البارز في مدينتنا النشطة، يلقي كلمة جميلة هامّة».

تمتم بوقار: «أظن أن بعض الناس في فلورال هايتس سوف يلاحظون الآن، وسوف يهتمون بجورجي العجوز بعض الاهتمام!».

-7-

كان هذا آخر الاجتماعات. وكانت وفود مدن كثيرة تطرح عروضها لاستضافة المؤتمر في السنة التالية. كان الخطباء يعلنون أن «غالوب دوفاش، عاصمة الولاية، مدينة كلّية كريمر ومصانع أوفوولدتز للغزل، مركز معترَف به للثقافة والمشاريع رفيعة المستوى»؛ وأن «هامبورغ، المدينة الصغيرة العظيمة بموقعها، حيث الرجال كرماء كلهم، وحيث حبت السماء النساء بموهبة حسن الضيافة، تفتح بواباتها على مصاريعها لتستقبل ضيوفها».

وفي خضم هذه الدعوات المختلفة الخجولة بعض الشيء، انفتحت أبواب قاعة الاجتماع الذهبية، وصدحت الأبواق، ودخلت مسيرة استعراضية تشبه سيركاً. كان في هذه المسيرة وكلاء زينيث العقاريين مرتدين ملابس رعاة الأبقار وفرسان الخيول والبهلوانات اليابانية. كان على رأسهم وارن ويتبي الضخم مرتدياً جلد دب ومعطفاً ذهبياً قرمزياً ويحمل عصا قيادة فرقة موسيقية. ومن خلفه سار مهرِّج يقرع طبلاً صغيراً. كان المهرج كثير الضجيج، مبتهجاً، سعيداً إلى أقصى حدود السعادة... إنه جورج بابِت.

قفز وارن ويتبي إلى المنصة. لوَّح بعصاه مرحاً ثم قال: «أيها الأولاد والبناتات! الآن حان وقت الجد. إن ابن زينيث الحقيقي يحب جيرانه. لكننا صممنا على انتزاع هذا المؤتمر من المدن المجاورة مثلما انتزعنا صناعة الحليب المكثّف والعلب الورقية و...».

قال رئيس المؤتمر، ج. هاري بارمهيل: «نشكرك كثيراً يا سيد... آآ... لكن عليك أن تمنح بقية الأولاد فرصة طرح عروضهم الآن».

زعق صوت مثل بوق الضباب: «في يوريكا، نعِدكم بجولات مجّانية في السيارات عبر أجمل البقاع...».

جاء شاب نحيل أصلع راكضاً عبر الممر مصفقاً بيديه. صاح قائلاً: «إنني من سبارتا! أبرقت لي غرفة تجارتنا قائلة إنهم خصصوا ثمانية آلاف دولار نقداً من أجل فعاليات المؤتمر في السنة القادمة».

نهض رجل له مظهر موظف مسؤول فأعلن: «المال يتكلم! قبِلنا عرض سبارتا».

لقد قبلوا العرض!

- 8 -

كانت لجنة القرارات تقدِّم تقريرها. قالوا إن الرب القدير شمل برحمته الكريمة نحواً من ستة وثلاثين وكيلاً عقارياً في السنة الماضية فاختار أن ينقلهم إلى عالم أعلى. وقد قرر هذا المؤتمر، إلى جانب إعرابه عن أسفه وحزنه لفراقهم، أن يعطي تعليماته إلى أمانة السر، التي تشتغل على هذا الأمر الآن، بأن تثبت هذا القرار في المحضر وبأن تعزّي الأسر التي فقدتهم بإرسال نسخة من هذا القرار إلى كل أسرة.

سمح قرار ثانٍ لرئيس ساريب بإنفاق خمسة عشر ألف دولار على حشد الأصوات للعمل من أجل التوصل إلى إقرار إجراءات ضريبية عاقلة في الهيئة التشريعية في الولاية. وكان في هذا القرار كلام كثير عن الأخطار الواقعة على الأعمال السليمة، وكذلك على إزالة العصي من عجلات التقدم، تلك العصي الناجمة عن فساد الرأي وعن العقبات التي يضعها قصيرو النظر.

قدمت هيئة اللجان تقريرها. فوجئ بابِت عندما عرف أنه قد عُيّن عضواً في لجنة السجلات العقارية.

قال في نفسه فرحاً: «قلت إنها ستكون سنة عظيمة! قلت لك هذا يا جورجي، يا صاحبي القديم... قلت إن ثمة أشياء كبيرة تنتظرك! أنت خطيب بالفطرة، وأنت ناجح جداً... يا سلام!».

- 9 -

لم يكن من المقرر إقامة احتفال رسمي في الليلة الأخيرة. وكان بابِت يعتزم العودة إلى بيته. لكن جيرد ساسبرغرز من مدينة بايونير اقترح بعد الظهر أن يأتي بابِت وروجرز لتناول الشاي معهم في كاتالبا إن.

ما كانت حفلات الشاي شيئاً مجهولاً عند بابِت ـ كان يحضر مع زوجته، متحمّسين، دعوات شاي مرتين في السنة على الأقل ـ لكنها كانت الآن دعوة خارج الإطار المألوف! وهذا ما أشعره بالأهمية. جلس إلى طاولة لها سطح زجاجي في غرفة الاستقبال في كاتالبا إن. كانت الغرفة مزيّنة برسوم الأرانب وبشعارات مكتوبة على قطع من لحاء البتولا. كان مظهر النادلات فنياً بقبعاتهم الهولندية. تناول سندويشات صغيرة من الخس. وكان مرحاً شقياً مع السيدة ساسبرغرز التي كانت ناعمة كبيرة العينين كأنها مانوكان لعرض الفساتين. كان قد التقى السيد ساسبرغرز قبل يومين. وهكذا صار كل منهما يدعو الآخر باسمه الأول: «جورجي» و«ساسي».

قال ساسبرغرز بصوت خاشع: «قولوا لي، يا فتيان... قبل أن تذهبوا؛ وبما أن هذه

فرصتنا الأخيرة. إن عندي القليل من ... فوق، في غرفتي. كما أن زوجتي ميريام أفضل من يمزج الكوكتيل».

سار بابِت وروجرز، بانسيابية تامة، خلف الزوجين ساسبرغرز إلى غرفتهما. زعقت السيدة ساسبرغرز: «أوه! هذا فظيع!»، عندما رأت أنها نسيت قميصاً داخلياً بلون الخزامى ممدداً على السرير. أسرعت فدسّته في إحدى الحقائب، في حين قهقه بابِت ضاحكاً: «لا تهتمي بوجودنا... إننا مجرد اثنين من الشياطين الصغار!».

اتصل ساسبرغرز بخدمة الغرف طالباً بعض الثلج. قال العامل الشاب الذي جلبه: «أتريدون كؤوساً للنبيذ أم للكوكتيل؟»... قالها بطريقة اعتيادية من غير أن يسأله أحد شيئاً. مزجت ميريام ساسبرغرز الكوكتيل في واحد من تلك الأباريق البيض الكئيبة العارية التي لا يراها المرء إلا في الفنادق. وعندما انتهوا من الجولة الأولى، برهنت ميريام على أنها امرأة غير عادية: «أظن يا شباب أنكم تتحملون جولة أخرى - إن لديكم دفعة أخرى قادمة في الطريق إليكم»... كانت تعرف طقوس تناول الكوكتيل على أحسن وجه!

وعندما خرجا، قال بابِت لروجرز: «قل لي أيها الديك العجوز... يخطر في بالي أن علينا ألا نعود سريعاً إلى زوجاتنا المحبات. ما رأيك أن نبقى في مونارك ونقيم حفلة، هاه؟».

«جورج... أنت تنطق بلسان الحكمة وبُعد النظر. لقد سافرت زوجة آلبرت وينغ إلى بيتسبرغ. دعنا نسأله إن كان يستطيع الانضمام إلينا».

جلسوا في غرفتهم عند السابعة والنصف ومعهم آلبرت وينغ واثنان من مندوبي شمال الولاية أيضاً. خلعوا معاطفهم. وكانت صديرياتهم مفتوحة، ووجوههم حمرًا، وأصواتهم نشطة. كانوا على وشك إنهاء زجاجة من الويسكي المهرَّب الرديء. وكانوا يقولون لعامل الخدمة متوسلين: «قل لي يا بني... هل تستطيع أن تأتي لنا بمزيد من سائل التحنيط هذا؟». كانوا يدخّنون السيجار الضخم ويسقطون الرماد ويرمون الأعقاب على السجادة ويروون قصصاً مع قهقهات صاخبة. كانوا في الحقيقة ذكوراً في حالتهم الطبيعية السعيدة.

تنهد بابِت قائلاً: «لا أعرف رأيكم في هذا أيها المزعجون. لكني، من ناحيتي، أحب أن أنفلت قليَلاً من أجل التغيير... أريد أن أتسلق جبلَيْن وأن أذهب إلى القطب الشمالي وأن أنقل الشفق القطبي من مكانه».

غمغم رجل من سبارتا... شاب انفعالي جدي: «أقول لك! أظن أنني زوج جيد، على نحو عادي طبيعي تماماً! لكن... يا إلهي... تعبت كثيراً من الذهاب إلى البيت كل

مساء... تعبت من عدم رؤية أي شيء غير الأفلام. هذا ما يجعلني أخرج لأتدرَّب مع الحرس الوطني. أظن أن لديَّ ألطف زوجة في مدينتي، لكن... لا أدري! أتعرفون ما كنت أنوي فعله عندما كنت طفلاً؟ هل تعرفون؟ أردت أن أصبح كيميائياً شهيراً. هذا ما أردت. لكن أبي جعلني أبيع أدوات المطبخ. وها أنا ذا مستقر... مستقر إلى نهاية الحياة... لا فرصة عندي! أوه، من الذي بدأ هذا الحديث الجنائزي؟ ما رأيكم في جولة أخرى من الشراب؟ لن يسبب لنا أي ضرر!».

قال روجرز من قلبه: «أكيد... أوقفوا هذا البكاء! هل تعرفون يا شباب أنني مطرب القرية؟ هيا... غنوا معي:

«قال عرّاف عجوز لعرّاف شاب،
«لقد جففتُ يا صديقي العراف، إنني جاف تماماً»
قال العراف الشاب للعراف العجوز،
«وأنا أيضاً أيها العراف، وأنا أيضاً»»

-10-

تناولوا طعام العشاء في صالة الشواء الشرقية في فندق سيدغويك. ثم... في مكان ما، على نحو ما، التقوا رفيقين آخرين: واحد يصنع ورق اصطياد الذباب، والآخر طبيب أسنان. شربوا الويسكي جميعاً في فناجين الشاي. وكانوا جميعاً مرحين ساخرين، ولم يصغِ أحد منهم إلى ما قاله الآخرون، إلا عندما بدأ روجرز «يمازح» النادل الإيطالي.

قال له بوجه بريء: «اسمع يا جوزيبي! أريد زوجاً من آذان الفيلة المقلية».

«آسف يا سيدي! ليس لدينا شيء منها».

«هاه، كيف! ليس لديكم آذان فيلة مقلية!»... استدار روجرز صوب بابِت: «ماذا تعرف أنت عن هذا؟ يقول بيدرو إن آذان الفيلة قد نفدت كلها».

قال الرجل الذي من سبارتا مخفياً ضحكته بصعوبة: «لا بأس! سأغيّر طلبي».

تابع روجرز: «طيب... في تلك الحالة يا كارلو، هات لنا شريحة ضخمة من اللحم مع مئتي كيلوغرام من البطاطا الفرنسية المقلية، وبعض البازلاء أيضاً. أظن أنكم، هناك في إيطاليا المشمسة، تأتون بالبازلاء الطازجة من العلب مباشرة».

«لا يا سيدي! إن لدينا بازلاء ممتازة في إيطاليا».

«هل هذا صحيح يا جورجي؟ هل سمعت هذا؟ إنهم، في إيطاليا، يحصلون على البازلاء الطازجة من الحقل! شيء عجيب!... يعيش المرء ويتعلّم... أليس كذلك يا أنطونيو؟ نعم، يعيش المرء ويتعلم... إذا عاش وقتاً كافياً واستطاع أن يحافظ على قواه.

لا بأس يا غاريبالدي، هات شريحة اللحم نفسها مع صحن كبير من البطاطا المقلية الفرنسية... اجلبها إلى الشرفة! هل فهمت هذا يا ميشيلوفيتش أنغيلوني؟»

قال آلبرت وينغ متعجباً بعد ذلك: «رائع!... لقد حيَّرت ذلك المسكين تماماً. لم يستطع أن يفهم منك أي شيء!».

وجد بابِت إعلاناً في صحيفة مونارش هيرالد وقرأه بصوت مرتفع فصفّق الآخرون وضحكوا:

مسرح القرية القديمة

تعالوا لرؤية أجمل سرب من الفتيات الجميلات المستحمّات في برنامج المنوعات الذي يقدمه بيت مينوتي و(... أوه، اللعنة) ... وأطفاله!

هنا تجدون السحر الحقيقي! مجموعة بيني... مجموعة من العصافير التي لا تتعب أبداً... أفضل مجموعة رأتها هذه المدينة. هيا... تحرك الآن واحصل على بطاقتك، واجلب رفاقك معك إلى أجمل العروض. سوف تحصل على أكثر مما تدفعه مقابل حضور هذا المهرجان الرائع. ستحرص الأخوات كالروزا على إسعاد المتفرجين، وسيزول عنك ضجرك. ولدينا أيضاً جوك سيلبرستين صاحب النكات اللاذعة القادر على جعلك تضحك كثيراً. ثم لدينا جاكسون وويست أيضاً... إنهما يعرفان قصصاً مثيرة. وسوف يعزف بروفين وآدمز البلوز بطريقتهما الضاحكة. هذا شيء يستحق المشاهدة يا أصحاب. وستستمعون إلى زقزقة هيب بيرد.

قال بابِت: «يبدو هذا عرضاً مغرياً! فلنذهب إليه جميعاً!».

لكنهم أجّلوا الذهاب قدر ما استطاعوا. أحسوا أنهم آمنون طالما ظلوا جالسين عاقدين سيقانهم بإحكام تحت الطاولة؛ لكنهم شعروا بالترنح عند الوقوف وخافوا أن يمشوا على أرضية الصالة الزلقة تحت أعين بقية الحاضرين وتحت أعين العمال شديدي الملاحظة.

عندما غامروا بالحركة، اعترضت الطاولات طريقهم فحاولوا إخفاء حرجهم بالمزاح الثقيل في غرفة المعاطف. وعندما ناولتهم الفتاة قبّعاتهم، ابتسموا لها آملين أن تجدهم... بما أنها خبيرة في الحكم على الناس... سادة مهذبين حقيقيين. راحوا يتبادلون عبارات من قبيل... «لمن هذه القبعة ذات الحافة؟» و«خذ القبعة الجيدة يا جورج؛ وأنا آخذ ما تبقّى». ثم قالوا متلعثمين للفتاة الواقفة عند الباب لتوديع المنصرفين: «من الأفضل أن نذهب يا أختي! أمامنا ليلة رائعة طويلة!». وحاول كل منهم إعطاءها بقشيشاً قائلاً لأصحابه. «لا! انتظر! هاهنا! أنظر... نقودي جاهزة!» ... وبالنتيجة، أعطوها ثلاثة دولارات.

-11-

جلسوا مبتهجين يدخنون السيجار في مقصورة خاصة في برنامج المنوّعات الهزلي. كانت أقدامهم مستقرة مرفوعة على الحاجز المعدني في حين راحت عشرون امرأة كبيرة السن قلقة المظهر مدهونة بالأصباغ... نساء محترمات على نحو غامض يصعب تمييزه... يلوّحن بسيقانهن بطريقة بدائية؛ وراح كوميدي يهودي يلقي نكاتاً لاذعة تسخر من اليهود. صادفوا عند المدخل موفدين آخرين إلى المؤتمر. ثم انطلق عشرة منهم إلى «نزل الأزهار المتألّقة» حيث كانت تلك الأزهار مصنوعة من ورق مغبر. كانت تلك الأزهار الزينة الوحيدة في غرفة واطئة السقف كريهة الرائحة كأنها اصطبل للأبقار أسيء استخدامه.

كان الويسكي يقدَّم علناً في هذا المكان... يقدَّم في كؤوس. وكان في النزل اثنان أو ثلاثة من الموظفين الذين أحبوا أن يظهروا بمظهر أصحاب الملايين لأن تلك الليلة كانت ليلة قبض الرواتب. كانوا يرقصون خجلين مع عاملات الهاتف وفتيات تقليم الأظافر في الحيّز الضيق بين الطاولات. وكان اثنان من الراقصين المحترفين يدوران مثل زوبعة: شاب في ملابس سهرة أنيقة وفتاة رشيقة مجنونة في فستان حريري بلون الزمرّد ولها شعر كهرماني متطاير في كل اتجاه مثل ألسنة اللهب. حاول بابِت أن يراقصها. جرجر قدميه على الأرض... كان أكثر ضخامة من أن تستطيع الفتاة توجيه خطواته التي كانت خارجة تماماً عن إيقاع الموسيقى الصاخبة. كاد يقع لو لم تسنده بقوة مفاجئة. أحس أنه فقد السمع والبصر بسبب كحول زمن الحظر. ولم يستطع رؤية الطاولات، ولا الوجوه! لكنه كان في قمّة السعادة مع تلك الفتاة... مع دفئها اللدن الفتي.

وعندما أعادته إلى مجموعته، تذكر... من غير سبب مفهوم... أن جدته لأمه كانت اسكوتلندية. ألقى برأسه إلى الخلف مغمضاً عينيه فاتحاً فمه على اتساعه... منشداً بصوت بطيء أغنية «بحيرة لوش لوموند».

لكن نهاية تلك الرفقة الممتعة اللطيفة حانت عندما قال ذلك الرجل من سبارتا إن بابِت «مغنٍّ سيئ». تشاجر بابِت مع الرجل عشر دقائق بصوت مرتفع متقلقل مستاء، لكنه بطولي. ظلوا يطلبون كؤوس الشراب حتى أصر المدير على إفهامهم أن المحل قد أغلق. كان بابِت يشعر طيلة الوقت برغبة في مزيد من التسلية الوحشية. وعندما قال روجرز: «ما رأيكم في أن نذهب إلى آخر الخط، ونلقي نظرة على الفتيات؟».

وافقه بابِت مندفعاً. قبل أن يذهبوا، ضرب ثلاثة منهم ـ سِرّاً ـ مواعيد مع الفتاة الراقصة المحترفة التي قالت لكل منهم موافقة: «نعم، نعم، بالتأكيد يا عزيزي» ... ثم نسيتهم بمودة تامة.

عندما عادوا بالسيارة عابرين ضواحي مونارش، مارّين بشوارع فيها أكواخ العمال البنية الصغيرة عديمة الشكل كأنها زنازين، وعندما عبروا مناطق المستودعات التي بدت لهم في تلك الليلة المخمورة أرضاً شاسعة خطرة، وصلوا إلى الأنوار الحمر والموسيقى الصاخبة وإلى امرأة بدينة تلقي ابتسامات متكلّفة... أصيب بابِت بالذعر. رغب في القفز من السيارة لكن ناراً مظلمة كانت تجتاح جسده كله! قال في نفسه: «فات وقت الانسحاب الآن». كان يعرف أنه ما كان يريد الانسحاب فعلاً.

جرت معهم حادثة مضحكة كثيراً في طريقهم... هكذا رأوها! قال وسيط عقاري من ميناماغانتيك: «إن مونارش أكثر نشاطاً من زينيث. ليس لديكم يا أهل زينيث مطاعم مثل هذه». أجابه بابِت غاضباً: «هذه كذبة قذرة! لا شيء لا تستطيع العثور عليه في زينيث. صدّقني، لدينا بيوت أكثر ومقاهٍ أكثر للمشروبات، وحانات أكثر... من أي مدينة في هذه الولاية».

أدرك أنهم كانوا يسخرون منه. كانت لديه رغبة في القتال؛ ثم نسي الأمر كله مثلما كان يجري له في تجاربه العتيقة عندما كان لا يزال طالباً في الكلية.

وفي الصباح، عندما عاد إلى زينيث، كانت رغبته في التمرّد قد أشبعت جزئياً. عاد إلى مظهره الرضيّ، لكنه كان سريع الانزعاج. لم يبتسم عندما قال روجرز شاكياً: «آو... ما هذا الصداع؟ لقد حل غضب الله كله في رأسي هذا الصباح. اسمع! أعرف سبب هذا! لا بد أن أحدهم دسَّ بعض الكحول في شرابي الليلة الماضية».

لم تعرف أسرة بابِت شيئاً عن تفاصيل رحلته تلك؛ ولم يعرف بها أحد في زينيث إلا روجرز وويننغ. بل إنه لم يعترف بها رسمياً حتى لنفسه. وإذا كان لها أي عواقب، فهي غير ظاهرة بعد.

الفصل الرابع عشر

- 1 -

جرى في هذا الخريف تعيين السيد و. ج. هاردينغ، من ماريون في ولاية أوهايو، رئيساً للولايات المتحدة؛ لكن اهتمام زينيث بالانتخابات الوطنية كان أقل من اهتمامه بالانتخابات المحلية. وذلك أن سنيكا دوان، رغم كونه محامياً من خرّيجي جامعة الولاية، كان مرشَّحاً لمنصب عمدة زينيث. وكان يحظى بدعم ينذر بالخطر من جانب النقابات العمالية. وفي مواجهته، اتحد الديمقراطيون والجمهوريون خلف ترشيح لوكاس براوت، وهو صانع فَرشات له سِجِلّ ممتاز من الاستقامة. وكان من داعمي السيد براوت المصارف وغرفة التجارة والصحف المحترمة، وجورج بابِت أيضاً.

صار بابِت قائداً محلياً في فلورال هايتس. لكن منطقته كانت آمنة انتخابياً. كان الرجل توّاقاً إلى خوض معارك أكثر صعوبة. لقد منحته كلمته التي ألقاها في المؤتمر العقاري نقطة الانطلاق في الخطابة. وهكذا قررت اللجنة المركزية «الجمهورية - الديمقراطية» إرساله إلى الحي السابع وإلى منطقة جنوب زينيث لمخاطبة تجمعات صغيرة من العمال والموظفين والزوجات الحائرات بما يفعلنه بحق الاقتراع الذي نلنه حديثاً. حظي بابت بشهرة استمرت أسابيع كثيرة. ومن حين لآخر، كان مراسلو الصحف يحضرون واحداً من لقاءاته، فتشير العناوين (رغم أنها لم تكن عناوين كبيرة جداً) إلى أن جورج بابِت خاطب جمهوراً مهللاً هاتفاً في مكان ما، أو أن رجلاً بارزاً في عالم الأعمال فضح أكاذيب المرشح دوان. وذات مرة، كان في صحيفة إدفوكات تايمز، نسخة يوم الأحد، صورة لبابِت ومجموعة من رجال الأعمال البارزين وقد كتب تحتها «قادة المال والتجارة في زينيث ممن يدعمون براوت».

لقد استحق هذا المجد!

كان ممتازاً في حملته الانتخابية. كان لديه إيمان... وكان واثقاً من أن لينكولن نفسه،

لو كان حياً، سينشط انتخابياً لصالح السيد و. ج. هاردينغ... إلا إذا جاء إلى زينيث لينشط من أجل لوكاس براوت. لم يكن بابِت يشوّش الجمهور بالتفاصيل الدقيقة السخيفة: براوت يمثل الصناعة الشريفة المستقيمة، وسنيكا دوان يمثل الكسالى... ولكم الخيار بينهما! كان براوت، بمنكبيه العريضين وصوته القوي، شخصاً جيداً بشكل واضح... كان يحب الناس حقاً... ولو أن ظهور هذا الأمر كان شيئاً نادراً! إنه يحب العمال العاديين. ويريد أن تكون أجورهم جيدة... وأن يستطيعوا دفع أجور مرتفعة لمساكنهم ـ رغم أن عليهم، بطبيعة الحال، ألا يتدخلوا في أي شيء متعلق بالأرباح المعقولة التي يجنيها أصحاب الأسهم. وهكذا، قام بابِت بهذه المهمة النبيلة منتشياً باكتشافه أنه خطيب بالفطرة. كان ذا شعبية لدى الجمهور؛ وكان ينتقل من مكان إلى آخر في تلك الحملة الانتخابية، فذاع صيته لا في الحيين السابع والثامن فقط، بل حتى في بعض أجزاء الحي السادس عشر أيضاً.

ـ2ـ

كانت السيارة مزدحمة بهم. جاؤوا إلى صالة تورنفيرن في القسم الجنوبي من زينيث: بابِت، وزوجته، وفيرونا، وتيد، وكذلك بول وزيلا ريزلينغ. كانت الصالة واقعة فوق محل كبير لبيع المأكولات في شارع ضاجٍّ بأصوات عربات الترولي وروائح البصل والبنزين والأسماك المقلية. كان لدى الجميع الآن نظرة تقدير مختلفة تجاه بابِت... وكانت هذه النظرة موجودة عنده هو أيضاً.

قال بول: «لا أعرف كيف تستطيع المحافظة على هذا الاندفاع، وكيف تستطيع الخطابة ثلاث مرات في أمسية واحدة. أتمنى لو أن لي قوّتك». وقال تيد لفيرونا فرحاً: «إن أبانا يعرف بالتأكيد كيف يتعامل مع هؤلاء المتصلّبين، وكيف يقنعهم».

كان أمام الصالة رجال في قمصان سود من الساتان واقفيْن على الدرجات العريضة المؤدية إليها. كانت وجوههم مغسولة حديثاً، لكن مسحة من السخام كانت تلوح تحت أعينهم. كانوا واقفين هناك من غير عمل. شقت جماعة بابِت طريقها بأدب بين هؤلاء الرجال ودخلت إلى الصالة البيضاء التي انتصبت في صدرها منصّة عليها كرسي كبير مغلف بقماش أحمر ومذبح من خشب الصنوبر مطلي بلون أزرق مائي كذلك الذي يستخدمه السادة الكبار والملوك العظماء. كانت الصالة ملأى. وعندما عبر بابِت المجموعة الأولى من الناس الواقفين في آخر الصالة، سمع ذلك الثناء الثمين: «هذا هو!» هبط مدير الاجتماع سائراً عبر الممر قائلاً: «أهذا هو المتحدث؟ حسنًا يا سيد! آآ... فلنر... ذكّرني باسمك يا سيدي!».

وبعد هذا، غاص بابِت في بحر من الفصاحة:

«سيداتي وسادتي أهالي الحي السادس عشر! هنالك شخص لا يستطيع أن يكون معنا هذه الليلة... رجل أكثر شجاعة من أي شخص آخر في الميدان السياسي! أعني بهذا زعيمنا المحترم لوكاس براوت المدافع دائماً عن مدينة زينيث ومقاطعتها. وبما أنه غير موجود معنا، فأرجو أن تسمحوا لي بأن أخبركم بكل صدق وإخلاص وأمانة، بصفتي صديقاً وجاراً معتزاً بكم، بأنني أشارككم نعمة النشأة والعيش في مدينة زينيث العظيمة. اسمحوا لي أن أبيّن لكم كيف تبدو قضايا هذه الحملة الانتخابية الحاسمة في نظر شخص مستقيم من قطاع الأعمال... شخص أراد له الله أن يترعرع في الفقر وأن يعرف العمل اليدوي، ثم أتاح له القدر أن يجلس إلى مكتب، لكنه لم ينسَ أبداً ذلك الشعور... أن يستيقظ المرء في الخامسة والنصف صباحاً ويذهب إلى المصنع حاملاً وجبة طعامه معه... أن يصل إلى المصنع عندما تنطلق الصفارة في السابعة تماماً، إلا إذا أراد صاحب المصنع أن يختلس منا عشر دقائق حتى نبدأ العمل في وقت أبكر! (ضحك) وإذا أردت الآن أن أصل إلى القضايا الأساسية المهمة في هذه الحملة، فإن الخطيئة الكبرى التي يتبجح بها سنيكا دوان...».

أطلق بعض العمال صيحات معادية (كانوا عمالاً حَسودين... أكثرهم من الأجانب، يهود وسويديين وإيرلنديين وإيطاليين). لكن الرجال الأكبر سناً، والمرضى، والمهمومين، والنجارين، والميكانيكيين، هللوا جميعاً. وعندما وصل بابِت إلى طرفته الذكية عن لينكولن اغرورقت عيونهم بالدموع.

أسرع بابِت منشغلاً متواضعاً خارجاً من القاعة وسط تصفيق حار. وانطلق سريعاً إلى الجمهور الثالث الذي ينتظره في هذه الأمسية. قال لابنه: «تيد، من الأفضل أن تقود السيارة أنت. لقد تعبت بعض الشيء بعد هذا الخطاب. قل لي يا بول، كيف كان؟ هل استحوذت عليهم؟».

«طبعاً! رائع! إنك تتمتع بقدر كبير من الحيوية».

قالت السيدة بابِت مفتونة: «أوه! كان هذا عظيماً! شديد الوضوح... يشد الانتباه... يا لتلك الأفكار اللطيفة! عندما أسمعك تتكلم هنا، أدرك أنني لا أقدِّر مدى عمق تفكيرك وكم هو رائع ذلك الدماغ التي تحمله وتلك المفردات التي عندك. لا أقول إلا... كله... رائع». لكن فيرونا كانت مزعجة حقاً. سألته قائلة: «أبي! كيف تعرف أن الملكية العامة للمرافق، والأشياء الأخرى، شيء خاطئ دائماً؟».

قالت أمها معترضة: «روني! أظن أنك قادرة على إدراك أن أبيك متعب كثيراً بسبب هذه الكلمات التي يلقيها. ليس الوقت مناسباً لأن تتوقّعي منه أن يشرح لك هذه المواضيع

المعقدة. وأنا واثقة من أنه سيكون سعيداً بأن يشرحها لك بعد أن يرتاح. فلنكن هادئين كلنا الآن حتى نمنح بابا فرصة الاستعداد لكلمته التالية. فكّروا فقط! إنهم يجتمعون الآن في كنيسة ماكابي... ينتظروننا نحن!».

ـ3ـ

جرت الانتخابات، وفاز السيد لوكاس براوت وعالم الأعمال السليمة على السيد سينيكا دوان وجماعة الحكم الطبقي. لقد جرى إنقاذ زينيث مرة أخرى. حظي بابت بمواعيد كثيرة قليلة الأهمية لتوسيع أعماله في بعض الدوائر الفقيرة، لكنه كان يفضِّل أن يحصل على معلومات مسبقة عن الشوارع التي سيجري تعبيدها قريباً؛ وهذا ما قدمته الإدارة الجديدة له معترِفة بفضله. كما كان بابِت أيضاً واحداً من تسعة عشر متحدثاً في العشاء الذي أقامته غرفةَ التجارة احتفالاً بانتصار التوجّه الصحيح المستقيم.

صار معروفاً الآن بأنه خطيب جيد. وقد قدم الكلمة الرئيسية في مأدبة العشاء السنوية التي أقامها المجلس العقاري في زينيث. نقلت صحيفة إدفوكات تايمز كلمته كاملة، على غير عادتها.

«أقيمت ليلة أمسِ وليمة مفعَمة بالحياة فاقت كل وليمة سبقتها. جرى ذلك في «مهرجان لنَكُن معاً» السنوي الذي يقيمه مجلس العقارات في زينيث، وذلك في القاعة الفينيسية في فندق أوهيرن هاوس. وكما جرت العادة، لم يقصِّر المضيف جيل أوهيرن أبداً، بل كان فخوراً بأن يقدم للضيوف المجتمعين بهذه المناسبة أطباقاً لا يستطيع أيٍ مكان في غرب نيويورك أن يقدم مثلها. ثم قدم، بعد هذا الطعام الوافر، كأساً تذكّر بشراب التفاح المخمَّر من مزرعة تشاندلر موت، الرئيس الذكي الفعال في المجلس العقاري.

وبما أن السيد موت كان يعاني عدوى بسيطة أدت إلى إصابته بالتهاب الحلق، فقد ألقى السيد ج. فَ. بابِت الكلمة الرئيسية. وإضافة إلى حديثه عن قضية السجل العقاري، تحدث السيد بابِت أيضاً، بشكل جزئي، على النحو التالي:

عندما أقف هنا لأخاطِبكم، واضعاً في جيب قميصي الكلمة التي كتبتها على عجل، أتذكر تلك القصة عن الرجلين الإيرلنديين مايك وبات المسافرَين في عربة قطار. نسيت أن أقول إنهما جنديان في البحرية الأمريكية. كان مايك في السرير السفلي فسمع أصواتاً فظيعة قادمة من السرير العلوي. وعندما صاح بصاحبه يسأله عن المشكلة، أجابه بات: «أنا في السرير طبعاً، لكني لا أعرف كيف أنام هذه الليلة، على الإطلاق! أحاول منذ الساعة الثامنة أن أدخل في شبكة النوم المعلقة هذه!».

والآن، أيها السادة... أشعر بشيء مما شعر به بات عندما أجد نفسي واقفاً أمامكم هنا. لكنني أشعر أيضاً، بعد الكلمات الكثيرة التي ألقيتها في الآونة الأخيرة، أنني قادر على الدخول زاحفاً في شبكة النوم من غير صعوبة على الإطلاق!

يدهشني أيها السادة أننا نجتمع هنا، في هذه المناسبة السنوية، أصدقاء وخصوماً... نجتمع كلنا معاً ونضع أسلحتنا جانباً ونسمح لأمواج الصداقة الطيبة بأن تحملنا إلى ضفاف المحبة المزهرة. وحريٌّ بنا أن نقف كلنا معاً، عيناً لعين، وكتفاً لكتف، مواطنين في أفضل مدينة في العالم... وأن نفكر جميعاً في وضعنا، في وضع كل منا، وفي خيرنا المشترك.

صحيح أن زينيث، بسكانها البالغين 361000 ... أو 362000 على وجه الدقة... نحتل بموجب الإحصاء الأخير موقعنا بين أكبر المدن في الولايات المتحدة. لكننا، أيها السادة، إذا لم نحرز المركز العاشر في الإحصاء القادم، فسوف أكون أول من يطلب من أي شخص يقرع بابي أن يأخذ قميصي وأن يأكل طعامي... مع تحيات جورج ف. بابِت المحترم! قد يكون صحيحاً أن نيويورك وشيكاغو وفيلادلفيا سوف تظل أكبر من مدينتنا من حيث الحجم. لكن، إذا وضعنا هذه المدن الثلاث جانباً، وهي مدن تكبر بشكل فظيع إلى حد يجعل أي رجل محترم، أي رجل يحب زوجته وأولاده ويحب الخروج في بيئة ترضي الرب، ويحب أن يحيي جاره، وأن يصافحه، غير راغب في العيش فيها ـ دعوني أقول لكم الآن، في هذه اللحظة، إنني لا أقبل التخلي عن مشروع بناء جيد في زينيث مقابل منطقة برودواي بطولها وعرضها، أو مقابل ستيت ستريت! ... من الواضح لأي شخص لديه عقل يدرك الحقائق أن زينيث، بصرف النظر عن هذه المدن الثلاث، هي المثال الأفضل على الحياة الأمريكية وعلى أهم ازدهار يمكن العثور عليه في أي مكان في هذا العالم.

لا أقصد القول إننا كاملون. إن أمامنا أشياء كثيرة نفعلها في ما يتعلق ببناء طرق جديدة للسيارات، وذلك لأن أي شخص يكسب من أربعة آلاف إلى عشرة آلاف دولار في السنة ويملك سيارة وأسرة صغيرة في بيت صغير عند حافة المدينة هو، كما أرى، من يجعل عجلات التقدم متحركة إلى الأمام!

هذا النوع من الأشخاص هو الذي يحكم أمريكا اليوم. والحقيقة أنه النمط المثالي الذي يجب أن ينحو صوبه العالم كله إذا أردنا أن يكون كوكبنا الصغير العجوز هذا مكاناً لائقاً للعيش، مكاناً حسن التوازن، مسيحياً، ماضياً إلى المستقبل. إنني أجلس، من حين لآخر، فأتأمل روعة هذا المواطن الأمريكي الصلب المشحون بهذه الحماسة كلها.

مواطننا المثالي... أتخيله، أولاً وقبل كل شيء، إنساناً مشغولاً أكثر من كلب الصيد، إنساناً لا يضيّع وقتاً كثيراً في أحلام اليقظة ولا يمضي إلى جلسات الشاي الكسولة ولا يتدخل في أمور لا تعنيه، بل يضع جهده كله وحماسته كلها في متجره أو حرفته أو فنه. ثم يشعل سيجاراً جيداً في الليل ويذهب بالباص، أو يقود سيارته وينطلق إلى بيته. يجزّ العشب أمام البيت، أو يمارس بعض التمرينات الرياضية... ثم يصير مستعداً للعشاء. ثم يروي قصة لأولاده بعد العشاء، أو يأخذ أسرته إلى السينما، أو يلعب الورق، أو يقرأ صحيفة المساء أو فصلاً أو فصلين من قصص رعاة البقر إذا كان من محبّي الأدب. أو يطرق بابه جيرانه فيذهبون معاً لزيارة الأصدقاء أو يتحدثون عن شؤون يومهم. وبعدها يذهب سعيداً إلى فراشه بضمير نظيف مرتاح بعد أن قدَّم ما يستطيعه من مساهمة من أجل ازدهار مدينته وزيادة حسابه المصرفي الخاص.

وأما في السياسة والدين، فإن هذا المواطن العاقل أكثر الناس حكمة في الأرض كلها. وله في الفن أيضاً ذوق طبيعي أكيد يجعله يختار الأفضل، كل مرة. ما من بلد في العالم أكثر من الولايات المتحدة يستطيع المرء أن يعثر فيه على نسخ الأعمال الفنية القديمة واللوحات الشهيرة... على جدران الردهات، في البلاد كلها. ولا يملك أي بلد قدر ما عندنا من الأسطوانات... لا أقصد تسجيلات الرقص والتسجيلات الفكاهية وحدها، بل أفضل أنواع الأوبرا أيضاً، فيردي مثلاً... يؤدّيها أعلى مغنّي العالم أجراً.

في البلاد الأخرى يتركون الفن والأدب بين أيدي كثرة من المتشردين الصعاليك الذين يعيشون في غرف صغيرة يشربون الخمر ويأكلون السباغيتي. أما في أمريكا فمن الصعب التمييز بين كاتب أو رسام ناجح وبين أي رجل أعمال محترم. ويسعدني كثيراً، من ناحيتي، أن تكون لدى المرء تلك المهارة الفريدة، مهارة إضافة مادة جديرة بالقراءة إلى ما يكتبه... أن يكون الشخص قادراً على طرح ما يريد وعلى إظهار براعته في مجال الأدب بحيث يصبح قادراً على جني خمسين ألف دولار في السنة، وعلى مخالطة أكبر المديرين على قدم المساواة تماماً، وعلى امتلاك بيت كبير وسيارة جميلة مثلما يفعل أي واحد من قادة الصناعة! لكن، اسمحوا لي الآن... إن تقدير الإنسان العادي حق قدره، ذلك الإنسان الذي أصوّره هنا، هو ما يجعل ذلك كله ممكناً. ولكم أن تقدّروا هذا الإنسان العادي حق قدره، مثلما تقدرون الكتّاب أنفسهم.

أخيراً، وهذا أهم ما في الأمر، فإن مواطننا القياسي، حتى إذا كان عازباً... شخص محب للمرأة، مساند للحياة العائلية التي هي أساس حضارتنا، أولاً وأخيراً وفي كل وقت: إنها ما يميّزنا، أكثر من أي شيء آخر، عن أمم أوروبا المتفسّخة المتهاوية.

لم أتجوَّل في أوروبا ـ والحقيقة لا أعرف إن كنت مهتماً بتلك التجربة المريعة... فطالما أن لدينا مدننا الكبيرة وجبالنا التي نستطيع أن نذهب فنراها... هذا هو رأيي... لا بد طبعاً من وجود أشخاص كثيرين يشبهوننا خارج البلاد. والواقع أن شخصاً أعرفه، شخصاً من أفضل الروتاريين المتحمسين، امتدح كثيراً... مئة بالمئة... المهارات التي فاجأته في اسكوتلندا الجميلة، وفي أنحاء أخرى. لكن ثمة أحياناً شيء واحد يميزنا عن جيراننا الطيبين، أولئك النشطين في تلك البلاد، ألا وهو أنهم لا يزالون مستعدين لأن يقبلوا الكثير من المتكبّرين والصحافيين والسياسيين. أما رجل الأعمال الأمريكي الحديث فهو يعرف كيف يتحدث ويعبِّر عن نفسه، ويعرف كيف يوضح تماماً أنه عازم على المضيّ في العمل. ليس في حاجة إلى دعوة مثقف كبير يدفع له أجراً عندما يريد الإجابة على الانتقادات الخبيثة الموجَّهة إلى نمط حياتنا الناجح المتعقِّل. وليس غبياً مثل هؤلاء التجار المتخلّفين في أوروبا. إنه يعرف المفردات اللازمة، ولديه الأسلوب المناسب أيضاً.

أود، بكل تواضع، أن أقف هنا ممثلاً عن رجل الأعمال وأن أهمس بلطف: «ها هم الناس الذين لدينا! ها هي مواصفات المواطن الأمريكي القياسي! وها هو الجيل الجديد من الأمريكيين: رجال لهم شعر على صدورهم وابتسامات في عيونهم، رجال يُدخِلون الآلات إلى مكاتبهم. إننا لا نفاخر هنا ولا نتشدق بالكلام؛ لكننا نحب أنفسنا قبل كل شيء. أما إذا كنت لا تحبنا، فعليك أن تنتبه وأن تختبئ قبل أن يصيبك الإعصار!».

حاولت بطريقتي الخرقاء هذه أن أرسم صورة الرجل الحقيقي، ذلك الذي يمتلك الحماسة والاندفاع. ولأن في زينيث نسبة كبرى من هؤلاء الرجال، فإنني أراها المدينة الأكثر استقراراً... أعظم مدننا كلها! إن في نيويورك أيضاً آلاف الرجال الحقيقيين، لكنها مبتلاةٌ أيضاً بعدد لا يحصى من الأجانب. ومثلها شيكاغو وسان فرانسيسكو. أوه! إن لدينا مدناً ذهبية: ديترويت وكليفلاند بمصانعهما الشهيرة، وسينسيناتي بمصانعها الممتازة التي تنتج آلات الورش وأنواع الصابون، وصناعة الفولاذ في بيتسبرغ وبرمنغهام، ولدينا كانساس سيتي ومينيابوليس وأوماها، وكلها

تفتح بواباتها الواسعة لتحتضن حقول القمح الممتدة مثل المحيط، ثم لدينا ما لا يُحصى من المدن الشقيقة الرائعة أيضاً. تقول الإحصاءات إن لدينا ثماني وستين مدينة أمريكية ماجدة تضم الواحدة منها أكثر من مئة ألف إنسان! تقف هذه المدن كلها معاً من أجل القوة والنقاء، ومن أجل التصدي للأفكار الغريبة وللشيوعية ـ تقف أتلانتا مع هارفورد، وروتشستر مع دنفر، وميلووكي مع إنديانابوليس، ولوس أنجلوس مع سكرامنتو، وبورتلاند ومين، مع أوريغون. إن رجلاً طيباً نشيطاً من بلتيمور أو سياتل أو دولوس هو أخ شقيق لكل رجل مثله من بوفالو أو آكرون أو فورت وورث أو أوسكالوسا!

لكنها مدينتنا زينيث، هنا... أرض الرجال الحقيقيين والنساء الحقيقيات والأطفال المتألقين. مدينة تجد فيها أكبر نسبة من الأشخاص الطبيعيين. وهذا ما يجعلها في فئة متميزة، وحدها! هذا ما سيجعل التاريخ يذكر زينيث بأنها قادت مسيرة الحضارة المستمرة بعد أن تزول أساليب قتل الوقت القديمة إلى الأبد... عندما تحل روح المشروع المخلص الفعال في العالم كله.

آمل أن يأتي يوم يكف فيه الناس عن الاهتمام إلى هذا الحد بهؤلاء الحمقى الأوروبيين، العجائز المتخلفين، العفنين الذين يأكلهم القمل، فيقدِّرون روح زينيث الشهيرة حق قدرها، ويقدِّرون هذا التصميم المكافح النظيف على الفوز... التصميم الذي جعل من مدينتنا اللطيفة النشيطة مشهورة في كل زمان ومكان... بالحليب المكثَّف والورق المقوّى! صدّقوني، لقد تقدم العالم كثيراً بالمقارنة مع هذه البلدان البالية التي لم تعد تنتج شيئاً إلا ملمّع الأحذية والزخارف والمشروبات الكحولية. البلدان التي ليس فيها إلا حمّام واحد لكل مئة شخص، والتي لا تميِّز بين دفتر مدرسي ومصنَّف أنيق... لقد حان الوقت لأن يقف واحد من أهل زينيث فيرفع رأسه ويصرخ مطالباً بكشف الأوراق كلها!

أقول لكم إن زينيث وشقيقاتها من المدن تنتج الآن نمطاً جديداً من الحضارة. هنالك أوجه شبه كثيرة بين زينيث وتلك المدن الأخرى. وأنا سعيد بهذا! إنه النمط القياسي الموحَّد الرائع المتنامي المنطقي... للمحلات والمكاتب والشوارع والفنادق والملابس والصحف... في الولايات المتحدة كلها... هو ما يبيّن مقدار قوة هذا النوع الجديد من الحضارة... ومقدار ثباته واستمراره.

أحب دائماً أن أتذكّر قطعة شعرية كتبها تشام فرينك للصحف. إنه يتحدث فيها عن جولاته من أجل إلقاء المحاضرات. لا أشك في أنها معروفة لدى كثير منكم. لكن، إذا سمحتم لي، فسوف أغتنم الفرصة لقراءتها هنا. إنها واحدة من

تلك القصائد الكلاسيكية، مثل قصيدة «إذا» لكيبلينغ، أو قصيدة «الرجل الذي يستحق» لإيلا ويلر ويلكوكس. إنني أحملها دائماً في دفتر ملاحظاتي:

عندما أكون هناك، ماضياً على الطريق، شاعر خفيف الحمل يغني أغنية من القلب.

يمضغ التبغ ويمضي في الطريق
يتلقّى نصيبه من أشعة الشمس المشرقة اللطيفة
ويلقي كلماتٍ متفائلة وسخريات ونكاتاً قوية عندما يلتقي فلاناً وفلانًا
ألقيها في النوادي وأحسّ أنني لا أشبه الآخرين الحمقى
فيأتي الشيطان العجوز الخبيث المتذمّر على الدوام
يأتي ملوحاً بذيله ليقوم بألاعيبه الخبيثة
يجعل أفكاري خاطئة
يشدني من شعري إلى الخلف
يجعلني أكثر وحدة من كلب ذهب أصحابه وتركوه يوم الأحد
عندها، يا ربي، أفضّل ألا أكون محاضراً!
أفضل أن أتجول في سيارة جميلة، أن أدخن سيجاراً بخمسين سنتاً
لا أرغب في شيء أكثر من رغبتي في التجول هنا وهناك
رغبتي بسيطة... أريد أن أعود إلى بيتي، أن أتناول طعامي مع أشخاص يعرفون من أكون
لكني أتخلّص من غشاوة الوحدة هذه
أبحث عن أفضل فندق في أي مدينة كانت
في سان بول أو توليدو أو كانساس ستي
في واشنطن أو شينستادي
في لويزيانا أو آلبيني
يفاجئني دائماً أن أحس نفسي كأني في بيتي
ولو كان لي أن ألقي كلمة أمام فندق من فنادق الدرجة الأولى
أمام أناس يحبّون العمل، أو أمام أناس خارجين من السينما
إذا نظرت حولي وتساءلت: في أي مدينة أنا؟
أقسم أنني لا أستطيع إجابة السؤال!
كل من أراهم أشخاصًا رائعين يلبسون الجينز نفسه الذي نلبسه عندنا

تضع النساء الملكات كلهنّ تلك القبّعات اللطيفة الصغيرة على رؤوسهن
يقف الناس جميعاً هنا وهناك، متحدثين دائماً
أعرف عم يتحدثون بهذا المرح كله:
عن السيارات والسياسة والمواد ولاعبي البيسبول
الأشياء نفسها التي يتحدث عنها الناس في مدينتي
عندها، أدخل الفندق، أنظر من حولي وأقول: «حسنًا حسنًا!»
سأجد كشك الجرائد نفسه
المجلات نفسها والجرائد نفسها وبائع السكاكر نفسه
بل أنواع التبغ الشهيرة نفسها التي أجدها في بلدتي!
وعندما أرى تلك المجموعة البهيجة آتية لتناول الغداء... آتية كأنها ترقص
يجلسون إلى طاولات لطيفة ليأكلوا البطاطا المقلية
عندها أقف منتصب القامة وأقول:
«لم أغادر بلدتي أبداً!»
فيصرّون كلهم على أن أجلس معهم، إلى جانب شخص في بدلة بنية
أجلس على الكرسي خجِلاً، وأتمتم قائلاً له، مستعجلاً:
«مرحباً يا بيل! قل لي يا صديقي الطيب، ما وضع أسهمك في البورصة الآن؟»
ثم نخرج، رجلان صلبان، ونتحدث مثل نورَسَيْن يحلّقان
نتحدث عن الطقس، عن البيت، عن الزوجتين
نصبح أخوَيْن طيلة العمر!
اسمع يا صدَيقي الطيب: عندما يجعلك الشيطان اللعين تشعر بالغيرة من غيرك، من أخيك
فافعل مثلما فعلت أنا
لأنك لا تترك بيتك الجميل أبداً أينما ذهبت في هذه الولايات كلها.

نعم يا سيدي! تلك المدن شريكات حقيقيات لنا في لعبة الحياة النشطة العظمى. لكن علينا ألا نرتكب الأخطاء هنا! أزعم أن زينيث هي الشريك الأفضل والشريك الأسرع نموّاً ضمن هذه المجموعة كلها. لا أشك في أنكم لن تؤاخذوني إذا أوردت بعض الأرقام الإحصائية لأبرهن على ما أقول. وحتى إذا

كانت هذه الأرقام معروفة عند البعض منكم، فإن تكرار الكلام عن الازدهار يشبه تكرار الكلمات الطيبة التي في الكتاب المقدس، لا يمكن أبداً أن يكون شيئاً متعباً لآذان المتحمّسين الحقيقيين... مهما قيلت تلك القصة الجميلة، ومهما كُرِّرت! يعرف كل شخص لديه بعض الفهم أن زينيث تنتج من الحليب المكثف والقشدة المبخرة ومن الصناديق الورقية ومن تجهيزات الإنارة أكثر من أي مدينة أخرى في الولايات المتحدة، إن لم يكن أكثر من أي مدينة أخرى في العالم. لكن، لا يعرف الجميع أننا نحتل المركز الثاني في صناعة الزبدة المعلّبة، والمركز السادس في عالم المحرّكات والسيارات، والمركز الثالث تقريباً في صناعة الجبن ومعالجة الجلود ومواد العزل الخاصة بالسقوف وحبوب الإفطار وملابس العمل الموحَّدة!

لكن عَظَمَتنا ليست كامنة في هذا الازدهار وحده، بل هي كامنة أيضاً في تلك الروح العامة، في تلك المثالية المتطلعة إلى المستقبل وفي تلك الروح الأخوية التي ميزت زينيث منذ تأسيسها على أيدي الآباء. إن لدينا حقاً، بل إن لدينا واجباً أيضاً تجاه مدينتنا الجميلة... علينا أن نذيع هذه الحقائق كلها عن مدارسنا الثانوية المتميزة بنباتاتها الرائعة وبأفضل أنظمة التهوية في البلاد كلها؛ وعن فنادقنا ومصارفنا الجميلة الجديدة، وعن اللوحات والرخام المنحوت في ردهاتها؛ لدينا ثاني أعلى برج في البلاد، وثاني أكبر مبنى للأعمال في أي مدينة في هذه البلاد كلها. وعندما أضيف إلى هذا كله أن لدينا مسافات لا تجارى من الشوارع المعبَّدة، وعدداً لا يجارى من آلات تنظيف الحمّامات، وغير ذلك من علامات الحضارة؛ إن مكتباتنا ومتاحفنا مَرعيّة جيداً، وهي في مبانٍ فسيحة ملائمة؛ وأقول إن نظام الحدائق عندنا أفضل من أي مكان آخر بما فيه من ممرات جميلة محاطة بالعشب والأشجار والتماثيل... وكل هذا إشارة فقط إلى عَظَمة مدينة زينيث التي لا تعرف حدوداً!

لكني أفضل أن أترك أحسن الأخبار حتى النهاية. أذكّركم بأن لدينا في هذه المدينة سيارة لكل ستة مواطنين تقريباً. وهذا مؤشّر عَمَلي أكيد على مقدار التقدم والذكاء اللذين صارا مرادفَيْن لاسم مدينتنا زينيث!

لكن طريق الصالحين ليست مفروشة بالورود دائماً! عليَّ قبل الختام أن ألفت انتباهكم إلى مشكلة علينا أن نواجهها في هذه السنة القادمة. إن الخطر الأكبر الذي يهدد الحكومة الرشيدة لا يأتي من الاشتراكيين الذين يعلنون عن أنفسهم صراحة، بل من كثير من الجبناء المتخفّين... أولئك المدللون أصحاب الشعر الطويل الذين يدعون أنفسهم «ليبراليين» و«راديكاليين» و«غير متحزّبين» و«انتلجنسيا» ... والله

وحده يعرف بأي أسماء خَدّاعة أخرى يدعون أنفسهم أيضاً! يمثل المعلّمون وأساتذة الجامعة غير المسؤولين القسم الأسوأ من هذه العصابة كلها. يُخْجِلني القول إن ثمة الكثير منهم بين أعضاء الهيئة التدريسية في جامعة الولاية العظيمة. إن الجامعة هي رمز العلم عندي! أعتزّ بأن يُقال إنني خرّيج جامعي؛ لكن لدينا في الجامعة أساتذة يبدو أنهم يرون من واجبنا أن نضع مقاليد أمور الأمة في أيدي الأفّاقين النصّابين.

هؤلاء الأساتذة هم الأفاعي التي يتعيّن علينا أن نحبط عملها... هي وكل من كان على شاكلتها! إن رجل الأعمال الأمريكي كريمٌ إلى درجة تجعله يرتكاب الأخطاء. لكنه يطلب شيئاً واحداً من المعلّمين والمحاضرين والصحافيين: إذا كانوا يريدون أن ندفع لهم أجوراً طيبة، فإن عليهم أن يساعدونا من خلال الترويج للكفاءة وبثّ الحماسة من أجل الازدهار الوطني. أما عندما يتعلق الأمر بأولئك المتشدّقين... من يتصيّدون الأخطاء ويشيعون روح التشاؤم... أساتذة الجامعات الناقدين... دعوني أقول لكم إن من واجبنا، خلال هذه السنة الذهبية القادمة... أن نستعد لطرد هؤلاء التافهين. إنه واجب علينا مثلما نعتبر من واجبنا أن نبيع العقارات كلها وأن نجمع المال أيضاً.

قبل أن يحدث هذا، لن يفهم أبناؤنا وبناتنا أن المثل الرجولي الأمريكي، المثل الثقافي الأمريكي، ليس أن يجلس المرء متبطّلاً متكلّماً في توافه الأمور، في ما هو صحيح وما هو خاطئ... إن مثالنا هو الرجل العادي سليم البنية، الناجح، النشط، الذي يخاف الله، الذي ينتمي إلى كنيسة معروفة بتُقاها، الذي ينتمي إلى بوسترز أو روتاري أو كيواني، الذي ينتمي إلى جمعية الوعول أو الغزلان أو الرجال الحمر أو فرسان كولومبوس أو أي واحدة من تلك المنظمات الكثيرة التي تضم أشخاصاً طيبين مرحين مازحين ضاحكين مجدّين صلبين يساعد بعضهم بعضاً... أولئك الذين يمرحون من كل قلوبهم ويشتغلون من كل قلوبهم، أولئك الذين يردون على انتقادات الحمقى برفسة شديدة تعلّم التافهين المتذمّرين كيف يحترمون الرجل الحقيقي وكيف ينهضون واقفين لتحية العم سام، لتحية الولايات المتحدة الأمريكية».

-4-

كان أداء بابِت واعداً بأن يجعله خطيباً معترَفاً به على نطاق واسع. لقد تحدث أمام اجتماع غير رسمي لنادي الرجال في الكنيسة البريسبوريترية في تشاتام رود فروى قصصاً بلهجات الإيرلنديين واليهود والصينيين.

لكن ما من شيء أظهر بجلاء كم هو مواطن بارز بقدر ما فعلت محاضرته «حقائق عن سوق العقارات» التي ألقاها قبل بدء دورة تعليمية في «الأساليب المستخدمة في المبيعات» في (ي. م. س. أ.) في زينيث.

توسّعت صحيفة إدفوكات تايمز في الحديث عن هذه المحاضرة إلى درجة جعلت فيرجيل غانتش يقول لبابِت: «سوف تصبح واحداً من أهم المتحدثين في البلدة. يبدو لي أنني لا أستطيع أن أفتح جريدة واحدة من غير أن أجد كلاماً عن فَصَاحتك الشهيرة. ولا بد أن هذا كله سيجعل فرص الصفقات تتدفق إلى مكتبك. أحسنت صنعاً! استمر في هذا الاتجاه!».

قال بابِت خجلاً: «كفى! كفاك مزاحاً!»... لكنه سُرَّ كثيراً من هذا الثناء من غانتش، الذي كان متحدثاً بارعاً هو نفسه، فراح يسأل نفسه عما جعله، قبل عطلته، متشككاً في المَسَرّات الناجمة عن كون المرء مواطناً صلباً.

الفصل الخامس عشر

- 1 -

ما كانت مسيرته إلى المجد خالية من عثرات كارثية!

لم تأتِ الشهرة بالمزايا الاجتماعية التي استحقها بابِت. ولم توجَّه دعوة إلى أسرته من أجل الانضمام إلى نادي تاناواندا الريفي، ولا إلى الحفلات الراقصة التي يقيمها نادي الاتحاد.

كان بابِت يقول في نفسه منزعجاً: «لا أبالي أبداً بأولئك المتكبّرين؛ لكن زوجتي يمكن أن تحب أن تكون بين الحاضرين هناك». انتظر قلقاً دعوة العشاء الجامعية السنوية، أمسية من المودة الحارة تجمعه مع قادة المجتمع من أمثال المقاول المليونير تشارلز ماكيلفي، والصيرفي ماكس كروغر، وصاحب مصنع المعدات إيرفين تيت، ومهندس التصميم الداخلي الشهير آدلبرت دوبسون. كان صديقاً لهم من الناحية النظرية لأنه كان معهم في الكلية، وكذلك لأنهم كانوا يدعونه باسم «جورجي» عندما يصادفهم. لكنه ما كان يصادفهم كثيراً؛ ولم يدعُه إلى العشاء أحد منهم أبداً في بيوتهم في رويال ريدج (عشاء فيه شامبانيا، وفيه خادم لِتقديم الطعام).

كان يفكر فيهم طيلة الأسبوع الذي سبق العشاء الجامعي: «لا سبب يمنعنا من أن نكون أصدقاء حقيقيين الآن!».

- 2 -

على غرار المناسبات الأمريكية الحقيقية كلها، مناسبات التعبير الروحي عن العواطف الدافقة، كان عشاء رجال دفعة 1896 منظَّماً من ألفه إلى يائه. كانت لجنة تنظيم العشاء نشطة كأنها مؤسسة للمبيعات. وكانت ترسل لهم تذكيراً كل أسبوع:

تذكير رقم 3

صديقنا! هل ستكون حاضراً معنا في أروع وجبة للأصدقاء من خرّيجي جامعتنا الطيبة العظيمة؟ إن خريجي سنة 1908 يزدادون قوة، فهل نقبل نحن أن تهزمنا تلك الحفنة من التنّورات؟ هيا يا صاحبي! فليكن لقاؤنا حماسياً حقاً، ولنحتفل جميعاً بأجمل حفلة عشاء. مأكولات لذيذة، وكلمات حيوية قصيرة، وذكريات مشتركة عن أجمل أيام حياتنا وأسعدها.

أقيمت الوليمة في غرفة خاصة في نادي الاتحاد. كان النادي نفسه مبنى قاتم اللون كأنه ثلاثة بيوت قديمة مترفة اندمجت معاً. وكانت صالة المدخل أشبه بقبو لتخزين البطاطا. لكن بابِت، الذي استغنى الآن عن عَظَمة النادي الرياضي كلها، دخل المكان بشيء من الحَرَج. أومأ برأسه صوب البواب الذي كان زنجياً عجوزاً معتدّاً بنفسه يرتدي معطفاً طويلاً أزرق له أزرار نحاسية. ثم سار إلى القاعة محاولاً أن يبدو مثل أي عضو من أعضاء النادي.

جاء إلى العشاء ستون رجلاً. كانوا واقفين في الصالة جماعات صغيرة، وأفراداً! ازدحم بهم المصعد قبل أن يحتلّوا زوايا غرفة العشاء الخاصة. حاولوا أن يكونوا متحمسين ودودين. كان كل واحد منهم يبدو في عيون الآخرين مثلما كان أيام الكلية تماماً... كأنهم شباب صغار يمكن اعتبار شواربهم الحالية وصلعاتهم وكروشهم وتجاعيدهم مجرد تنكّر مَرِح وضعوه من أجل هذه المناسبة خصيصاً. وكانوا يتبادلون عبارات من قبيل «لم يتغير شكلك أبداً!»... وكانوا يقولون لمن لا يستطيعون تذكّره: «حسنًا الآن... ما أروع أن أراك من جديد يا صديقي. ماذا تفعل الآن... هل أنت مستمر في العمل نفسه؟».

وفي كل لحظة، كان أحد منهم يطلق هتافاً جماعياً أو يبدأ أغنية جامعية يشارك فيها البعض ثم تتراجع مشاركتهم فيخبو الغناء ويحل الصمت. ورغم تصميمهم على أن يكونوا ديمقراطيين حقيقيين، فقد انقسموا إلى مجموعتين اثنتين: المتأنقون في ملابس السهرة، والرجال غير المتأنقين. كان بابِت (متأنقاً إلى أقصى حد) يمضي من مجموعة إلى أخرى. ورغم أنه كان خارج هذا الإطار الاجتماعي كله، على نحو صريح واضح تقريباً، فقد بحث عن بول ريزلينغ أولاً. وجده وحيداً، أنيقاً، صامتاً.

تنهد بول قائلاً: «لا أحسن القيام بهذه المصافحات كلها... انظر، انظر من يقف هناك».

«كفاك الآن! عليك أن تسترخي وأن تختلط بالآخرين! هذه أفضل مجموعة من الفتيان في العالم! قل لي... تبدو متجهّماً كئيباً! ما الأمر؟».

«أوه... كالعادة! مشاجرة مع زيلا».

«هيا، هيا! دعنا نستمتع الآن وننسى مشكلاتنا».

جَرَّ بول معه ومضى صوب البقعة التي كان تشارلز ماكيلفي واقفاً فيها... مشعاً يدفئ معجبيه كأنه فرن.

كان ماكيلفي بطلِ دفعة 1896! لم يكن كابتن فريق كرة القدم ورامي مطرقة بارعاً فحسب، بل كان أيضاً مجادِلاً من الطراز الأول وجديراً بالحصول على ما كانت تعتبره جامعة الولاية منحة دراسية. ثم سار بعد ذلك سَيراً حسناً فاستولى على شركة الإنشاءات التي كانت ذات يوم لعائلة دودزوورث، أشهر العائلات الرائدة في زينيث. لقد أقام المباني الحكومية في الولاية، وناطحات السحاب، ومحطات القطارات. كان رجلاً عريض المنكبين ضخم الصدر، لكنه لم يكن مترهِّلاً كسولاً. كانت في عينيه مسحة من سخرية هادئة؛ وكان حديثه سريعاً كأنه سائل يجري فيخيف السياسيين ويشعر الصحافيين بالخطر. وفي حضوره، كان أكثر العلماء ذكاء، وأكثر الفنّانين حساسية، يشعر بالضعف والسذاجة، بل بشيء من قلة الشأن أيضاً! كان حلو المعشر، سواء عندما يمارس نفوذه على المشرّعين أو عندما يستأجر عملاء في صفوف العمال خاصة... كان قريباً محبباً للنفس، كريماً! وكان يبدو باروناً كأنه واحد من النبلاء في الأرستقراطية الأمريكية التي تتبلور الآن سريعاً. وما كان أقل شأناً إلا من تلك العائلات القديمة ذات المقام العالي. (تعتبر العائلة قديمة في زينيث إذا كانت مقيمة فيها منذ ما قبل 1840). كان صاحب سلطة ونفوذ واسعين لأن أي وازع لم يكن يستطيع أن يعترض طريقه... كان متحرراً من فضائل التقاليد البيوريتانية القديمة، ومن شرورها أيضاً.

كان ماكيلفي مَرِحاً مسالماً الآن في صحبة الصناعيين والصيارفة ومالكي الأراضي والمحامين والجراحين... أولئك الذين يذهبون إلى أوروبا ويخدمهم سائقون خاصون. حشر بابِت نفسه بينهم. كان معجَباً بابتسامة ماكيلفي قدرَ إعجابه بالمنافع الاجتماعية التي يمكن أن يسبغها عليه. كان يرى نفسه حامياً قوياً في علاقته بصديقه بول؛ أما مع ماكيلفي فقد وجد نفسه قليل الشأن شديد الإعجاب.

سمع ماكيلفي يقول للصيرفي ماكس كروغر: «نعم! سوف ندعم ترشيح السير جيرالد دوك». تحول حب بابِت الديمقراطي لألقاب النبالة إلى لذة لا حدود لها... «أنت تعرف يا ماكس أنه واحد من أقطاب صناعة الحديد في إنكلترا. ثريّ جداً... من هذا؟ مرحباً يا جورجي! قل لي يا ماكس... ألا يبدو جورج بابِت أكثر بدانة مني؟».

صاح مدير الوليمة: «اجلسوا جميعاً من فضلكم!».

قال بابِت لماكيلفي بطريقة عادية تماماً: «فلنجلس يا تشارلي!».

«نعم، فلنجلس! مرحباً يا بول! كيف حالك يا عازف الكمان؟ هل تفضِّل مكاناً بعينه للجلوس يا جورج؟ هيا، فلنتخذ أماكننا. هيا يا ماكس! جورجي، قرأت بعض الأشياء عن خطاباتك في الحملة الانتخابية. عمل ممتاز!».

بعد هذه الكلمات... صار بابِت مستعداً للّحاق به، حتى لاقتحام النار. كان شديد الانشغال خلال العشاء. وصار الآن يشجع بول متلعثماً ويخاطب ماكيلفي بعبارات من قبيل «سمعت أنك ستبني بعض الجسور في بروكلين!». صار يلاحظ الآن نظرات الحَسَد التي يلقيها عليه الفاشلون... أولئك الجالسون وحدهم في مجموعة بائسة المظهر... لاحظ كيف ينظرون إليه جالساً مع النبلاء مستمتعاً بصحبة ماكيلفي وماكس كروغر. كانا يتحدثان عن «رقصة الأدغال» التي زينت مونا دودزوورث بيتها بآلاف أزهار الأوركيد من أجلها. راحوا يتكلمون بألفة رائعة، ألفة عادية تماماً، عن عشاء في واشنطن التقى فيه ماكيلفي سيناتوراً وأميرة بلقانية وجنرالاً إنكليزياً. قال ماكيلفي إن اسم الأميرة «جيمي». وحرص على إخبارهم بأنه رقص معها.

كان بابِت مسحوراً. لكن جلال الموقف لم يدفعه إلى الصمت. صحيح أنهم لا يدعونه إلى العشاء عادة، إلا أنه معتاد مثلهم على الحديث مع رؤساء المصارف ورجال الكونغرس ونساء النوادي اللواتي يصاحبن الشعراء. كان الآن شخصاً لامعاً غزير المعارف... في صحبة ماكيلفي:

«قل لي يا تشارلي! هل تتذكر كيف استأجرنا، في السنة الأولى، عربة ذاهبة صوب البحر وانطلقنا حتى ريفر ديل... إلى ذلك العرض الكبير الذي كانت تقيمه السيدة براون؟ وهل تتذكر تصدّيك لذلك الشرطي المزعج الذي حاول إيقافنا؟ سرقنا لافتة محل كي الملابس ثم علّقناها على باب الأستاذ موريسون! يا ربي... كانت أياماً رائعة!

وافقه ماكيلفي... كانت أياماً رائعة!

كان بابِت قد وصل إلى فكرة مهمة «ليست الكتب التي تدرسها في الكلية هي الشيء المهم، بل الصداقات التي تقيمها»... عندما انطلق الرجال الجالسون إلى رأس الطاولة يغنون إحدى الأغنيات. قال مخاطباً ماكيلفي: «من العار حقاً... آآ... من العار أن نتباعد هكذا لأن... آآ... أشغالنا واقعة في مجالين مختلفين! أستمتع بالحديث عن أيامنا الجميلة السابقة. يجب أن تأتي مع السيدة ماكيلفي إلى العشاء عندنا ذات ليلة».

أجابه على نحو غامض: «نعم... في الواقع...».

«أحب أن نتبادل الحديث عن تنمية القطاع العقاري بالقرب من مستودعاتك في غرانتسفيل. وقد أستطيع تزويدك ببعض المعلومات عن هذا الأمر أو ذاك... ربما...».

قال ماكيلفي... على نحو أقل غموضاً بكثير: «رائع! يجب أن نتعشى معاً ذات ليلة يا جورجي. اتصل بي. وسوف يسعدني كثيراً أن تأتي مع زوجتك إلى بيتنا».

عند ذلك، صاح مدير الوليمة بصوت ضخم استثنائي... ذلك الصوت نفسه الذي جعلهم، منذ زمن بعيد، يهتفون تحية للمتمردين في أوهايو أو ميتشيغان أو إنديانا: «هيا... أيها الدببة الصغار! فلننشد نشيدنا القديم كلنا معاً!». أحس بابِت بأن الحياة لا يمكن أن تكون أجمل أو أحلى مما هي الآن... في صحبة صديقه بول ريزلينغ وصديقه ماكيلفي الذي أعاد اكتشافه حديثاً. راحوا ينشدون معاً: سلاح المعركة... احمل فأساً... فأساً قوية... احمل فأساً... من، من! إنها الجامعة! هووووو... رووووو!».

- 3 -

دعا آل بابِت آل ماكيلفي إلى العشاء، أوائل كانون الأول. لم يكتفِ آل ماكيلفي بقبول الدعوة، بل جاؤوا إليها فعلاً... بعد طلب تغيير الموعد مرة أو مرتين.

جرت في بيت آل بابِت مناقشات تفصيلية لكل ما يتعلق بالعشاء، من شراء زجاجة شامبانيا إلى كمية اللوز المَملَّح التي يجب وضعها أمام كل شخص. وقد اهتموا خاصة بمناقشة قضية المدعوّين الآخرين. ظل بابِت، إلى النهاية، مصراً على منح بول ريزلينغ فرصة التواجد مع آل ماكيلفي: «سوف يحب صديقي العزيز تشارلي وجود بول وفيرجيل غانتش أكثر من وجود ويلي صاحب الأغلاط الكثيرة». كان مصراً على هذا، لكن السيدة بابِت قاطعت ملاحظاته هذه قائلة: «نعم، ربما... أظن أنني سأحاول الحصول على بعض المَحار من نوع لاينهافن»... وعندما صارت مستعدة تماماً، وجهت الدعوة إلى طبيب العيون الدكتور ج. ت. آنغوس، وإلى محامٍ كئيب بعض الشيء اسمه ماكسويل، برفقة زوجتيهما المتألقتين... بطبيعة الحال!

لم يكن آنغوس، ولا ماكسويل، من أعضاء جمعية الوعول ولا من أعضاء النادي الرياضي. ولم يكن أي منهما قد خاطب بابِت سابقاً بكلمة «أخي» أو طلب منه نصيحة في ما يتعلق بالسيارات. كان «البشريون» الوحيدون الذين دعتهم... هكذا قال بابِت غاضباً... آل ليتلفيلد: يصبح هاورد ليتلفيد بعض الأحيان مولعاً بالإحصاءات إلى درجة تجعل بابِت يحن إلى مزحة غانتش: «والآن يا صاحب الوجه الذي يشبه فطيرة الليمون... ما هي الكلمة الصحيحة؟».

فور انتهائهم من الغداء، بدأت السيدة بابِت إعداد الطاولة استعداداً لعشاء آل ماكيلفي عند الساعة السابعة والنصف. وصار بابِت مستعداً للعمل، كالعادة. لكنهم لم يجدوا له شيئاً يفعله. زعقت السيدة بابِت ثلاث مرات: «لا تقف في طريقنا من فضلك!».

وقف عند باب المرأب... متهدّل الشفتين... تمنى قدوم ليتلفيلد أو سام دوبلبراو أو أحد ما، لكي يتحدث معه. رأى ابنه تيد ينظر إليه واقفاً عند زاوية البيت.

سأل بابِت: «ما الأمر يا ولدي؟».

«هل هذا أنت؟ أوه... إن أمي متحمسة حقاً! قلت لها إننا، روني وأنا، لن نكون معكم على العشاء، فضربتني. وقالت إن علي أن أستحمَّ أيضاً! لكن... يجب أن يظهر رجال آل بابِت في أحسن صورة اليوم! يجب أن نتأنق!».

«رجال بابِت!» ... أحبَّ بابِت هذه العبارة. أحاط كتفَي ابنه بذراعه. وتمنى لو أن عند بول ريزلينغ ابنة حتى تكون زوجة لتيد. قال له: «نعم!... إن أمك مشغولة جداً... وهي قلقة أيضاً». ضحكا معاً ثم تنهدا معاً، ثم ذهبا لارتداء ملابسهما كما ينبغي.

لم يتأخر آل ماكيلفي أكثر من خمس عشرة دقيقة.

تمنى بابِت أن يرى دوبلبراو سيارة ماكيلفي الفاخرة، وأن يرى سائقها في ملابسه الرسمية منتظِراً أمامها.

كان الطعام لذيذاً... وافراً إلى حد لا يصدق! وكانت السيدة بابِت قد أخرجت الشمعدانات الفضة التي ورثتها عن جدتها. أما بابِت فقد بذل كل جهده. كان لطيفاً طيباً. لم يقل أي نكتة من النكات التي أراد قولها. أصغى إلى ما قاله الآخرون. وجعل ماكسويل يبدأ حديثاً شيقاً عندما قاله له: «فلنستمع إليك تحدثنا عن رحلتك إلى يلو ستون». كان لطيفاً مسايراً... في غاية اللطف والمسايرة. وقد وجد فرصة ليشير إلى أن الدكتور آنغوس محسن للإنسانية، وأن ماكسويل وهاورد ليتلفيلد عالمان متعمّقان، وأن تشارلز ماكيلفي مثال يستلهمه الشباب الطموح، وأن السيدة ماكيلفي زينة الدوائر الاجتماعية في زينيث وواشنطن ونيويورك وباريس، وأماكن كثيرة غيرها.

لكنه لم يستطع تحريكهم! كان العشاء من غير روح. لم يستطع بابِت معرفة السبب الذي جعل جواً من الثقل يخيم عليهم جميعاً ويجعلهم يتكلمون بمشقّة، من غير رغبة.

«ركز جهوده على لوسيل ماكيلفي حريصاً على عدم النظر إلى كتفها الجميل الأبيض وإلى الوشاح البني الفاتح الملتف على كتفها الآخر حاملاً فستانها.

قال محاولاً دعوتها إلى الكلام: «أظن أنك ذاهبة إلى أوروبا في وقت قريب، أليس كذلك؟».

«أود كثيراً أن أذهب إلى روما بضعة أسابيع».

«أظن أنك ترين هناك لوحات وتحَفاً كثيرة، وتستمعين إلى الموسيقى، وكل شيء هناك».

«لا! ما أذهب من أجله حقاً هو أن لديهم منطقة صغيرة عند فيا ديلا سكروفا حيث تستطيع تناول أفضل فيتوتشيني في العالم».

«أوه! إنني... نعم. لا بد أنها شيء لذيذ... بالطبع».

قبل العاشرة بربع ساعة اكتشف ماكيلفي، بأسف شديد، أن صداعاً أصاب زوجته. قال من غير كبير اهتمام عندما كان بابِت يساعده في ارتداء معطفه: «يجب أن نتناول الغداء معاً في وقت ما، وأن نتحدث عن أيامنا الجميلة القديمة». وعندما انصرف الآخرون، في العاشرة والنصف، استدار بابِت إلى زوجته قائلاً بنبرة متوسلة: «قالت تشارلي إنه أمضى لدينا وقتاً رائعاً وإن علينا أن نتناول الغداء... قال إنهم يريدون دعوتنا إلى العشاء في بيتهم في وقت قريب».

قالت: «أوه! كانت هذه واحدة من تلك الأمسيات الهادئة التي هي أكثر متعة بكثير من الحفلات الصاخبة حيث يتكلم الجميع كلهم معاً ولا يعرفون كيف يستمتعون بهدوء».

لكنه، سمعها، من سريره النقال في شرفة النوم، تبكي... بكاءً بطيئاً... قانطاً.

- 4 -

واصلا متابعة الصفحات الاجتماعية في الصحف شهراً كاملاً ظلّا خلاله منتظرَين دعوتهما إلى العشاء.

بما أن آل ماكيلفي استضافوا السير جيرالد دوك، فقد ظلا يحتلان عناوين الصحف أسبوعاً كاملاً بعد العشاء في منزل بابِت. استقبلت زينيث السير جيرالد استقبالاً حاراً (كان آتياً إلى أمريكا لشراء الفحم). أجرت معه الصحف مقابلات كثيرة عن منع الخمور، وإيرلندا، والبطالة، والملاحة البحرية، وأسعار الصرف، وشرب الشاي بالمقارنة مع شرب الويسكي، وعلم نفس المرأة الأمريكية، والحياة اليومية لدى الأسرة الإنكليزية. بدا من هذه المقابلات أن السير جيرالد قد سمع بكل هذه المواضيع. أقام له آل ماكيلفي حفل عشاء سنهالي. وبلغت الآنسة إلينورا بيرل بيتس، محررة الشؤون الاجتماعية في إدفوكات تايمز، قمة الوصف الفني عندما تحدثت عن هذا العشاء. قرأ بابِت مقالتها بصوت مرتفع على طاولة الإفطار:

«وسط تزيينات شرقية أصيلة، ومأكولات لذيذة غريبة، وشخصيات المدعوّين المتميزة، وسحر المضيفة والمضيف، لم ترَ زينيث من قبل شيئاً أكثر غنى من هذا العشاء السيلاني الراقص الذي أقامه الليلة الماضية السيد والسيدة ماكيلفي على شرف السير جيرالد دوك. أظن أننا حظينا... نحن من ابتسم الحظ لنا... برؤية هذا المشهد الذي يشبه الحكايات، الذي لا يمكن أن يرى المرء شيئاً يضاهيه لا في مونت كارلو

ولا في أرقى العواصم الأجنبية. نعم، لا يمكن أن يوجد شيء أروع منه. ليس من غير سبب أن صارت زينيث، في الأمور الاجتماعية، معروفة سريعاً بأنها أرفع المدن ذوقاً في هذه البلاد.

إن زيارة اللورد دوك تمنح مدينتنا الجميلة (رغم أن تواضعه لا يسمح له أن يعترف بذلك) اعترافاً لم تحظ به منذ زيارة إيرل سيتنغ بورن التي لا تُنسى. وذلك أن اللورد دوك ليس واحداً من نبلاء بريطانيا فحسب، بل هو أيضاً... كما يقال... قائد من قادة الصناعات المعدنية البريطانية. وبما أنه قادم من نوتنغهام، التي كان روبن هود يتردد إليها كثيراً (مع أن اللورد دوك أخبرنا أنها الآن مدينة حديثة يسكنها 275573 نسمة، وأنها مركز مهم لصناعة الأقمشة الفاخرة، ولصناعات أخرى أيضاً)، فلنا أن نتخيل أن في عروق اللورد دوك دم يجمع خصائص الدم الرجولي الأحمر والدم الأزرق الممتاز... ذلك الدم عينه الذي كان يجري في عروق سيد الغابة الخضراء روبن هود.

لم تكن السيدة ماكيلفي الحلوة في أي يوم أكثر سحراً مما كانت عليه الليلة الماضية بثوبها الأسود الذي زيّنته أشرطة أنيقة من الفضة، وبخصرها الفاتن المزيَّن بأزهار من الحجارة الكريمة».

قال بابِت بجرأة: «آمل ألا يدعونا إلى لقاء هذا اللورد دوك. أفضِّل كثيراً عشاء صغيراً هادئاً مع تشارلي وزوجته».

نوقش الموضوع مناقشة مستفيضة في نادي زينيث الرياضي. قال سيدني فينكلشتاين: «أظن أن علينا أن نطلق على ماكيلفي اسم مَصّاص الدماء «اللورد تشاز»».

قال صاحب المعلومات الغزيرة هاورد ليتلفيلد: «لقد تجاوز الأمر كل حد! عجيب كم يكون صعباً على بعض الناس أن يقولوا الأشياء على الوجه الصحيح. إنهم يدعون هذا الرجل هنا «اللورد دوك»، بينما يجب أن يقولوا «السير جيرالد»».

قال بابِت متعجباً: «هل هذا صحيح؟ طيب، طيب! «سير جيرالد»، أليس كذلك؟ أهكذا يجب أن يكون؟ نعم يا سيدي... يسعدني أن أعرف هذا».

وفي وقت لاحق، قال بابِت لموظف المبيعات عنده: «مضحك حقاً كيف يطلق الناس الأسماء على المشاهير الأجانب، لمجرد أنهم حصلوا على مكسَب منهم... ليست لديهم فكرة أكثر مما لدى الأرنب عن كيفية مخاطبتهم بحيث يجعلونهم يشعرون أنهم في بيوتهم!».

عندما كان يقود السيارة إلى بيته في تلك الليلة، صادف سيارة ماكيلفي ورأى فيها السير جيرالد: رجل إنكليزي ألماني الشكل، ضخم، متورِّد، جاحظ العينين، أعطاه تهدل شاربيه الأصفرين مظهراً حزيناً مريباً. تابع بابِت قيادة السيارة ببطء وقد أحبطه

الأمر. أحس فجأة، من غير تفسير، بتلك القناعة المخيفة: كان آل ماكيلفي يسخرون منه تلك الليلة.

غطى على خيبته بأن ألقى على مسامع زوجته الكلمات العنيفة التالية: «إن الناس المهتمين بالأعمال حقاً ليس لديهم وقت يهدرونه على أشخاص من نوع آل ماكيلفي. ليست هذه الأمور الاجتماعية إلا نوعاً من الهوايات. إذا كرَّستِ جهدك له، فإنك تتقدمين فيه. لكنني أحب أن أذهب في زيارة معك ومع الأولاد بدلاً من هذه الملاحقة الغبية كلها».

لم يعودا إلى حديث آل ماكيلفي بعد ذلك.

-5-

أمر مخجل أن يضطر المرء إلى التفكير في آل أوفربروك، في هذا الوقت العصيب!

كان إد أوفربروك واحداً من زملاء دراسة بابِت. لكنه شخص فاشل! لديه عائلة ضخمة ومكتب بائس للتأمين في ضاحية دورتشستر. كان رجلاً عادياً رمادياً نحيلاً عديم الأهمية. كان دائماً رمادياً نحيلاً عديم الأهمية! كان ذلك هو الشخص الذي تنسى تقديمه إلى الآخرين، في أي مجموعة، ثم تتذكره فتقدِّمه بحماسة زائدة. كان مسروراً بزمالة بابِت في الكلية. وكان أيضاً معجَباً بقوته في الأعمال العقارية، وببيته الجميل وثيابه الرائعة. وكان هذا مما يسر بابِت، لكنه كان أيضاً يزعجه بعض الشيء نتيجة الإحساس بالمسؤولية الناجم عنه. رأى بابِت المسكين أوفربروك في العشاء الجامعي مرتدياً بدلة المكتب المتينة الزرقاء اللامعة... كان منزوياً في زاوية مع ثلاثة من الفاشلين الآخرين. ذهب بابِت إليه وخاطبه بمودة: «ماذا؟ مرحباً أيها الشاب إد! سمعت أنك تحرر إيصالات التأمين كلها في دورتشستر الآن. عمل ممتاز!».

راحا يتذكران الأيام الطيبة، أيام الدراسة، حين كان أوفربروك يكتب الشعر. لكن أوفربروك أحرجه عندما قال: «اسمع يا جورجي! أكره أن أفكر كيف ابتعدنا هكذا. أتمنى أن تأتي مع السيدة بابِت إلى العشاء عندنا ذات ليلة». قال بابِت مبتسماً: «ممتاز! بالتأكيد! اتصل بي. أنا وزوجتي نحب أن ندعوكم إلى بيتنا أيضاً». ثم نسي الأمر كله. لكن المؤسف أن إد أوفربروك لم ينسه. اتصل ببابِت عدة مرات داعياً إياه إلى العشاء. قال بابِت لزوجته شاكياً: «قد يكون علينا الذهاب إليهم حتى نستطيع أن ننتهي من هذا الأمر. لكن، ألا تدهشك فعلاً كيف تجهل هذه السمكة المسكينة أبسط مقتضيات اللياقة الاجتماعية؟ انظري كيف يتصل بي هاتفياً بدلاً من أن تجلس زوجته وتكتب لنا دعوة كما يفعل الناس! حسن... أظن أننا علِقنا! هذه هي مشكلة العلاقات مع التافهين الذين كانوا معي في الكلية».

قبلا دعوة أوفربروك الملهوفة التالية. تحدد الموعد بعد أسبوعين. لا يبدو موعد عشاء بعد أسبوعين، حتى إذا كان عشاء عائلياً، أمراً مخيفاً كثيراً لأن الأسبوعين ينقضيان سريعاً ثم تأتي اللحظة الكئيبة. اضطرا إلى تغيير الموعد بسبب عشاء آل ماكيلفي. لكنهما ذهبا بالسيارة، متجهّمين، إلى بيت آل أوفربروك في دورتشستر.

كان الأمر بائساً منذ البداية. كان آل أوفربروك يتناولون العشاء في السادسة والنصف؛ في حين أن آل بابِت لا يتعشون أبداً قبل السابعة. سمح بابِت لنفسه بأن يتأخر عشر دقائق. وقد أبلغ زوجته بخطته: «فلنجعل زيارتنا قصيرة إلى أقصى حد ممكن. أظن أننا سنمل سريعاً. وسوف أقول إن لدي موعداً غداً صباحاً في المكتب، في وقت أبكر من المعتاد».

كان بيت أوفربروك تعيساً يسبب القنوط. كان في الطابق الثاني من منزل خشبي تسكنه أسرتان: مكان فيه عربات أطفال وقبّعات قديمة معلقة في الصالة ورائحة ملفوف وإنجيل عائلي موضوع على طاولة الردهة. كان إد أوفربروك وزوجته أخرَقَين مبتذلَيْن، كالعادة! أما الضيوف الآخرون فكانوا أسرتان مخيفتان... نسي بابت أسماءهم، ولم يكن راغباً في تذكرها أصلاً. لكنه تأثر وارتبك قليلاً عندما راح أوفربروك يكيل له المديح على نحو مفتقر إلى اللباقة: «إننا معتزّون حقاً بأن يكون صديقنا القديم جورج معنا هذه الليلة! لقد قرأنا جميعاً في الصحف، بالطبع، عن كلماته وخطبه... وهو حسن المظهر أيضاً، أليس كذلك؟ ... لكن أيامنا في الكلية هي ما أفكر فيه دائماً... كم كان شاباً لطيف المعشر يجيد الاختلاط مع الآخرين... وكان من أفضل السبّاحين في الصف أيضاً».

حاول بابِت إظهار المرح والنشاط. بذل جهداً في هذا!... لكنه لم يستطع العثور على شيء يثير اهتمامه في سلوك أوفربروك الجبان وفي بَلادة الضيوف الآخرين، أو في تلك البلاهة الجافّة لدى السيدة أوفربروك، ونظارتها، وجلدها الأسمر، وشعرها المشدود إلى الخلف. قص عليهم قصته الإيرلندية المفضلة، لكنها مضت من غير أثر. ثم جاءت أسوأ لحظة عندما أطلت السيدة أوفربروك من ضبابها الكثيف، ضباب رعاية ثمانية أطفال، والطبخ لهم، والتنظيف أيضاً، وحاولت أن تشارك في الحديث.

قالت تحث بابِت على الكلام: «أظن أنك تذهب كثيراً إلى شيكاغو ونيويورك يا سيد بابِت!».

«نعم... أذهب إلى شيكاغو كثيراً».

«لا بد أن فيها أشياء كثيرة تثير الاهتمام. أظن أنك تذهب إلى مسارحها كلها».

«إذا أردت الحقيقة يا سيدة أوفربروك، فإن أكثر ما يعجبني فيها هو ذلك الإفطار العظيم الذي يقدمونه في المطعم الهولندي في فندق لوب!».

ما عاد لديهم شيء يقولونه! كان بابِت آسفاً. لكن الأمل كان معدوماً: كانت دعوة العشاء فاشلة! وعند العاشرة، خرج بابِت من خَدَر الكلام الذي لا معنى له وقال بأقصى قدر استطاعه من الابتهاج: «أظن أن علينا الذهاب يا إد. سيأتي شخص ليراني في المكتب غداً صباحاً... في وقت مبكر». وبينما كان أوفربروك يساعده في ارتداء معطفه، قال بابِت: «لطيف أن نتذكر أيامنا القديمة! يجب أن نتناول الغداء معاً في أقرب وقت ممكن».

وعندما كانا في السيارة عائدين إلى البيت تنهدت السيدة بابِت وقالت: «كان الأمر مريعاً. لكن، السيد أوفربروك... ما أكبر إعجابه بك!».

«صحيح... هذا المسكين... يبدو أنه يظنني ملّاكاً غنياً... ولعله يظنني أفضل الرجال مظهراً في زينيث».

«لست كذلك بالتأكيد... أوه، جورجي، لا أظنك ترى أن علينا أن ندعوهم إلى العشاء في بيتنا! ... هل علينا أن ندعوهم».

«أوه! يا ربي... آمل ألا نكون مضطرّين إلى هذا!».

«انظر إلي يا جورج! هل قلت له لمستر بروك شيئاً بهذا المعنى؟».

«لا! عجباً... لا! صدقاً لم أفعل! لقد استخدمت حيلة أنني يجب أن أراه على الغداء في وقت ما».

«لا بأس... أوه! يا عزيزي... لا أريد أن أجرح مشاعرهما. لكنني لا أرى كيف أستطيع أن أتحمل أمسية أخرى مثل هذه. تخيل أن أشخاصاً مثل الدكتور آنغوس والسيدة آنغوس يأتيان إلى منزلنا خلال وجود آل أوفربروك عندنا... تخيل أن يظنوا أنهم من أصدقائنا!».

استمر قلقهما أسبوعين... «علينا حقاً أن ندعو إد وزوجته... هذين الشيطانين البائسين!». لكنهما نسيا الأمر كله لأنهما لم يريا آل أوفربروك. وبعد شهر أو اثنين قالا: «كانت تلك هي الطريقة الأفضل بالفعل... ترك الأمر يختفي ويزول من تلقاء نفسه. لن يكون لطيفاً منهما أن يأتيا إلينا. ليس مكانهما هنا... ليس منزلنا مكاناً مناسباً لهؤلاء الفقراء».

لم يعودا إلى الحديث عن آل أوفربروك بعد ذلك.

الفصل السادس عشر

- 1 -

صار بابِت واثقاً من أن آل ماكيلفي لن يدعونه إلى العشاء. وهذا ما خلق لديه شيئاً من الإحساس بالذنب... وجعله يحسّ بسخافته أيضاً. لكنه بدأ الآن يذهب إلى جمعية الوعول على نحو أكثر انتظاماً. كما كان طلق اللسان خلال دعوات الغداء في غرفة التجارة، وذلك عندما يتحدث عن شرور الإضرابات: وهكذا استطاع أن يرى نفسه مواطناً بارزاً... من جديد.

كانت نواديه وجمعياته غذاء مريحاً لروحه.

من الواجب أن ينتمي أي رجل محترم في زينيث إلى واحد، أو اثنين، أو ثلاثة، من المحافل الكثيرة والنوادي التي يجتمع فيها الرجال للغداء وللتبجّح برخاء أحوالهم... نادي الروتاري أو نادي الكيواني، أو نادي بوسترز؛ أو جمعية أودفيلوز، أو لوس، أو الماسونيين، أو الرجال الحمر، أو رجال الغابة، أو البومات، أو النسور، أو المكابيين، أو فرسان بيثياس، أو فرسان كولومبوس، أو غير ذلك من الجمعيات «السرية» التي تتسم بدرجة رفيعة من الحماسة والأخلاقيات السليمة واحترام الدستور. ثمة أسباب أربعة تدعو المرء إلى الانضمام إلى هذه الجمعيات: هذا ما ينبغي فعله؛ وهي أمر جيد من أجل العمل لأن أخوة المرء في أحد المحافل يصبحون من عملائه في أحيان كثيرة؛ وهي أيضاً تعطي الأمريكيين غير القادرين على أن يكونوا من السادة الكبار إحساساً بالتشريف الكاذب أو بالمكانة الرفيعة الفارغة من المحتوى مما يسمح لهم بشيء من التميز مثلما يحدث حين يضيف المرء إلى اسمه لقب الكولونيل أو القاضي أو البروفيسور؛ كما أن هذه النشاطات تسمح للزوج الأمريكي الذي تحاصره زوجته بأن يمضي أمسية خارج البيت كل أسبوع. أي أن «المحفل» يكون فسحة ذلك الرجل... يكون شيئاً كأنه «مقهاه على

الرصيف». وهناك يستطيع أن يظهر براعته، وأن يتحدث حديث الرجال، وأن يكون بذيئًا غير هَيّاب.

ولهذه الأسباب كلها، كان بابِت «منضمّاً»... بحسب تعبيره هو.

وعلاوة على البيرق المهيب الذي يعلن إنجازاته في الميدان العام، كان لديه عمل المكتب الكئيب أيضاً: الإيجارات، وعقود البيع، وقوائم العقارات المعروضة. صحيح أن أمسيات الخطابة واللجان والمحافل تنشّط روحه، مثلما يفعل البراندي، لكنه كان يجد لسانه متخشّباً كل صباح لكثرة كلامه. تراكم نزقه وعصبيته أسبوعاً بعد أسبوع. انخرط مرة في نزاع علني مفتوح مع موظف المبيعات الخارجي ستانلي غراف. وذات مرة، عوى موبّخاً الآنسة ماكغون لأنها أدخلت تغييرات على رسائله رغم حرصه الدائم على أن يكون بالغ التهذيب معها لأنه يراها جميلة ساحرة.

لكنه كان يسترخي في حضور بول ريزلينغ. كانا يهربان من عالم الكبار، مرة على الأقل كل أسبوع. يلعبان الغولف يوم السبت ويقول أحدهما للآخر متهكماً: «من وجهة نظري كلاعب غولف، أرى أنك لاعب تنس ممتاز»، أو يذهبان في جولة بالسيارة بعد ظهر الأحد ويتوقفان في مطاعم القرى الصغيرة حيث يجلسان على الكراسي المرتفعة ويشربان القهوة من فناجين سميكة. وكان بول يأتي أحياناً في المساء، مع كمانه، فيصمت الجميع... حتى زيلا نفسها... عندما يفصح هذا الرجل المتوحّد الذي أضاع طريقه وراح يزحف إلى الأبد في دروب لم يألفها باحثاً عن روحه المعتمة.

- 2 -

ما كان شيء يمنح بابِت تطهيراً لروحه، وشهرة له، أكثر من الجهود التي يبذلها من أجل مدرسة الأحد.

كانت كنيسته، كنيسة طريق تشاتام البريسبوريترية واحدة من أكبر الكنائس وأغناها. كانت واحدة من كنائس زينيثِ المزينة بالمخمل وخشب البلوط. وكان راعي الكنيسة المحترم جون جينيسون درو يحمل دبلوماً، وماجستيراً، ودكتوراه في القانون. (كان الدبلوم والماجستير من جامعة ألبريت في نبراسكا، أما الدكتوراه في القانون فهي من جامعة ووتربري في أوكلاهوما). وكان رجلاً فعالاً فصيحاً متعدد المهارات. كان يترأس اجتماعات لشجب النقابات أو لتحسين الخدمة المنزلية، ويصارح المستمعين بأنه عمل في توزيع الجرائد عندما كان صبياً فقيراً. وكان يكتب افتتاحيات في عدد يوم الأحد في صحيفة إيفينغ إدفوكات يتناول فيها «دين الرجال الرجولي» و«قيمة المال والفهم في الدين المسيحي». وكانت عناوين الافتتاحيات هذه تطبع بخط عريض محاطةً بإطار

متعرّج. وكان راعي الكنيسة يقول أكثر الأحيان إنه «فخور بأن يُعرف عنه أنه رجل أعمال من حيث الأساس» وأنه لن يذهب بالتأكيد إلى «السماح للشيطان العجوز باحتكار القوة والبراعة كلها». كان شاباً نحيلاً ريفي الوجه له نظّارة ذهبية وغرة شعر بنية. لكنه كان يشعّ قوة عندما يندفع في الخطابة. وقد اعترف بأنه أكثر علماً وشعراً من الحد الذي يسمح له بمحاكاة الداعية الإنجيلي مايك سوندي! لكنه فتح أعين رعيته ذات يوم على حياة جديدة ودفعها إلى زيادة عددها بأن طرح التحدي التالي: «يا إخوتي... إن الإنسان الوضيع حقاً هو الذي لا يقرض الرب قرضاً حسناً!».

لقد جعل كنيسته مركزاً اجتماعياً حقيقياً. كان في الكنيسة كل شيء يمكن أن يخطر على البال، إلا البار! كان فيها حضانة للأطفال، وعشاء مساء كل يوم خميس مع محاضرة تبشيرية لامعة قصيرة بعده، وصالة رياضية، وعرض سينمائي كل أسبوعين، ومكتبة فيها كتب فنّية للعمال الشباب (رغم أن أي عامل شاب، للأسف، لم يكن يدخل إلى الكنيسة إلا لتنظيف النوافذ أو إصلاح الفرن)، ومجموعة للخياطة تنتج بنطلونات قصيرة لأطفال الفقراء بينما تقرأ السيدة درو قصصاً لطيفة بصوت مرتفع.

ومع أن لاهوت الدكتور درو كان على المذهب البريسبوريتري، إلا أن مبنى كنيسته كان على الطراز الإيبيسكوبالي الفخم. وكان يصف المبنى بقوله إن له «الصفات الخالدة لتلك الأوابد الكنسية في إنكلترا العظيمة حيث تنتصب هناك رموز لأبدية الإيمان والتدين والتمدن». كانت الكنيسة مبنية من القرميد المتين على طراز قوطي محسَّن. وكان في صالتها الرئيسية إنارة غير مباشرة آتية من مصابيح كهربائية موضوعة في ما يشبه جراراً رخامية أنيقة.

وفي صبيحة أحد أيام كانون الأول، عندما ذهب آل بابِت إلى الكنيسة، كان كلام د. جون جينيسون درو حسناً أكثر من المعتاد. وكان حشد المجتمعين لديه كبيراً. كان عشرة من المعاونين الشباب النشطين المرتدين ستراتهم الصباحية المزينة بورود بيضاء يجلبون الكراسي المطوية من القبو. حظي المؤمنون في ذلك الصباح أيضاً ببرنامج موسيقي مؤثر قدمه شيلدون سميث، المدير التعليمي في (واي إم سي إي) الذي أنشد أمام المذبح أيضاً. لم يلق هذا الأمر كبير اهتمام لدى بابِت لأن أحداً ما كان قد ضلل سميث فنصحه بأن يبتسم، ويبتسم ويبتسم طيلة غنائه. لكن بابِت أعجب كثيراً بالقداس الذي أقامه د. درو، وذلك انطلاقاً من تقديره لجهود زميله في الخطابة. لمس في كلمته تلك السمة الثقافية الرفيعة التي تميّز جماعة هذه الكنيسة عن مرتادي الكنائس الصغيرة المزرية في شارع سميث.

قال د. درو كأنه ينشد ترنيمة: «في وقت الحصاد الوفير في السنة كلها، رغم

العواصف في السماء، ورغم مَشَقّات الطريق على المسافر المرهق، تحلّق الروح من غير جسد... تحلق فوق كل ما مر في اثني عشر شهراً من متاعب ورغائب، أوه... وعندها أسمع من خلف نقائصنا البائنة جوقة ذهبية من أصوات من فازوا تحيينا... ونرى من خلف الأفق الكالح، من خلف تلك الغيوم الكئيبة، جبالاً سامية... جبالًا من التناغم والمَسَرّة والعزم...».

قال بابِت في نفسه: «نعم... أحب القداس الذي أرى فيه ثقافة وفكراً».

وعندما انتهى القداس، سُرّ بابِت سروراً عظيماً عندما صافحه راعي الكنيسة عند الباب وقال له مزقزقاً: «أوه، أخي بابِت! هل تستطيع أن تنتظر لحظة؟ أريد نصيحتك؟».

«بالطبع يا دكتور! بالتأكيد!».

«ادخل إلى مكتبي. أظن أنك ستحب تدخين سيجار فيه». كان بابِت راغباً في تدخين السيجار. وكان يحب ذلك المكتب الذي لا يتميز عن غيره من المكاتب إلا باللمسة التي تضفيها عليه لافتة جدارية تقول «هذا هو يوم انشغال الرب».

جاء إلى غرفة المكتب تشام فرينك أيضاً؛ وجاء ويليام واشنطن إيثورن.

يبلغ السيد إيثورن سبعين عاماً من العمر. وهو على رأس مصرف الولاية الأول في زينيث. وهو أيضاً لا يزال مصراً على تطويل سوالفه حتى وجنتيه لأن تلك كانت علامة مميزة لأصحاب المصارف عام 1870. وإذا كان بابِت يضمر حسداً تجاه مجموعة الناجحين، من أمثال آل ماكيلفي، فقد كانت مشاعر التبجيل وحدها هي ما يكنّه لويليام واشنطن إيثورن. ما كان السيد إيثورن واحداً من «الناجحين»... كان كائناً أعلى من هذا! إنه حفيد واحد من الرجال الخمسة الذين أسسوا مدينة زينيث عام 1792. وهو من الجيل الثالث من أصحاب المصارف فيها. كان قادراً على دراسة الأوضاع الائتمانية، ومنح القروض... وقادراً أيضاً على تطوير أعمال المرء إذا أراد، أو الإضرار بها. في حضوره... كان بابِت يتنفس سريعاً ويشعر أنه عاد شاباً.

دخل المحترم د. درو الغرفة وبدأ كلامه مبتسماً:

«لقد طلبت منكم أيها السادة أن تظلوا هنا حتى أقترح عليكم أمراً. إن مدرسة الأحد لدينا في حاجة إلى بعض الدعم. إنها رابع أكبر مدرسة في زينيث، لكن ليس لدينا ما يدعونا إلى التأخر عن غيرنا. يجب أن نكون في المرتبة الأولى. أود أن أطلب منكم، إذا أردتم، تشكيل لجنة من أجل النصح والدعاية لمدرسة الأحد. أدعوكم إلى دراسة وضعها وتقديم أي اقتراحات ترونها من أجل تحسينها. وبعد ذلك، قد تستطيعون أن تجعلوا الصحافة تهتم بنا بعض الشيء... أي تقدم للجمهور بعض الأخبار البنّاءة المفيدة حقاً بدلاً من كل تلك الأخبار عن الجرائم وحالات الطلاق».

قال صاحب المصرف: «ممتاز!».

انضم بابِت وفرينك إليه مسحورَين، وعبَّرا عن إعجابهما بهذه الفكرة اللامعة.

- 3 -

لو سئل بابِت عن دينه لأجاب بفصاحته الرنانة التي يستخدمها في نادي بوسترز: «ديني هو أن أخدم الناس، وأن أقدّر أخي مثلما أقدّر نفسي، وأن أفعل ما أستطيع لجعل الحياة أكثر سعادة للجميع». وإذا ضُغط عليه حتى يشرح الأمر بمزيد من التفصيل، فسوف يقول: «إنني عضو في الكنيسة البريسبوريترية. ومن الطبيعي أنني أقبل عقائدها». أما إذا بلغت القسوة بمن يسأله حداً جعله يطلب مزيداً من التفصيل، فسوف يحتجّ بابِت قائلاً: «لا فائدة من الجدل والمناقشة في ما يتعلق بالدين. إن هذا يثير أحاسيس سيئة».

والحقيقة أن محتوى أفكاره اللاهوتية كان على النحو التالي: هنالك كائن عُلويّ حاول أن يجعلنا كاملين؛ لكن يبدو أنه فشل في ذلك! وإذا كان الإنسان جيداً فإنه يذهب إلى مكان يدعى الجنة (يتصور بابِت الجنة في لا وعيه على هيئة فندق ممتاز فيه حديقة خاصة)، أما إذا كان سيئاً، أي إذا قتل أحداً أو ارتكب سرقة أو تعاطى الكوكايين أو اتخذ لنفسه عشيقات أو باع عقاراً غير موجود، فسوف ينال العقاب. لكن بابِت ما كان واثقاً مما يسميه «موضوع الجحيم». شرح الأمر لابنه تيد كما يلي: «إنني ليبرالي تماماً، بطبيعة الحال! ولا أعتقد فعلاً بوجود ذلك الجحيم الناري الكبريتي. لكن من المنطقي أن الإنسان لا يمكن أن يفلت من غير عقاب عندما يرتكب الرذائل... هل تفهم ما أعنيه؟».

نادراً ما كان يفكر في أمور اللاهوت هذه. وأما الأمر الجوهري في الدين العملي عنده فهو أنه شيء محترم وأنه مفيد للأعمال أن يرى الناس المرء ذاهباً إلى القداس. كما أن الكنيسة تمنع العناصر السيئة في المجتمع من أن تصبح أكثر سوءاً. ثم إن القداديس التي يقيمها راعي الكنيسة... وإن كانت بليدة... يمكن أن تكون لها قوة سحرية قد «تفيد المرء... وتجعله على اتصال بالأشياء السامية العليا».

لم تتولد لديه أي أفكار جديدة عندما تفحَّص حال مدرسة الأحد من أجل أعمال اللجنة الاستشارية التي صار عضواً فيها.

أعجبه انهماك الناس في دروس الإنجيل... رجال ونساء ناضجون يتحدث إليهم الطبيب الدكتور ت. أتكينز جوردان، الذي ينتمي إلى المدرسة القديمة، بأسلوب متألق يستطيع المرء مقارنته بأسلوب المتحدثين الفكاهيين الممتازين بعد ولائم العشاء. لكنه أحس انزعاجاً وحَرَجاً عندما زار صفوف الناس الأصغر سناً. سمع شيلدون سميث... هو نفسه الشاب القوي الشاحب المبتسم ذو الشعر المتموّج الذي يعمل مديراً تعليمياً

ويقود جوقة الإنشاد في الكنيسة... يلقي درساً على فتيان في السادسة عشرة من العمر. كان سميث يحذرهم بصوت ينضح حباً: «والآن يا أصحابي... سوف يجري كلام من القلب إلى القلب في بيتي يوم الخميس القادم. سوف نتجاوز أنفسنا ونكون صريحين في ما يتعلق بمخاوفنا السرية الدفينة. ولكم أن تقولوا لي ما تشاؤون... مثلما يفعل الجميع في مدرستي! وسوف أشرح لكم وأحدثكم حديثاً صريحاً عن الأشياء المخيفة التي يمكن أن يتورط فيها الأولاد إذا لم يكن لديهم أخ أكبر يوجههم؛ وكذلك عن مخاطر الجنس ومَسَرّته». كان شيلدون يبتسم ابتسامة بلهاء... وبدا الخجل على الأولاد؛ أما بابِت فلم يعرف أين يدير عينيه المحرَجتين.

كانت صفوف الصغار أقل من ذلك إزعاجاً، وإن تكن أكثر بلادة. كانت عوانس مخلصات تعلّمن الأطفال الفلسفة وعلم الأعراق. وكان أكثر هذه الدروس يجري في قاعة مدرسة الأحد الملمَّعة جيداً؛ لكن بعضها كان يجري في قبو الكنيسة أيضاً، القبو الذي تزينه أنابيب المياه الكثيرة وتنيره نوافذ صغيرة مرتفعة على امتداد الجدران الراشحة بالرطوبة. كان ما رآه بابِت يشبه في الواقع كنيسته الأولى التي عرفها في قريته كاتاوبا. أعاده هذا المنظر إلى مدرسة الأحد أيام طفولته. وشم من جديد رائحة العفونة المهذبة التي لا يشمها المرء إلا في ردهات الكنائس. تذكر الكتب قاتمة اللون في تلك الخزانة في مدرسة الأحد: «هيتي البطلة المتواضعة» و«جوزيفوس، شاب من فلسطين»... قلّب قليلاً البطاقات النصية ذات الألوان الفاقعة التي لم يكن أحد من الأولاد يحبها ولم يكلف أحد منهم عناء رميها بعيداً لأنها كانت مقدَّسة على نحو ما. عذّبه من جديد ذلك الروتين القاتل الذي كان يعيشه منذ خمسة وثلاثين عاماً عندما أصغى إلى ما يقال الآن في كنيسة زينيث الكبيرة:

«والآن، يا إدغار، اقرأ هذه الآية في الإنجيل. ما المقصود عندما يقول الإنجيل إن من الأسهل أن يدخل الجمل في ثقب الإبرة؟ ماذا يعلمنا هذا؟ كف عن الحركة يا كلارنس!... لو درست جيداً لما كنت تتململ هنا الآن. والآن يا إيرل... ما الذي كان يسوع يحاول تعليمه لتلامذته في هذا الدرس؟ الشيء الوحيد الذي أريدكم أن تتذكروه خاصة، يا أولاد، هو الكلمات التالية «مع الله كل شيء ممكن». فكروا في هذا دائماً... كلارنس، انتبه من فضلك... قولوا فقط «مع الله كل شيء ممكن» عندما تشعرون بالإحباط و... أليس... عليك قراءة الآية التي بعدها من فضلك؛ لو كنت منتبهة لعرفت أين وصلنا».

طنين... طنين... طنين... كأنها نحلات ضخمة تحوم في كهف النعاس...

أستيقظ بابِت من غفوته بعينين مفتوحتين؛ وشكر المعلّمة على «شرف الاستماع إلى تعليمها الرائع»... ثم مضى مجرجراً قدميه إلى المجموعة التالية.

بعد أسبوعين من هذا كله، لم يكن لدى بابِت أي اقتراحات من أجل المحترم د. درو.

ثم اكتشف عالماً من مجلات مدرسة الأحد! مجموعة ضخمة نشطة من المطبوعات الأسبوعية والشهرية التي كانت عملية مفيدة... تماماً مثل أعمدة العقارات ومجلات الترويج لتجارة الأحذية. اشترى عدداً منها من مكتبة دينية تابعة للكنيسة وظل منكباً على القراءة حتى تجاوزت الساعة منتصف الليل.

وجد فيها كثيراً من النصائح المفيدة في مجال «التركيز على اجتذاب الناس» و«الاستطلاع من أجل العثور على أعضاء جدد»، و«طرح آفاق من أجل الاشتراك في مدرسة الأحد». أعجبته خاصة كلمة «آفاق»؛ وتأثر خاصة بالزاوية التالية:

«إن المنابع الأخلاقية للحياة المجتمعية كامنة عميقاً في مدارس الأحد الموجودة عندنا ـ مدارس التنشئة الدينية والوحي الديني. إن الإهمال الآن يعني خسارة الحماسة الروحية والقوة الأخلاقية طيلة سنوات كثيرة قادمة... إن هذه الحقائق المذكورة أعلاه، مع خلق جاذبية حقيقية لهذه المدارس، يمكن أن تقنع أشخاصاً كثيرين لم يحاول أحد من قبل جعلهم يقومون بدورهم في المجتمع».

قال بابِت موافقاً: «هذا صحيح! كنت معتاداً على الهرب من مدرسة الأحد في كاتاوبا كلما سنحت لي الفرصة. لكن، في الوقت نفسه، لم أكن لأصل إلى ما أنا عليه الآن... ربما... لو لم أتلق ذلك التدريب على، على ... على ماذا؟... على القوة الأخلاقية. إن الأمر كله متعلّق بالكتاب المقدس. (أدب عظيم! عليّ أن أقرأ الإنجيل كله من جديد... ذات يوم)».

أدرك أيضاً مقدار ما يمكن أن يبلغه التنظيم العلمي لمدرسة الأحد من تقدّم عبر مقالة وردت في «دروس ويستمنستر للإنجيل».

«كانت النائب الثانية للرئيس مهتمة بمتابعة روح الزمالة في الصف. وقد اختارت مجموعة من أجل مساعدتها. وصار أفراد هذه الجماعة يساعدون في العمل. كانوا يقدمون المساعدة لكل وافد جديد. ولم يكن أحد يشعر أنه غريب. وكان أحد أفراد المجموعة يقف عند الباب ويدعو عابري السبيل إلى الدخول».

لعل أكثر ما أعجب بابِت كان تلك الملاحظات التي كتبها ويليام ريدغواي في مجلة «سندي سكول تايمز».

«إذا كان لدينا صف مفتقر إلى الحيوية في مدرسة الأحد، وفيه شيء من الاضطراب أو قلة الاهتمام، أو فيه أشخاص لا يحرصون كثيراً على الالتزام بالحضور، فإن الحالة

تشبه حالة شخص أصابته حمّى الربيع! اسمحوا للدكتور ريدغواي أن يكتب لكم وصفة! الوصفة هي: ادعوا الجميع إلى وجبة عشاء».

كانت هذه المجلات كلها متكاملة كافية وافية... بقدر ما كانت عملية أيضاً! لم تهمل فناً من الفنون! وأما فيما يتعلق بالموسيقى، فقد نشرت «سندي سكول تايمز» إعلاناً يقول إن هارولد لودن «الذي يعرفه آلاف الناس من خلال مؤلفاته الموسيقية الجليلة» وضع قطعة موسيقية جديدة رائعة بعنوان «الشوق إليك». كاتب هذه القصيدة هو هاري د. كير... واحدة من أرق القصائد التي يمكن أن يتخيلها المرء... كما أن الموسيقى جميلة إلى حد لا يمكن وصفه. اتفق النقاد على أنها سوف تكتسح البلاد كلها. وقد تصبح أغنية مقدسة ساحرة إذا أضيفت إليها كلمات الترنيمة التالية: «سمعت صوت يسوع يقول»».

اهتمت هذه المجلات حتى بالتدريب على الأشغال اليدوية. انتبه بابِت إلى طريقة عبقرية لتصوير صورة قيام يسوع المسيح:

«نموذج يستطيع التلاميذ تنفيذه. قبر له باب متدحرج ـ استخدم صندوقاً مربعاً مقلوباً من الورق المقوى. اسحب الحافة العليا إلى الخارج قليلاً إلى أن تتشكل فتحة فيها. قص هناك باباً مربع الشكل. وقص أيضاً دائرة من الورق المقوى بحيث تكون أكبر من الباب. قم بتغطية هذه القطعة الدائرية، والقبر أيضاً، بطبقة كثيفة من مزيج مصنوع من الرمل والطحين والماء. ثم اتركه حتى يجف. عندما جاءت النساء صبيحة يوم الفصح، وجدن الحجر الدائري الثقيل الذي يسد الباب «مزاحاً جانباً». هذه هي القصة التي نستطيع تصويرها بطريقة عملية».

كانت مجلات مدرسة الأحد شاملة فَعّالة في إعلاناتها كلها! اهتم بابِت بمسألة التحضيرات التي «يمكن أن تحل محل التمرينات الرياضية بالنسبة للرجال الذين يجلسون وقتاً طويلاً، وذلك من خلال ترميم النسج العصبية التالفة، وتغذية الدماغ والجهاز الهضمي». كما وسّع مدَاركه أيضاً ذلك الخبر الذي قال إن مبيعات الإنجيل صارت مجالاً مزدهراً يشهد تنافساً كبيراً. وبما أنه خبير في أمور الصرف الصحي، فقد سَرّه أن يرى إعلاناً لشركة تبيع مراحيض الكنائس. وقد جاءت في الإعلان أن لديهم «مجموعة متطورة مُرضية تماماً تشتمل على مقعد مرحاض مصنوع من خشب الماهوغاني اللامع الجميع. إن هذا المقعد يخلّصكم من الضجيج. وهو أخف وأسهل استخداماً من أي نوع آخر. كما أنه منسجم مع الأثاث الموجود في الكنيسة أكثر من أي مقعد مرحاض مصنوع من مادة أخرى».

- 4 -

ترك كومة مجلات مدرسة الأحد. فكر قائلاً: «والآن... هذا هو عالم الرجل الحقيقي... رائع! ... يؤسفني أنني لم أبقَ هناك وقتاً أطول. إن الشخص الذي يملك نفوذاً في مجتمعه... من العار عليه أن لا يشارك في نشاطات الدين الحقيقي... الدين الرجولي. يمكن القول إن هذا شيء من قبيل شركة مسيحية!... لكن، مع كل الاحترام والتوقير.

قد يزعم بعض الأشخاص أن من يناصرون مدرسة الأحد أشخاصًا قليلي الشأن، أو فقراء روحياً، وأشياء من هذا القبيل. ماذا؟... هنالك دائماً أشخاص حقيرون يقولون هذه الأشياء! ... إن التحطيم والتكشير وتمزيق الأشياء أسهل كثيراً من البناء. أما أنا... إنني معترف بفضل هذه المجلات! لقد جعلت العجوز جورج بابِت ينضم إلى الصفوف... هذه هي الإجابة على المنتقدين جميعاً!

كلما كان الرجل أكثر عملية، وأكثر رجولة، كان عليه أن يقود حياة تلك الشركة المسيحية. وأنا أصلح لهذا الأمر حقاً! كفى كَسَلاً وقلة اهتمام و... ماذا؟ يا روني! أين كنت إلى الآن بحق الشيطان؟ هل تعود فتاة إلى منزلها في هذا الوقت المتأخِّر من الليل؟».

الفصل السابع عشر

- 1 -

لا تضم فلورال هايتس إلا ثلاثة أو أربعة بيوت قديمة. (يعتبر البيت قديماً في فلورال هايتس إذا كان مبنياً قبل عام 1880). وكان أكبر هذه البيوت ملكاً لويليام واشنطن إيثورن، رئيس «مصرف الولاية الأول».

يحتفظ قصر إيثورن بذكرى «الأقسام اللطيفة» في مدينة زينيث على النحو الذي كانت عليه بين 1860 و1900. إنه منزل ضخم من القرميد الأحمر تتوِّج أبوابه كتل من الحجر الرملي الرمادي وتغطي سقفه ألواح من الأردواز، حمر وخضر وصفر كامدة. وللمنزل برجان صغيران سقف أحدهما من النحاس، وسقف الآخر مصنوع من عروق من الحديد المصبوب. وأما مدخل البيت فيشبه قبراً مفتوحاً. يحمل هذا المدخل عمودان قصيران من الغرانيت يقوم فوقهما شيء يشبه شلالاً متجمداً من القرميد. وعلى أحد جانبَي البيت نافذة من الزجاج المغشّى مصنوعة على هيئة ثقب مفتاح ضخم.

لكن شكل البيت ما كان مضحكاً ولا فكاهياً أبداً! إنه تجسيد لتلك المهابة الثقيلة التي كانت لمصرفيي العهد الفكتوري الذين حكموا الأجيال الممتدة من عهد الرواد الأوائل حتى عهد «مهندسي المبيعات» الأذكياء... جماعة أقامت لنفسها وحدها حُكماً عابساً سيطرت من خلاله علىَ المصارف والمصانع والأراضي وسكك الحديد والمناجم. ما كان بين الزينيثات المتناقضة الكثيرة التي تشكل كلها مدينة زينيث الحقيقية الكاملة شيء أكثر قوة أو بقاء، ولا أكثر بعداً عن زينيث نفسها، من زينيث الصغيرة الهادئة الجافة المهذبة القاسية التي تنتمي إلى آل إيثورن. ومن أجل هذا الجزء المتميز الصغير الواقف فوق الجميع كانت أجزاء زينيث الأخرى تكدّ وتعمل، وتموت من غير أهمية تُذكر.

اختفى الآن أكثر قلاع أولئك الحكام ذوي الطبع الرديء النزِق، أو تدهور حاله

وانتهى إلى أن صار بيوتاً للإيجار؛ لكن قصر إيثورن ظل محافظاً على عَظَمته وتكبّره... ظل بقية من لندن أو باك باي أو ساحة ريتن هاوس. يجري تنظيف درجاته المرمرية كل يوم؛ ويجري تلميع لوحته النحاسية؛ كما أن ستائره المخرَّمة لا تزال باقية في مكانها عتيقة متفوقة مثلها مثل ويليام واشنطن إيثورن نفسه.

بشيء من الذعر، ذهب بابِت وتشام فرينك إلى بيت إيثورن من أجل اجتماع اللجنة الاستشارية لمدرسة الأحد. سارا مضطربين خلف خادم يرتدي ملابس رسمية فعبرا سراديب غرف الاستقبال إلى أن بلغا غرفة المكتبة. كانت تلك الغرفة، على نحو لا يخطئه النظر، مكتبة مصرفي عتيق صلب... مثلما كان سالفا إيثورن سالفي مصرفي عتيق صلب. كان القسم الأكبر من الكتب على هيئة مجموعات كاملة لها تلك اللمسات التقليدية الصحيحة... الأزرق الباهت، والذهبي الباهت، والأصفر البني اللامع. وكان الموقد موقداً تقليدياً، موقداً صحيحاً تماماً. كانت النار صغيرة هادئة مستقرة ينعكس ضوؤها على أدوات الموقد الحديد اللامعة. وكان المكتب البلّوطي قاتم اللون قديماً... رائعاً كله. وكانت الكراسي فخمة متعجرفة، لكن على نحو لطيف.

كانت أسئلة إيثورن عن صحة السيدة بابِت والآنسة بابِت وبقية الأولاد أبوية ناعمة، لكن بابِت ما كان لديه شيء يقوله بالمقابل. ما كان لائقاً أن يفكر في استخدام عبارة من نوع «كيف هم أولادك الأشقياء... تلك الجوارب القديمة؟»، التي من شأنها أن تسرّ فيرجيل غانتش وفرينك وهاورد ليتلفيلد... رجال كانوا يبدون لعين بابِت، حتى هذه اللحظة، أشخاصاً ناجحين متمدّنين. جلس بابِت وفرينك هادئين متأدبين. قال إيثورن بأدب من غير أن يفتح شفتيه إلا بالقدر الكافي لخروج الكلمات: «قبل أن نبدأ اجتماعنا يا سادتي، هل لكم في شيء من الويسكي؟ لعلكم بردتم قليلاً في طريقكم إلى هنا! لطيف منكم أن توفّروا هذه المشقة على رجل عجوز».

كان بابِت مدرَّباً تدريباً حسناً على كل أنواع الحديث التي تلائم الناس الطيبين إلى درجة جعلته يكاد يخزي نفسه بعبارة طائشة من قبيل «بدلاً من التورط في المشكلات، وتحسّباً لوجود شرطي مختبئ في تلك السلة... إلخ...». لكن الكلمات اختنقت وماتت في حلقه. أومأ برأسه موافقاً طائعاً. فعل تشام فرينك الشيء نفسه.

قرع إيثورن الجرس لاستدعاء الخدم.

بابِت، الرجل الحديث المرفه... لم ير قبل هذا أحداً يقرع جرساً لاستدعاء الخدم في بيت خاص، إلا خلال وجبات الطعام. لقد سبق له، هو نفسه أيضاً، أن قرع الأجراس لاستدعاء الخدم في الفنادق. أما في البيت، فما كان له أن يجرح مشاعر ماتيلدا بأن يستدعيها على هذا النحو: كان يذهب إلى الصالة ويناديها. وهو لم يرَ أيضاً، منذ بدء

حظر الكحول، أحداً يتحدث عن الشرب بهذه الطريقة العادية. كان أمراً رائعاً بالنسبة له أن يرتشف شرابه من غير أن يصيح «أوه... يا سلام... إنه يصيبني في المكان الصحيح!». مثلما يحب أن يقول دائماً. ومع النشوة الجديدة، تذكر لقاءات أيام الشباب: «ذلك الشخص الغامض الصغير هناك... لماذا... إنه قادر على خَلقي أو تحطيمي! إذا أوعز لمصرفي بأن يطالبني بتسديد القرض...! يا ربي!... هذه الزجاجة الكبيرة! لا تبدو عليه أي حماسة أبداً! لا أدري... ربما كنا في نادي بوسترز، نولي نشاطنا أهمية زائدة!».

ارتجف في داخله عندما مرت برأسه هذه الكلمات. راح يصغي مفتوناً إلى أفكار إيثورن في ما يتعلّق بتطوير مدرسة الأحد... كانت أفكاراً شديدة الوضوح، شديدة السوء.

طرح بابِت، وجِلاً، اقتراحاته العامة:

«أظن أننا لو حللنا احتياجات المدرسة... في الواقع، إذا تناولناها تناولاً مباشراً كما لو أنها مسألة تسويق... نرى بطبيعة الحال أن النمو هو الحاجة الأساسية المهمة. أفترض الآن أننا متفقون جميعاً على أننا لن نكون راضين قبل أن تصبح لدينا أكبر مدرسة أحد في الولاية كلها. بحيث لا يعود أعضاء كنيستنا في حاجة إلى استقطاب أحد. فإذا عملنا على تنشيط حملة من أجل الآفاق التي أمامنا... مثلاً، إنهم يستخدمون طريقة الفِرَق المتنافسة، ويقدمون جوائز للأطفال الذين يأتون بأكبر عدد من الأعضاء الجدد. لكنهم يرتكبون خطأً هنا: تلك الجوائز... كلها من التوافه، ومن تلك الأشياء... كتب شعرية وأسفار مصوّرة من الكتاب المقدس... بدلاً من تقديم شيء يود الطفل الحقيقي الحي أن يعمل من أجله... كتقديم مبلغ نقدي أو مقياس سرعة من أجل الدراجة! أعرف أنه شيء لطيف أن توجد تلك الدروس المصورة، وعلامات الكتب المزينة، والرسوم على السبّورة، وغير ذلك... لكن، عندما يتعلّق الأمر بإثارة الحماسة، وباستقطاب عملاء جدد ـ أقصد أعضاء جدد... فكيف... يجب أن يشعر المرء أن الأمر يستحق بذل الجهد!

أود الآن أن أقترح حيلتين اثنتين: الأولى هي توزيع مدرسة الأحد إلى أربعة جيوش، بحسب العمر. يحصل كل واحد على رتبة عسكرية في جيشه بحسب عدد الأعضاء الذين يأتي بهم؛ وأما الأغبياء الفاشلون الذين يتخلّفون عن غيرهم ولا يجلبون أحداً فإنهم يظلون برتبة جنود عاديين. يحمل راعي الكنيسة والمشرف عليها رتبة جنرال. ويكون على كل شخص أن يؤدي التحية، وكل تلك الأشياء، مثلما يحدث في الجيوش النظامية. وذلك لجعلهم يعرفون قيمة الحصول على رتبة.

ثم، ثانياً: إن لدى المدرسة لجنة إعلانية بطبيعة الحال. لكن لا أحد يعمل بشكل جيد في الحقيقة... لا أحد يعمل لأنه يحب ذلك العمل حقاً. ما يتعين فعله هو أن يكون

المرء عملياً، عصرياً، وأن يستأجر مندوباً صحافياً حقيقياً مدفوع الأجر من أجل مدرسة الأحد... أقصد شخصاً ممن يعملون في إحدى الصحف بحيث يستطيع أن يخصص قسماً من وقته لنا».

قال تشام فرينك: «طبعاً، بالتأكيد!».

تابع بابِت: «فكروا في الأشياء اللطيفة المغرية التي يستطيع هذا الشخص تحقيقها! لن يقف الأمر عند إيراد الحقائق الحيوية الكبيرة الواضحة، عن سرعة نمو مدرسة الأحد مثلاً... بل يمكن أيضاً أن يخترع الكثير من المزاح ومن القيل والقال: عن شخص متشدّق قصّر في تحقيق التزامه بالحصول على أعضاء جدد، أو عن الوقت الطيب الذي حظيت به فتيات صف الثالوث المقدس عندما أقمن حفلة. وإلى جانب هذا، إذا كان لديه الوقت، يمكن أيضاً أن يقوم ذلك الوكيل بالدعاية للدروس نفسها... يمكنه وضع إعلان صغير عن مدرسة الأحد مثلاً. لا حاجة إلى الطمع في ما هو موجود لدى الآخرين، وذلك شريطة أن نتمكن من مواصلة الحصول على أعضاء جدد. فمثلاً، يستطيع هذا الرجل أن يجعل الصحف ـ لم أتلقَّ تدريباً أدبياً مثل صديقي فرينك هنا، لكنني أخمِّن ما يمكن أن يُكتب... لنأخذ مثلاً، لنفترض أن الدرس في هذا الأسبوع كان عن يعقوب. حسنٌ، يمكن أن يكتب هذا الصحافي شيئاً فيه قيمة أخلاقية رفيعة إضافة إلى وضع عنوان خَدّاع يجعل الناس يقرأون ما تحته ـ لنقل مثلاً: «يعقوب يخدع العجوز الكبير ويفوز بالفتاة وبراتب جيد». هل رأيتم ما أعنيه؟ هذا ما يمكن أن يستلفت اهتمامهم! والآن، بالطبع... أنت شخص محافظ يا سيد إيثورن؛ ولعلك تشعر بأن هذه الخِدَع ليست شيئاً محترماً تماماً. لكن، صدقاً، أظن أنها تستطيع أن تحقق ما نريد».

عقد إيثورن يديه فوق بطنه مرتاحاً، ثم بربر مثل قط عجوز:

«اسمح لي بالقول أولاً إنني سررت كثيراً بتحليلك للوضع يا سيد بابِت. كما قلت تماماً... من الضروري لشخص في مركزي أن يكون محافظاً؛ ولعلي أحاول أن أحافظ على معيار بعينه للكرامة والاحترام. لكني أظن أنك ستجدني تقدّمياً أيضاً على نحو ما. آمل أن أستطيع القول إننا في مصرفنا، مثلاً، نعتمد أسلوباً حديثاً في الدعاية والإعلان مثلما يفعل أي مصرف آخر في المدينة. نعم، أظن أنك ستجدنا، نحن الكهول، عارفين تمام المعرفة بتغيّر القِيَم الروحية في زماننا هذا. نعم، أوه، نعم! يسعدني في الحقيقة القول إنني، رغم تفضيلي الشخصي لتقاليد الكنيسة الأكثر صرامة في أزمان سابقة...».

فهم بابِت أخيراً أن إيثورن كان موافقاً.

اقترح تشام فرينك استخدام كينيث إسكوت وكيلاً صحافياً يعمل بوقت جزئي. وكان هذا الرجل مراسلاً لدى إدفوكات تايمز.

افترقوا بقدر كبير من روح الصداقة والمحبة والتعاون المسيحي.

لم يقد بابِت سيارته إلى البيت، بل إلى مركز المدينة. أراد أن ينفرد بنفسه وأن يفكر منتشياً بجمال هذه العلاقة الحميمة مع ويليام واشنطن إيثورن.

-2-

كانت أمسية بيّضها الثلج... أمسية حافلة بالأرصفة الرنانة تحت وقع الخطوات، وبالأضواء الحماسية.

أضواء ذهبية كبيرة منبعثة من عربات الترولي السائرة على امتداد أكوام الثلج على الطريق. وأضواء محتشمة حيَّة منبعثة من بيوت صغيرة. وضوء ساطع ضخم يتجشّأه مصنع بعيد لسكب الحديد فيمحو ضوء النجوم بحوافها الحادة. أضواء من صيدليات الحي بدت مثل أصدقاء يثرثرون مسرورين بعد انتهاء يوم العمل.

ضوء أخضر من قسم الشرطة، وانعكاس أكثر خضرة على الثلج. دورية شرطة في شاحنة صغيرة تنطلق مقعقعة مثل ضربات قلب مذعور وتمسح أضواؤها الشوارع المتألقة كالكريستال. ما كان يقودها سائق، بل شرطي معتزّ ببدلته الرسمية؛ وشرطي آخر واقف وقفة خطرة على المرقاة في آخر الشاحنة؛ تلمح العين سجيناً في السيارة... قاتل، أو لص، أو مزوِّر نقود أوقع به ذكاء الشرطة أخيراً؟

كنيسة ضخمة من الحجر الرمادي لها برج مَكين؛ ضوء كامد في ردهاتها، وطنين بهيج صادر عن تدريبات الكورس في الداخل. ضوء راجف ببخار الزئبق صادر عن علّية يعمل فيها نقّاش يحفر على المعدن. ثم أضواء عاصفة من مركز المدينة؛ سيارات مركونة لها أضواء خلفية عقيقية؛ ومداخل المسارح البيض المقوّسة مثل أفواه صقيعية لكهوف شتائية؛ لافتات كهربائية - أفاعٍ ورجال صغار راقصون، كلها من نار؛ مصابيح مظلَّلة بالوردي وصوت موسيقى جاز بنفسجية قادمة من صالة رقص رخيصة في طابق علوي؛ أضواء مطاعم صينية مرسوم على مصابيحها معابد بوذية تحيط بها زهور الكرز معلّقة على حوامل ذهبية برّاقة وسوداء. مصابيح صغيرة قذرة في مطاعم صغيرة فائحة الرائحة. منطقة التسوّق الأنيقة بإنارتها الغنية الهادئة المنبعثة من دلّايات كريستالية وسطوح خشب مصقولة أنيقة ومعاطف من الفراء معلّقة في واجهات مخملية صامتة. وبعيداً، في أعلى الشارع، مربَّع مُنار غير متوقَّع... معلّق في الظلمة، فوق... نافذة مكتب يعمل فيه شخص حتى وقت متأخر لسبب غامض غير معروف. لعله رجل أصابه الإفلاس، أو صبيّ طموح، أو رجل نفط صار غنياً فجأة!

كان الهواء قارس البرودة. تراكم الثلج عميقاً في الأزقة غير المنظفة. كان بابِت يعرف أن خلف المدينة أكوامٍ كالتلال من ثلج تذروه الريح بين أشجار البلوط الشتوية وفوق النهر المتعرج المسحور بقطع الجليد المندفعة فيه.

إنه يحب مدينته... كان معجباً بها إعجاباً عاطفياً. زال عنه تعب العمل المتراكم، وتعب القلق والخطابة الكثيرة. أحس أنه شاب بإمكانات واعدة. كان طموحاً: لا يكفي أن يكون فيرجيل غانتش، أو أن يكون أورفيل جونسز. لا!... «هؤلاء أصدقاء جيدون... أحبهم... لكن ليس لديهم أي براعة». لا!... سوف يصبح مثل إيثورن: صارمٌ على نحو رقيق، قويٌّ على نحو بارد.

«هذا ما يجب! قبضة ملاكم في قفاز مخملي. لا تترك أحداً يسبقك!... بدأت أصير مهملاً في أسلوب كلامي. الألفاظ السوقية، والعامّية الدارجة. ضع حداً لهذا كله!... كنت الأول في الخطابة والإلقاء في الكلية. موضوعات عن... مهما تكن، لم أكن سيئاً. لقد اندفعت كثيراً في هذه الأشياء الفارغة وفي علاقة مع هؤلاء الأشخاص الطيبين. إنني... لمَ لا أستطيع إقامة مصرف لي أنا في يوم من الأيام؟ ثم يخلفني تيد فيه؟».

قاد سيارته إلى البيت سعيداً. في نظر السيدة بابِت، كان هو ويليام واشنطن إيثورن نفسه، بالضبط... لكنها لم تلاحظ هذا!

-3-

جرى تعيين الشاب كينيث إسكوت، المراسل لدى إدفوكات تايمز، وكيلاً صحافياً لمدرسة الأحد في كنيسة تشاتام البريسبوريترية. خصّص لهذا العمل ست ساعات في الأسبوع. أو، على الأقل، كان يتلقى أجر ست ساعات في الأسبوع. كان له أصدقاء في الصحافة وفي المجلات، ولم يكن معروفاً (رسمياً) بأنه وكيل صحافي. أنجز مجموعة من المواد المثيرة عن روح الجيرة وعن الإنجيل وعن دعوات العشاء لزملاء الصفوف في مدرسة الأحد التي كانت دعوات مرحة لكنها ذات فائدة تثقيفية أيضاً، وكذلك عن قيمة حياة الصلاة والتعبّد من حيث مساهمتها في النجاح المالي.

اعتمدت مدرسة الأحد نظام الرتب العسكرية الذي اقترحه بابِت. وكان ذلك نجاحاً كبيراً عززته وعجّلت فيه إضافاته الروحانية المخلصة. لم تصبح المدرسة أكبر مدارس زينيث ـ ظلت الكنيسة الميثودية المركزية متقدمة بفعل أساليبها التي وصفها د. درو بأنها «غير منصفة، وغير محترمة، وغير أمريكية، وغير مؤدَّبة، وغير مسيحية» ـ لكنها صعدت من المركز الرابع إلى المركز الثاني ففرحت بها السماء نفسها، أو على الأقل ذلك الجزء من السماء الموجود في بيت د. درو؛ وحظي بابِت بكثير من الثناء والصيت الحسن.

تلقى بابِت رتبة كولونيل في هيئة الأركان العامة في المدرسة. وكان يسرّه كثيراً أن يحييه في الشارع صبيان صغار لا يعرفهم. كانت أذناه تحمران من الإثارة عندما يسمعهم يخاطبونه بكلمة «كولونيل». وحتى إذا كان سبب حضوره مدرسة الأحد غير مقتصر على هذه السعادة، فمن المؤكد أنه كان يفكر فيها طيلة طريقه إلى الكنيسة.

كان لطيفاً خاصة مع الوكيل الصحافي كينيث إسكوت فأخذه إلى الغداء في النادي الرياضي، واقتطع أمسية من وقته الثمين حتى يدعوه إلى العشاء في بيته.

كان إسكوت حيّاً متوحِّداً على غرار كثير من الشباب المغرورين المتكبّرين الذين يتجولون من مدينة لأخرى برضى واضح ويعبِّرون عن سخريتهم بلغة عامية متعجرفة. كان وجهه المهزول يزداد مساحة بفرحة العشاء لدى بابِت. كان يقول مسروراً: «رائع يا سيد بابِت! لو تعرف كم هو حسن أن يعود المرء إلى تناول الطعام المنزلي من جديد!».

كان إسكوت وفيرونا منسجمَين تماماً. أمضيا المساء كله في «الحديث عن الأفكار». واكتشفا أنهما راديكاليان. بالفعل... كانا محقَّين في هذا. وكانا متفقَيْن على أن الشيوعيين مجرمون كلهم، وعلى أن الشِّعر الحر سيئ، وعلى أن من الضروري نزع السلاح في العالم كله لكن، بطبيعة الحال، يجب أن تحتفظ بريطانيا العظمى والولايات المتحدة بقوّة بحرية تعادل القوة البحرية لبقية العالم كله لأنهما مسؤولتان عن الأمم الصغيرة المضطهَدة. لكنهما كانا ثوريين كثيراً لأنهما توقعا (هذا ما أزعج بابِت) نشوء حزب ثالث ذات يوم، حزب يثير المتاعب للحزبين الجمهوري والديمقراطي.

إسكوت صافح بابِت ثلاث مرات عند الانصراف.

وكان بابِت، بهذه المناسبة، يعبِّر عن ولعه الشديد بإيثورن.

خلال أسبوع واحد، أوردت ثلاث صحف قصصاً عن قيمة الجهود التي يبذلها بابِت في سبيل الدين. وذكرت كلها بلباقة أن ويليام واشنطن إيثورن داعم لهذه الجهود متعاون معها.

لم يعرف بابِت من قبل شيئاً حقّق له هذا القدر كله من المصداقية في جمعية الوعول وفي النادي الرياضي وفي نادي بوستِرز. كان أصدقاؤه يهنئونه دائماً لحسن خطابته، لكن مديحهم كان مَشوباً بظل من الشك لأن كلماته التي يروِّج فيها للمدينة كان فيها شيء ثقافَوي فاسد، مثل كتابة الشعر تقريباً. أما الآن، فقد صاح به أورفيل جونسز من آخر غرفة الطعام في النادي الرياضي: «ها هو المدير الجديد لمصرف الولاية الأوّل». وأما غروفر باترباو، البائع البارز لمستلزمات السباكة بالجملة، فضحك له قائلاً: «عجيب أنك لا تزال تخالط الناس العاديين بعد أن صافحت إيثورن!» ... وقبل بائع المجوهرات إيميل ونغرت، أخيراً، أن يناقش معه مسألة شراء بيت له في دورتشستر.

- 4 -

عندما انتهت حملة مدرسة الأحد، اقترح بابِت على كينيث إسكوت أمراً: «قل لي؟ ما رأيك بشيء من الدعاية للدكتور درو شخصياً؟».

ابتسم إسكوت: «يمكنك أن تثق بأن الدكتور يقوم بشيء من الدعاية لنفسه يا سيد بابِت! لا يكاد يمضي أسبوع واحد من غير أن يتصل بالصحيفة طالباً إيفاد مراسل من عندنا إلى مكتبه، ثم يخبرنا قصّة القداس الرائع الذي يعتزم أن يقدم فيه عِظة عن مساوئ التنورات القصيرة، أو عن أصول كتابة أسفار موسى الخمسة. لا تشغل بالك به. إن في البلدة شخصاً واحداً فقط يسبقه في الشهرة... إنها دورا جبسون تاكر التي تدير جمعية الأطفال الخيرية ورابطة الأمركة. إن السبب الوحيد لتفوّقها على درو هو أن عندها شيء من العقل».

«اسمع الآن يا كينيث! لا أظن أن من الجائز أن تتحدث على الدكتور بهذه الطريقة. إن على الواعظ أن يتهم بمصالحه، أليس كذلك؟ ولا بد أنك تتذكر ما يقوله الإنجيل عن ضرورة كون المرء مواظباً على خدمة شؤون الرب... أو شيء من هذا القبيل!».

«لا بأس! سوف أكتب شيئاً عنه إن كنت تريد هذا يا سيد بابِت؛ لكن عليَّ أن أنتظر ريثما يغيب مدير التحرير عن البلدة حتى أستطيع تمرير الأمر على المحرر».

وهكذا، ظهرت في عدد الأحد من إدفوكات تايمز، تحت صورة للدكتور درو في أحسن أحواله... عينان يقظتان وفَكّان مثل الصخر ونظرة متوقدة خشنة... مقالة صغيرة قوية ضمنت له الخلود أربعاً وعشرين ساعة:

«إن المحترم الدكتور جون جينيسون درو، حامل شهادة الماجستير أيضاً، راعي الكنيسة البريسبوريترية الجميلة في تشاتام رود في منطقة فلورال هايتس الرائعة... رجل يعرف كيف يكسب الأرواح. إنه صاحب الرقم القياسي في عدد المتحوّلين إلى مذهب كنيسته. فخلال رعايته هذه الكنيسة، قارَبَ المعدل الوسطي السنوي مئة شخص ممن كانت تعذّبهم الخطيئة قبل أن يعلنوا قرارهم بانتهاج حياة جديدة، وقبل أن يجدوا ميناء الأمان والسلم.

ينبض كل شيء بالحيوية في كنيسة تشاتام رود. وتشهد المنظمات التابعة للكنيسة نشاطاً وكفاءة متميِّزَين. إن الدكتور درو حريص خاصة على الغناء الكنسي الجيد. وهم يستخدمون الترانيم البهيجة المتألقة في كل لقاء؛ كما تجتذب القداديس المخصصة للترنيم عشاق الموسيقى ومحترفيها من أنحاء المدينة كلها.

اشتهر د. درو، على منصة المحاضرات الشعبية وعلى منبر الكنيسة أيضاً، بأنه

خير من يرسم لوحات بكلماته. وقد تلقّى خلال هذا العام تقديراً أدبياً تمثل في دعوات وُجّهت إليه ليتحدث أمام فعاليات مختلفة، هنا وفي أماكن أخرى أيضاً».

- 5 -

حرص بابِت على جعل د. درو يعرف أنه الشخص الذي يقف خلف هذه اللفتة اللطيفة. صار د. درو يخاطبه بكلمة «يا أخي»؛ كما صافحه مرات كثيرة جداً.

وخلال اجتماعات اللجنة الاستشارية، ألمح بابِت إلى أنه سيكون سعيداً جداً بدعوة إيثورن إلى العشاء. لكن إيثورن دمدم قائلاً: «هذا لطف كبير منك يا صديقي. لكنني لا أكاد أخرج إلى أي مكان».

لكن من المؤكد أن إيثورن لن يرفض دعوة من راعي الكنيسة. قال بابِت للدكتور درو بمودة: «ما رأيك يا دكتور، بعد أن رتّبنا هذه الأمور كلها... يخطر في بالي أن الوقت قد حان لأن نتعشى نحن الثلاثة معاً».

صاح د. درو: «عجباً! بالتأكيد! يسعدني هذا!»... قالها بطريقة رجولية إلى أقصى حد يستطيعه. (أخبره شخص ما ذات مرة أنه يتكلم مثل المرحوم الرئيس روزفلت).

«إذن، احرص يا دكتور على أن تجعل السيد إيثورن يأتي. لا بد من الإلحاح عليه. إنه... أظن أنه يلازم المنزل أكثر مما يجب. هذا ليس جيداً لصحته».

جاء إيثورن!

كان عشاء ودّياً. تحدث بابِت بوقار وجلال عن الاستقرار الذي يضفيه أصحاب المصارف على المجتمع، وعن قيمتهم التربوية أيضاً. قال إنهم رعاة أهل التجارة. وللمرة الأولى، تحدث إيثورن في موضوع غير موضوع مدارس الأحد فسأل بابِت عن تقدّمه في أعماله. قدم بابِت إجابة متواضعة على نحو خجول... تشبه إجابة يقدمها الابن لأبيه.

بعد شهور قليلة، عندما سنحت له فرصة المشاركة في صفقة محطة النقل، لم يتجشّم بابِت مشقة الذهاب إلى مصرفه للحصول على قرض. كانت تلك صفقة هادئة نوعاً ما. ولو جرى الإفصاح عنها لما فهمها الجمهور! لقد ذهب إلى صديقه السيد إيثورن الذي رحّب به وأعطاه قرضاً خاصاً. وهكذا استفاد الاثنان من علاقاتهما الجديدة السارّة.

صار بابِت يذهب إلى الكنيسة بشكل منتظم بعد ذلك، إلا في صباحات الأحد الربيعية التي من الواضح أنها أصلح للنزهات بالسيارة. قال لتيد: «أقول لك يا بني... لا يوجد حصن للنزعة المحافظة السليمة أقوى من الكنيسة الإنجيلية؛ ولا مكان أصلح من كنيستك لكسب الأصدقاء الذين سوف يساعدونك في الوصول إلى المكانة التي تستحقها في المجتمع».

الفصل الثامن عشر

-1-

رغم أنه يراهم مرتين كل يوم، ورغم أنه يعرف كل تفصيل من تفاصيل نفقاتهم، ويناقشه مناقشة مستفيضة، فقد كان يمضي أسابيع بأسرها من غير أن ينتبه إلى وجودهم أكثر من انتباهه إلى الأزرار على كمّي قميصه.

جعله إعجاب كينيث إسكوت بفيرونا يدرك وجودها.

صارت فيرونا الآن سكرتيرة لدى السيد غرونسبرغ في شركة غرونسبرغ للجلود. وكانت تؤدي عملها باهتمام يشبه اهتمام خادمة تهتم بالتفاصيل من غير أن تفهمها تمام الفهم. لكنها كانت من أولئك الأشخاص الذين يعطون انطباعاً مُربكاً بأنهم على وشك فعل شيء متهوّر... ترك العمل، أو ترك الزوج... من غير الإقدام على ذلك حقاً. وكان لدى بابِت أمل كبير في حماسة إسكوت المترددة... أراد أن يراه والداً مرحاً. عندما عاد من نادي الوعول استرق نظرة مستحية إلى غرفة المعيشة ثم قال: «هل كان صديقنا هنا الليلة؟» لم يكن يصدق أبداً ردود فيرونا المحتجّة: «لماذا... كين وأنا مجرد أصدقاء. نحن نتكلم عن الأفكار فقط. لن تكون عندي تلك السخافات العاطفية، فهذا يفسد كل شيء».

لكن تيد كان منبع أكبر قلق لبابِت.

كان وضعه متوسطاً في اللغتين اللاتينية والإنكليزية، لكن سجلّه كان ممتازاً في التدريب على الأشغال اليدوية وفي كرة السلة وفي تنظيم الحفلات الراقصة. كان تيد يناضل لاجتياز سنته الأخيرة في مدرسة إيست سايد الثانوية. وما كان شيء يثير اهتمامه في المنزل إلا عندما يُطلب منه اكتشاف عطل غامض في نظام الإشعال في السيارة. وكان يكرر أمامِ والده الملحاح أنه لا يريد أن يذهب إلى الجامعة ولا إلى كلية القانون. كما كان بابِت قلقاً نتيجة «عدم استقراره» ونتيجة علاقاته مع الجارة أونيس ليتلفيلد.

صحيح أنها كانت ابنة هاورد ليتلفيلد، مصنَع المعلومات الصلب، أو الكاهن العنيد في دفاعه عن الملكية الخاصة، إلا أن أونيس كانت مجنونة مثل ذبابة في الشمس. ترقص في البيت. وترمي بنفسها في حضن بابِت وهو يقرأ. كانت تكرمش جريدته وتضحك منه عندما يوضح لها أنه يكره الجرائد المكرمشة مثلما يكره فسخ عقود البيع. إنها في السابعة عشرة الآن. طموحها أن تصير نجمة من نجمات السينما. لم تكن تكتفي بحضور كل عرض سينمائي، بل كانت تقرأ المجلات السينمائية التي هي أعراض استثنائية لعصر المجلات الشهرية والأسبوعية الغنية بصور ورسوم نساء شابات كنَّ يعملن في تقليم الأظافر منذ فترة قريبة (ولم يكنَّ ماهرات في ذلك)... فتيات لا يستطعن التمثيل في أسخف العروض المسرحية لولا قيام المخرجين بتصحيح كل تكشيرة من تكشيراتهن... لكنهن كنّ، بجدّية تامة، يظهرن في «مقابلات» مزينة بصور ركوب الخيل وصور أكواخ الاصطياف في كاليفورنيا، وكذلك صور تماثيل وصور عن السياسة الدولية يظهر فيها شبان وسيمون، بل جميلون إلى حد يدعو إلى الشك. وكن يتحدثن في هذه المقابلات عن حبكات الأفلام السينمائية وعن العاهرات الطاهرات ولصوص القطارات طيّبي القلوب... ويعطين توجيهات من أجل إدخال الخمور المهرَّبة إلى اجتماعات مشاهير كتاب السيناريو آخر الليل.

هذا ما كانت تقرأه أونيس. وكانت تستطيع أن تحدد، بل هذا ما كانت تفعله كثيراً، ما إذا كان ماكهاركر، راعي البقر الشرير الشهير على الشاشة، قد بدأ حياته الفنية مغنّياً في إحدى الجوقات في فيلم «أوه، أيتها الفتاة السيئة» في تشرين الثاني أو كانون الثاني من عام 1905. وعلى حائط غرفتها علقت، هكذا قال أبوها، إحدى وعشرين صورة من صور الممثلين والممثلات. لكنها كانت تخبّئ الصور التي تحمل توقيع أهم أبطال الأفلام في صدرها اليانع.

كانت عبادة هذه الآلهة الجديدة تحيّر بابِت. كان يشك في أن أونيس تدخِّن السجائر أيضاً. كان يشم أحياناً رائحة تصعد من الطابق السفلي، ويسمع قهقهاتها مع تيد. لكنه لم يستقص الأمر! كانت هذه الطفلة العذبة تفزعه قليلاً. وكان وجهها النحيل الساحر يزداد تألقاً عندما ترخي شعرها. كانت تنوراتها قصيرة. وجواربها قصيرة أيضاً. وكانت تجري خلف تيد فيرى بابِت عند أطراف حرير تنورتها لمحات من ركبتين ناعمتين تصيبانه بالاضطراب. وكان يشعر بشيء من التعاسة عندما يدرك أنها تعتبره عجوزاً.

بعض الأحيان، في تلك الحياة المحتجبة في أحلامه، عندما تجري فتاة الحكايات صوبه... كان يرى فيها شَبَهاً من أونيس ليتلفيلد.

كان تيد مجنوناً بالسيارات مثلما كانت أونيس مجنونة بالأفلام. لم يفلح ألف رفض ساخر متهكّم في ثنيه عن مطالبته المزعجة بسيارة له وحده. كان متراخياً كسولاً في ما يتعلق بالاستيقاظ مبكراً وفي ما يتعلق بقواعد الشِّعر عند فيرجيل، لكنه كان لا يعرف كللاً ولا مللاً عندما يتعلق الأمر بالسيارات. اشترى مع ثلاثة صبيان آخرين هيكل سيارة فورد محطّم. وبنى عليه جسم سيارة سباق مدهش، من صفائح القصدير وخشب الصنوبر، ثم قاد هذه السيارة الخطيرة مسرعاً عبر المنعطفات فباعها وحقّق ربحاً. اشترى له بابِت دراجة آلية. وفي كل يوم سبت، بعد الظهر، كان يضع في جيوبه سبعة سندويشات وزجاجة كوكاكولا، وتجلس خلفه أونيس في وضع مخيف على المقعد الإضافي، ثم تنطلق الدراجة مزمجرة إلى بلدات بعيدة.

كان تيد وأونيس جارّين صديقَيْن مرحَين. وكانا يتشاجران بكل ما أوتيا من عنف وافتقار إلى اللباقة. لكنهما، من وقت لآخر، بعد رقصة من الرقصات بما فيها من لون وعطر، كانا يجلسان صامتَين معاً يتجنبان النظر إلى الآخرين... كمَنْ ارتكب ذنباً. كان بابِت قلقاً!

كان بابِت أباً عادياً. كان عاطفياً، قاسياً، متصلّب الرأي، جاهلاً، حزيناً، يائساً بعض الشيء. وكمعظم الآباء الآخرين، كان يستمتع بلعبة الانتظار ريثما تكون الضحية مخطئة تماماً ثم ينقضّ عليها بجلالة قدره. وكان يبرِّر سلوكه بالقول: «إن والدة تيد تفسده بدلالها. ولا بد له من شخص يبيّن له الأمور... وأنا، أنا ضحية هذا الدَّلال. لأنني أحاول تنشئته ليصير إنساناً حقيقياً محترماً، وليس واحداً من أولئك المهابيل المتسكّعين،... طبعاً... يعتبرونني كثير التذمّر... لا يعجبني شيء!».

وعلى الدوام، مع تلك العبقرية البشرية الخالدة التي تجعل المرء يصل عبر أسوأ الطرق الممكنة إلى أهداف تفاجئه سهولة الوصول إليها، كان بابِت يحب ابنه ويستمتع بدفء صحبته؛ وكان مستعداً للتضحية بكل شيء من أجله... إنْ كان يستطيع الثقة بأن تضحيته سوف تقدَّر حق قدرها.

-2-

كان تيد يخطط لإقامة حفلة يدعو إليها مجموعته في المدرسة الثانوية.

أراد بابِت أن يكون مفيداً، وأن يكون ظريفاً. استحضر بعض ذكريات مباهج مدرسته الثانوية عندما كان في كاتاوبا فاقترح عليهم ألطف الألعاب: «لعبة الذهاب إلى بوسطن، ومسيرة يجعلون فيها الطناجر خوذات على رؤوسهم، وألعاب الكلمات أيضاً». وعندما بلغ ذروة حماسته اكتشف أنهم غير متنبّهين لِما يقول... كانوا يتحملون وجوده فقط!

وأما الحفلة نفسها، فكانت حفلة قياسية مقررة مسبقاً، مثلها مثل لقاءات النادي. سيكون فيها رقص في غرفة المعيشة، ومجموعة من النبلاء يجلسون في غرفة الطعام، وطاولتان للبريدج في الصالة من أجل من دعاهم تيد «الكسالى البائسين الذين لا تستطيع أن تجعلهم يرقصون أكثر من نصف وقت الحفلة».

وعلى كل إفطار، كان الحديث محتَكَراً للتداول في ترتيب الحفلة. ما عاد أحد يصغي إلى نشرات الأخبار التي يقدمها بابِت عن طقس شهر شباط، ولا إلى نحنحته عندما يريد أن يعلق على عناوين الأخبار. كان يقول غاضباً: «هل تسمحون لي أن أقاطع حديثكم الخاص المزعج... هل تسمعون ما أقول؟».

فترد السيدة بابِت منزعجة: «أوه! لا تكن طفلاً مدللاً! إن لنا، تيد وأنا، حقًّا في الكلام مثلك تماماً!».

سُمِح له أن يكون متفرِّجاً ليلة الحفلة، وذلك عندما لا يكون منشغلاً بمساعدة ماتيلدا في إعداد مثلَّجات الفيتشيا والبيتيفور. كان انزعاجه عميقاً! قبل ثماني سنوات، عندما أقامت فيرونا حفلة دعت إليها أصدقاءها في المدرسة الثانوية، كان طفلاه ساذجين لا مستقبل لهما. أما الآن فهما رجل وامرأة في هذا العالم... رجل وامرأة متكبّران معتَدّان بنفسَيهما. تعامل الأولاد في الحفلة مع بابِت بنوع من التنازل والتعطّف. كانوا في ملابس السهرة. وقبلوا منه، مترفّعين، سجائر قدَّمها لهم في علبة فضية. كان بابِت قد سمع قصصاً عما يطلقون عليه في النادي الرياضي اسم «الانفلات» في حفلات الشباب، إضافة إلى قصص عن البنات اللواتي «يضعن» مشداتهن في غرفة الملابس، وعن «محاضنات وملاطفات ولمسات» ... أي عن أشياء تعتبر زيادة في نسبة ذلك الشيء الذي يسمّونه قلة الأخلاق. لقد صدّق هذه القصص اليوم. بدا الأولاد له باردين جريئين. كانت الفتيات في فساتين من الشيفون الفضّي أو المخمل المرجاني أو من قماش ذهبي، وعلى شعورهن المتطايرة هنا وهناك كانت أطواق من الزهور. تأكد، بعد استطلاع سرّي عاجل، من عدم وجود أي مشدات في تلك الغرفة في الأعلى. لكنه كان واثقاً من أن هذه الأجساد المنطلقة المتوثبة ما كانت مقيَّدة بأي مشدّات الآن. كانت جواربهن من الحرير البَرّاق، وأحذيتهن غالية الثمن، غير طبيعية... وكانت شفاههن مدهونة وحواجبهن مرسومة. كن يرقصن ملتصقات بالشباب. أصيب بابِت بالغثيان لشدة قلقه... ولشدة الحَسَد في لا وعيه.

كانت أونيس ليتلفيلد أسوأ الفتيات على الإطلاق. وكان تيد أكثر الأولاد جنوناً. كانت أونيس شيطانة طائرة... تنطلق من أقصى الغرفة إلى أقصاها، ويتمايل كتفاها الرقيقان. وقدماها تتحركان نشطتين مثل مكوك الحائك. كانت تضحك وتغري بابِت بالرقص معها.

عند ذلك اكتشف جزءاً ملحقاً بالحفلة!

كان الفتيات والفتيان يختفون من حين لآخر. وكان بابِت قد سمع شائعات عن تناولهم الكحول من زجاجات صغيرة يضعونها في جيوبهم. تسلل من حول البيت فرأى، في كل سيارة من أكثر من عشر سيارات واقفة في الشارع، رؤوس السجائر المتوهّجة؛ وسمع من كل سيارة قهقهات مرتفعة. أراد أن يوبّخهم لكنه كان واقفاً في الثلج مسترقاً النظر من زاوية مظلمة فلم يجرؤ على ذلك. أراد أن يكون لَبِقاً! وعندما عاد إلى البيت خاطب الأولاد متملّقاً: «هل يشعر أحد منكم بالظمأ؟ لدينا شراب زنجبيل لذيذ».

تنازلوا فأجابوه: «أوه! شكراً لك!».

بحث عن زوجته؛ وعندما رآها في حجرة إعداد الطعام، انفجر قائلاً: «أود أن أذهب إليهم فأرمي بعض هؤلاء الجراء خارج البيت! إنهم يتحدّثون معي بتكبّر كأنني خادم عندهم! سوف...».

تنهّدت زوجته: «أعرف هذا! لكنهم يقولون جميعاً... الأمهات كلهن يقلن لي... إذا لم يتحمل المرء سلوك هؤلاء الأطفال، وإذا أظهر غضبه لأنهم يخرجون إلى سياراتهم لتناول الشراب، فلن يأتوا إلى بيته مرة أخرى. لا نريد أن نحرم ابننا تيد من زيارة أصدقائه، أليس كذلك؟».

قال إنه سيكون مسروراً بأن يحرم تيد من هذه الأشياء. لكنه أسرع إليهم وحاول أن يكون مهذباً... حتى لا يحرم تيد من هذه الأشياء!

لكنه اتخذ قراراً: إذا وجد أن الأولاد يتناولون الكحول، فسوف... سوف «يريهم شيئاً يفاجئهم». وبينما راح يحاول أن يكون لطيفاً مع شباب متنمّرين عريضي المناكب، كان يتشمّم رائحتهم بانتباه. التقط مرتين رائحة الويسكي المهرَّب، لكنها... لكنها كانت مرتين، لا أكثر!

دخل الدكتور هاورد ليتلفيلد متثاقلاً.

جاء حتى يلقي نظرة... جاء بهيئة أبوية جادة. كان تيد وأونيس يرقصان متلاصقَين، يتحرّكان كأنهما جسد واحد. كان صوت ليتلفيلد لاهثاً عندما نادى أونيس. جرى بينهما حوار هامس. شرح ليتلفيلد لبابِت أن والدة أونيس تعاني صداعاً وأنها في حاجة إليها. ذهبت أونيس باكية. ألقى بابِت خلفهما نظرة حانقة: «تلك الشيطانة الصغيرة! إنها توقع تيد في المتاعب! ثم... ليتلفيلد، هذا الفارغ المغرور... يتصرف كما لو أن تيد هو الذي يمارس تأثيراً سيئاً على ابنته».

بعد ذلك، شم رائحة الويسكي في أنفاس تيد.

بعد وداع الضيوف وداعاً مهذباً، جرت مشاجرة مخيفة... مشهد عائلي كامل، مثل

انهيار ثلجي مدمّر يكتسح كل شيء من غير توقف. كان بابِت يصيح بصوت كالرعد، وكانت السيدة بابِت تبكي. أما تيد فكان مشاكساً على نحو غير مقنع. وأما فيرونا فكانت محتارة في اختيار الفريق الذي يجب أن تتخذ صَفَّه.

استمر البرود أشهراً كثيرة بين آل بابِت وآل ليتلفيلد. ظلت كل عائلة تحمي حَمَلَها الصغير من الذئب الذي يعيش في البيت المجاور. واصل بابِت وليتلفيلد الكلام من حين لآخر، عن السيارات وعن مجلس الشيوخ... لكنهما تجنّبا أي ذكر لأسرتيهما. وكلما أتت أونيس إلى البيت، كانت تتحدث بمودة لطيفة عن حقيقة أنها ممنوعة من المجيء إليهم. وكان بابِت يحاول، من غير نجاح أبداً، أن يلعب دور الأب الناصح تجاهها.

- 3 -

قال تيد لأونيس: «أشعر كأنني سمكة عالقة في سنارة!»... كانا واقفين في تلك الروعة المزخرفة في الصيدلية يلتهمان الشوكولاته وقِطعاً من السكاكر ومن المكسَّرات المغلّفة بالسكر... «لا أفهم لماذا لا يستطيع أبي أن يكف عن دسّ أنفه في كل شيء. يجلس هنا كل ليلة، نصف نائم، وإذا قلت أو إذا قالت روني «هيا، فلنفعل شيئاً ما»، فإنه لا يكلف نفسه حتى مشقّة التفكير في ما نقول. يتثاءب فقط، ثم يقول: «لا، يناسبني أن أظل هنا». إنه لا يرى متعة في الذهاب إلى أي مكان. أظن أنه قادر على التفكير، مثلما نفكر أنا وأنت، لكني لست واثقاً من هذا! لا أظن أنه يعرف شيئاً خارج المكتب ولعب الغولف يوم السبت إلا الجلوس هنا كل ليلة من غير أن يكون راغباً في فعل أي شيء، أي شيء... وهو يرانا مجانين... يجلس هنا فقط... يا ربي!».

- 4 -

كان كسل تيد يخيف بابِت، لكنه لم يرَ ما يدعو إلى خوف حقيقي بالنسبة لفيرونا. كانت الفتاة آمنة تماماً. إنها تعيش كثيراً في ذلك الحيز الصغير داخل عقلها. كان يراها دائماً مع كينيث إسكوت. وعندما لا يكونان جالسَين في البيت ينفقان الوقت في بحث دقيق في الإحصاءات والأفكار الراديكالية، كانا يذهبان إلى محاضرات يلقيها كُتّاب وفلاسفة هندوس وملازمون سويديون.

قال بابِت لزوجته في طريق عودتهما من سهرة لعب الورق عند آل فوغارتي: «غريب! يزعجني أمر روني وذلك الشاب. يظلان جالسَين ليلة بعد أخرى، عندما لا يكون لديه عمل، ولا يعرفان أن في هذا العالم سبلاً كثيرة للمرح. كله كلام ومناقشات...

ورفع يده فأوقف عربتنا ثم قال: «أيها الميجور! قرّر أناس كثيرون هنا دعم الكولونيل سكانيل في انتخابات الكونغرس. ونريد منك أن تنضم إلينا، وأن تلتقي بالناس وتحدّثهم مثلما تفعل في متجرك. تستطيع أن تساعدنا كثيراً».

عندها نظر والدك إليه ثم قال: «لن أفعل شيئاً من ذلك بالتأكيد. لا أحب سياسته». قال الرجل ـ كان اسمه الكابتن سميث، هكذا كانوا يدعونه. السماء وحدها تعرف السبب... لم يكن له شكل أو مقام شخص يصلح لأن يخاطبه الناس بلقب كابتن، أو بأي لقب آخر ـ قال هذا الكابتن سميث: «سنجعل أمورك صعبة إذا لم تناصر أصدقاءك أيها الميجور». وأنت تعرف كيف كان والدك! كان سميث يعرف ذلك أيضاً؛ كان يعرف كم كان والدك رجلاً حقيقياً؛ وكان يعرف أن والدك يدرك الوضع السياسي من الألف إلى الياء، وأنه رجل لا يستطيع أن يفرض عليه أحد أي شيء. لكنه ظل يحاول، ويلمّح، ويحاول، إلى أن قال له والدك: «اسمع يا كابتن سميث! من المعروف عني في هذه الأنحاء أنني شخص مؤهَّل تماماً للاهتمام بشؤوني ولترك الآخرين يهتمون بشؤونهم أيضاً». وبعد ذلك قاد العربة تاركاً ذلك الرجل واقفاً حائراً في الشارع مثل مسمار على خشبة». كان استياء بابِت كبيراً عندما كُشفت طفولته أمام أولاده. والظاهر مما قالته أنه كان مولعاً بسكر الشعير، وأنه كان يضع «قوساً وردياً صغيراً جميلاً على شعره»، وكان يغير اسمه إلى «جوجو». وقد سمع بابِت (رغم أنه لم يسمع هذا رسمياً) تيد يقول لتينكا محذّراً متوعّداً: «هيا الآن، هيا يا بنت، ضعي هذا القوس الوردي الجميل على شعرك وتعالي إلى الإفطار وإلا فإن جوجو سوف يقضم رأسك كله».

ثم جاء أخو بابِت غير الشقيق، مارتين، مع زوجته وأصغر أطفاله. جاؤوا من كاتاوبا وبقوا يومين. كان مارتين يربّي الماشية ويدير المتجر المغبر القديم. كان معتزاً بأنه أمريكي مستقل حر، واحد من الشماليين القدامى الطيبين. كان معتزاً بصدقه، ووقاحته، وبشاعته، وبأنه منفِّر أيضاً. وكانت عبارته المفضلة «كم دفعت ثمناً لهذا الشيء؟». نظر إلى كتب فيرونا، وإلى قلم بابِت الفضي، وإلى الزهور الموضوعة على الطاولة، باعتبارها كلها من مبالغات أهل المدينة الفارغة؛ وقال لهم ذلك أيضاً. كان بابِت موشكاً على العراك معه لولا وجود زوجته الخرقاء وطفله الصغير الذي كان بابت يناكفه وينخزه بإصابعه قائلاً له: «أظن أن هذا طفل سيىء، نعم، نعم يا سيدي، أظن أنه طفل صغير سيىء، إنه سيىء، نعم يا سيدي، إنه سيىء، هكذا هو، إنه سيىء، هذا طفل سيىء، إنه ليس إلا طفلاً سيئاً، هكذا هو، طفل سيىء».

فيرونا وكينيث إسكوت، كانا يمضيان الوقت كله في مناقشات طويلة في علم المعرفة. وكان تيد رافضاً متمرّداً مخزياً. وكانت تينكا، التي بلغت أحد عشر عاماً، تطلب

يا ربي! يجلسان هناك... يجلسان ليلة بعد ليلة... لا يريدان فعل شيء... يظنان أنني مجنون لأنني أحب أن أخرج من البيت لألعب الورق... يظلان جالسين... أفّ!».

وبعد ذلك، ظهرت من حول ذلك السابح الذي أصابه الملل نتيجة غوصه الدائم في الحياة المنزلية، موجات جديدة.

ـ 5 ـ

قام والد ووالدة زوجة بابِت، السيد والسيدة ثومبسون، بتأجير بيتهما القديم في منطقة بيلفيو وانتقلا للعيش في فندق هاتون المليء بالأرامل وبالأثاث المنجَّد بقماش أحمر وبأصوات إعداد أبارق الماء المثلّج. كانا يشعران بالوحدة هناك. وكان على الزوجين بابِت أن يتناولا العشاء معهما كل ليلة أحد وأن يأكلا الدجاج المقلي والكرفس المفروم والمثلجات المصنوعة من نشاء الذرة؛ وأن يجلسا بعد ذلك مهذَّبَين متحفظَين في ردهة الفندق التي فيها عازفة كمان شابّة تقدم أغنيات من الأفلام.

ثم جاءت والدة بابِت من كاتاوبا لتمضي معهم ثلاثة أسابيع.

كانت امرأة لطيفة، وغير متفهِّمة إلى حد رائع. هنّأت فيرونا، مخالِفة إجماع الأسرة كلها، على أنها «بنت بيت لطيفة مخلصة ليست لديها كل تلك الأفكار التي تحملها البنات هذه الأيام». وعندما قام تيد بتشحيم السيارة ملوِّثاً كل شيء، نتيجة حبّه للآلات ونتيجة قذارته أيضاً، انشرحت الجدة كثيراً لأنه «يهتم بالأمور المنزلية، ويساعد والده والجميع، ولا يخرج مع البنات طيلة الوقت، ولا يحاول أن يتظاهر بأنه شخص اجتماعي».

كان بابِت يحب والدته؛ بل كانت تعجبه أحياناً. لكن صبرها المسيحي كان يزعجه. وكانت عواطفه تجيش عندما تتحدث عن ذلك البطل الأسطوري تماماً الذي تطلق عليه اسم «والدك».

«أنت لا تتذكر ذلك يا جورجي، فقد كنت طفلاً صغيراً في ذلك الوقت... أذكر كيف كان شكلك في ذلك اليوم، بخصلات شعرك البنّية الذهبية وياقتك البيضاء المخرَّمة. كنت طفلاً لذيذاً دائماً؛ وكنت مريضاً معتلّاً على الدوام. وكنت تحب أشياءك اللطيفة الصغيرة، وتلك الشراشيب الحمراء على حذائك، وكل شيء... كنا ذاهبين مع والدك إلى الكنيسة عندما أوقفنا رجل وقال: «أيها الميجور!»... كانت تلك كلمة يستخدمها الجيران لمخاطبة والدك... «ميجور». لم يكن والدك إلا جندياً، بطبيعة الحال، خلال الحرب. لكن الجميع كانوا على علم بأنه ظل في رتبة جندي نتيجة حَسَد قائده، وبأنه كان يجب أن يكون ضابطاً برتبة عالية. كانت لديه تلك القدرة الطبيعية على إصدار الأوامر، تلك القدرة التي لا يملكها إلا رجال قليلون جداً، جداً... وقف ذلك الرجل في الطريق

السماح لها بالذهاب إلى السينما ثلاث مرات في الأسبوع... «مثل بقية البنات».

قال بابِت في نفسه غاضباً: «سئمت هذا كله! عليَّ أن أحمل ثلاثة أجيال معاً. يرخون ثقلهم عليَّ جميعاً. يجب أن أدفع نصف دخل أمّي، وأن أستمع إلى هنري، وأن أستمع إلى ميرا تحذّرني، وأن أكون مهذباً مع مارتين، وأن أعتبر عجوزاً نكِداً لأنني أحاول مساعدة الأطفال. يعتمدون عليَّ جميعاً، ويزعجونني، ولا يعبِّر أحد منهم عن امتنانه! لا راحة، ولا امتنان، ولا مساعدة من أحد! وهذا مستمر حتى... يا إلهي حتى متى؟».

استمتع بابِت عندما مرض في شهر شباط. أسعده ذعرهم عندما رأوه... عندما رأوا تلك الصخرة تتهاوى... عندما رأوه ضعيفاً.

كان قد أكل سمكة مشكوكاً في صلاحيتها للأكل! ظل واهناً يومين اثنين حظي خلالهما بالرعاية والتقدير. كان مسموحاً له أن يزمجر من غير انتقام: «أوه، اتركوني وحدي!».

ظل راقداً في شرفة النوم يراقب شمس الشتاء تنحدر على الستائر الأنيقة النظيفة محولة لونها الكاكي إلى لون أحمر دَمَوي شاحب. كان ظل الحبل المستخدم لجر الستائر أسود قاتماً كأنه موجة صغيرة لطيفة على سطح لوحة. أعجبه شكل هذا الظل، وتنهَّد آسفاً عندما تشوشت معالمه مع تراجع ضوء الشمس. كان مدركاً للحياة في الخارج؛ وكان عنده شيء من الحزن. فمن غير وجود فيرجيل غانتش وأمثاله ممّن يرسم حضورهم على وجهه تفاؤلاً مصمماً، رأى الآن (اعترف نصف اعتراف فقط بأنه رأى هذا) بأن أسلوب حياته كان ميكانيكياً إلى حد لا يُصدَّق. عمل ميكانيكي - بيع سريع لبيوت رديئة البناء، دين ميكانيكي، كنيسة جافّة صلبة، معزولة عن الحياة الحقيقية في الشوارع، محترَمة على نحو غير بشري مثلما يحترم المرء قبّعة قديمة. يذهب على نحو ميكانيكي إلى لعب الغولف وإلى حفلات العشاء وإلى لعب البريدج والأحاديث. بل إن صداقاته كلها - ما عدا بول ريزلينغ - ميكانيكية أيضاً... التربيت على الظهر، والممازحة، وعدم التجرؤ على خوض اختبار الصمت.

تقلَّب في فراشه غير مرتاح.

رأى السنوات، أيام الشتاء المتألقة، وكل العَشيّات الطويلة الحلوة التي تغري المرء بالخروج إلى المروج الصيفية... تضيع كلها في تلك المظاهر الفارغة الهَشّة. فكر في الاتصالات الهاتفية من أجل الإيجارات، وفي تزلّفه إلى أشخاص يكرههم، وفي زيارات العمل والانتظار في المداخل القذرة واضعاً قبعته على ركبته، متثائباً ناظراً إلى تقويم جداري لوّثه الذباب، متأدّباً مع صبيان المكاتب.

قال: «ما عدت أريد الذهاب إلى العمل. أود أن... لا أعرف».

لكنه عاد إلى العمل في اليوم التالي؛ عاد منهمكاً مشغولاً سيئ المزاج.

الفصل التاسع عشر

- 1 -

وضعت شركة المواصلات في زينيث خطة لبناء ورش لإصلاح السيارات في ضاحية دورتشستر. وعندما أرادوا شراء الأرض وجدوا أنها قد بيعت بيعاً أولياً لشركة بابِت ثومبسون العقارية. احتجَّ مسؤول المشتريات في الشركة، وهو النائب الأول لرئيس الشركة، على السعر الذي طلبه بابِت للتنازل عن تلك الأرض؛ وكذلك احتجَّ رئيس شركة المواصلات نفسه. أشار الرجلان إلى واجبهما تجاه حَمَلَة الأسهم، وهددا باللجوء إلى القضاء. لكن ذلك لم يحدث، لسبب ما؛ ووجد مسؤولو الشركة أن التوصل إلى تسوية مع بابِت هو السبيل الأكثر حكمة. وضعت نسخ كربونية من المراسلات في ملفات الشركة حتى تكون العودة إليها ممكنة إذا أرادت أي جهة حكومية مراجعتها.

وبعد ذلك مباشرة، أودع بابِت ثلاثة آلاف دولار في المصرف؛ واشترى مسؤول المبيعات في شركة المواصلات، وهو نائب الرئيس أيضاً، سيارة جديدة بخمسة آلاف دولار؛ وبنى بيتاً في ديفون وودز؛ وجرى تعيين رئيس الشركة سفيراً في بلد أجنبي.

كان الشراء المبدئي للأرض، أي تجميد وضعها من غير أن يعرف الجيران بالأمر، جهداً غير معتاد بالنسبة لبابِت. كان من الضروري إطلاق شائعات عن التخطيط لإقامة مخازن ومواقف سيارات، وكذلك التظاهر بعدم الحصول على أي عروض أخرى لشراء الأرض، وأن ينتظر المرء ويبدو ضَجِراً مثل لاعب بوكر في الوقت الذي يمكن أن يؤدي فشله في ترتيب الشراء الفعلي إلى إفشال الخطة كلها. ثم أضيف إلى هذا كله عراك صامت خفي مع شركائه السرّيين في الصفقة. رفض الشركاء حصول بابِت وثومبسون على أي حصة في الصفقة، عدا عمولتهما العقارية. وافق بابت على هذا بعض الشيء: «إن على أخلاقيات رجل الأعمال الوسيط أن تكون تمثيلاً حقيقياً لمبادئه، وعليه ألا يكون واحداً من المشترين»... هكذا قال لثومبسون.

نخر هنري العجوز غاضباً: «أخلاقيات! يا للشيطان! أتظن أنني سأنتظر حتى أرى تلك الحفنة من اللصوص تستولي على الغنيمة كلها من غير أن يكون لنا حصة فيها؟».

«حسنًا! لا أحب أن أفعل هذا. إنه نوع من الخيانة».

«إنه ليس كذلك! ... هذه خيانة للخائنين. الجمهور هو الذي يتعرّض للخيانة هنا. لقد كنا أخلاقيين ومسحنا كل شيء من سجلاتنا. السؤال هو ما إذا كنا نستطيع الحصول على قرض من أجل شراء قسم من هذه الأرض لأنفسنا سراً. لا نستطيع أن نطلب هذا القرض من مصرفنا، فقد ينكشف الأمر».

«أستطيع أن أرى إيثورن فهو يحفظ السر كأنه قبر».

«أحسنت! هذا هو الكلام».

قال إيثورن إنه سعيد بأن «يستثمر في الشخصية»، وأن يمنح بابِت قرضاً مع ضمان عدم ظهوره في سجلات المصرف. كان ذلك بعد أن تأكد من أن بابِت وثومبسون قد حصلا على أجزاء من العقار، وصارت ملكاً لهما في واقع الأمر من غير أن تكون مسجَّلة باسمَيهما.

وفي خضم إنجاز هذه الصفقة الرائعة التي من شأنها تنشيط الأعمال وزيادة الثقة العامة من خلال مثال واضح يشير إلى زيادة النشاط العقاري، فوجئ بابِت باكتشاف شخص غير شريف يعمل معه.

كان ذلك الشخص غير الشريف هو ستانلي غراف، موظف المبيعات الخارجي.

كان لدى بابِت شكوك تجاه غراف منذ فترة. لم يكن غراف يفي بوعوده للمستأجرين. فحتى يتمكن من تأجير بيت من البيوت، كان يعد المستأجر بإجراء إصلاحات لم يقبل بها مالك البيت. وكان ثمة شك أيضاً بأنه يتلاعب بتسجيل موجودات البيوت المفروشة بحيث يكون على المستأجر، حين يترك البيت، أن يدفع ثمن أشياء لم تكن موجودة في الأصل. وكان غراف يضع هذا الثمن في جيبه. لم يتمكن بابِت من العثور على دليل يثبت هذه الشكوك. ورغم أنه عقد العزم على تسريح غراف، إلا أنه لم يجد وقتاً لذلك.

اندفع إلى غرفة بابِت الخاصة في المكتب رجل محمَرّ الوجه وقال لاهثاً: «انظر إليّ! جئت إلى هنا لأثير مشكلة كبرى! إذا لم تعاقب ذلك الموظف، فسوف...».

«ماذا... اهدأ يا رجل! ما المشكلة؟».

«المشكلة! هاه! هذه هي المشكلة...».

«اجلس وهوِّن عليك! إن صوتك مسموع في البناية كلها».

«ذلك الشخص، غراف، الذي يعمل لديكم! لقد أجرني بيتاً. كنت هناك البارحة ووقعت على الإيجار. جرى كل شيء على ما يرام. وكان عليه أن يجعل مالك المنزل

يوقع ثم يرسل لي عقد الإيجار عن طريق البريد الليلة الماضية. لقد فعل هذا حقاً. نزلت لأتناول فطوري فقالت الخادمة إن شخصاً جاء إلى البيت بعد وصول ساعي البريد مباشرة وقال لها إنه يريد أن يأخذ مغلفاً جاء عن طريق الخطأ... مغلّفًا كبيرًا متطاولًا على زاويته شارة «بابِت ـ ثومبسون». نعم، بالتأكيد، كان المغلف موجوداً بالفعل. وقد تركته يأخذه. وصفت الخادمة ذلك الرجل. إنه غراف نفسه. اتصلت به فاعترف ذلك الأحمق البائس بالأمر! قال لي إنه تلقّى عرضاً أفضل بعد توقيع عقدي، وهذا ما جعله يستعيد العقد. والآن... ماذا ستفعل؟».

«اسمك هو... ؟».

«ويليام فارني... و. ك. فارني».

«أوه، نعم! أنت تتكلم على ذلك البيت في غاريسون». ضغط بابِت على زِرّ الجرس. وعندما جاءت الآنسة ماكغاون سألها: «هل خرج غراف؟».

«نعم يا سيدي».

«من فضلك، ابحثي في مكتبه عن عقد إيجار لذلك المنزل في غاريسون باسم السيد فارني». وقال لفارني: «لا أستطيع أن أعبّر عن شدة أسفي لحدوث هذا الأمر. ولا حاجة للقول إنني سوف أطرد غراف لحظة عودته. إن عقدك ساري المفعول بطبيعة الحال. لكن هنالك شيء آخر أريد أن أفعله. سأقول لمالك البيت ألا يدفع لنا العمولة؛ سأطلب منه اعتبارها جزءاً من الإيجار. لا تقل شيئاً! هذا ما أريده فعلاً. سأكون صريحاً معك وأقول إن هذا الأمر أزعجني كثيراً. أظن أنني كنت رجل أعمال عملياً على الدوام. ربما أبالغ أحياناً، وأقصّ قصصاً خرافية عندما يستدعي الموقف ذلك... أنت تعرف: تضطر إلى تجميل الأمور أحياناً حتى تستطيع التأثير على بعض الأشخاص. لكنها المرة الأولى التي أجد فيها نفسي مضطراً إلى اتهام واحد من الموظفين عندي بشيء يتجاوز اختلاس بعض الطوابع. بشرفي... سيؤلمني أن أتقاضى أي ربح من عقدك. إذن، هل تسمح لي أن أعيد لك العمولة عن طريق صاحب البيت؟... جيد!».

ـ 2 ـ

سار بابِت في المدينة الشباطية، حيث كانت السيارات تنطلق مسرعة وحيث كانت السماء تبدو قاتمة اللون فوق الأفاريز القرميدية الداكنة. عاد إلى المكتب تعيساً. إنه يحترم القانون؛ وقد خرقه عندما تستّر على جريمة فيدرالية هي اعتراض المراسلات البريدية. لكنه ما كان يستطيع أن يرى غراف ذاهباً إلى السجن تاركاً زوجته تعاني بعده. والأسوأ من هذا هو أنه كان مضطراً إلى تسريح غراف... ذلك الجزء من عمل المكتب

الذي يخشاه دائماً. كان يحب الناس كثيراً، وكان راغباً... كثيراً... في أن يحبه الناس. كان راغباً في ذلك إلى حد يجعله غير قادر على الإساءة إليهم.

دخلت الآنسة ماكغاون مسرعة وهمست مستثارة وقد أثارها اقتراب الفضيحة: «إنه هنا!».

«السيد غراف؟ اطلبي منه الدخول».

حاول أن يجعل نفسه ثقيلاً هادئاً في مقعده، وأن تكون عيناه خاليتين من أي تعبير. دخل غراف متثاقلاً... رجل أنيق في الخامسة والثلاثين، ونظارة، وشارب مُعتَنى به جيِّدًا.

قال غراف: «هل طلبتني؟».

«نعم، اجلس».

ظل غراف واقفاً، مبتسماً: «أظن أن ذلك العجوز فارني جاء لرؤيتك. دعني أوضح لك شيئاً عنه. إنه بخيل جداً. يتمسّك بكل قرش. وقد كذب عليَّ في ما يتعلق بقدرته على تسديد الإيجار... اكتشفت هذا مباشرة بعد توقيعنا على العقد. ثم جاء شخص آخر وقدَّم عرضاً أفضل من أجل ذلك المنزل. شعرت بأن من واجبي تجاه الشركة أن أتخلّص من فارني. أقلقني الأمر إلى درجة أنني بقيت واقفاً هناك حتى استطعت أن أستعيد العقد. بشرفي يا سيد بابِت، لم أكن أقصد أن أفعل أي شيء غير صحيح. لم أقصد إلا أن تحصل الشركة على العمولة كلـ...».

«انتظر الآن يا ستان! قد يكون هذا صحيحاً كله، لكنني تلقيت شكاوى كثيرة عنك. لا أظن أنك تعمَّدت القيام بشيء خاطئ. وأعتقد أنك إذا تلقّيت درساً جيداً، درس يهزّك قليلاً، فسوف تصبح سمسار عقارات من الدرجة الأولى. لكنني لا أرى طريقة تسمح لي بأن أحتفظ بك هنا».

استند غراف إلى خزانة الملفات واضعاً يديه في جيبيه، وضحك: «أنا مطرود إذن! حسنًا جداً... إنها الرؤية القديمة والأخلاقيات القديمة... هذا يضحكني حتى الموت! لكن لا أريدك أن تظن أنك تستطيع الإفلات بهذا الأمر. من المؤكد أنني أخذت بعض الأشياء... القليل منها... لكن، كيف يمكن ألا أفعل ذلك في هذا المكتب؟».

«الآن... بحق الرب أيها الشاب...».

«توت، توت!... لا حاجة إلى هذا الطبع السيئ. لا ترفع صوتك لأن كل من في المكتب الخارجي سوف يسمعك. لعلهم يستمعون إلينا الآن. يا عزيزي بابِت، أنت شخص ملتوٍ في المقام الأول، ثم إنك بخيل جداً. لو كنت تدفع لي راتباً مقبولاً لما اضطررت إلى سرقة قروش من رجل أعمى حتى أطعم زوجتي. تزوَّجنا من خمسة أشهر، وهي ألطف فتاة في الدنيا كلها. وأنت تتركنا مفلسين طيلة الوقت، أنت أيها اللص العجوز الملعون، حتى

تستطيع ادخار بعض المال من أجل ابنك المخبول وابنتك الحمقاء الطائشة! انتظر الآن! ستسحب كلامك وإلا فسأصرخ حتى يسمع المكتب كله ما أقول. قل لي أيها المحتال... لو ذهبت الآن وأخبرت المدعي العام بما أعرفه عن سرقة شركة المواصلات فسنوضع في السجن، أنت وأنا، ومعنا عدد من مسؤولي الشركة النظيفين اللطيفين المؤمنين».

«حسنًا يا ستان! يبدو أننا دخلنا في التفاصيل. تلك الصفقة... ليس فيها شيء معوجّ. إن السبيل الوحيد لتحقيق التقدم هو أن تجعل هؤلاء الكبار يوافقون؛ ولا بد من حصولهم على مكافأة...».

«أوه! بحق السماء، لا تتظاهر بأنك رجل صالح! إنني مطرود الآن كما أفهم الأمر! لا بأس... هذا أمر جيد بالنسبة لي. وإذا أمسكت بك تشي بي لدى أي شركة أخرى فسوف أقول كل ما أعرفه عنك وعن هنري وتلك الصفقات المشبوهة التي تُبرمونها... أنتم الصغار في هذا القطاع... لصالح محتالين أكبر منكم وأذكى منكم. وسوف تضطر إلى الهرب من المدينة. أما أنا... أنت على حق يا بابِت... لقد قمت ببعض الأشياء غير المستقيمة... لكنني مستقيم الآن. وأول خطوة أعتزم القيام بها هي الحصول على وظيفة في شركة لا يتحدث مديرها عن المُثُل العليا. حظ سيئ يا صديقي العجوز... يمكنك أن تلقي بوظيفتك هذه في البالوعة».

ظل بابِت جالساً زمناً طويلاً يتقلّب بين الغضب «سوف أجعلهم يعتقلونه» وبين الأسف «لا أدري... لا... لم أفعل إلا ما كان ضرورياً لاستمرار حركة التقدم».

وفي اليوم التالي، عيَّن فريتز ويلينغر بديلاً من غراف. كان ويلينغر مسؤول المبيعات لدى أسوأ خصوم بابِت، شركة إيست سايد للبيوت والتنمية العقارية. وهكذا فقد أزعج منافسه وحظي بموظف ممتاز. كان فريتز شاباً أجعد الشعر مَرِحاً يلعب التنس. وكان يهتم باستقبال العملاء في المكتب. اعتبره بابِت ابناً له لأنه وجد فيه راحة كبرى.

-3-

كان مضمار سباق مهجور في ضواحي شيكاغو معروضاً للبيع. وكان ذلك المكان بقعة ممتازة لإقامة مصنع. طلب جيك أوفوت من بابِت أن يقدِّم عرضاً لشراء تلك الأرض من أجله. وكان التوتر الذي رافق صفقة شركة المواصلات وخيبة أمله في ستانلي غراف قد هزَّا بابِت إلى حد جعله يجد صعوبة في الجلوس إلى مكتبه، أو في التركيز. قال أمام أسرته: «اسمعوا! هل تعرفون من سيذهب إلى شيكاغو مدة يومين - نهاية الأسبوع فقط... غياب يوم واحد عن المدرسة... هل تعرفون من سيذهب مع سفير الأعمال الشهير جورج بابِت؟ إنه السيد ثيودور روزفلت بابِت!».

صاح تيد: «هورا! ... قد يفعل رجال بابِت العجائب في تلك المدينة».

صارا رجلين مسافرَين معاً بعد أن ابتعدا عن التفاصيل المنزلية المألوفة. ما كان تيد صغير السن إلا من حيث محاولته الظهور بمظهر الكبار. ومن الواضح أن الميادين التي يمتلك فيها بابِت معرفة أوسع وأنضج من معرفة تيد لم تكن إلا التفاصيل المتعلقة بالعقارات، وبعض العبارات السياسية. وعندما تركهما العقلاء الآخرون في مقصورة التدخين ينفردان معاً، لم يتحول صوت بابِت إلى تلك النغمة المازحة المسيئة التي يخاطب بها المرء طفلاً، بل حافظ على قعقعته الرتيبة الطاغية. حاول تيد تقليده بصوته الحاد: «عجباً يا أبي!... لقد ألزمت ذلك الحذاء القديم حَدّه عندما راح يتشدّق عن عصبة الأمم».

«ثمة مشكلة عند أشخاص كثيرين، وهي أنهم لا يعرفون عمّ يتكلمون. ليست لديهم معلومات... ما رأيك في كينيث إسكوت؟».

«سأقول لك يا أبي: إن كينيث شاب لطيف. ليس عنده أي عيوب واضحة سوى أنه يدخن كثيراً... لكنه بطيء، يا إلهي! لماذا... إذا لم ندفعه دفعاً، فإن ذلك البليد لن يطلب يدها! روني سيئة مثله أيضاً... بطيئة».

«نعم! أظن أنك على حق. إنهما بطيئان. لا يمتلك أي منهما ما نمتلكه نحن من حيوية».

«هذا صحيح! إنهما بطيئان! أقسم يا أبي أنني لا أعرف كيف جاءت روني إلى أسرتنا! أراهن... لو عرفنا الحقيقة لاكتشفنا أنك كنت بيضة نيئة مثلها عندما كنت طفلاً».

«لكني لم أكن بطيئاً هكذا».

«أعرف أنك لم تكن هكذا! أراهن أنك كنت تعرف الحِيَل كلها».

«حسنًا... عندما كنت أخرج مع الفتيات، لم أكن أمضي الوقت كله في الحديث معهن عن إضراب عمال الغزل».

قهقها معاً... ثم أشعلا معاً سيجاراً لكل منهما.

سأله بابِت: «ماذا نفعل بهما؟».

«واه! لا أعرف! أقسم أنني أشعر أحياناً برغبة في الانفراد بكينيث جانباً وطرح الأمر بشكل واضح معه: «اسمع يا صديقي الشاب، هل تعتزم الزواج من أختي روني أم أنك تريد أن تقتلها بكثرة كلامك؟ ها أنت تكاد تبلغ الثلاثين الآن، ولا تكسب أكثر من عشرين أو خمسة وعشرين دولاراً في الأسبوع! متى يصبح عندك إحساس بالمسؤولية وتطلب زيادة أجرك؟ إذا كنا، جورج بابت وأنا، نستطيع أن نساعدك بشيء فاتصل بنا. لكن عليك أن تُظهِرَ شيئاً من السرعة على أية حال!».

«هذا جيد! قد لا يكون أمراً سيئاً أن تتحدث معه أنت... الأمر السيئ هو أنه قد لا يفهم. إنه واحد ممن يظنون أنفسهم مثقّفين. لا يستطيع أن يكون عملياً وأن يضع أوراقه على الطاولة ويتكلم كلاماً واضحاً مباشراً مثلما نفعل أنا وأنت».

«هذا صحيح، إنه يشبه أولئك المثقفين كلهم».

«نعم، نعم... مثلهم كلهم».

«هذه هي الحقيقة».

تنهّدا، وظلا صامتَين، مفكّرَين، سعيدَين.

جاء مفتش التذاكر. كان هذا الرجل قد ذهب ذات مرة إلى مكتب بابِت ليسأل عن البيوت: «كيف حالك يا سيد بابِت! هل أنت مسافر معنا إلى شيكاغو؟ وهل هذا ابنك؟»

«نعم، إنه ابني تيد».

«عجباً، عجباً... كيف هذا؟ كنت أظن أنك لا تزال شاباً... لم أعطك يوماً واحداً أكثر من أربعين عاماً... ثم أراك الآن مع هذا الابن الشاب الرائع!».

«أربعون عاماً! لماذا يا أخي؟... سأتجاوز الخامسة والأربعين».

«هل هذا صحيح؟ لا يمكن أن يخطر هذا في بالي».

«نعم يا سيدي! يفتضح أمر العجوز عندما يسافر مع حوت شابٍّ مثل تيد هذا».

«معك حق... معك حق». ثم، مخاطباً تيد: «أظن أنك في الكلية الآن».

أجاب تيد معتداً بنفسه: «لا! ليس قبل الخريف القادم. إنني ألقي نظرة على الكليات الآن».

بعد أن تابع مفتش التذاكر دربه اللطيف ومضى سائراً على إيقاع اصطدام ساعته الضخمة بصدر بدلته الزرقاء، راح بابِت وتيد يناقشان أمور الكليات مناقشة جدية. بلغا شيكاغو في ساعة متأخرة من الليل؛ ولم يرقدا في السرير إلا مع اقتراب الصباح. قالا فرحَين: «لطيف جداً أن يكون المرء غير مضطر إلى النهوض صباحاً والهبوط لتناول الفطور، أليس كذلك؟».

كانا مقيمَين في فندق إيدن المتواضع لأن رجال الأعمال من زينيث يقيمون في هذا الفندق دائماً. لكنهما تناولا طعام العشاء في مطعم «فيرساي روم» الكريستالي المزركش في فندق ريجنسي. طلب بابِت محار بلو بوينت مع صلصة الكوكتيل، وشريحة عملاقة من اللحم مع صحن عملاق من البطاطا الفرنسية، وكأسين من القهوة، وفطيرة تفاح مع الآيس كريم لهما معاً. وطلب تيد ما طلبه أبوه، إضافة إلى فطيرة لحم مفروم.

قال تيد متعجباً: «شيء جيد! طعام لذيذ يا صاحبي».

«ها!... ابق معي يا صديقي وسوف أجعلك ترى أوقاتاً طيبة». ذهبا إلى مسرحية غنائية فكاهية. وراح كل منهما يلكز الآخر ضاحكاً عند نكت الحياة الزوجية ونكت حظر الكحول. وفي الاستراحات، سارا متبخترَين، شابكَين ذراعَيهما، منتشيَين بهذا التحرر من الخجل الذي يباعد بين الآباء والأبناء. قال تيد مبتسماً: «أبي! هل سمعت تلك النكتة عن المليونيرات الثلاثة والقاضي؟».

عاد تيد إلى زينيث، وصار بابِت وحيداً. وبينما كان يحاول التوصل إلى صفقة بين أوفوت وشركات في ميلووكي أرادت شراء مضمار السباق، كان يمضي معظم وقته منتظراً المكالمات الهاتفية... جالساً على حافة سريره، حاملاً الهاتف النقال، سائلاً بقلق: «ألم يأت السيد سيغان بعد؟ ألم يترك لي رسالة؟ لا بأس، سأنتظر على الخط». جلس محدقاً في بقعة على الجدار، مفكراً في أنها تشبه أثر طلقة من مسدس، شاعراً بالملل عندما اكتشف أن تلك هي المرة العشرون التي يشبّهها بطلقة مسدس. أشعل سيجارة ثم حار في ما يفعله بذلك الخطر المشتعل في يده وهو مربوط إلى الهاتف... ثم حاول أن يقذفها إلى الحمام. وأخيراً، قال للهاتف: «لا توجد رسالة، إيه! لا بأس، سأتصل مرة ثانية».

تجوّل بعد ظهر أحد الأيام في شوارع تراكم فيها الثلج، شوارع لم يسمع بها قبل الآن، شوارع فيها بنايات صغيرة، وبيوت لأسرتين، وأكواخ منعزلة. اكتشف أنه ليس لديه ما يفعله، وأنه لا يريد أن يفعل شيئاً. وفي المساء، أحس بوحدة شديدة عندما تناول العشاء وحيداً في فندق ريجنسي. جلس بعد ذلك في ردهة الفندق، في كرسي مزخرف الذراعَين أحمر اللون. أشعل سيجارة وراح ينظر حوله باحثاً عمن يمكن أن يأتي فيلعب معه ويريحه من التفكير. كان في كرسي قريب منه شخص له مظهر يكاد يكون مألوفاً: رجل له وجه كبير أحمر وعينان جاحظتان وشارب أصفر هزيل. بدا الرجل لطيفاً قليل الأهمية... رجل وحيد مثل بابِت. كان مرتدياً بدلة من الصوف عليها ربطة عنق برتقالية مرتخية.

أدرك بابِت فجأة... كأنّ مفرقعات انفجرت أمامه... أن هذا الغريب الكئيب هو السير جيرالد دوك.

نهض بابِت بحركة غريزية، مغمغماً: «كيف حالك يا سير جيرالد؟ لعلك تذكر أننا تقابلنا في زينيث، عند تشارلي ماكيلفي؟ اسمي بابِت... أعمال عقارية».

صافحه السير جيرالد بحركة رخوة: «أوه! كيف حالك؟»

كان بابِت واقفاً، محرَجاً، غير عارف كيف ينسحب. قال بما يشبه الهذيان: «إذن... إنك تستمتع برحلة عظيمة منذ قابلتك في زينيث».

قال من غير حماسة ناظراً إلى بابِت نظرة شبه ميتة: «بالضبط! ذهبت إلى كولومبيا البريطانية وكاليفورنيا وكل تلك الأماكن».

«وكيف وجدت حالة الأعمال في كولومبيا البريطانية؟ أو... لعلك لم تكن مهتماً بالأعمال هناك... بل المناظر الطبيعية والرياضة، وهذه الأشياء؟»

بدأت الحرارة تدب في صوت السير جيرالد الآن: «مناظر طبيعية! أوه... بل العاصمة وحالة الأعمال... هل تعرف يا سيد بابِت أن لديهم بطالة مثلما لدينا هنا تقريباً؟».

«هكذا إذن! حالة الأعمال ليست جيدة جداً!».

«لا! لم تكن الأعمال هناك مثلما كنت آمل أن أراها».

«ليست جيدة، أليس كذلك؟».

«لا، ليست جيدة!... في الحقيقة».

«هذا معيب! لا بأس... أظن أنك تنتظر أحداً هنا... أحدًا يصحبك إلى حفل راقص كبير يا سير جيرالد».

«حفل راقص؟ أوهوه، حفل راقص! لا، في الحقيقة... كنت أسأل نفسي عما يمكن أن أفعله هذه الليلة. لا أعرف أحداً في شيكاغو. لعلك تعرف إن كان لديهم مسرح جيّد في هذه المدينة».

«مسرح جيد! طبعاً... هنالك عرض أوبرا كبير الآن! أظن أنك تحب ذلك».

«ماذا؟ ماذا؟ ذهبت إلى الأوبرا ذات مرة في لندن. لعلها كانت في كوفنت غاردن. صدمني ذلك! لا، كنت أفكر في الذهاب إلى فيلم سينما جيّد». جلس بابِت، وقرَّب كرسيه، وصاح: «سينما! سير جيرالد... أظن، بطبيعة الحال، أن هنالك سيدات كثيرات ينتظرن فرصة لاصطحابك إلى أمسية من الأمسيات...».

«لا سمح الله!».

«... لكن، إذا لم يكن الأمر كذلك، ما قولك في أن نذهب معاً إلى أحد الأفلام؟ يعرضون الآن فيلماً جيداً في غرانثام: بيل هارت في فيلم عن العصابات».

«ممتاز! أمهلني لحظة لأجلب معطفي».

سار بابِت مع السير جيرالد دوك إلى السينما. سار منتفخاً بالعظمة، خائفاً قليلاً من أن يغير صاحب الدم النبيل من نوتينغهام رأيه ويتركه عند زاوية أول شارع. جلس إلى جانبه في السينما محاولاً تخفيف حماسته حتى لا يحتقر ذلك الفارس حبّه للخيول والمسدسات كثيرة الطلقات. وفي النهاية، تمتم السير جيرالد: «فيلم جميل جداً! كان لطيفاً منك أن تأخذني إليه. لم أستمتع إلى هذه الدرجة منذ أسابيع. أوف... كل تلك النساء المضيفات... لا يتركون المرء يذهب إلى السينما!».

«إلى الشيطان بتلك النساء!»... فقد كلام بابِت تلك الرقّة المهذبة وتخلّى عن ضرورة لفظ حرف A بالطريقة الإنكليزية العريضة التي يعشقها. صار الآن ودياً، على طبيعته: «جميل! سرني كثيراً أنك أحببت الفيلم يا سير جيرالد».

خرجا وسارا مصطدمين بركب نساء بدينات في ممر السينما. وقفا في الردهة ووضعا معطفيهما. قال بابِت مقترحاً: «ما رأيك في أن نأكل شيئاً؟ أعرف مكاناً يقدمون فيه شطائر جبن رائعة. وقد نبحث عن شيء من الشراب أيضاً... هذا إذا كنت ممن يشربون».

«نعم، أشرب قليلاً! لكن لماذا لا تأتي إلى غرفتي؟ لدي بعض الويسكي الاسكوتلندي... ليس سيئاً».

«أوه! لا أريد أن أبدد ما لديك من شراب. هذا لطف كبير منك، لكن، لعلك تريد أن ترتاح».

كان السير جيرالد قد صار في حال مختلفة الآن. صار شديد الإلحاح: «أوه، حقاً! لم أحظ بأمسية جيدة منذ زمن طويل. كنت مضطراً إلى الذهاب إلى تلك الحفلات الراقصة كلها. لا مجال إلى مناقشة الأعمال، وتلك الأشياء. كن فتى طيباً وتعال معي. هل تأتي؟».

«هل آتي؟ طبعاً سآتي! ظننت فقط أنه، ربما... قل لي بحق الله... جيد أن يجلس المرء ويتحدث عن حالة الأعمال، أليس كذلك؟ ... بعد أن يذهب إلى كثير من تلك المآدب والحفلات التنكرية والراقصة، وأشياء المجتمع كلها. كثيراً ما أشعر بهذا الشعور في زينيث. بالتأكيد، سأذهب معك».

سارا في الشارع يتحدثان: «هذا لطف كبير منك. انظر يا صديقي، هل تستطيع أن تجيبني على هذا السؤال: هل تحافظ المدن الأمريكية دائماً على هذا النشاط الاجتماعي المخيف؟ كل هذه الحفلات الكبيرة؟»

«كفاك يا رجل! كفاك مزاحاً! أنتم... من لديكم حفلات البلاط... وكل تلك المناسبات، وكل شيء...».

«لا! حقاً يا عزيزي! أجلس مع أمّي عادة ـ علي أن أقول الليدي دوك ـ ونلعب جولة أو جولتين من الورق ثم نذهب إلى النوم في العاشرة. فليكن الرب في عوني... لا أستطيع مجاراة إيقاعكم الفظيع هنا! ثم الحديث أيضاً! هذه النساء الأمريكيات كلهن... يعرفن الكثير... الثقافة وتلك الأشياء. خذ السيدة ماكيلفي... صديقتك».

«نعم، إنها لوسيل، فتاة جيدة».

«... سألتني عن المعارض الفنية التي أفضّلها في فلورنسا! أو لعلها كانت في

رينزي؟ لم أذهب إلى إيطاليا في حياتي كلها! سألتني عن الرسّامين البدائيين أيضاً. سألتني إن كنت أحب هؤلاء البدائيين! هل تعرف من هم البدائيون بحق الله؟».

«أنا؟ يجب أن أقول إنني لا أعرفهم! لكني أعرف معنى الحصول على حسم نقدي».

«نعم! هذا ما أعرفه أنا أيضاً! أما البدائيون...».

«نعم! البدائيون!».

ضحكا مثلما يضحكون على الغداء في نادي بوسترز.

كانت غرفة السير جيرالد شديدة الشبه بغرفة جورج بابِت، إلا من حيث حقائبه الإنكليزية الثقيلة المتينة. ومثلما يفعل بابِت تماماً، أخرج الرجل زجاجة ويسكي ضخمة وبدت عليه ملامح الاعتزاز وحُسن الضيافة. قال مبتسماً: «هيا الآن يا صديقي».

وبعد الكأس الثالثة، قال السير جيرالد: «من أين أتيتم أيها الأمريكيون الشماليون بتلك الفكرة القائلة إن كاتباً من قبيل برنارد شو وهؤلاء جميعاً يمثلوننا؟ نحن أهل الأعمال الحقيقيين في إنكلترا نرى أنهم خَوَنة. إن في بلادنا وبلادكم تلك الأرستقراطية القديمة الفكاهية نفسها ـ أنت تعرف ذلك... العائلات القديمة في المقاطعات، وجماعة الصيد، وكل هذه الأشياء... ولدينا قادة عماليون أشرار، مثلما لديكم. لكن في البلدين أيضاً كتلة أساسية قوية من رجال الأعمال الحقيقيين الذين يديرون العرض كله».

«معك حق. في صحة الرجال الحقيقيين!».

«أؤيدك في هذا! في صحتنا نحن!».

وبعد الكأس الرابعة، سأل السير جيرالد متواضعاً: «ما رأيك في رهونات نورث داكوتا؟» ... لكن بابِت لم يخاطبه باسم «جيري» إلا بعد الكأس الخامسة. قال السير جيرالد: «قل لي... هل يزعجك أن أخلع حذائي؟» ثم مد على الفراش مبتهجاً قدميه الفروسيتين الصغيرتين المتعَبَين الحارَّتَين المتورمتَين.

نهض بابِت مترنّحاً بعد الكأس السادسة: «لا بأس، من الأفضل أن أذهب الآن. جيري... إنك كائن بشري حقيقي! ليت تعارفنا هذا حدث في زينيث. انظر... ألا تستطيع أن تعود إلى زينيث لتمضي معي وقتاً هناك؟».

«آسف جداً!... علي أن أذهب إلى نيويورك غداً. كم أنا آسف يا صديقي! لم أستمتع بهذا الشكل منذ وصولي إلى الولايات المتحدة. حديث حقيقي... ليس ذلك العفَن الاجتماعي كله! ما كان يجب أن أسمح لهم باستخدام هذا اللقب الفظيع... ثم إنني لم أحصل عليه عَبَثاً، إيه! ... لو كنت أعرف أنني سأضطر إلى الحديث مع النساء عن الرسامين البدائيين ولعبة البولو... أستطيع أن أفعل هذا في نوتينغهام... سببت إزعاجاً كبيراً للعمدة ذات مرة عندما فعلت ذلك. ثم إن السيدات يحببن هذا الكلام! لكن، لا

يدعوني أحد باسم «جيري» الآن...». كان كأنه موشك على البكاء... «لم يعاملني أحد في الولايات المتحدة معاملة صديق قبل هذه الليلة! وداعاً يا صديقي، وداعاً! أشكرك كثيراً!»

«لا تقل هذا يا جيري! وتذكّر، أنك موضع ترحيب، كلما أتيت إلى زينيث».

«وأنت أيضاً يا صديقي... لا تنسَ أبداً إذا أتيت إلى نوتينغهام... لا تنس أننا سنكون، أمي وأنا، في غاية السعادة عندما نراك. سوف أنقل إلى الأصدقاء في نوتينغهام أفكارك عن الرؤية وعن الرجال الحقيقيين... سأحدِّثهم عنك في أول غداء أذهب إليه في النادي الملكي».

- 4 -

رقد بابِت في سريره في الفندق متخيلاً الأصدقاء في نادي زينيث الرياضي يسألونه: «كيف أمضيت وقتك في شيكاغو؟» فيجيب: «أوه، جميل! تجولت كثيراً مع السير جيرالد دوك». تصور نفسه يلتقي لوسيل ماكيلفي ويوبِّخها قائلاً: «لا بأس بك يا سيدة ماكيلفي عندما لا تحاولين الظهور بمظهر المثقفين. هكذا قال لي جيرالد دوك في شيكاغو... أوه، نعم، إن جيري من أصدقائي... أفكر، مع زوجتي، في الذهاب إلى إنكلترا العام القادم لقضاء بعض الوقت مع جيري في قلعته... قال جيري لي: «جورجي، يا صاحبي، تعجبني لوسيل كثيراً لكن علينا، أنا وأنت، يا جورج، أن نجعلها تتخلى عن حب المظاهر والكلمات الكبيرة»».

لكن، حدث في تلك الليلة شيء حطّم كبرياء بابِت.

- 5 -

تحدّث عند نافذة بيع السيجار في فندق ريجنسي مع شخص يعمل في بيع آلات البيانو. وتناولا العشاء معاً. كان بابِت مرتاحاً لجوّ المودة بينهما. وكان مستمتعاً بفخامة صالة العشاء: الشمعدانات، والستائر الطويلة المزخرفة، ولوحات الفرسان الفرنسيين في إطاراتها الخشب المذهّبة. كان مستمتعاً بحشد الناس الموجودين أيضاً: نساء جميلات، ورجال طيبون أقوياء ينفقون الكثير.

شهق فجأة. حدّق، ثم أشاح بوجهه، ثم حدق من جديد. على مسافة ثلاث طاولات، كان بول ريزلينغ جالساً مع امرأة يدعو شكلها إلى الشك، امرأة جميلة ذابلة في الوقت نفسه. من المفترض أن يكون بول في مدينة آكرون الآن... يبيع ألواح العزل المستخدمة في السقوف. كانت المرأة تربّت على يده مبتسمة له، وتضحك. أحس بابِت أنه رأى

شيئاً معيباً مؤذياً. كان بول مستغرقاً في الكلام على نحوٍ يوحي بلهفة رجل يتحدث عن مشاكله. كانت أنظاره مركزة على عيني المرأة الذاويتين. أمسك يدها مرة، وكوَّر شفتيه على شكل قبلة مرة أخرى، غير مهتم بالناس الذين حوله، تظاهر بأنه يقبلها. انتابت بابِت رغبة مفاجأة جامحة في الذهاب إلى بول... أحس بجسده يتوتر مستعداً للوثب، وبكتفيه يتحركان. لكنه أدرك، منزعجاً، أن عليه أن يكون دبلوماسياً. لم يفعل شيئاً إلا عندما رأى بول يدفع الحساب، فقال لبائع البيانو: «أوه! ها هو صديقي هناك... اعذرني لحظة... أريد أن أحييه فقط».

لمس كتف بول وصاح: «إذن، متى وصلت إلى هذه المدينة؟».

نظر بول إليه وقد تصلّب وجهه: «أوه، مرحباً يا جورج! ظننت أنك عدت إلى زينيث». لم يعرِّفه بول على رفيقته. استرق بابِت نظرة إليها. كانت جميلة حقاً... امرأة جذابة بعض الشيء في الثانية والأربعين أو الثالثة والأربعين. كانت تعتمر قبعة شنيعة مزيّنة بالأزهار. وتضع أحمر الشفاه، لكن من غير مهارة.

«أين تقيم يا صاحبي؟».

استدارت المرأة، تثاءبت، وراحت تنظر إلى أظافرها. بدا عليها أنها معتادة على عدم تعريفها على الآخرين.

دمدم بول: «فندق كامبل إن، في الجهة الجنوبية».

«وحدك؟» ... بدا ذلك السؤال موحياً.

«نعم! للأسف!»... استدار بول بحركة عنيفة صوب المرأة مبتسماً ابتسامة أزعجت بابِت: «ماي! أريد أن أعرفك على صديقي. السيدة آرنولد! وهذا هو صديقي القديم جورج بابِت».

قال بابِت مكشِّراً: «تشرفنا». ضحكت المرأة: «أوه! يسعدني كثيراً أن أقابل أي صديق من أصدقاء السيد ريزلينغ، بالتأكيد».

قال له بابِت: «هل ستعود إلى فندقك هذه الليلة يا بول؟ سوف أعرّج عليك».

«لا! الأفضل... من الأفضل أن نتغدّى معاً، غداً».

«لا بأس! لكنني سأراك الليلة يا بول. سوف أذهب إلى فندقك، وسوف أنتظرك هناك».

الفصل العشرون

-1-

جلس يدخن مع بائع البيانو لائذاً بحضن النميمة الدافئ، خائفاً من المخاطرة بالتفكير في بول. كان الآن شخصاً أنيساً حلو المعشر، في الظاهر، لكن قلقه وتوتره الخفيَّين كانا في ازدياد... أحس بالفراغ. كان واثقاً من أن بول موجود في شيكاغو من غير علم زيلا، ومن أنه يفعل أشياء ليست أخلاقية ولا آمنة. وعندما تثاءب بائع البيانو وقال إن عليه أن يذهب لتسجيل بعض الطلبات، تركه بابِت وغادر الفندق... بهدوء زائد. لكنه هتف بطريقة وحشية مخاطباً سائق التكسي: «فندق كامبل إن». جلس قلقاً على المقعد الجلدي الزلق في عتمة السيارة الفائحة برائحة الغبار وشذى سجائر تركية. لم يلق بالاً إلى شاطئ البحيرة الذي كساه الثلج، ولا إلى المساحات المظلمة والزوايا المضيئة المفاجئة في تلك المنطقة التي يجهلها إلى الجنوب من المنعطف الكبير.

كانت ردهة الاستقبال في فندق كامبل إن قاسيِة المظهر، متألقة، جديدة. وبدا له الموظف الليلي أكثر قساوة وتألقاً.

قال الموظف الليلي لبابِت: «نعم؟».

«هل يقيم السيد بول ريزلينغ هنا؟».

«نعم».

«وهل هو موجود الآن؟».

«لا».

«إذن، أعطني المفتاح، وسوف أنتظره».

«لا أستطيع إعطاءك المفتاح يا أخ. انتظره هنا إن أردت».

كان بابِت يخاطبه بالطريقة اللامبالية التي يخاطب بها جماعته من الرجال الطيبين موظفي الفنادق. لكنه فاجأه بهجوم مباغت: «قد أكون مضطراً إلى الانتظار بعض الوقت. إنني صهره. وسوف أنتظره في غرفته. هل أبدو لك لصاً؟».

كان صوته منخفضاً غير لطيف. وباستعجال واضح، ناوله الموظف المفتاح محتجّاً: «لم أقل أبداً إنك تبدو لصاً! إنها أنظمة الفندق، فقط. لكن إذا أردت أن...».

عندما كان في المصعد، تساءل بابِت عن سبب وجوده هنا. لماذا لا يجوز لبول أن يتناول العشاء مع سيدة متزوجة محترمة؟ لماذا كذبت على الموظف وقلت له إنني صهر بول؟ لقد تصرّفت مثل الأطفال. علي أن أكون حذراً وأن أتجنب قول أشياء دراماتيكية غبية لبول.

عندما جلس في الغرفة حاول أن يبدو مرتاحاً مسالماً. خطر في باله فجأة... انتحار! كان يخشى هذه الكلمة، من غير أن يعرف ذلك. بول واحد من الأشخاص الذين يمكن أن يفعلوها. عليه ألا يزعجه، وإلا فلن يضمن... واه، ... ذلك الشاب التعِس!

زيلا (أوه، اللعنة على زيلا! سيكون سعيداً لو خنق تلك المرأة المزعجة النقاقة!)... زيلا، لا بد أنها نجحت أخيراً، لا بد أنها جعلت بول يخرج عن طوره.

انتحار! هناك، في البحيرة، بعيداً، خلف الثلج المكوم عند شاطئها. البرد شديد... إذا ألقى المرء بنفسه في الماء هذه الليلة.

أو... قد يذبح نفسه... في الحمّام...

اندفع بابِت إلى حمام بول. كان الحمام فارغاً. ابتسم ابتسامة واهنة.

أرخى ياقته التي تخنقه. نظر في ساعته. فتح النافذة ونظر منها إلى الشارع. حدّق في ساعته. حاول قراءة صحيفة المساء التي وجدها على الطاولة ذات السطح الزجاجي. نظر إلى ساعته من جديد. مرت ثلاث دقائق منذ أن نظر إليها أول مرة.

ظل منتظراً ثلاث ساعات.

كان جالساً متيبّساً، جليدياً، عندما تحرك مقبض الباب. دخل بول محملقاً.

قال بول: «مرحباً! أنت تنتظر؟».

«نعم، منذ فترة».

«إذن؟».

«إذن ماذا؟ فكرت في المرور عليك حتى أرى كيف جرت الأمور في آكرون».

«كانت جيدة. ما أهمية هذا؟».

«ماذا، يا ربي، بول... ما الذي يزعجك هكذا؟».

«لماذا تتدخّل في شؤوني؟».

«ماذا يا بول؟ ليست هذه طريقة مناسبة للكلام! أتدخل في أي شؤون. أسعدني أن أرى صديقي القديم المزعج فأتيت لإلقاء التحية».

«طيب!... لا أقبل أن يتبعني أحد هنا وهناك، ولا أقبل أن يعطيني أوامر. شبعت من هذا ولم أعد أحتمل المزيد».

«طيب، طيب! لكنني لست...».

«لم تعجبني طريقة نظرك إلى ماي آرنولد، ولا طريقة كلامك المتعالية معها».

«طيب، لا بأس! إذا كنت تظن أنني متكبر وأنني أتدخّل في شؤونك! لا أعرف من هي ماي آرنولد، لكني أعرف جيداً، أعرف تماماً، أنكما لم تكونا تتحدثان عن السقوف، أبداً، ولا عن عزف الكمان أيضاً! إذا لم تكن لديك اعتبارات أخلاقية فيما يخصك أنت، فيجب أن يكون لديك اهتمام بمركزك في المجتمع. أما فكرة أن تذهب هنا وهناك وأن تنظر بغباء في عينيّ امرأة مثلما يفعل شخص واقع في الحب! أفهم أن ينزلق المرء مرة، لكني لا أحب أن أرى شخصاً، صديقاً مقرَّباً، يبدأ هذا المسار الخطر ويسرق نفسه ليبتعد عن زوجته... حتى إذا كانت زوجته مجنونة مثل زيلا... أن يطارد النساء...»

«أوه! أنت زوج أخلاقي كثيراً!»

«نعم!... إنني كذلك! لم أنظر ـ عملياً ـ إلى أي امرأة غير ميرا، منذ زواجي! ولن أفعل هذا أبداً! سأقول لك شيئاً: لا معنى لقلة الأخلاق. لا فائدة منها! ألا تستطيع أن ترى يا صديقي أن هذا قد يجعل زيلا أسوأ من ذي قبل؟»

رمى بول معطفه الذي بقّعه الثلج على الأرض. كان فاقداً تصميمه وقوّته الجسدية معاً. جلس على كرسي خيزراني صغير: «أوه! أنت، يا صاحب الكلمات الكبيرة... أنت تعرف عن الأخلاق أقل مما تعرفه تينكا، لكنك بخير يا جورجي... أنت... لكنك لا تستطيع أن تفهم أنني... أنني انتهيت. لا أستطيع احتمال زيلا أكثر من هذا. لقد قررت زيلا أنني شيطان... وهي ماضية في اضطهادي... في تعذيبي! وهي تستمتع بهذا. إنها لعبة تريد منها أن ترى إلى أي حد تستطيع إزعاجي. أما أنا، فإما أن أجد لنفسي شيئاً من الراحة، مهما تكن، أيّ راحة، في أي مكان، وإما أن أفعل شيئاً أسوأ من هذا بكثير. والآن، هذه السيدة آرنولد... ليست شابّة تماماً، لكنها امرأة لطيفة تفهم الإنسان. ولديها مشكلاتها أيضاً».

«نعم! أظن أنها واحدة من تلك الدجاجات، دجاجة لا يفهمها زوجها!».

«لست أدري. ربما. قُتِلَ زوجها في الحرب».

نهض بابِت. وقف بجوار بول مربّتاً على كتفه مطلقاً أصواتاً معتذرة ناعمة.

«بشرفي، يا جورج... إنها امرأة لطيفة. وقد مرّت بوقت عصيب جداً. يستطيع كل منا أن يجعل الآخر مبهجاً ضاحكاً. ونقول كلانا إننا ألطف اثنين في الدنيا. قد لا نصدق هذا!... لكن، يساعدك كثيراً أن تجد شخصاً تستطيع أن تكون معه على سجيتك، أن تكون بسيطاً... من غير كل تلك المناقشة... والكلمات... والتوضيحات...».

«ألم تذهبا إلى أكثر من هذا؟».

«أكثر من هذا! هيا! قلها!».

«طيب... لست... لا أستطيع القول إنني أحب هذا، لكن...». وباندفاعة مفاجئة جعلته يحس نفسه ضخماً متألقاً كريماً... «هذا ليس من شأني! سأفعل كل ما أستطيع فعله من أجلك، إذا استطعت أن أفعل شيئاً».

«قد تستطيع فعل شيء. أفهم من رسائل زيلا التي حوّلوها إليّ من آكرون أنها بدأت تشك في غيابي كل هذه الفترة. لن تتورع أبداً عن جعل أحد ما يتعقّبني، ولا عن القدوم إلى شيكاغو واقتحام صالة الطعام في الفندق وتوبيخي ومهاجمتي أمام الجميع».

«سوف أهتم بأمر زيلا. سوف أقول لها قصة جيدة عندما أعود إلى زينيث».

«لا أدري... لا أظن أن عليك أن تفعل هذا. أنت شخص جيد. لكني لا أظن أنك ماهر في الدبلوماسية». بدا أن هذه الجملة قد جرحت بابِت... بدا عليه الانزعاج... «أقصد الدبلوماسية مع النساء! مع النساء، هذا ما أقصده. ليس سهلاً أن يهزمك أحد في دبلوماسية الأعمال. لكني، أقصد مع النساء. قد يكون كلام زيلا فظاً خشناً، لكنها ذكية فعلاً. سوف تنتزع منك القصة الحقيقية بلمح البصر».

«طيب، لا بأس! لكن...».

لا يزال بابِت آسفاً لخسارته فرصة لعب دور المحقّق السري.

قال بول له مسترضياً: «طبعاً... قد تقول لها إنك كنت في أكرون ورأيتني هناك».

«ماذا؟ طبعاً، بالتأكيد! ألم يكن علي أن أذهب لرؤية ذلك العقار، محل بيع الحلويات، في أكرون؟ أليس كذلك؟ ألم أكن مضطراً إلى التوقف هناك رغم شدة استعجالي للعودة إلى البيت؟ أليس هذا مزعجاً؟ سأقول إنه كان مزعجاً! كان مزعجاً... كثيراً!».

«ممتاز. لكن، بحق السماء، لا تتورّط في إضافة أي شيء إلى هذه القصة. يحاول الرجال دائماً، عندما يكذبون، أن يجعلوا القصة فنّية كثيراً. وهذا ما يجعل الشك يتسلل إلى النساء. و... فلنشرب شيئاً يا جورجي. إن لدي بعض الجن وقليل من الفيرمونت».

كان بول يرفض عادة أن يتناول كأساً ثانية من الكوكتيل. لكنه شرب الكأس الثانية الآن، ثم شرب الثالثة. احمرّت عيناه وثقل لسانه. صار مرحاً بذيئاً إلى حد محرج.

وفي سيارة التكسي، في طريق العودة، لم يصدق بابِت نفسه عندما وجد دموعاً تجمّعت في عينيه.

ـ 2 ـ

لم يخبر بول بخطته؛ لكنه توقف في أكرون، لغاية واحدة. أراد أن يرسل بطاقة بريدية إلى زيلا يكتب فيها «كان علي المرور بآكرون يوماً واحداً. وقد صادفت بول هنا». عرّج عليها عندما صار في زينيث. تحب زيلا، من أجل مظهرها أمام الناس، أن تعتني بشعرها جيداً وأن تضع مساحيق التجميل وتلف جسمها بمشدّ محكم؛ أما في حالات بؤسها الخاص، فكانت ترتدي مبذلاً بيتياً وسخاً أزرق اللون وجوارب مثقوبة تدسها في حذاء بيتي وردي مصنوع من الساتان. كان وجهها غائراً. ظن بابِت أن لديها الآن نصف كمية الشعر التي يتذكّر وجودها على رأسها. وكان ذلك النصف قاسياً خشناً أيضاً. كانت جالسة في كرسي هزاز وسط ركام من علب السكاكر والمجلات الرخيصة. كان صوتها حزيناً كئيباً عندما لا تكون ساخرة. لكن بابِت أظهر بهجة زائدة:

«طيب، طيب يا زيلا، يا صديقتي، أراكِ نشطة في غياب زوجك! هذا شيء مثالي. أراهن أن ميرا لم تستيقظ قبل الساعة العاشرة أثناء غيابي في شيكاغو. هل أستطيع استعارة الوعاء الحافظ للحرارة من عندك؟ أتيت لأرى إن كنت أستطيع استعارته. سوف نذهب إلى التزلج. وأريد أن آخذ معي بعض القهوة. أوه، هل وصلت البطاقة التي أرسلتها من آكرون؟ تلك التي قلت فيها إنني صادفت بول؟».

«نعم. ماذا كان يفعل هناك؟».

«ماذا تقصدين؟»... فك أزرار معطفه وجلس بهيئة المستعجل، على ذراع أحد الكراسي.

«أنت تدرك ما أعنيه!»... صفعت صفحات المجلة بصوت مزعج: «أظن أنه كان يحاول ممارسة الحب مع إحدى المضيفات في الفندق أو مع إحدى البنات العاملات في العناية بالأظافر».

«مهلاً! أنت تقولين دائماً إن بول يجري خلف التنورات. إنه لا يفعل ذلك! هذا أولاً، وإذا فعل ذلك، فمن الأرجح أن يكون السبب هو أنك تطلقين هذه التلميحات وتضايقينه إلى هذا الحد. لا أقصد أن أقول، يا زيلا، لكن... منذ ذهاب بول إلى آكرون...».

«هل هو في آكرون فعلاً؟ أعرف أنه يراسل امرأة فظيعة في شيكاغو».

«ألم أقل لك إنني رأيته في آكرون؟ ماذا تقصدين؟ هل تقصدين أنني كاذب؟».

«لا... لكني فقط قلقت كثيراً».

«اسمعي الآن، اسمعي! هذا ما يزعجني! أنت تحبّين بول. لكنك تزعجينه وتضايقينه كأنك تكرهينه. لا أستطيع أبداً أن أفهم السبب الذي يجعل بعض الناس، كلما أحبوا شخصاً كلما راحوا يحاولون جعله تعيساً».

«أنت تحب تيد وروني... على ما أظن... لكنك تزعجهما بالنق».

«أوه! طيب... ذلك... ذلك أمر مختلف. ثم إنني لا أنقّ عليهما. ليس هذا ما يمكن تسميته نقّاً. ها هو بول... شخص حساس... ألطف مخلوق في أرض الله الخضراء الواسعة. يحب أن تخجلي من طريقة معاملتك بول. لماذا تهاجمينه كأنك امرأة تعمل غسالة. يفاجئني أنك تستطيعين التصرف بهذه الطريقة السوقية يا زيلا!».

نظرت إلى أصابعها المتشابكة: «أوه، أعرف هذا! نعم، أكون حقيرة أحياناً، ثم آسف لذلك وأنزعج من نفسي. لكن، يا جورجي، إن بول مزعج كثيراً! بشرفي، حاولت بكل جهدي، أحاول طيلة هذه السنوات الأخيرة أن أكون لطيفة معه. لكني، لمجرد أنني كنت شريرة معه في الماضي... لأنني كنت أبدو شريرة، أنا لم أكن كذلك في الحقيقة. لكني كنت صريحة أكثر مما ينبغي، وكنت أقول أي شيء يخطر في بالي... وهكذا فقد قرر أنني مذنبة في كل شيء. لا يمكن أن يكون كل شيء بسبب أخطائي أنا، هل يمكن؟ والآن، إذا حاولت الكلام، يصبح صامتاً، صامتاً على نحو مخيف. لا ينظر إليّ أبداً. إنه يتجاهلني! إنه ليس إنساناً! وهو يتعمد التصعيد إلى أن أنفجر وأقول أشياء كثيرة لا أقصدها. إنه صامت جداً... أوه، أنتم... أنتم معشر الرجال الصالحين! كم أنتم أشرار! كم أنتم أشرار!».

ظلا يقلّبان الأمور مرة بعد مرة، نصف ساعة. وفي النهاية بكت زيلا بكاء فاضحاً ووعدت بأن تضبط نفسها.

عاد بول بعد أربعة أيام. ومضت أسرتا بابِت وريزلينغ إلى السينما لمناسبة عودته. تناولوا الطعام في مطعم صيني. وبينما كانوا سائرين إلى المطعم في شارع الحلاقين والخياطين، سارت الزوجتان في المقدمة تتحدثان عن الطباخين، وتمتم بابِت قائلاً بول: «تبدو زيلا أكثر لطفاً الآن».

«نعم، صارت الآن أكثر لطفاً، باستثناء مرةً أو مرتين. لكن الوقت تأخر كثيراً... فات الأوان! لن أناقش هذا الأمر، لكني خائف منها. لم يبق بيننا شيء. لا أريد حتى أن أراها. سوف أنفصل عنها ذات يوم... بطريقة ما».

الفصل الحادي والعشرون

-1-

صارت المنظمة الدولية لنوادي بوسترز قوّة عالمية مكرَّسة للتفاؤل والروح الرجولية المرحة، والأعمال الجيدة أيضاً. يجري الآن تأسيس فروع لها في ثلاثين بلداً. لكن تسعمئة وعشرين فرعاً، من أصل ألف فرع، كانت موجودة في الولايات المتحدة.

وما من فرع بين هذه الفروع كلها يتمتع بنشاط أكثر من نادي بوسترز في زينيث.

إن وليمة الغداء في الثاني من آذار في نادي بوسترز في زينيث أهم مناسبة في العام كله. وذلك لأن انتخابات مسؤولي النادي السنوية تجري بعد هذه الوليمة. كانت الإثارة كبيرة. أقيمت تلك المأدبة الكبرى في صالة الرقص في فندق أوهيرن هاوس. وكلما دخل واحد من أعضاء النادي الأربعمئة، كان عليه أن يأخذ من لوحة جدارية في الممر قرصاً بلاستيكياً ضخماً مكتوباً عليه اسمه، واسم التحبّب، وعمله أيضاً. وكانوا يفرضون غرامة عشرة سنتات على عضو النادي إذا خاطب عضواً آخر بغير اسم التحبّب خلال تناول الغداء. عندما جاء بابت نشطاً وعلّق قبّعته، كان الجو كله ضاجّاً بصيحات «مرحباً يا تشيت»، و«كيف حالك يا قصير»، و«ما أحلى هذا الصباح يا ماك!».

جلسوا إلى طاولات جمعت كل واحدة منها ثمانية أصدقاء. وكان تحديد الأماكن يجري عن طريق القرعة. كانت الطاولة التي يجلس بابت إليها تضمّ الخياط التجاري ألبرت بوس، وهكتور سيبولت من شركة سويتهارت للحليب المكثف، وبائع المجوهرات إيميل وينغرت، وبامفري الأستاذ في كلية رايت واي للأعمال، والدكتور وولتر غوربوت، والمصوِّر روي تيغارتن، وبن بيركي الذي يعمل في حفر لوحات التصوير الضوئي. كان من فضائل نادي بوسترز أنه لا يسمح بجلوس أكثر من شخصين اثنين يعملان في المهنة نفسها على طاولة واحدة، وذلك بحيث يتعرّف المرء فوراً على مُثُل المهن الأخرى ويدرك وحدة الحال الميتافيزيقية بين

هذه المهن كلها ـ أعمال السمكرة ورسم اللوحات الفنية، على سبيل المثال، ... الطب وصناعة العلكة!

كانت طاولة بابِت سعيدة سعادة خاصة هذا اليوم لأن عيد ميلاد البروفيسور بامفري كان البارحة. وهذا ما جعله ضحية مناكفات زملائه.

قال إيميل وينغرت: «دعونا نضخّ ما لدينا من تخمينات عن عمره!».

قال بن بيركي: «لا! فلنضربه حتى يرقص وتعمل مضخّته فيخبرنا بنفسه!».

لكن بابِت كان مَنْ حَظيَ بتصفيق الجميع عندما قال: «لا تحدّثوا هذا الرجل عن المضخّات! الزجاجة هي المضخة الوحيدة التي يعرفها. بشرفي... قالوا لي إنه بدأ يعطي في الكلية دروساً في تخمير الشراب المنزلي».

كان كتيّب نادي بوسترز موجوداً في كل مكان، وفيه أسماء الأعضاء جميعاً. ومع أن النادي كان مهتماً بتنمية روح الصداقة الطيبة بين الأعضاء، إلا أنه لم يكن ليهمل أهمية القيام ببعض الأعمال أيضاً: كانت مهنة كل عضو مذكورة إلى جانب اسمه. وكان في الكتيب أيضاً عشرات الإعلانات. حمل أحد الإعلانات التنبيه التالي: «ما من قانون يقول إن عليك أن تتاجر مع زملائك في نادي بوسترز! لكن، عليك أن تكون حكيماً أيها الفتى... ما فائدة ترك هذا المال الجيّد كله يصب خارج هذه الأسرة السعيدة؟».

وكان في كل مكان، هذا اليوم، هدية هي بطاقة مطبوعة بخط فنّي، أحمر وأسود:

الخدمة وروح نادي بوسترز

تجد الخدمة أعظم فرصها وتطوّرها في التطبيق العميق الواسع وفي التفكير في فعلها الدائم، وفي رد فعلها أيضاً. أعتقد أن أسمى نوع من أنواع الخدمة، مثل أعلى مراتب الأخلاق التقدمية، هو الذي يدرك القيمة الكبرى للالتزام والولاء الذي يعتبر المبدأ الأساسي في الروح البوسترية ـ إنها روح المواطنة الجيدة بكل وجوهها وعواملها.

داد بيترسن

مع تحيات شركة دادبري بيترسن للإعلان

قرأ أعضاء النادي كلهم حكمة السيد بيترسن هذه. وقالوا جميعاً إنهم فهموها تماماً.

افتُتح الاجتماع بالأشياء المثيرة المعتادة في كل أسبوع. كان رئيس النادي الذي انتهت ولايته الآن، فيرجيل غانتش، جالساً في كرسي الرئاسة. بدا شعره الخشن مثل طَوْق على رأسه. وأما صوته فصدح مثلما يصدح ناقوس في مهرجان. كان بعض الأعضاء قد جلبوا معهم ضيوفاً جددًا. قدموا ضيوفهم إلى بقية الزملاء. قال ويليس آيجيمس: «هذا الشيء الطويل ذو الشعر الأحمر هو صاحب المعلومات المضللة الذي يشغل وظيفة محرّر الشؤون الرياضية في الصحافة». أما بائع الأدوية هـ. هيزن فصدح قائلاً: «يا فتيان!

عندما يكون الواحد منكم في رحلة طويلة بالسيارة، ثم يصل أخيراً إلى بقعة رومانسية أو إلى منظر طبيعي جميل فيجلس ثم يقول لزوجته: «إنه مكان رومانسي بالتأكيد»، فإن هذا يجعل السرور يسري في فقرات ظهره كلها. جاء ضيفي اليوم من واحد من هذه الأماكن، من هاربرز فيري في فرجينيا، في مناطق الجنوب الجميلة التي تحمل ذكريات كثيرة عن الجنرال الطيب العجوز روبرت لي وعن روح جون براون الطيبة الذي كان، مثل أي عضو صالح في نادي بوسترز، يذهب سائراً إلى...».

كان في هذا اللقاء ضيفان متميزان تميزاً خاصاً: الرجل الأول في شركة «عصفور الجنة» المسرحية التي تقدم أحد عروضها على مسرح دودزوورث هذا الأسبوع؛ وكذلك عمدة مدينة زينيث المحترم لوكاس براوت.

قال فيرجيل غانتش بصوت كقصف الرعد: «عندما نفلح في وضع يدنا على رجل المسرح الشهير هذا، وفي تجريده من تلك المجموعة اللطيفة من الممثلات الجميلات ـ عليّ أن أعترف بأنني اندفعت إلى غرفة تبديل الملابس في مسرحه وقلت له كم يقدِّر نادي بوسترز ذلك الأداء الفني الرفيع الذي يقدمه لنا ـ ولا ننسى أيضاً أن الشخص المسؤول في مسرح دودزوورث واحد من زملائنا في هذا النادي. كما نقدِّر أيضاً، فوق هذا كله، رعاية سعادة العمدة الذي انتزع نفسه من واجباته المتنوعة الكثيرة في مبنى المدينة وجعلَنا نشعر بالاعتزاز. وسوف يقول السيد براوت لنا الآن بضع كلمات عن مشكلات ومهمات...».

اختار الأعضاء بالتصويت أكثر الرجال وَسامة، وأكثرهم قُبحاً. وقُدِّمت لكل منهما باقة من القرنفل تبرَّع بها (مثلما أشار الرئيس غانتش) الأخ العضو في نادي بوسترز هـ. ج. ييغر، صاحب محل الأزهار في جادة جينيفر.

في كل أسبوع، وعلى التناوب، كان أربعة من أعضاء نادي بوسترز يحظون بمسرات الكرم والشهرة من خلال التبرّع بأشياء أو بخدمات لأربعة غيرهم من الزملاء الذين يجري اختيارهم بالقرعة. ضحك الجميع هذا الأسبوع عندما أُعلن أن أحد المتبرعين هو بارناباس جوي، متعهِّد الدفن! همس الجميع: «أستطيع التفكير في شخصين طيبين يمكن دفنهما إذا كان هذا التبرع جنازة مجانية».

وخلال أصناف اللهو هذه كلها، كان أعضاء نادي بوسترز يتناولون غداءهم المكوّن من قِطَع الدجاج، والبازلاء، والبطاطا المقلية، والقهوة، وفطيرة التفاح، والجبن الأمريكي. لم يحتكر غانتش إلقاء الكلمات. لقد دعا إلى الكلام سكرتير نادي الروتاري في زينيث، المنظَّمة المنافسة. وكان من مزايا هذا السكرتير أن لديه لوحة السيارة التي تحمل الرقم خمسة.

أقرّ سكرتير الروتاري ضاحكاً بأن رقم سيارته يسبب إثارة كلما قادها في ولاية أيوا، وقال: «رغم أن امتلاك هذه المزية أمر لطيف فعلاً، إلا أن شرطة المرور تستطيع تذكّر رقم سيارتي بكل سهولة. أتمنى أحياناً لو كان لدي رقم عادي، 56876/ ب مثلاً، أو شيء من هذا القبيل. لكن، فليحاول أي عضو منكم، يا أعضاء نادي بوسترز، أن ينتزع الرقم 5 من نادي الروتاري في العام القادم، ولينتظر غضب الرب! اسمحوا لي أن أختم كلامي بدعوتكم إلى الهتاف لنادي بوسترز ولنادي الروتاري ولنادي كيواني، والنوادي الأخرى كلها!».

همس بابِت مخاطباً البروفيسور بامفري: «أمر لطيف حقاً أن يكون لدى المرء رقم سيارة مثل هذا! سيقول الجميع إنه «لا بد أن يكون شخصاً مهمّا». كيف حصل عليه يا ترى؟ لا بد أنه دعا رئيس مكتب رخص السيارات إلى العشاء، وإلى شيء من الشراب أيضاً».

قال تشام فرينك مخاطباً المستمعين:

«قد يرى بعضكم أن الحديث في موضوع ثقافي فنّي ليس أمراً مناسباً الآن. لكني أود أن أدخل الموضوع مباشرة وأطلب منكم، يا شباب، الموافقة على اقتراح إقامة أوركسترا سيمفونية في زينيث. وأقول لكم الآن إن الغلطة التي يقع فيها أكثركم هي افتراض أنّ على المرء أن يعارض الاقتراح إذا كان لا يحب الموسيقى الكلاسيكية وكل هذه الأشياء السخيفة. أعترف أمامكم بأنني لا أبالي أبداً بهذا النوع من الموسيقى ذات الشعر الطويل، رغم كوني أديباً من حيث المهنة. أفضّل الاستماع إلى فرقة جاز جيدة أكثر من أي مقطوعة لبيتهوفن ليس فيها من النغم أكثر مما تستطيع تقديمه مجموعة قطط متعاركة؛ ... ثم إن المرء لا يستطيع أيضاً أن يصفر ليُسكت عازفي الأوركسترا وينقذ نفسه! لكن المسألة ليست هنا أبداً. لقد صارت الثقافة زينة ضرورية وشكلاً إعلانياً ضرورياً للمدينة المعاصرة الحديثة... مثلها مثل الأرصفة والحسابات المصرفية. إن الثقافة، في المسارح والمعارض الفنية وغيرها، هي التي تجلب آلاف الزوار إلى نيويورك كل سنة. سأكون صريحاً معكم وأقول إن مدينتنا، رغم كل ما فيها من روعة، لا تقدّم من الثقافة ما تقدمه نيويورك أو شيكاغو أو بوسطن... أو لعلنا لم نستطع جعل الناس يعترفون بثقافتنا ويقدّرونها حق قدرها. إن علينا الآن، باعتبارنا حفنة ممن يعرفون كيف يصلون إلى الهدف، هو أن نحوّل الثقافة إلى رأس مال لنا... أن ننطلق وننجز الأمر.

إن الكتب واللوحات أمر جيد؛ لكنها ليست من الأشياء التي تقفز في الشارع وتصيح: «ها هو ما تستطيع زينيث تقديمه لكم في ميدان الثقافة». لكن الأوركسترا السيمفونية تستطيع أن تفعل هذا. أنظروا ما تحظى به مينيابوليس وسينسيناتي. أوركسترا

فيها موسيقيون من الدرجة الأولى، ولها قائد ممتاز ـ أرى أن علينا أن نفعل ذلك على أحسن وجه، وأن نحصل على أعلى قادة الفرق في السوق أجراً، شرط ألا يكون ألمانياً ـ يجب أن يكون شخصاً ممن يشتغلون في نيويورك أو واشنطن، في أحسن المسارح وأمام أكثر الناس ثقافة وثروة. يحقّق هذا المشروع لمدينتنا دعاية رفيعة المستوى أكثر من أي مشروع آخر. وأما قصير النظر الذي يرفض اقتراح الأوركسترا فإنه يبدّد هذه الفرصة العظيمة لجعل بعض أصحاب الملايين الكبار في نيويورك يحفظ اسم مدينتنا زينيث ويفكر في إقامة فرع لمصانعه فيها.

وأستطيع أن أشير أيضاً إلى حقيقة أخرى، ألا وهي أن بناتنا المهتمّات بهذه الموسيقى الثقافية والراغبات في تعلّمها سوف يحصلن على مؤسسة محلية من الدرجة الأولى. وهذا أمر شديد الفائدة. لكن، دعونا نكتفي بالجانب العملي من الموضوع. أطلب منكم يا إخوتي الطيبين أن تهتفوا عالياً للثقافة ولفرقتنا الأوركسترالية السيمفونية التي ستدهش العالم».

صفَّقوا كلهم.

وفي خضمّ الإثارة، أعلن الرئيس غانتش: «أيها السادة! ننتقل الآن إلى الانتخاب السنوي لمسؤولي النادي».

كانت لجنة خاصة قد اختارت ثلاثة مرشحين لكل منصب من المناصب الستة في النادي. كان اسم بابِت الاسم الثاني الذي اختير من هؤلاء المرشحين: نائب الرئيس.

فوجئ بابِت! بدا مزهوّاً بنفسه. ازداد خفقان قلبه. ظل في حالة إثارة شديدة خلال إحصاء الأصوات. ثم قال غانتش: «يسعدني إعلان أن جورجي بابِت سيكون الشخص الثاني الممسك بدفّة النادي. لا أعرف شخصاً متمتّعاً بالحس السليم وروح الأعمال أكثر من صديقي العزيز جورج. هيا، فلنحيي جورج بابِت جميعاً!».

وعند انصرافهم، اندفع مئة رجل ليربّتوا على ظهره. لم يعرف لحظة أفضل من هذه في حياته كلها. قاد سيارته مشوَّشاً متعجّباً. دخل إلى مكتبه مبتسماً للآنسة ماكغاون: «إذن، أظن أن من الأفضل لك أن تهنئي رئيسك! انتُخبت نائباً لرئيس جمعية بوسترز».

خاب أمله. لم تجبه ماكغاون إلا: «نعم ـ أوه، كانت السيدة بابِت تحاول الاتصال بك هاتفياً، لكن موظف المبيعات الجديد فريتز ويلينغر قال: «بالله عليك يا معلّم! هذا رائع. هذا رائع تماماً! أنا في غاية السعادة. أهنئك!».

اتصل بابِت بالمنزل وقال لزوجته: «سمعت أنك كنتِ تحاولين الاتصال بي يا ميرا. عليك أن تعترفي بتفوّق جورجي الآن! ومن الأفضل لك أن تكوني حذرة عندما تتكلمين معي، فأنت تخاطبين الآن نائب رئيس نادي بوسترز».

«أوه، جورجي!».

«جميل جداً، أليس كذلك! صار ويليس آيجيمس رئيسنا الجديد؛ لكن... عندما يغيب... يمسك جورجي الصغير بالدفة ويقودهم جميعاً، ويتولى تقديم المتحدّثين... حتى لو كان المتحدث حاكم الولاية نفسه... و...».

«جورج! اسمع!».

«... إن هذا يضع جورجي في مقام الرجال الكبار من أمثال دوك ديلينغ و...».

«جورج! بول ريزلينغ...».

«نعم، بالتأكيد! سوف أتصل ببول وأخبره بالأمر فوراً».

«جورجي! استمع إلي! بول في السجن لأنه أطلق النار على زوجته. لقد أطلق النار على زيلا ظهر اليوم. وقد تموت».

الفصل الثاني والعشرون

- 1 -

قاد سيارته إلى سجن المدينة، ليس على غير هدى بل بانتباه غير مألوف عند المنعطفات... انتباه امرأة عجوز تطبخ بعض النباتات. ساعده هذا الانتباه في تجنب التفكير في قسوة تصاريف القَدَر، في تجنّب رؤيته وجهاً لوجه.

قال الشرطي: «لا! لا تستطيع رؤية أي سجين قبل الثالثة والنصف... موعد الزيارة».

كانت الساعة الثالثة عند ذلك. ظل بابِت نصف ساعة جالساً ينظر إلى تقويم وساعة معلّقَين على حائط أبيض. كان الكرسي قاسياً صغيراً. وكان يصدر صريراً. مرّ أشخاص كثيرون عبر ذلك المكتب. ظن أنهم يُكثِرون النظر إليه. كان لديه شعور استخفاف قتالي شرس بالحالة كلها. لكن شعوره سرعان ما تحول إلى خوف قانط من هذه الآلة التي تطحن بول... بول...

قدَّم اسمه في الثالثة والنصف تماماً.

عاد الشرطي قائلاً: «يقول ريزلينغ إنه لا يريد رؤيتك».

«أنت مجنون! لم تعطِهِ اسمي! قل له إن جورج يريد أن يراه... جورج بابِت».

«نعم، قلت له! وقال إنه لا يريد رؤيتك».

«دعني أدخل إليه إذاً».

«غير ممكن! إذا لم تكن محاميه، وإذا كان غير راغب في رؤيتك، فلا أستطيع أن أفعل شيئاً».

«لكن، يا إلهي... اسمع! دعني أرى مدير السجن».

«إنه مشغول. هيا الآن، أنت...» كان بابِت قد بدأ يميل صوبه ساخطاً. سرعان ما تحوّلت نبرة الشرطي إلى نوع من الملاطفة: «تستطيع العودة والمحاولة غداً. لعل ذلك المسكين ليس في وعيه الآن».

عاد بابِت إلى سيارته. قادها مسرعاً من غير انتباه على الإطلاق. كان يتجاوز الشاحنات بسرعة خطِرة متجاهلاً سباب السائقين. مضى إلى إدارة المدينة. توقّف عندما احتكت عجلات سيارته بالرصيف. تسلّق الدرجات الرخامية جرياً حتى وصل إلى مكتب المحترم السيد لوكاس براوت، عمدة المدينة. رشا الآذن بدولار واحد. وسرعان ما صار في المكتب. قال ملحّاً: «أنت تذكرني يا سيد براوت، أليس كذلك؟ اسمي بابِت ـ نائب رئيس جمعية بوسترز ـ خضت الحملة الانتخابية لصالحك. قل لي، هل سمعت عن المسكين ريزلينغ؟ لا بأس، أريد منك أمراً إلى مدير السجن، أو إلى أي شخص مسؤول في سجن المدينة، لأذهب وأراه. ممتاز. أشكرك».

وبعد ربع ساعة، سار بابِت مندفعاً في ممر السجن حتى وصل إلى زنزانة رأى فيها بول ريزلينغ جالساً على مقعدٍ من خشب، ملتفّاً على نفسه مثل متسوّل عجوز. كان جالساً على المقعد متربّعاً، عاقداً ذراعيه، يعضّ على قبضة يده المشدودة.

رفع بول رأسه ونظر نظرة فارغة عندما فتح الشرطي الزنزانة حتى يدخل بابِت. تركهما الشرطي معاً. خرجت الكلمات بطيئة من فم بول: «هيا! كن أخلاقياً الآن!».

سقط بابِت على المقعد، إلى جانبه: «لن أحدّثك عن الأخلاق! لا يهمني ما يحدث! لا أريد إلا أن أفعل ما أستطيع. وأنا سعيد لأن زيلا نالت ما تستحق».

قال بول مجادلاً: «لا تهاجم زيلا الآن! إنني أفكر: لعلها مرَّت بأوقات سيئة كثيراً. بعد أن أطلقت النار عليها ـ لم أكن أقصد ذلك تقريباً، لكنها ظلت تهاجمني حتى جُننت تماماً... لحظة واحدة فقط... فأخرجت ذلك المسدس القديم الذي كنا، أنا وأنت، نطلق به النار على الأرانب... أطلقت النار عليها. لم أكن أقصد ذلك ... وبعدها، عندما بدأت أحاول إيقاف الدماء... آخ... كان ما فعلته الرصاصة بكتفها مخيفاً... إن جلدها جميل... لعلها لن تموت. آمل ألا يترك الجرح ندبة على جلدها. لكن، بعد ذلك، عندما كنت أبحث في الحمّام على بعض القطن لإيقاف الدم، وجدت بطة صغيرة لها زغب أصفر... كنا نعلّقها على شجرة عيد الميلاد... تذكرت أننا، أنا وهي، كنا سعداء تماماً في ذلك الوقت ... يا للهول! لا أصدق أنني هنا». تنهّد بول عندما احتضن بابِت كتفيه بذراعه: «يسعدني أنك جئت. لكني ظننت أنك ستلقي عليَّ محاضرة. عندما ترتكب جريمة قتل ويأتون بك إلى هنا، وكل شيء... كان جمع كبير من الناس يقف خارج البناية... كانوا ينظرون جميعاً! وعندما أخرجني رجال الشرطة مروا بي من بينهم... أوه، لا أريد الحديث عن هذا بعد الآن».

لكنه تابع كلامه بغمغمة مجنونة رتيبة مذعورة. قال بابِت لكي يشغله عن ذلك: «ما هذا؟ إنّ لديك ندبة على خدك».

«نعم! لكمني الشرطي. أظن أن رجال الشرطة يستمتعون كثيراً بتأديب القتلة. كان شرطياً ضخماً. لم يسمحوا لي بمساعدتهم في حمل زيلا إلى سيارة الإسعاف».

«بول! كفاك الآن! اسمع: زيلا لن تموت. وسنذهب، أنا وأنت، عندما ينتهي هذا كله. سنذهب إلى مين مرة أخرى. وقد نستطيع أن نجعل ماي آرنولد تأتي معنا. سأذهب إلى شيكاغو لأطلب منها ذلك. إنها امرأة طيبة! وبعد ذلك، سأهتم بأن تبدأ العمل من جديد في مكان ما في الغرب؛ ربما في سياتل... يقولون إنها مدينة جميلة».

كان بول يبتسم نصف ابتسامة الآن. صار بابِت ضعيفاً مفكّكاً. وما عاد يعرف إن كان بول هو الذي صار يهتم بأمره. لكنه ظل يثرثر حتى جاء محامي بول، ب. ج. ماكسويل. كان رجلاً نحيلاً منشغلاً غير ودّي. أومأ برأسه صوب بابِت ثم قال: «هل يمكن أن نظل وحدنا، ريزلينغ وأنا...».

عصَرَ بابِت يدي بول. انتظرَ في المكتب حتى جاء ماكسويل. قال له راجياً: «انظر... يا صاحبي! ما الذي أستطيع فعله؟».

قال ماكسويل: «لا شيء! لا شيء! ليس الآن. آسف! عليَّ أن أسرع الآن. لا تحاول رؤيته. طلبت من الطبيب أن يعطيه حقنة مورفين حتى ينام».

بدت له العودة إلى المكتب مزعجة. كان إحساسه مثل إحساس شخص عائد من جنازة. ذهب إلى مستشفى المدينة حتى يستفسر عن حالة زيلا. قالوا له إنها لن تموت. أدت الرصاصة التي انطلقت من مسدّس بول العسكري القديم الضخم عيار 44 إلى تحطيم كتفها، ثم خرجت منه.

عاد إلى البيت فوجد زوجته قلقة خائفة... بذلك الاهتمام اللجوج الذي يكون لدينا عندما تحلّ بأصدقائنا مأساة من المآسي. قالت: «لا يقع اللوم كله على بول بطبيعة الحال! لكن هذا ما يحدث نتيجة جريه وراء النساء بدلاً من أن يحمل صليبه بطريقة مسيحية».

كان بابِت في تلك اللحظة أضعف من أن يستطيع الرد مثلما أراد. قال ما ينبغي أن يقال في هذه المواقف عن حمل الصلبان بالطريقة المسيحية، ثم خرج لتنظيف السيارة. راح، بصبر وحركة رتيبة بليدة، يزيل الشحم من الصينية المعلقة تحت المحرك. اقتلع الوحل العالق على العجلات. ثم أنفق دقائق كثيرة في غسل يديه. راح يحكهما بصابونة المطبخ الخشنة مستمتعاً بالألم في مفاصل أصابعه... «يدان ناعمتان... مثل أيدي النساء! آه!».

وعلى العشاء، عندما بدأت زوجته كلامها الذي لا مهرب منه، انفجر قائلاً بصوت هادر: «أمنعكم جميعاً من قول أي كلمة عن بول! سأتحدث أنا في هذا الموضوع... أنا فقط، وبالقدر الضروري فقط، هل سمعتم؟ لا بد أن يكون في هذه المدينة التي تعشق

الفضائح بيت واحد لا يثرثر عن هذا الموضوع. عليك أن تلقي صحف المساء القذرة هذه خارج البيت!».

لكنه جلس، هو نفسه، وقرأ الصحف بعد العشاء.

انطلق قبل التاسعة إلى بيت المحامي ماكسويل. استقبله ماكسويل استقبالاً بارداً. قال له: «إذن؟».

«أريد تقديم خدماتي في هذه القضية. إن لديّ فكرة. ألا أستطيع أن أتقدم للشهادة فأقسم أنني كنت هناك وأنها أمسكت بالمسدس أولاً ثم تعاركا فانطلقت الرصاصة مصادفة؟».

«وهل ستقدم شهادة كاذبة؟».

«ماذا؟ نعم، أظن أنها ستكون شهادة كاذبة. أووه... هل سيكون هذا مفيداً؟».

«لكن، يا صديقي العزيز... شهادة كاذبة!».

«أوه! لا تكن أحمق! اعذرني يا ماكسويل... لا أقصد إزعاجك. قصدي هو: أنا أعرف وأنت تعرف حالات كثيرة من الشهادات الكاذبة... أحياناً، لمجرد الحصول على عقار صغير لا قيمة له. لكن الموضوع الآن هو إنقاذ بول من السجن. إنني مستعد لشهادة كاذبة».

«لا!... أخشى أن هذا لن يكون مفيداً من الناحية العملية، بغضّ النظر عن الجانب الأخلاقي. سوف يمزق الادعاء العام شهادتك تمزيقاً. من المعروف أن ريزلينغ كان وحيداً مع زوجته في ذلك الوقت».

«إذن، انظر، دعني أذهب إلى المحكمة لأقف وأجيب... سيكون كلامي صادقاً تماماً... وأقول إنها ضايقته حتى جُنّ تماماً».

«لا! آسف! يرفض ريزلينغ رفضاً قاطعاً أي شهادة تلقي باللائمة على زوجته. إنه مُصِرّ على الاعتراف بالذنب».

«دعني إذن أتقدم بأي شهادة... أقول أي شيء. دعني أفعل شيئاً».

«إنني آسف يا بابِت! لكن أفضل ما تستطيع فعله... لا أحب أن أقول هذا... لكنك ستساعدنا على أفضل نحو ممكن إذا بقيت خارج الموضوع تماماً».

ظل بابِت جالساً يدير قبعته بين يديه مثل مستأجر فقير متأخِّر عن الدفع. تقلّص وجهه ألماً على نحو واضح جعل ماكسويل يقول له متلطفاً: «لا أحب أن أجرح مشاعرك؛ لكنك ترى نريد، كلانا، أن نفعل كل ما نستطيع من أجل ريزلينغ. ولا يجوز أن نأخذ أي عامل آخر في الاعتبار. مشكلتك يا بابِت هي أنك... واحد من أولئك الأشخاص الذين يقولون أول ما يخطر في بالهم. أنت تحب أن تسمع صوتك! إذا وجدت أنني أستطيع جعلك

تقف على منصة الشهادة في المحكمة، فسوف تذهب وتقدِّم ما لديك. إنني آسف! عليَّ الآن أن أراجع بعض الأوراق... آسف كثيراً».

- 2 -

في الصباح التالي، ظل بابِت معظم الوقت متوتّراً يفكر في ذلك العالم الثرثار في النادي الرياضي. سوف يتحدثون عن بول؛ وسوف يكونون شامتين قذرين. لكن طاولة «العنيفون» في النادي لم تتطرَّق إلى ذكر بول. تحدثوا متحمسين عن موسم مباريات البيسبول القادم. أحس بابِت نحوهم بحبٍّ حارّ... كما لم يحبهم من قبل.

- 3 -

كانت لديه صورة عن محاكمة بول (لا بد من أنه استقاها من القصص) تقول إنها ستكون صراعاً طويلاً فيه جَدَل عنيف كثير وجمهور متوتّر وشهادات مفاجئة تقلب الأمور رأساً على عقب. لكن المحاكمة لم تدم أكثر من ربع ساعة في واقع الأمر. وجرى في القسم الأكبر من هذا الزمن عرض شهادة الأطباء التي قالت إن زيلا سوف تشفى وإن بول كان في حالة جنون موقّت. وفي اليوم التالي، صدر الحكم على بول بالحبس ثلاث سنوات في سجن الولاية. ثم اقتيد خارجاً، على نحو غير درامي على الإطلاق، ومن غير قيود. مشى متثاقلاً متعباً، ومشى إلى جانبه شرطي مبتهج. وبعد وداعه في المحطة، عاد بابِت إلى مكتبه ليدرك أنه صار الآن يواجه عالماً عديم المعنى من غير بول.

الفصل الثالث والعشرون

ـ 1 ـ

ظل مشغولاً، من آذار حتى حزيران. كان يحمي نفسه من عذاب التفكير. كانت زوجته كريمة معه، وكذلك كان الجيران. كان يلعب البريدج كل مساء، أو يذهب إلى السينما... كانت أيامه صامتة، لا ملامح لها.

وفي حزيران، ذهبت السيدة بابِت شرقاً، مع تينكا، لتبقى بعض الوقت عند أقاربها. وكان بابِت حراً في فعل كل ما... كل ما... لم يعرف ماذا.

ظل طيلة اليوم، بعد ذهابهما، يفكر في البيت الذي تحرَّر، في البيت الذي صار يمكنه ـ إن أراد ـ أن يجن فيه وأن يشتم على هواه من غير اضطرار إلى المحافظة على المظهر الزوجي. قال في نفسه: «أستطيع أن أقيم حفلة في الليل. وأستطيع أن أظل خارج البيت حتى الساعة الثانية من غير تقديم أي توضيح بعد ذلك... يا سلام!».

اتصل بفيرجيل غانتش، وبإيدي سوانسون. كان الاثنان مشغولَين ذلك المساء. أحس فجأة بالملل نتيجة اضطراره إلى هذا العناء كله حتى يكون عربيداً.

ظل صامتاً على العشاء. وكان لطيفاً مع تيد وفيرونا إلى حد غير معتاد. راح يصغي من غير اعتراض عندما تحدثت فيرونا عن رأيها في رأي كينيث إسكوت، في رأي الدكتور جون جينيسون دروز، في رأي القائلين بنظرية الارتقاء. تيد الذي أمضى عطلة الصيف يعمل في محل لإصلاح السيارات، حدثهم الآن عن انتصاراته اليومية: كيف اكتشف رولماناً مكسوراً في سيارة، وكيف قص على العجوز غانتش ما قاله لرئيسه في العمل عن مستقبل الهواتف اللاسلكية.

ذهب تيد وفيرونا إلى الرقص بعد العشاء؛ وحتى الخادمة كانت خارج المنزل. لم يحدث أن وجد بابِت نفسه وحيداً في المنزل طيلة المساء إلا في مرات نادرة. كان قلقاً لا يستطيع الجلوس. رغب، على نحو غامض، في قراءة شيء أكثر تسلية من القصص

الفكاهية في الصحف. سار متمهلاً فصعد إلى غرفة فيرونا وجلس على سريرها العذري ذي اللونين الأزرق والأبيض. كان يهمهم ويزفر كما ينبغي لمواطن صالح يدس أنفه في أشياء لا ينبغي له أن يدس أنفه فيها. ألقى نظرة على كتبها: «إنقاذ» لكونراد. كان هذا جزءاً من رواية تحمل اسماً غريباً «وجوه الأرض»؛ وكتاب شعر لفاتشل لندسي (ظن بابت أنه مختلف عن كتب الشعر العادية)، ومقالات لمينتشن... مقالات غير مناسبة أبداً لأنها تسخر من الكنيسة ومن الأشياء اللائقة كلها. لم يعجبه أي كتاب من هذه الكتب. أحس فيها روحاً من التمرد ضد الحياة اللطيفة والمواطَنة الصلبة. بدا له أن هؤلاء المؤلفين (افترض أنهم مشهورون أيضاً!) لا يهتمون بتقديم قصص جيدة تسمح للمرء بأن ينسى متاعبه. تنهّد ثم انتبه إلى كتاب «ثلاث قطع نقدية سوداء» لجوزيف هرغيشيمر. ... آآه، ها هو شيء يعجبه! لا بد أنه قصة مغامرات؛ قد يكون عن التهريب ـ محققون يتسللون إلى منزل قديم في الليل. دسّ الكتاب تحت إبطه ثم هبط إلى غرفة الجلوس وبدأ القراءة تحت مصباح البيانو:

«خيم غَسَق مثل غبار أزرق على وادٍ قليل العمق في تلال تكسوها غابات كثيفة. كان الوقت أوائل تشرين الأول، لكن صقيعاً هشاً أسبغ على أشجار القيقب لوناً ذهبياً. كانت على أشجار البلوط الإسباني بقع بلون النبيذ الأحمر؛ وكانت شجيرات السُمّاق متألقة وسط الدغل الواطئ الذي بدأ يلفه الظلام. حلق سرب من الإوز البري منخفضاً خليَّ البال فوق تلك التلال. طار متعرِّجاً في تلك الأمسية الساكنة سكون الرماد. كان هوات بيني واقفاً في فسحة صغيرة عند الطريق. رأى أن الإوز الطائر في خط متعرج لن يقترب منه إلى الحد الكافي لإطلاق النار... ما كانت عنده نية لاصطياد الإوز. تبخرت رغبته في الصيد بعد المرور المتثاقل البطيء لذلك النهار. ازدادت لا مبالاته المعتادة، تخللته كله...».

عاد الملل من جديد: عاد بابت ساخطاً، بطريقته الجيدة المعروفة. وضع الكتاب وراح يصغي إلى الصمت. كانت الأبواب الداخلية في البيت مفتوحة. سمع من المطبخ الصوت الرتيب الصادر عن البراد، إيقاع ممل مزعج. ذهب إلى النافذة. كان ذلك المساء الصيفي ضبابياً. نظر عبر الشبكة السلكية على النافذة فرأى مصابيح الشارع غائمة... مثل صلبان نارية واهية. كان العالم كله غير طبيعي. وبينما ظل جالساً ساكناً مكتئباً، عاد تيد وفيرونا. صعدا ليناما. ازداد الصمت كثافة في البيت الغافي. وضع قبعته ومعطفه الخفيف المحترم، ثم أشعل سيجاراً وخرج يتمشى أمام البيت... رجل بدين، محترم، لا معنى له... يدندن مغنياً «خيوط الفضة وسط الذهب». خطر في ذهنه فجأة «قد أتصل ببول». ثم تذكر. لقد رأى بول في ملابس السجن، لكنه لم يصدق

الحكاية كلها رغم عذابه. كان هذا جزءاً من أمسيته غير الواقعية التي غلّفها الضباب المسحور.

لو كانت ميرا هنا لقالت له: «أليس الوقت متأخراً يا جورجي؟». سار قرب البيت متثاقلاً تائهاً في فضاء حرّيته البائسة غير المرغوبة. أبتلع الضباب البيت كله. صار العالم غير مخلوق بعد... صار سديماً ليس فيه مشكلات ولا رغبات.

ومن خلال الضباب الرقيق، جاء رجل سائر بخطى محمومة حتى بدا كمن يرقص غَضَباً عندما دخل دائرة الضوء تحت مصباح الشارع. كان يلوِّح بعصاه مع كل خطوة ثم يهوي بها على الأرض. وكانت نظّارته المعلقة بشريط عريض فاخر تصطدم ببطنه. نظر بابِت إليه غير مصدِّق عينيه... إنه تشام فرينك.

توقف فرينك محاولاً تركيز نظره ثم تكلم بثقل:

«ها هو أحمق آخر. جورج بابِت. يعيش من أجل تأجير البيوشش ... البيوت. هل تعرفني؟ أنا خائن الشعر. أنا سكران. وأنا أتكلم كثيراً. لست أبالي. أتعرف ماذا كان يمكن أن أكون؟ كان يمكنني أن أكون مثل جين فيلد أو جيمس ويتكومب رايلي. بل ربما مثل ستيفنسون نفسه. نعم، كان يمكنني. نزوات كثيرة. مخيلة. استمع. استمع إلى هذه. قلتها الآن:

أصوات مرجية صيفية تتلألأ

أصوات الخنافس والمتسكعين، وأصوات صبيان محترمين.

هل سمعت هذا؟ نزوة ـ نزوات. صنعتها بنفسي. لا أعرف معناها! بداية قصيدة جيدة. قصائد لروضات الأطفال. وماذا أكتب؟ توافه! قصائد مبتهجة. كلها توافه! كان يمكنني أن أكتب... أوه ... فات الأوان!» تقدم باندفاعة منذرة بالسوء. كان يبدو دائماً كأنه موشك على السقوط، لكنه لا يسقط! لو أن شبحاً خرج من ذلك الضباب حاملاً رأسه بين يديه لما اندهش بابِت أكثر من دهشته الآن. استقبل فرينك بلا مبالاة شديدة. ابتسم قائلاً: «أحمق مسكين». ثم نسي أمره على الفور.

دخل البيت بخطى متثاقلة. مضى إلى البراد مباشرة. نهبه نهباً! لو كانت السيدة بابِت في البيت، لاعتبرت هذه الفعلة الشائنة واحدة من الجرائم المنزلية الكبرى. وقف أمام حوض الغسيل المغطى وراح يأكل فخذ دجاجة ونصف صحن من مربى التوت. ثم التهم قطعاً باردة لزجة من البطاطا المسلوقة. كان يفكر أيضاً. كان يخطر في باله الآن أن الحياة كلها، كما عرفها ومارسها بنشاط، لم تكن إلا شيئاً عقيماً باطلاً. وما كانت الآخرة التي يصفها المحترم الدكتور جون جينسون درو شيئاً كبير الاحتمال، ولا شيئاً يثير الاهتمام كثيراً. فكر في أنه لا يجد مسَرّة إلا في جني المال. وفكر أيضاً في القيمة

المشكوك فيها لتنشئة أطفال لمجرد أن يقوموا هم بتنشئة أطفال أيضاً، ثم يقوم أطفالهم بتنشئة أطفال. ما غاية هذا كله؟ وماذا يريد هو نفسه؟

تحامل على نفسه حتى بلغ غرفة المعيشة. استلقى على الأريكة واضعاً كفيه خلف رأسه.

ماذا يريد؟ الثروة؟ الموقع الاجتماعي؟ السفر؟ الخدم؟ نعم... لكن هذه الرغبات كلها جاءت مصادفة.

قال لنفسه: «إنني أستسلم».

لكنه كان مدركاً أنه يريد وجود بول ريزلينغ. ثم انتقل من هذه الفكرة إلى الإقرار بأنه يريد فتاة الحكايات... يريدها حقيقية من لحم ودم. لو كان لديه امرأة يحبها لطار إليها وأراح رأسه المتعب على ركبتيها.

فكر في كاتبة الاختزال، الآنسة ماكغاون. فكر في أجمل واحدة بين فتيات العناية بالأظافر في محل الحلاقة في فندق ثورنليف. وعندما غفى على الأريكة أحس بأنه وجد شيئاً في الحياة. أحس بأنه قد حقق ذلك القَطع المخيف المدوّخ مع كل شيء أخلاقي أو لائق.

- 2 -

نسي تمرّد وعيه صبيحة اليوم التالي، لكنه كان منزعجاً سريع الهياج في المكتب. وعندما جاء وقت الاتصالات الكثيرة والزوار الكثر، في الساعة الحادية عشرة، فعل شيئاً كان يشتهيه كثيراً لكنه لم يجرؤ على فعله من قبل: غادر المكتب من غير تقديم أي تفسير لموظفيه، وذهب إلى السينما. كان مستمتعاً بحقه في أن يكون وحيداً. خرج من السينما مصمّماً، تصميماً وحشياً، على أن يفعل ما يريد.

ضحك الجميع عندما اقترب من طاولة «العنيفون» في النادي.

قال سيدني فينكلشتاين: «إذن... هاهو المليونير!».

قال البروفيسور بامفري: «نعم، رأيته راكباً سيارة بحجم القاطرة!».

قال فيرجيل غانتش: «يا إلهي! شيء عظيم، بالتأكيد، أن يكون المرء ذكياً مثل جورجي! لعله سرق دورتشستر كلها. أخاف أن أترك قطعة أرض مسكينة صغيرة عديمة الحول هناك في العراء لأنه يمكن أن يستولي عليها ويأخذها مني».

أدرك بابِت أن لديهم «مأخذاً عليه». وأدرك أيضاً أنهم «يريدون المزاح والسخرية منه». في الأحوال العادية، كان التشريف المتضمن في وقوع المرء ضحية مزاح من هذا النوع يشعره بالبهجة، لكنه صار الآن حساساً على نحو مفاجئ. قال مبتسماً: «صحيح،

بالتأكيد! ربما أعيّنكم صبياناً في المكتب عندي». لكنه ضاق ذرعاً عندما راح هذا المزاح يتطور تطوراً مقصوداً حتى وصل إلى نتيجته، إلى زبدة القول.

قالوا: «لا بد أنه كان مع إحدى الفتيات، بالتأكيد!»... «لا، أظن أنه كان هناك ينتظر زميله في الغرفة، السير دواك».

انفجر قائلاً: «أوه! كفوا عن هذا! كفوا عن هذا أيها الأغبياء! ما هي النكتة العظيمة؟».

قال سيدني فينكلشتاين ضاحكاً: «اهربوا سريعاً! لقد غضب جورج». سَرَت ابتسامة في وجوه الجالسين جميعاً. ثم أعلن غانتش الحقيقة الصادمة: لقد رأى بابِت خارجاً من السينما وقت الظهر!

واصلوا سخريتهم. أعادوا القصة مئة مرة، بمئة شكل مختلف، وقهقهوا مئة مرة، قالوا إنه ذهب إلى السينما خلال وقت العمل. لم ينزعج بابِت كثيراً من غانتش، لكنه شعر بالضيق من سيدني فينكلشتاين، ذلك النحيل المتذاكي صاحب الشعر الأحمر... الذي يشرح النكت. أزعجته أيضاً كتلة الجليد في كأس الماء أمامه. كانت أكبر مما يجب. وكانت تنقلب وتصطدم بأنفه عندما يحاول الشرب. قال في نفسه غاضباً إن فينكلشتاين يشبه قطعة الجليد هذه. لكنه تغلّب عليهم: ساير مزاحهم إلى أن تعبوا من الأمر وانتقلوا إلى مشكلات اليوم الحقيقية.

قال في نفسه: «ماذا بي اليوم؟ يبدو أنني مصاب بنوبة نَكَد فظيعة. إنهم يتكلمون هكذا دائماً. لكن من الأفضل أن أنتبه وأن أبقي فمي مطبقاً».

وعندما راحوا يدخنون قال لهم مغمغماً: «علي أن أعود الآن». ثم ولى هارباً عندما أجابته الجوقة كلها: «أنت عائد إلى قضاء الوقت مع الفتيات في السينما». سمعهم يضحكون. كان محرَجاً. وحين كان يحاول الإجابة بلباقة على موظف غرفة المعاطف الذي قال له إن الطقس دافئ، أدرك أنه توّاق إلى الجَري مثل طفل... حاملاً متاعبه كلها ليجد الراحة مع فتاة الحكايات.

-3-

استبقى الآنسة ماكغاون بعد فراغه من إملاء الرسائل عليها. راح يفتش عن موضوع يمكن أن يشيع الدفء في حياديتها المكتبية وأن يخلق جواً من الصداقة.

قال لها بصوت منخفض: «أين ستذهبين في العطلة؟».

«أظن أنني ذاهبة إلى مزرعة في أعالي الولاية... هل تريد أن أنسخ عقد إيجار سيدونز بعد الظهر؟».

«أوه، لا داعي للاستعجال... أظن أنك تمضين وقتاً رائعاً عندما تبتعدين عنا... نحن غريبو الأطوار في المكتب».

نهضت وجمعت أقلامها: «أوه، لا أحد غريب الأطوار هنا فيما أظن. يمكنني أن أنسخ العقد بعد فراغي من الرسائل».

ذهبت. رفض بابت رفضاً قاطعاً أن يعترف بالفكرة القائلة إنه كان يحاول اكتشاف إمكانية التقرّب من الآَنسة ماكغاون. قال في نفسه: «بالطبع! كنت أعرف أنها ليس لديها شيء!».

- 4 -

أقام إيدي سوانسون، وكيل السيارات الذي يعيش في البيت المقابل لبابِت، عبر الشارع، وليمة عشاء يوم الأحد. وكانت زوجته لويتا في أقصى حالات اندفاعها... لويتا الشابة التي تحب الجاز في الموسيقى وتحب الملابس والضحك. كانت تصيح مستقبلة ضيوفها: «ستكون حفلة حقيقية». أحس بابِت بشيء من الانزعاج أن هذه المرأة ستكون مغرية جذابة لكثير من الرجال. وقد اعترف الآن لنفسه بجاذبيتها الطاغية. لم تكن لويتا تعجب السيدة بابِت. وكان بابِت مرتاحاً لأنها غير موجودة معه هذا المساء.

أصر على مساعدة لويتا في المطبخ: أخرج الدجاج من فرن التسخين؛ وأخرج شطائر الخس من صندوق التبريد. أمسك يدها، مرة واحدة، لكنها لم تلاحظ ذلك. قالت ضاحكة: «أنت مساعد جيد يا جورجي. انطلق الآن بهذه الصينية. ضعها على الطاولة الجانبية».

تمنى أن يقدم لهم إيدي سوانسون كوكتيلاً؛ وتمنى أن تشرب لويتا كأساً. أراد أن... أوه، أراد أن يكون واحداً من هؤلاء البوهيميين الذين يقرأ المرء عنهم. حفلات الاستوديو. فتيات جميلات منطلقات، مستقلات أيضاً. هذا ليس شيئاً سيئاً بالضرورة؛ هو ليس سيئاً أبداً! وهو ليس شيئاً وديعاً مدجناً مثل فلورال هايتس. كيف استطاع أن يتحمل حياته هذه السنين كلها...

لم يقدم لهم إيدي الكوكتيل. صحيح أنهم ارتشفوا ما قدمه لهم مسرورين، وأن أورفيل جونز كرر عدة مرات عبارة «سوف أطلب من هذه الفطيرة أن تبتعد جانباً كلما أحبت لويتا أن تأتي وتجلس في حضني»، لكنهم كانوا جميعاً أشخاصاً محترَمين ملائمين لأمسية الأحد هذه. حرص بابِت، سراً، على أن يسبق غيره إلى اتخاذ مكان له إلى جانب لويتا على المقعد بجانب البيانو. عندما كان يتحدث عن السيارات، وعندما راح يصغي بابتسامة ثابتة إلى كلامها عن فيلم شاهدته الأربعاء الماضي، وعندما تمنى

أن تنتهي سريعاً من وصف حبكة الفيلم ومن حديثها عن جمال بطله وفخامة ما رأته فيه، كان يدرسها بعينيه. خصر رشيق يلفّه ثوب من الحرير الخام، وحاجبان قويان، وعينان متوقّدتان، وشعر مفروق فوق جبهتها العريضة ـ رأى فيها شباباً وسحراً حزيناً. فكر في أنها يمكن أن تكون رفيقة مقداماً في رحلة طويلة بالسيارة لاستكشاف الجبال وتناول الطعام تحت أجمة من أشجار الصنوبر، عالياً فوق الوادي. مسّت رقّتها قلبه. وغضب من إيدي سوانسون بسبب تلك المشاحنات العائلية التي لا تنقطع. وسرعان ما طابق بين لويتا وفتاة الحكايات. فاجأته فكرة أن بينهما جاذبية عاطفية متبادلة منذ وقت طويل.

قالت له: «أظن أنك تحيا حياة مخيفة الآن في غياب زوجتك».

«بالتأكيد! إنني شخص سيئ، وأنا فخور بذلك. يمكنك، ذات مساء، أن تضعي لإيدي مخدراً في قهوته ثم تتسللي لتجتازي الشارع. وسوف أعلّمك تحضير الكوكتيل».

«نعم، الآن... قد أفعلها! ... من يدري؟».

«إذن، عندما تكونين مستعدة، علّقي منشفة على الشباك؛ وسوف أقفز فوراً لأحضر الجن».

ضحك الجميع لهذه الشقاوة. وقال إيدي سوانسون باسماً إنه سيجعل طبيباً يفحص قهوته كل يوم. انتقل الآخرون إلى مناقشة آخر أخبار جرائم القتل. لكن بابِت أعاد لويتا إلى أشياء شخصية:

«هذا أجمل فستان أراه في حياتي كلها».

«هل يعجبك حقاً؟».

«يعجبني! ماذا... اسمعي، سأجعل كينيث إسكوت يكتب مقالة في الصحيفة يقول فيها إن لويتا سوانسون أكثر النساء أناقة في الولايات المتحدة كلها».

«كف عن مضايقتي!» ... ثم قالت مبتسمة: «فلنرقص قليلاً! عليك أن ترقص معي يا جورج».

قال محتجّاً: «أوه، تعرفين أنني راقص سيئ»، لكنه نهض واقفاً على الفور.

«سأعلّمكَ. أستطيع تعليم أي شخص».

كانت عيناها نديّتين، وكان صوتها مترَعاً بالإثارة. صار بابِت الآن مقتنعاً بأنه فاز بها. احتضنها شاعراً بدفئها الناعم؛ ثم راح يدور معها، بوقار، في نسخة ثقيلة من رقصة الخطوة الواحدة. لم يصطدم إلا بشخصين اثنين. قال مبتهجاً: «أووووف، أدائي ليس سيئاً... إنني أصطدم بهم مثلما يفعل أي راقص محترف». أجابته مؤكدة: «نعم ـ نعم ـ قلت لك إنني أستطيع تعليم أي شخص ـ لا تجعل خطواتك طويلة هكذا!».

فقد ثقته بنفسه لحظة واحدة. ركز تماماً على محاولة مسايرة الموسيقى. لكن سحرها غمره من جديد. قال في نفسه: «سوف أجعلها معجبة بي. نعم، سوف أجعلها معجبة بي!». حاول تقبيل خصلة شعر بجانب أذنها. حركت رأسها بحركة ميكانيكية حتى تتجنّب ذلك. وتمتمت بطريقة ميكانيكية أيضاً: «لا تفعل هذا!».

كرهها لحظة واحدة. لكنه عاد إلى اندفاعه في اللحظة التالية. رقص مع السيدة جونسز، زوجة أورفيل جونسز. لكنه كان ينظر إلى لويتا مندفعة على امتداد الغرفة راقصة مع زوجها. وثب قليلاً طاوياً ركبته مداعباً السيدة جونسز... قائلاً لتلك السيدة الفاضلة، من غير سبب: «ياه، الجو حار!». ثم قال في نفسه: «كن حذراً! إنك تزداد حماقة!».

فكر في بول جالساً في ذلك المكان المعتم حيث لا يرقص الرجال أبداً. قال في نفسه قلقاً: «يبدو أنني مجنون الليلة؛ من الأفضل أن أذهب». لكنه ترك السيدة جونسز واندفع إلى لويتا قائلاً: «الرقصة التالية لي».

«أوه، أشعر بالحر كثيراً. لن أرقص هذه الرقصة».

«إذن، ...» صار جريئاً... «تعالي اجلسي في الشرفة حتى ترتاحي وتتخلصي من الحر».

«طيب...».

أمسك يدها مصمماً في تلك الظلمة الرقيقة، مع صخب البيت خلفهما. شدت على يده مرة واحدة، ثم تراخى كفها.

«لويتا! أظن أنك ألطف امرأة أعرفها».

«وأنا أظن أنك لطيف جداً».

«هل تظنين هذا حقاً؟ عليك أن تحبيني! إنني أشعر بوحدة شديدة».

«أوه، ستكون على خير ما يرام عندما تعود زوجتك إلى البيت».

«لا! أشعر بالوحدة دائماً».

أطبقت كفيها واضعة يديها تحت ذقنها فلم يجرؤ على لمسها.

قال بصوت خافت: «عندما يحس الإنسان أنه قد صار خاوياً، و...». كان على وشك الحديث عن مأساة بول، لكن هذا الأمر كان مقدّساً عنده، شديد القداسة، لا يصح استخدامه حتى في دبلوماسية الحب هذه... «عندما أحس أنني تعبت من المكتب ومن كل شيء، أحب أن أنظر عبر الشارع وأن أفكر فيك. هل تعرفين أنني رأيتك في الحلم ذات مرة؟».

«وهل كان حلماً لطيفاً؟».

«كان حلماً جميلاً».

«أوه، يقولون إن الأحلام تأتي معكوسة! عليَّ أن أعود إلى الداخل الآن».

نهضت واقفة.

«أوه، لا تذهبي! من فضلك يا لويتا!».

«بل يجب أن أدخل. عليَّ أن أهتم بضيوفي».

«دعيهم يهتمون بأنفسهم!».

«لا أستطيع»... ربتت على كتفه بحركة لا مبالية، ثم مضت بعيداً.

بعد دقيقتين أمضاهما في توق طفولي خجول إلى الانسلال عائداً إلى بيته، قال بابِت غاضباً: «لم أكن أحاول التقرّب منها، بكل تأكيد! أعرف أن هذا أمر فارغ؛ عرفت ذلك طيلة الوقت». دخل فرقص مع السيدة جونسز مرة ثانية... حتى يتجنب لويتا: أراد أن يتجنبها بشكل واضح.

الفصل الرابع والعشرون

-1-

كانت زيارته لبول أمراً غير حقيقي، مثلما كانت ليلة الضباب والتساؤلات. مضى، غير منتبه، عبر ممرات السجن الفائحة براحة المطهّر، مثل المستشفيات، حتى وصل إلى غرفة فيها مقاعد طويلة صفراء شاحبة تزيّنها نجوم صغيرة كالتي كانت تزين المقاعد في محل الأحذية عندما كان طفلاً. أتى الشرطي ببول. بدا وجه بول شاحباً من غير تعبير فوق بدلة السجن الرمادية. كان يتحرك وجِلاً، مستجيباً لأوامر الشرطي. وبوداعة خانعة، دفع بول الأشياء التي أتى بها بابِت، التبغ والمجلات، عبر الطاولة حتى يفتشها الشرطي. ما كان لديه شيء يقوله إلا: «أوه، لقد اعتدت السجن»؛ و«أعمل في ورشة الخياطة. هذا يؤذي أصابعي».

عرف بابِت أن بول كان ميتاً في مكان الموت هذا. وبينما كان يفكر خلال عودته في القطار أحس بأن شيئاً في نفسه قد مات أيضاً: الإيمان المخلص الشديد في طيبة العالم، والخوف من ازدراء الناس، والزهو بالنجاح. كان سعيداً بأن زوجته ليست هنا. أقرّ بهذا من غير أن يحاول أن يجد له تبريراً. ما كان يبالي بشيء.

-2-

قرأ اسمها على البطاقة «السيدة دانييل جوديك». كان بابت يعرف أنها أرملة تاجر ورق. لابد أنها في الأربعين أو الثانية والأربعين، لكنه ظن أَنها أصغر من ذلك عندما رآها في المكتب بعد الظهر. جاءت تسأل عن شقة للإيجار. أخذها بابت بعيداً عن الفتاة المحاسبة التي تفتقر إلى الخبرة اللازمة. جذبه ذكاؤها! كانت امرأة هيفاء في فستان سويسري أسود منقّط بالأبيض... فستان مهيب لطيف المظهر. وكانت قبّعة سوداء عريضة تظلّل وجهها. كانت عيناها لامعتين. وكانت ذقنها الناعمة ممتلئة امتلاء لذيذاً.

بل كانت وجنتاها ورديتين أيضاً. تساءل بابِت في ما بعد ما إذا كان هذا التورّد نتيجة مواد التجميل؛ لكن الدنيا كلها ما كان فيها شخص أكثر جهلاً بهذه الأمور من بابِت.

جلست تدير مظلتها البنفسجية بين يديها. كان صوتها جذّاباً مغرياً من غير محاولة لتصنع الخجل: «لا أعرف إذا كنت تستطيع مساعدتي».

«تسرني مساعدتك».

«إنني أبحث في كل مكان و... أريد شقة صغيرة، غرفة نوم واحدة فقط، أو ربما غرفتين، وغرفة جلوس، ومطبخًا صغيرًا وحمامًا. لكني أريد شقة فيها شيء من السحر حقاً... لا أريد تلك الأماكن التعيسة، أو تلك الأماكن الجديدة التي فيها ثريات مبهرجة. ولا أستطيع أن أدفع الكثير أيضاً. اسمي تانيس جوديك».

«أظن أن لدي شيئًا مناسبًا لك. هل تحبين أن نذهب الآن لتري تلك الشقة؟».

«نعم! لدي ساعتان من الوقت».

كان لدى بابِت شقة في بناية كافنديش للشقق السكنية. وكان محتفظاً بها من أجل سيدني فينكلشتاين. لكن فكرة الذهاب بالسيارة مع هذه المرأة الجذّابة جعلته يزيح صديقه فينكلشتاين جانباً. قال لها بفروسية: «سأريك ما أستطيع فعله».

نفض الغبار عن مقعد السيارة من أجلها. وغامر بأن يُقتل، مرتين، حتى يجعلها ترى مهاراته في القيادة.

قالت: «أنت لا تعرف كيف تقود السيارة».

أعجبه صوتها. كان فيه موسيقى، ومسحة من الثقافة... ليس ذلك الصوت الذي يقفز ضاحكاً مثل صوت لويتا سوانسون!

قال مباهياً: «تعرفين أن هنالك الكثير من الأشخاص الذين ترعبهم قيادة السيارة... يقودون ببطء إلى درجة تجعلهم كأنهم واقفون في طريق غيرهم. السائق الأفضل هو الذي يعرف كيف يتعامل مع سيارته ولا يخشى السرعة عندما تكون ضرورية. ألا تظنين هذا؟».

«أوه! نعم».

«لا بد أنك بارعة في القيادة».

«أوه، لا... أقصد... ليس تماماً. كان لدينا سيارة طبعاً... أعني، قبل وفاة زوجي... لكن لا أظن أن أي امرأة يمكن أن تجيد قيادة السيارة مثل الرجل».

« الآن... هنالك نساء ماهرات في قيادة السيارات».

«بالتأكيد... تقصد تلك النساء اللواتي يحاولن تقليد الرجال، ويلعبن الغولف، وكل شيء... ويفسدن بشرتهن وتصبح أيديهن خشنة».

«معك حق. لا أحب النساء المسترجلات، أبداً».

«أقصد... بطبيعة الحال... إنني معجبة بهنّ... كثيراً... أشعر أنني ضعيفة عديمة النفع عندما أقارن نفسي بهن».

«أوه، كفّي عن هذا! لا بد أنك بارعة تماماً في العزف على البيانو».

«أوه، لا... أقصد... ليس تماماً».

«أراهن أنك بارعة على البيانو!»... ألقى نظرة على يديها الناعمتين وعلى خواتم الفضّة والعقيق في أصابعها. انتبهت إلى نظرته فضمت كفيها معاً فرأى انحناءة أصابعها الرقيقة البيضاء. سرَّه ذلك؛ قالت مبتسمة:

«أحب أن أعزف... أقصد... أحب أن أنقر على مفاتيح البيانو. لكنني لم أتلقَ أي تدريب حقيقي. كان السيد جوديك يقول إنني أستطيع أن أصبح عازفة بيانو جيدة إذا تلقيت تدريباً. لكنني أظن أنه كان يجاملني».

«لم يكن يجاملك! أنت امرأة حساسة».

«أوه، وهل تحب الموسيقى يا سيد بابِت؟».

«بالتأكيد أحبها! لكني لست مهتماً كثيَراً بالموسيقى الكلاسيكية».

«أنا أحبها! أحب شوبان، وكل هؤلاء الموسيقيين».

«هل تحبين ذلك حقاً؟».

«نعم، بالتأكيد، إنني أذهب إلى كثير من هذه الحفلات الموسيقية الراقية. لكني أحب فرق الجاز الجيدة أيضاً التي تعزف واقفة... حيث يجعل عازف الكمان الكبير آلته تدور وينقر عليها بقوسه».

«نعم، أعرف!»

«أحب أيضاً الموسيقى الراقصة الجيدة. إنني أعشق الرقص. ألا تحب الرقص يا سيد بابِت؟».

«طَبعاً، بالتأكيد. لكني لست راقصاً ماهراً رغم ذلك».

«أوه، أنا واثقة من أنك ترقص جيداً. عليك أن تسمح لي بأن أعلّمك الرقص. أستطيع تعليم أي شخص أن يرقص».

«هل تعطيني درساً في الرقص ذات يوم؟».

«طبعاً، سأعطيك».

«عليك أن تنتبهي وإلا فسوف أطالبك بتحقيق هذا الوعد. سوف آتي إلى شقتك وأجعلك تعطيني ذلك الدرس».

«نعم، نعم». لم تشعر جوديك بأي إساءة، لكنها لم تبدُ شديدة الاهتمام أيضاً. قال

في نفسه محذراً: «كن عاقلاً الآن... انتبه أيها الأحمق! لا تجعل من نفسك أضحوكة مرة أخرى!»... ثم قال لها بشموخ:

«أتمنى لو كنت أستطيع الرقص مثل هؤلاء الشباب. لكني سأقول لك شيئاً: أشعر بأن على الرجل أن يتولى، إذا جاز لي القول، دوراً خلّاقاً في العالم بحيث يساهم في تشكيله، وبحيث يكون لحياته معنى، ألا تظنين هذا؟».

«أوه، هذا ما أراه أيضاً!».

«وهكذا فإنه علي أن أضحّي ببعض الأشياء التي قد أحب القيام بها. لكن ليس كل شيء... إنني ألعب الغولف جيداً، مثل الآخرين».

«أنا متأكدة من هذا... هل أنت متزوج؟».

«آه ـ نـ .. نعم... و... آه، وعندي مهمات رسمية أيضاً، فأنا نائب رئيس نادي بوسترز، كما أنني على رأس واحدة من اللجان في اتحاد المجالس العقارية في الولاية. وهذا يعني الكثير من العمل والمسؤوليات... ثم، بالأخص، لا يتلقى المرء الشكر على هذا».

«أوه، أعرف! لا ينال الرجال الذين يهتمّون بالشأن العام اعترافاً لائقاً بجهودهم».

نظر كل منهما إلى الآخر بدرجة كبيرة من الاحترام. وعندما وصلا إلى بناية كافنديش، ساعدها بطريقة لطيفة في الترجل من السيارة وأشار بيده إلى البناء كأنه يقدمه إليها. ثم أمر صبي المصعد قائلاً: «أسرع واجلب المفاتيح». وقفت قريبة منه في المصعد فأثاره ذلك، لكنه ظل حذراً.

كانت شقة جميلة: جدران زرقاء ناعمة، وخشب أبيض. سُرَّت السيدة جوديك كثيراً بتلك الشقة ووافقت على استئجارها. وعندما سارا قاصدين المصعد لمست كمه قائلة، كأنها تغني: «أوه، أنا مسرورة كثيراً لأنني التقيتك! رائع أن أصادف رجلاً يفهم حقاً. أوه! لو تعرف كيف كانت الشقق التي أروني إيّاها!».

كان لديه إحساس غريزي حاد بأنه يستطيع أن يلفّها بذراعه، لكنه وبّخ نفسه ورافقها إلى السيارة بأدب زائد. ثم أوصلها إلى بيتها. بعدها راح يخاطب نفسه غاضباً طيلة طريق العودة إلى المكتب:

«يسعدني أن يكون لدي بعض الفَهم، ولو مرة واحدة... اللعنة، ليتني حاولت. إنها فاتنة! رائعة! ساحرة حقيقية! عينيان جميلتان وشفَتان لذيذتان، وذلك الخصر الرقيق... ليس رخواً أبداً... مثل... مثل بعض النساء... لا، لا، لا! إنها سيدة مثقّفة. واحدة من ألمع النساء اللواتي رأيتهن منذ شهور كثيرة. إنها تعرف الكثير عن الموضوعات العامة، و... لكن، اللعنة، لماذا لم أحاول؟ ... كم أنا أخرق!».

ـ 3 ـ

أزعجه ما جرى، وحيَّره. لكنه وجد أنه بدأ يهتم بالشابات... لأنه شاب في واقع الأمر! كانت الفتاة التي لفتت نظره خاصة ـ رغم أنه لم يكلمها من قبل ـ آخر فتاة من فتيات العناية بالأظافر، إلى جهة اليمين في محل بومبيان للحلاقة. كانت صغيرة الحجم سريعة الحركة سوداء الشعر باسمة. لعلها في التاسعة عشرة، أو العشرين. كانت ترتدي قميصاً ضارباً إلى الحُمرة يكشف عن كتفيها وعن الحافّة السوداء لقميصها الداخلي.

ذهب إلى محل بومبيان، فهو يقصّ شعره عادة كل أسبوعين. وكعادته دائماً، أحس بأنه يرتكب خيانة لأنه لم يذهب إلى جيرانه... أي إلى محل الحلاقة الموجود في مبنى ريفز. لكنه، للمرة الأولى، ألقى عن نفسه هذا الإحساس بالذنب: «اللعنة على هذا! لست مضطراً إلى الذهاب إليهم إذا كنت غير راغب في ذلك! لست مالك مبنى ريفز! وليس لدى هؤلاء الحلاقين حقوق عليّ! سأحلق شعري أينما أردت! ولا أريد أن أسمع شيئاً آخر عن هذا الأمر. لقد سئمت مساندة الآخرين... إلا إذا كنت أريد ذلك. ليس لهذا أي معنى. سئمت ذلك!».

كان محل بومبيان للحلاقة في قبو فندق ثورنليف، أكبر فنادق زينيث وأكثرها حداثة. تفضي درجات رخامية منحنية لها مسند واقٍ من النحاس اللامع من ردهة الفندق إلى محل الحلاقة في الأسفل. كان المحل مكسواً من الداخل بقرميد ملوّن بالأسود والأبيض والقرمزي، وله سقف فاخر مزخرف بألوان ذهبية، وفيه نافورة وقفت في وسطها حورية يتدفق منها، من غير توقف، ماء ليلكي اللون. كان في هذا المحل أربعون حلاقاً وتسع فتيات للعناية بالأظافر يعملون جميعاً من غير توقّف. وكان عند الباب ستة عمال ملوَّنين وظيفتهم أن يرحّبوا بالعملاء وأن يهتموا بقبعاتهم وياقاتهم، بكل احترام، وأن يدخلوهم إلى مكان الانتظار حيث امتدت سجادة تشبه جزيرة استوائية وسط تلك الأرضية البيضاء، ومن حولها أكثر من عشرة مقاعد جلدية تتوسطها طاولة عليها كومة من المجلات.

كان عامل الاستقبال الذي تلقّى بابِت زنجياً شائباً شديد المجاملة أظهر له أكبر تشريف وتقدير في زينيث... حيّاه باسمه! لكن بابِت ما كان مسروراً. رأى أن فتاة العناية بالأظافر التي أرادها مشغولة. كانت تهتم بأظافر شخص زائد الأناقة. وكانت تحدّثه ضاحكة. كره بابِت هذا الرجل. فكر في الانتظار، لكن إيقاف نظام العمل الجبّار في محل بومبيان أمر لا يمكن التفكير فيه. وسرعان ما دُفع به إلى أحد الكراسي.

كان كل ما يحيط به مرفّهاً، غنياً، أنيقاً. رأى أحد المتعبّدين في هذا المكان يتلقى معالجة بالأشعة البنفسجية لوجهه، وكان شعر متعبّد آخر يُغسَل بالشامبو الزيتي. كان

فتيان يدفعون في أرجاء المكان آلات تدليك كهربائية عجيبة لها عجلات. والحلاقون يلتقطون من آلة تشبه مدفعاً لامعاً أبيض اللون مناشف صغيرة يتصاعد منها البخار ثم يلقون بها جانباً بازدراء بعد استخدامها ثانية واحدة. وكان على الرف الرخامي الكبير المواجه للكراسي مئات من عبوات زيوت الشعر المختلفة بألوان كهرمانية وعقيقية وزمرّدية. وجد بابِت إغراء في أن يكون له عبدَان شخصيان في وقت واحد: الحلاق، وماسح الأحذية. لو استطاع الحصول على فتاة الأظافر لكان أكثر سعادة! بدأ الحلاق يقصّ شعره ويسأله عن رأيه في سباقات الخيل وفي موسم البيسبول، وفي عمدة المدينة أيضاً. وكان ماسح الأحذية الزنجي الشاب يهمهم بأغنية يلمِّع الحذاء على إيقاعها ويشد قطعة القماش اللامعة على الحذاء بقوة كبيرة عند كل ضربة فيجعلها تصدر صوتاً مثل أوتار آلة موسيقية. كان الحلاق «بائعاً» ممتازاً. لقد جعل بابِت يشعر بالثراء والأهمية من خلال طريقة طرح الأسئلة عليه: «ما هو زيت الشعر المفضَّل عندك يا سيدي؟ وهل لديك وقت اليوم، يا سيدي، لتدليك الوجه؟ إن فروة رأسك متوتّرة قليلاً، فهل تريد تدليكاً لها؟».

كانت متعة بابِت الكبيرة في غسل شعره بالشامبو. وضع الحلاق كمية كبيرة من الشامبو على شعره ثم (مع انحناء بابِت فوق المغسلة ملفوفاً بالمناشف) غسل شعره بماء ساخن راح يجري على جمجمته. ثم فتح الماء البارد. وعند هذه الصدمة، صدمة الماء البارد الجاري على رأسه، قفز قلب بابِت وخفق صدره، وأحس تياراً كهربائياً يسري في عموده الفقري. كان هذا إحساساً عجيباً... يكسر رتابة الحياة. راح ينظر متعالياً في أرجاء المكان بعد أن عاد إلى جلسته. فرك الحلاق المتفاني رأسه بالمنشفة ثم لفّه بمنشفة أخرى مثل عمامة فصار بابِت أشبه بخليفة سمين جالسٍ على عرش مبتكر قابل للحركة والرفع والخفض. قال الحلاق راجياً (بطريقة صديق طيِّب، لكنه واقع تحت سحر الخليفة): «ما رأيك في فرك رأسك بقليل من زيت الديرادو يا سيدي؟ إنه مفيد جداً لفروة الرأس يا سيدي! هل استخدمته في المرة الماضية؟».

لم يكن بابِت قد استخدم هذا الزيت من قبل. لكنه قال موافقاً: «حسنًا، لا بأس».

بقلب متلهف راجف، رأى بابت أن فتاة الأظافر صارت حرة الآن.

قال للحلاق: «لا أدري! أظن أنني أريد تقليم أظافري». ثم ابتهج مستثاراً عندما رآها آتية، سوداء الشعر، باسمة، رقيقة، صغيرة. لا بد من إنهاء العناية بالأظافر على طاولتها هي، وسوف يكون قادراً على الحديث معها من غير أن يستمع الحلاق إليهما.

انتظر مطمئناً؛ ولم يحاول استراق النظر إليها. أما هي فراحت تبرد أظافره، في حين حلق الشاب ذقنه ثم وضع على وجنتيه المشتعلتين خلائط مثيرة مما تفتقت عنه

عبقرية الحلاقين على مر العصور. انتهى الحلاق من عمله، وجلس بايت قبالة الفتاة على الطاولة. أعجبته الطاولة الرخامية، وأعجبه الحوض العميق ذو الحواف الفضية اللطيفة. ثم أعجب بنفسه أيضاً لأنه قادر على ارتياد هذا المكان باهظ الثمن. وعندما سحبت يده المبللة من الوعاء كان الماء الدافئ والصابون قد جعلها شديدة الحساسية. كان إطباق كفها الصغيرة على يده إحساساً غير عادي. أعجبه تورّد أظافرها ولمعانها. بدت يداها أكثر جمالاً من يدي السيدة جوديك بأصابعها الرقيقة، وأكثر رشاقة أيضاً. ثم انتشى ألماً عندما راحت تنتزع الزوائد اللحمية من أظافره بسكين حاد. بذل جهداً كبيراً حتى لا ينظر إلى أعلى صدرها الشاب وكتفيها. كان صدرها واضحاً تحت غلالة رقيقة من الشيفون الوردي. رآها شيئاً فاتناً أخّاذاً. وعندما حاول التأثير عليها بقوة شخصيته، قال لها على نحو أخرق، مثل صبي ريفي في أول حفلة يرتادها:

«نعم، الجو حارّ اليوم، ليس لطيفاً للعمل».

«أوه، نعم... إنه حار. لقد قصصتِ أظافرك بنفسك آخر مرة، أليس كذلك؟».

«نعم، أظن أنني قصصتها بنفسي».

«يجب أن تأتي دائماً إلى المحل للاهتمام بأظافرك».

«نعم، لعل هذا ما يجب أن أفعله. إنني...».

«لا شيء أكثر لطفاً من الأظافر المعتَنى بها جيداً. أظن أن هذا ما يميّز الرجل الحقيقي دائماً. البارحة، كان عندنا بائع سيارات زعم أنه يستطيع دائماً أن يحدد الطبقة التي ينتمي إليها المرء من سيارته، لكني قلت له: «لا تكن سخيفاً! إن أهل الرُّقِيّ يلقون نظرة على أظافر الشخص عندما يريدون أن يعرفوا إن كان شخصاً عادياً أو سيداً حقيقياً»!».

«نعم، قد يكون هذا صحيحاً. بالطبع، إنه... في وجود فتاة صغيرة جميلة مثلك لا يستطيع الرجل أن يمتنع عن المجيء من أجل العناية بأظافره».

«نعم، قد أكون فتاة صغيرة... لكنني طائر حكيم. أعرف الناس الجيدين عندما أراهم. وأستطيع أن أقرأ شخصية المرء بنظرة واحدة... لا يمكن أبداً أن أتحدث بهذه الصراحة مع أي شخص إذا لم أرَ أنه شخص راقٍ لطيف».

ابتسم. بدت عيناها له رقيقتين مثل مطر نيسان. أخبر نفسه بجدية كبيرة أن «هنالك بعض الأجلاف الذين يظنون أن هذه الفتاة، لأنها تعمل في تقليم الأظافر ولأنها قد لا تكون متعلمة تعليماً حسناً، ليست فتاة جيدة. أما هو... إنه ديمقراطي... يفهم الناس... وهو يؤكد أن هذه الفتاة رائعة، فتاة جيدة، لكنها ليست جيدة زيادة على اللزوم... ليست جيدة إلى درجة غير مريحة».

سألها بصوت مشبع بالتعاطف: «أظن أن أشخاصاً كثيرين يحاولون التقرب منك».

«نعم، للأسف... هذا ما يحدث! اسمع، أقول لك إن هنالك بعض الأشخاص الذين يظنون أنفسهم رجالاً مهمّين ويظنون أنهم يستطيعون أن يفعلوا أي شيء... لمجرد أن الفتاة تعمل في محل للحلاقة. وهم يقولون أشيااااااء! لكن، صدّقني، أعرف كيف أجعلهم يقفون عند حَدّهم! إنني أجعلهم يفقدون كل شجاعتهم المزيفة عندما أقول لهم «اسمع، مع من تظن أنك تتكلم؟»... فيتراجعون فوراً مثل حلم مزعج. ألا تريد علبة من معجون الأظافر؟ إنه يحافظ على لمعانها. وهو غير مزعج ويدوم عدة أيام».

قال لها بدهشة شديدة: «بالطبع، سوف أجرِّب هذا المعجون... قولي لي... قولي لي، هذا غريب؛ إنني آتي إلى هذا المحل منذ افتتاحه... أظن أنني لا أعرف اسمك».

«ألا تعرف اسمي؟ شيء غريب! وأنا لا أعرف اسمك أيضاً».

«كفي عن المزاح الآن! قولي لي اسمك الصغير اللطيف!».

«أوه، إنه ليس لطيفاً. أظن إنه اسم يهودي. لكن أهلي ليسوا من اليهود. كان والد والدي من نبلاء بولندا. وقد جاء شخص إلى هذا المحل ذات يوم... كان كونتاً أو شيئاً من هذا القبيل...».

«أظن تقصدين القول إنه شخص لا أهمية له».

«من قال هذا أيها الذكي؟ قال الرجل إنه كان يعرف أهل جدي لأبي في بولندا، وإن بيتهم كان بيتاً جميلاً ضخماً. على البحيرة مباشرة!». أضافت بشيء من الشك: «لعلك لا تصدق هذا!».

«طبعاً أصدق، طبعاً! لماذا لا أصدق؟ لا تظنّي أنني أمازحك الآن يا عزيزتي؛ لكن... كلما نظرت إليك أقول في نفسي: «إن لهذه الفتاة دماً أزرق في عروقها»!».

«هل كنت تقول هذا، حقاً؟».

«هكذا كنت أقول، بشرفي. طيب، طيب، هيا الآن، لقد صرنا أصدقاء... ما اسمك الصغير الجميل؟».

«اسمي آيدا بوتيكا. ليس اسماً رائعاً! أقول لأمي دائماً: «ماما، لماذا لم تطلقي علي اسم دولوريس، أو أي اسم فيه رقيّ؟»».

«اسمعي الآن... أظن أنه اسم لذيذ... آيدا!».

«هل تصدق أنني أعرف اسمك؟».

«ربما، ليس بالضرورة. بالطبع، أوه، إنه اسم معروف على نطاق واسع».

«ألست السيد سوندهايم الذي يسافر لصالح شركة كراكاجاك لأدوات المطبخ؟».

«لا! إنني السيد بابِت، وأعمل وسيطاً عقارياً».

«أوه، اعذرني! أوه، بالتأكيد. أنت تقصد... هنا، في زينيث».

«نعم». قالها بطريقة توحي أن مشاعره قد تأذّت.

«أوه، بالتأكيد! لقد قرأت إعلاناتك. إنها رائعة».

«أممم، لا بأس... لعلك قرأتِ عن خطاباتي أيضاً».

«قرأت بالطبع! ليس لدي وقت كثير للقراءة. ولعلك تظنني طفلة صغيرة سخيفة لا تقرأ!».

«بالعكس، أرى أنك فتاة لطيفة رائعة».

«نعم... هذا هو الأمر اللطيف في عملي هنا. إنه يمنح الفتاة فرصة لقاء بعض الأشخاص اللطيفين الرائعين، وفرصة تطوير عقلها وأسلوبها في الحديث. هذا ما يجعلني قادرة على قراءة شخصية الإنسان بنظرة واحدة».

«انظري إلي يا آيدا! أرجوكِ، لا تظني أنني أحاول التودد إليك...». كان في الوقت نفسه يفكر بحرارة في مقدار الذل الذي سيصيبه إذا رفضته هذه الطفلة... وفي خطورة قبولها أيضاً. إذا دعاها إلى العشاء، وإذا رآها أصدقاؤه معه... لكنه تابع بشجاعة وتصميم: «لا تظني أنني أحاول التوّدد إليك إذا قلت لك إنه سيكون أمراً لطيفاً لو خرجنا لتناول العشاء معاً ذات مساء».

«لا أعرف إذا كان عليَّ أن أفعل هذا... يطلب مني أصدقائي الرجال أن أخرج معهم دائماً. لكن، معك... نعم، ربما أستطيع الخروج الليلة».

-4-

لا سبب إطلاقاً... هكذا راح يطمئن نفسه... لعدم الذهاب لتناول عشاء هادئ مع تلك الفتاة المسكينة التي ستستفيد من وجودها مع شخص متعلّم ناضج مثل بابِت. لكن، إذا رآهما أحد، فلن يفهم الأمر... يمكن أن يأخذها إلى بيدليمير إن في ضواحي المدينة. سوف يكون المشوار بالسيارة ممتعاً في هذه الأمسية الحارة. وقد يمسك يدها أيضاً... لا، لن يفعل ذلك. إن آيدا مطواعة كثيراً... هذا ما يقوله كتفاها العاريان بوضوح تام. لكن، فليمت مشنوقاً إذا مارس الحب معها لمجرد أنها تتوقع منه ذلك... لا، لن يفعل!

ثم... تعطلت السيارة! حدث شيء في نظام الإشعال. إن السيارة ضرورية هذا المساء! فحص شمعات الشرر غاضباً. ثم راح يحدّق في البطارية. لم يفلح تحديقه الغاضب في تحريك السيارة الهامدة. كان لا بد من قَطرها إلى ورشة الإصلاح. انتعش مجدداً عندما فكر في استئجار سيارة تاكسي. وسرعان ما أدرك أن في استخدام سيارة التاكسي شيئاً يوحي بالثراء، وبالفحش أيضاً.

لكنها قالت له عندما التقاها عند الزاوية بعد بنايتين من فندق ثورنليف: «تاكسي، لماذا؟ ظننت أنك تملك سيارة!».

«عندي سيارة، بالطبع عندي سيارة! لكنها معطلة الليلة».

«أوه»... قالتها بطريقة توحي أنها سمعت هذه الحكاية مرات كثيرة من قبل.

خلال الطريق إلى بيدلمير إن، حاول بابِت أن يتكلم مثلما يتكلم صديق قديم، لكنه لم يستطع اختراق الجدار الذي أقامته كلماتها في وجهه. روت له، بسخط لا ينتهي، قصة المنغّصات التي تعانيها من «ذلك الحلاق الغبي»، والأشياء الفظيعة التي ستعاقبه بها إذا استمر في إسماعها عبارات من قبيل أنها «ماهرة في الثرثرة أكثر من العناية بالحوافر».

لم يستطيعا الحصول على شيء يشربانه في بيدلمير إن. رفض كبير السقاة أن يدرك من هو جورج بابِت. جلسا منزعجَين أمامَ طبقين كبيرين من اللحوم المشوية المتنوعة، وراحا يتحدثان عن البيسبول. وعندما حاول أن يمسك يدها، قالت بروح ودية متألقة: «انتبه! إن ذلك العامل الغبي يراقبنا». لكنهما خرجا إلى الليل الصيفي اللعوب. هبت نسمة متكاسلة، وظهر قمر صغير فوق أشجار القيقب التي بدت أشباحاً في الظلام.

قال لها مقترحاً: «دعينا نذهب إلى مكان آخر، حيث نستطيع أن نشرب وأن نرقص!».

«بالتأكيد، في ليلة أخرى! لقد وعدت ماما بأنني سأعود في وقت مبكر هذه الليلة».

«عجباً! وهل الذهاب إلى البيت أمر لطيف جداً».

«أحب أن أذهب معك، لكن ماما ستغضب مني».

بدأ بابِت يرتجف. كانت فتيّة جداً، فاتنة جداً. وضع ذراعه حولها. اقتربت وتكوّرت عند كتفه، غير خائفة... أحس أنه انتصر. وبعد ذلك جرت هابطة درجات المطعم، مزقزقة: «هيا يا جورجي، سيكون مشواراً لطيفاً بالسيارة... سنستمتع كثيراً».

إنها ليلة العشّاق! على امتداد الطريق السريع الداخل إلى زينيث، تحت ضوء القمر اللطيف الواهن، كانت سيارات كثيرة واقفة، وكان فيها أشخاص لا يظهرون تماماً... متلاصقون، مسحورون. مدّ يديه الجائعتين إلى آيدا. كان ممتناً لها عندما مدّت يديه. لا معنى للتعب والتمهيد... قبّلها فاستجابت لقبلته، بكل بساطة. كانا جالسين معاً خلف ظهر سائق التاكسي عديم الإحساس.

سقطت قبعتها فتركته وانحنت لتلتقطها.

قال لها راجياً: «أوه، اتركيها!».

«هاه؟ قبّعتي؟ لا يمكن أبداً!».

انتظر ريثما ثبتت قبعتها من جديد. ثم لفَّها بذراعه من جديد. ابتعدت عنه هذه المرة وقالت بطريقة مهدئة أمومية: «والآن، لا تكن ولداً سخيفاً! لا يجوز أن نجعل ماما

تغضب مني! اجلس يا عزيزي وتأمل هذه الليلة الرائعة. إذا كنت ولداً طيباً، فقد أقبّلك عندما تقول لي تصبحين على خير. أعطني سيجارة الآن!».

كان مرتبكاً عندما أشعل سيجارتها مهتماً براحتها. ثم جلس في أبعد مكان ممكن عنها. جعله الفشل بارداً. ما كان أحد قادراً على إخبار بابِت بأنه أحمق بوضوح ودقة وذكاء أكثر مما اكتشف بنفسه. أدرك الآن أنه رجل شرير من وجهة نظر المحترم الدكتور جون جيميسون درو؛ وأما من وجهة نظر الآنسة بوتيكا فهو عجوز ممل لا بد من احتماله مقابل تناول عشاء ممتاز.

«ما بك يا عزيزي؟ هل انزعجت؟».

قالت هذا بوقاحة. أراد أن يصفعها. قال في نفسه: «لا ضرورة للغضب من هذه البائسة! هذه المهاجرة التعيسة! لا بأس، فلننته من هذا الأمر سريعاً. وبعدها أذهب إلى بيتي لأعاقب نفسي طيلة الليل».

قال لها: «ماذا؟ منزعج؟ لماذا يا طفلتي؟ لماذا أنزعج؟ اسمعي الآن يا آيدا، استمعي إلى عمك جورج. لدي لك نصيحة فيما يخص مشاجراتك مع الحلاق طيلة الوقت. إنني صاحب خبرة كبيرة في الموظفين. دعيني أقول لك إن هذا العراك لا فائدة منه...».

وعند البيت الخشبي البائس، حيث تعيش، تمنى لها ليلة طيبة... باختصار وبروح ودية! لكنه، عندما انطلقت به السيارة، كان يقول: «أوه، يا إلهي!».

الفصل الخامس والعشرون

- 1 -

استيقظ، وتمطّى مبتهجاً عندما سمع صوت زقزقة عصافير الدوري في الخارج. لكنه تذكر أن كل شيء جرى على غير ما يرام، حتى الآن! كان مصمِّماً على المضي في طريق الضلال، لكنه لم يستمتع بذلك أبداً! لماذا؟ سأل نفسه... لماذا يتمرَّد أصلاً؟ ما الغاية من هذا؟ «لماذا لا أكون عاقلاً؛ لماذا لا أكفّ عن هذا الجَري الغبي هنا وهناك فأستمتع بحياتي في أسرتي وعملي ومع أصدقائي في النادي؟»... ما الذي يجنيه من هذا التمرد؟ البؤس، والعار... عار معاملته، مثلما يعامل الناس طفلاً مزعجاً قليل الأدب... ومن قبل من؟ ... من قبل صعلوكة مثل آيدا بوتياك! ثم... لكن... إنه يعود دائماً إلى «ثم... لكن». ما عاد قادراً على استعادة رضاه واطمئنانه في هذا العالم... في العالم الذي رآه، وعرفه، وشكَّ فيه مرة، عالم سخيف، هكذا صار يراه، مهما بلغ بؤسه الآن.

لكنه أقنع نفسه بأنه «انتهى من موضوع مطاردة الفتيات».

ومع حلول الظهر، ما عاد متأكداً... حتى من هذا القرار! إذا كان قد فشل، مع الآنسة ماكغاون ولويتا سوانسون وآيدا، في العثور على سيدة لطيفة رقيقة، فإن هذا لا يبرهن على أنها غير موجودة. عادت إليه، بل سكنته، فكرة قديمة تقول إن ثمة... في مكان ما، بالتأكيد، طبعاً... أنثى غير مستحيلة الوجودة، أنثى تستطيع أن تفهمه وتقدِّره وتجعله سعيداً.

- 2 -

عادت السيدة بابِت في شهر آب.

خلال أسفارها السابقة، كان يفتقد وجودها الطنّان المطمئِن، وكان يقيم احتفالاً عند عودتها. لكنه الآن رأى أنه لا يجرؤ على جرح مشاعرها بأن تظهر في رسائله ولو لمحة

واحدة تشير إلى انزعاجه من عودتها قبل أن يجد نفسه. أحرجه اضطراره إلى ملاقاتها، وإلى إظهار فرحته بعودتها.

مضى إلى المحطة من غير حماسة. راح يقرأ ملصقات المنتجعات الصيفية حتى لا يكون عليه أن يتبادل الكلام مع أحد من معارفه بحيث يظهر انزعاجه وضيقه. لكنه كان حَسَن التدريب: عندما اندفع القطار داخلاً المحطة، وقف بابِت على الرصيف الأسمنتي ناظراً في العربات، ثم رآها واقفة ضمن صف المسافرين، متحركة صوب باب العربة. لوَّح لها بقبَّعَته. عانقها عند الباب ثم قال: «طيب، طيب، طيب، طيب، يا إلهي، تبدين في حالة رائعة، تبدين في حالة رائعة». ثم انتبه إلى وجود تينكا... كان لديه شيء يحبه هنا! هذه الطفلة بأنفها السخيف الصغير وعينيها الحيّتَين... الطفلة التي تحبه وتراه شخصاً عظيماً. أمسك بها ثم رفعها عالياً حتى صرخت. عاد الآن، في هذه اللحظة، إلى ذاته القديمة المستقرَّة.

جلست تينكا إلى جانبه في السيارة. واضعة يدها على عجلة القيادة متظاهرة بأنها تساعده. صاح مخاطباً زوجته الجالسة في المقعد الخلفي: «أراهن أن هذه الطفلة ستصبح أفضل سائق في الأسرة! إنها تمسك عجلة القيادة مثل شخص محترف».

ظل، طيلة الوقت، يفكّر، خائفاً، في اللحظة التي سيكون فيها وحيداً مع زوجته... عندما ستنتظر منه، صابرة، أن يكون شجاعاً مقداماً.

- 3 -

كانت في أسرة بابِت نظرية غير رسمية تقول إن عليه أن يذهب وحده إلى كاتاوبا في إجازة تستمر أسبوعاً أَو عشرة أيام. لكن ذكرى السنة الماضية، عندما ذهب إلى مين مع بول، كانت تعذّبه. تخيل نفسه يعود إلى مين، يجد السكينة والسِّلم فيها. وتخيل وجود بول معه، هناك، في حياة بدائية بطولية. صدمته فكرة أنه قادر على الذهاب فعلاً. لكنه لا يستطيع، لا يستطيع أن يترك العمل... و«سترى ميرا أن هذا شيء مضحك... ذهابه وحيداً إلى هناك. يستطيع أن يفعل ما يعجبه، من الآن فصاعداً، لكن، مع ذلك... أن يذهب إلى مين...!!».

ذهب إلى مين بعد تأملات استغرقت زمناً طويلاً.

أما في ما يتعلّق بزوجته، ولأن من غير المعقول أن يشرح لها أنه يريد الذهاب إلى مين متلمّساً روح صديقه بول في تلك البرية... فقد استخدم، ببساطة، كذبة مُعَدّة منذ أكثر من سنة... كذبة لم يستفِد منها. قال إن عليه أن يرى رجلًا في نيويورك لأمر متعلّق بالعمل. ما كان قادراً على الشرح، حتى لنفسه، السبب الذي جعله يسحب من المصرف مئات كثيرة من الدولارات زيادة عما يلزمه فعلاً. وما عرف السبب الذي جعله يقبّل تينكا

بتلك الرقة كلها ويقول «باركك الله يا طفلتي». ظل يلوّح لها من القطار حتى صارت بعيدة... نقطة قرمزية صغيرة إلى جانب بقعة بُنّية أكبر منها تمثل السيدة بابِت... كانتا واقفتين هناك عند نهاية الممر المصنوع من الفولاذ والأسمنت، المنتهي ببوابات ضخمة مغلقة. التفت ملقياً نظرة حنين على آخر ضواحي زينيث.

ظل يفكر في المرشدين السياحيين في مين طوال الطريق الذي مضى به شمالاً: رجال بسطاء أقوياء شجعان، رجال مَرِحون عندما يلعبون البوكر في كوخهم غير المسقوف، رجال يتقنون فنون الغابات عندما يتجوَّلون فيها ويعبرون جداولها. تذكر جوي بارادايس خاصة، ذلك الرجل نصف الأمريكي، نصف الهندي. لو يستطيع فقط أن يذهب إلى غابات غير مأهولة مع رجل مثل جوي، أن يعمل بيديه، أن يكون حراً صاخباً بقميصه القطني، وألا يعود إلى هذه اللياقة البليدة أبداً!

أو لعله يغوص في الغابة مثل صياد في فيلم عن شمال كندا، ينصب خيمته في جبال روكي، يصبح رجل كهوف غامضاً من غير كلام! ... لم لا؟ يستطيع أن يفعل هذا! سيكون لديهم في البيت مال يكفي الأسرة حتى تتزوج فيرونا ويصبح تيد قادراً على الاعتماد على نفسه. وسيهتم بهم العجوز هنري. نعم! لم لا؟ أن يعيش المرء حقاً...

كان يتوق إلى هذا، اعترف أنه كان توّاقاً إلى هذا... اعترف أنه توّاق، الآن، إلى هذا! ثم صار شبه مقتنع بأنه سيفعلها. وكلما قال له العقل والحس السليم: «كفاك سخافة! لا يهرب الناس من أسرة لائقة محترمة، ومن شركائهم في حياتهم؛ إنهم لا يفعلون هذا، على الإطلاق!»... كان بابِت يرد على هذا الكلام ضارعاً: «طيب! لا يحتاج هذا إلى شجاعة أكثر مما احتاج إليه بول حتى يذهب إلى السجن... يا إلهي، كم أحب أن أفعل هذا! مقامرو المدينة بمسدساتهم... النوم تحت النجوم... أن يكون المرء رجلاً عادياً، مع رجال حقيقيين من أمثال جوي بارادايس... أوووف!».

وهكذا، وصل إلى مين. وقف من جديد على رصيف الخشب قبالة الفندق. وبصق من جديد في الماء الرقيق المرتعش، كما يفعل الأبطال، بينما كانت أشجار الصنوبر تتمايل والجبال تتلألأ... وسمكة ترويت تقفز من الماء ثم تسقط فتنداح دوائر من الماء على صفحة البحيرة. أسرع إلى كوخ المرشدين كمن يمضي إلى بيته الحقيقي، إلى أصدقائه الحقيقيين الذين اشتاق إليهم طويلاً. سوف تسعدهم رؤيته. سوف يهبّون واقفين ثم يصيحون: «ماذا؟ إنه السيد بابِت! هذا ليس واحداً من أولئك الناس العاديين! إنه رجل حقيقي!».

في حجرتهم المستقلة، الوسخة قليلاً، كان المرشدون جالسين حول طاولة متّسخة مزيتة يلعبون البوكر: ستة رجال مغضّنين في بنطلونات قديمة وقبعات لبّادية بسيطة

قديمة أيضاً. نظروا إليه ثم أومأوا برؤوسهم مُحَيّين. قال جوي بارادايس، الرجل المربوع المتقدم في السن، صاحب الشارب الكبير: «كيف حالك. هل عدت من جديد؟».

صمت... صمت لا تقطعه إلا أصوات الورق.

وقف بابِت بجانبهم، وحيداً تماماً. ثم قال بعد فترة لعب شديدة التركيز: «أظن أنني أود أن ألعب معكم يا جو».

قال جوي بارادايس: «بالتأكيد! اجلس! كم ورقة تريد؟ دعنا نرى، آه... أنت الذي كنت هنا مع زوجتك في الصيف الماضي، أليس كذلك؟».

كان هذا كل ما حظي به بابِت من ترحيب في بيته القديم العزيز.

لعب نصف ساعة قبل أن يتكلم من جديد. ملأ رأسه دخان الغليون والسجائر الرخيصة. تعب من اللعب؛ وانزعج لأنهم تجاهلوه. قال لجوي:

«هل تعمل هذه الأيام؟»

«لا».

«أتحب أن تذهب معي مرشداً بضعة أيام؟».

«لا بأس، على أن نذهب سريعاً. ليس لدي ارتباط قبل الأسبوع القادم».

بهذه الطريقة وحدها أدرك جوي الصداقة التي عرضها عليه بابِت. دفع بابِت لهم ما خسره في اللعب، ثم غادر الكوخ بطريقة طفولية تقريباً. رفع جوي رأسه من سُحُب الدخان مثلما تطل فقمة برأسها من حفرة في الجليد، وقال له: «سوف آتي صباحاً»... ثم غاص في البوكر من جديد.

لا في كوخه الصامت الفواح برائحة ألواح خشب الصنوبر المقطوعة حديثاً، ولا على امتداد البحيرة، ولا في غيوم المغيب التي التفّت الآن حول جبال لفَّها الضباب ولوَّنها بلون الخزامى، لم يستطع بابِت أن يعثر على روح بول لتكون وجوداً أنيساً تطمئن إليه نفسه. أحس بوَحدة شديدة. كانت شديدة إلى درجة جعلته يتوقف بعد العشاء ليتبادل الحديث مع سيدة عجوز قرب المدفأة في ردهة الفندق، سيدة عجوز لاهثة لا يتوقف كلامها. أخبرها عن انتصارات تيد المستقبلية المفترضة في جامعة الولاية، وعن اتساع المفردات التي تعرفها تينكا. استمر في هذا الكلام حتى أصابه الحنين إلى البيت الذي هجره إلى الأبد.

عبر الظلمة، عبر الصمت المسوَّر بأشجار الصنوبر الشمالي، انحدر بابِت حتى بلغ شاطئ البحيرة ووجد زورقاً. كان الزورق من غير مجاذيف؛ لكنه جلس في وسط الزورق وراح يدفعه مستعيناً بلوح خشب. تمكن من المضي مسافة كبيرة في البحيرة. صارت أضواء الفندق والأكواخ التي حوله نقاطاً صفرًا كأنها مجموعة من الدودات المضيئة عند

قدمَيْ جبل ساكيم. بدت الجبال أكبر حجماً وأكثر هدوءاً تحت سماء رصَّعتها النجوم. وبدت البحيرة ساحة من الرخام الأسود لا حدود لها. أحس نفسه صغيراً جداً، عديم الحَوْل، خاشعاً بعض الشيء؛ لكن قلة شأنه الآن حررته من تلك المباهاة بأنه «السيد جورج ف. بابِت من زينيث...»، أحزنته لكنها حررت قلبه. صار يحس حضور بول الآن... تخيله (متحرراً من السجن، ومن زيلا، ومن تلك التفاصيل الصغيرة المزعجة في مهنة بيع مواد السقوف)... تخيله يعزف على كمانه جالساً معه في ذلك القارب. أقسم قائلاً: «سوف أواصل هذا! لن أعود أبداً! الآن، بعد أن فقدت بول، لم أعد أريد رؤية أحد من أولئك الناس الملعونين مرة أخرى! كنت غبياً عندما انزعجت لأن جوي بارادايس لم يقفز ويعانقني. إنه واحد من رجال الغابات... رجل أكثر حكمة من أن يصيح ويمسك بيدك مثل واحد من أهل المدينة. أما عندما يعود المرء بجوي بارادايس إلى الجبال، بعيداً عن الطرق...! أوه... تلك هي الحياة الحقيقية».

-4-

جاء جوي إلى كوخ بابِت في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي. حَيّاه بابِت مثلما يحيّي إنسان الكهوف زميلاً له:

«حسنًا يا جوي! ما رأيك في المضيّ بعيداً عن الطريق، وبعيداً عن هؤلاء المصطافين الناعمين الملعونين، وعن النساء، وعن كل شيء؟».

«لا بأس يا سيد بابِت».

«ما رأيك في الذهاب صعوداً حتى بركة بوكسكار... قالوا لي إن الكوخ الذي هناك غير مستخدم... يمكننا قضاء الليل هناك؟».

«نعم، لا بأس يا سيد بابِت! لكن بركة سكوتويت أقرب. وتستطيع أن تصطاد هناك أيضاً».

«لا! أريد أن أذهب إلى الغابات الحقيقية».

«طيب، لا بأس».

«سيحمل كلّ واحد حقيبة ظَهْر ونمضي في الغابات... رحلة مشي حقيقية».

«أظن من الأسهل لنا أن نذهب بالقارب، عبر بحيرة تشوغ. نستطيع اجتياز تلك المسافة كلها بقارب آلي... قارب مسطّح القعر وله محرّك من نوع إيفن رود».

«لا، لا يا سيد! هل نفسد ذلك الهدوء بصوت المحرك؟ لا يمكن أبداً! ضع ما يلزمك في حقيبتك الظهرية، وأخبرهم عن الطعام الذي تريد تناوله. ستجدني جاهزاً عندما تكون جاهزاً».

«يذهب معظم المتريضين بالقارب يا سيد بابِت. إنها مسافة طويلة على الأقدام».

«انظر إليَّ يا جوي: هل أنت معترض على المشي؟».

«أوه، لا... أظن أنني أستطيع ذلك. لكنني لم أذهب هذه المسافة كلها مشياً منذ ستة عشر عاماً. يذهب معظم المتريضين بالقارب. لكني أستطيع الذهاب مشياً إذا أردت ذلك... على ما أظن». ثم سار جوي مبتعداً، حزيناً بعض الشيء.

تخلص بابِت من غضبه الحَسّاس قبل عودة جوي. تخيله يروي له قصصاً مسلية ممتازة بعد أن يسيرا قليلاً. لكن جوي لم يبدأ رواية القصص، حتى بعد أن انطلقا في دربهما. ظل مصرّاً على السير خلف بابِت. وعندما صارت حقيبته تؤلم كتفيه، وارتفع صوت لهاثه، ظل بابِت قادراً على سماع دليله يلهث من خلفه. لكن الدرب كان مقبولاً تماماً: درب بُنّي لكثرة ما فيه من أوراق الصنوبر الإبرية، وعر لكثرة الجذور التي تعترضه، متعرِّج بين الشجيرات البلسمية والسراخس وأجمات مفاجئة من أشجار البتولا البيض. عاد بابِت رجلاً بسيطاً؛ كان مستمتعاً بتعرّقه. وعندما توقف ليرتاح، قال مبتسماً: «أظن أننا نتقدم جيداً بالنسبة لزوج من العجائز، أليس كذلك؟».

قال جوي موافقاً: «آه... ها».

«هذا مكان جميل فعلاً! انظر... يمكنك أن ترى البحيرة من خلال هذه الأشجار. هل تعرف يا جو؟ أنت لا تقدِّر كم أنت محظوظ بعيشك في الغابات، بدلاً من المدينة بكل ما فيها من ضجيج عربات الترولّي والآلات الكاتبة التي تفرقع هنا وهناك والناس الذي ينغّصون عليك حياتك طيلة الوقت! ليتني كنت أعرف الغابات مثلما تعرفها أنت. قل لي، ما اسم هذه الزهرة الحمراء الصغيرة هناك؟».

حكَّ جو ظهره ونظر إلى الزهرة نظرة ازدراء: «نعم... يدعوها بعض الناس باسم، ويدعوها بعضهم الآخر بأسماء أخرى. أما أنا فأدعوها باسم الزهرة الوردية».

حلَّت على بابِت نعمة التوقّف عن التفكير عندما تحوَّل طَوافُهُ النَشِط إلى مشي متثاقل أعمى الخطوات. اجتاحه إرهاق شديد. صارت ساقاه الممتلئتان تسيران من تلقائهما، من غير توجيه. وكان يمسح عن جبينه، بحركة آلية، العرق الذي ينحدر من عينيه فيحرقهما. حرمه تعبه الشديد من إدراك مقدار سعادته بعد أن سارا ميلاً كاملاً عبر مستنقع تحوم الحشرات فيه فوق خليط حار من النباتات. بلغا شاطئ بركة بوكسكار الجميل. وعندما رفع الحقيبة عن كتفه ترنَّحَ وفقد توازنه. ظل لحظة غير قادر على الوقوف منتصب القامة. اتكأ على جذع شجرة قيقب قرب الكوخ. أحس بمتعة النعاس تجري عبر عروقه.

أفاق عند الغسق تقريباً فوجد جوي يطبخ اللحم مع البيض ويسخّن بعض الفطائر من أجل الطعام. عاد إليه إعجابه برجل الغابات هذا. جلس على جذع شجرة مستمتعاً برجولته.

«جوي! ماذا تفعل لو كان عندك مال كثير؟ هل تظل مرشداً هنا أم تذهب لتعيش عميقاً في الغابات مستقلاً عن البشر؟».

ابتهج جوي للمرة الأولى هذا اليوم. لاك ما بفمه بعض الوقت ثم قال: «أفكر في هذا الأمر كثيراً! لو كان عندي مال لنزلت إلى بلدة تينكرز فولز وفتحت فيها محلاً جميلاً للأحذية».

بعد الطعام اقترح جوي أن يلعبا البوكر. لكن بابِت رفض ذلك، فذهب جوي قانعاً ونام عند الثامنة. جلس بابِت على جذع شجرة قبالة البركة المظلمة، جلس يضرب البعوض. ما من صوت بشري حوله على امتداد عشرة أميال، عدا شخير مرشده النائم. أحس بالوحدة الآن أكثر من أي وقت في حياته كلها. عندها، اتجهت أفكاره إلى زينيث.

فكّر قلقاً في الآنسة ماكغاون: لعلها تدفع الآن أكثر مما يجب ثمناً لورق الكربون! وسرعان ما حنّ إلى المزاح المزعج المتواصل على طاولة «العنيفون» في النادي. فكر في زيلا ريزلينغ: هل هي بخير؟ وتساءل ما إذا كان تيد، بعد نضجه هذا الصيف في ورشة إصلاح السيارات، سوف «يهتم وينشغل» بالجامعة. فكّر في زوجته أيضاً. قال في نفسه: «لو أنها فقط ـ لو أنها لم تكن راضية هذا الرضا كله بالجلوس في البيت فحسب ـ لا! لن أفعلها! لن أعود! سأبلغ الخمسين بعد ثلاث سنوات. وسأبلغ الستين بعد ثلاث عشرة سنة. يجب أن أستمتع قليلاً قبل أن يفوت الأوان. لست أبالي! سوف...».

فكر في آيدا بوتياكا، وفي لويتا سوانسون، وفي تلك الأرملة اللطيفة ـ ما اسمها؟ ... هل كان اسمها تانيس جوديك؟ ـ تلك التي وجد لها شقة للإيجار. غاص في أحاديث متخيلة... ثم:

«عجيب! يبدو أنني لا أستطيع الابتعاد عن التفكير في الناس!».

وهكذا، بدا له أن الهرب بعيداً ما كان إلا حماقة لأنه لا يستطيع أبداً أن يهرب من نفسه.

بدأت عودته إلى زينيث في تلك اللحظة. خلال رحلته إلى هذا المكان، كان هارباً، لكن ما كان في رحلته شيء يوحي بالهرب! وبعد أربعة أيام وصل إلى محطة القطار في زينيث. أدرك أنه يتسلل عائداً لا لأنه راغب في ذلك بل لأنه ما كان يستطيع أن يفعل شيئاً آخر. فكر من جديد في اكتشافه أنه لا يستطيع الهرب من زينيث ولا من الأسرة ولا من المكتب... لأنه يحمل ذلك كله في رأسه: المكتب والأسرة وكل شارع في زينيث، وكل منغّصاتها وأوهامها.

أقسم لنفسه قائلاً: «لكنني سوف... أوه، سوف أبدأ شيئاً ما!»... وحاول أن يتظاهر بالشجاعة.

الفصل السادس والعشرون

- 1 -

سار في القطار مفتّشاً عن وجوه يعرفها. لم ير إلا شخصاً واحداً يعرفه. كان ذلك الشخص سينيكا دوين، المحامي الذي حَظيَ بنعمة الوجود مع بابِت في صف واحد في الكلية ثم صار استشارياً لدى إحدى الشركات، لكنه ضل السبيل فالتمس دعم العمال والمزارعين وآخى أشخاصاً يعترفون بأنهم اشتراكيون. ومع أن بابِت كان يعيش تمرّداً إلا أنه، بطبيعة الحال، ما كان يريد أن يراه أحد مع متعصِّب من هذا النوع. لكنه لم يجد في عربات القطار كلها شخصاً غيره فتوقف عنده متردداً. كان سينيكا دوين رجلاً نحيلاً خفيف الشعر يشبه تشام فرينك. لكنه ما كان يمتلك ابتسامة فرينك. كان يقرأ كتاباً اسمه «سبيل البشر جميعاً». بدا الكتاب لبابِت كتاباً دينياً. تساءل في نفسه إن كان دوين قد ارتدَّ عن سوء السبيل وعاد شخصاً محترَماً وطنياً.

قال: «ماذا؟ مرحباً يا دوين!».

رفع دوين رأسه. كان صوته لطيفاً إلى حد غريب: «أوه! كيف حالك يا بابِت؟».

«كنت مسافراً، أليس كذلك؟».

«صحيح... كنت في واشنطن».

«واشنطن؟ كيف حال الحكومة هناك؟».

«إنها... ألن تجلس».

«شكراً! لا مشكلة عندي في الجلوس. لا بأس، لا بأس! مر وقت طويل منذ آخر مرة تحدثنا فيها يا دوين. لقد كنت، آآ... يؤسفني أنك لم تحضر آخر وليمة غداء لأبناء دفعتنا في الجامعة. أتمنى لو أنك جئت».

«أوه ـ أشكرك».

«وكيف هي أخبار النقابات؟ هل سترشِّح نفسك لمنصب العمدة من جديد؟». بدا

دوين غير مرتاح. كانت أصابعه تعبث بصفحات الكتاب. قال: «لعل هذا...». قالها كأنه لم يقصد بها شيئاً محدداً؛ ثم ابتسم.

أحب بابِت ابتسامته. أراد أن يجعل الكلام يتخذ مجرى آخر: «رأيت ملهى ممتازاً في نيويورك. اسمه «صباح الخير يا حلوة». إنه في فندق مينتون».

«صحيح، لديهم فتيات جميلات. رقصت هناك ذات مساء».

«أوه! هل تحب الرقص؟».

«طبعاً! أحب الرقص والنساء الجميلات والطعام الطيب... أكثر من أي شيء في العالم. هذا ما يحبه معظم الرجال».

«لكن، عجباً يا دوين! كنت أظن أنكم تريدون أن تأخذوا منا الطعام الطيب وكل شيء».

«لا! أبداً! ما أحب رؤيته هو أن يعقد عمال صناعة الملابس اجتماعاتهم في فندق ريتز، مع حفلة راقصة بعد الاجتماع. أليس هذا أمراً معقولاً؟»

«نعم، قد تكون فكرة جيدة... لا بأس بها! ... يؤسفني أنني لا أراك كثيراً في هذه السنوات الأخيرة. أوه، قل لي، آمل ألا تكون حاقداً عليّ لأنني وقفت ضدك في الحملة الانتخابية، ولأنني اتخذت جانب براوت. أنت تعرف أنني من الناشطين التنظيميين في الحزب الجمهوري. وقد شعرت، نوعاً ما...».

«لا سبب يمنعك من الوقوف ضدي. لا شكّ عندي أبداً في أنك ماهر من الناحية التنظيمية. أتذكر أننا... أنك كنت في الكلية ليبرالياً إلى حد غير مألوف. كنت شاباً حساساً. ولا أزال أذكر عندما قلت لي إنك تريد أن تصبح محامياً وأن تتولى قضايا الفقراء من غير أن تتقاضى منهم شيئاً، وتحارب الأغنياء. وأذكر أيضاً أنني قلت إنني، أنا نفسي، سأصبح واحداً من هؤلاء الأغنياء وأشتري اللوحات وأعيش في نيوبورت. وأنا واثق من أنك كنت مصدر إلهام لنا جميعاً».

«طيب... لا بأس... أردت دائماً أن أكون ليبرالياً».

خجل بابِت كثيراً وشعر بالزهو، وبأهميته أيضاً. حاول أن يبدو مثل الصبي الذي كانه قبل ربع قرن مضى. فاجأ صديقه سينيكا عندما قال: «المشكلة مع كثير من هؤلاء الناس، حتى الأذكياء، هي ظنّهم أنهم يتطلّعون إلى المستقبل... إذا لم يكونوا ليبراليين منفتحي الذهن... والآن، إنني مؤمن دائماً بمنح الآخرين فرصة، وبالاستماع إلى آرائهم».

«هذا أمر جيد».

«سأقول لك كيف أتصور الأمر: وجود بعض المعارضة أمر جيد لنا جميعاً. وهكذا فإن الإنسان، خاصة إذا كان رجل أعمال منهمكاً في القيام بالعمل من أجل العالم،... يجب أن يكون ليبرالياً».

«نعم...».

«أقول دائماً إن من الضروري أن تكون لدى المرء رؤية ومُثُل. أظن أن بعض الأشخاص في مجال عملي يعتقدون أنني مجرد صاحب رؤية، شخص حالم. لكني أقول: فليفكروا كما يريدون، وليسيروا في طريقهم ـ مثلما تفعل أنت. سأكون مسروراً إذا سنحت لنا فرصة الجلوس معاً والحديث عن مُثُلنا».

«لكننا، نحن أصحاب الرؤى... الحالمين، نعترض للهزائم غالباً. ألا يقلقك هذا؟».

«لا يقلقني أبداً! لا يمكن لأحد أن يفرض عليَّ أفكاري!».

«أنت هو الرجل الذي أريد أن يساعدني. أريدك أن تتحدث مع بعض رجال الأعمال وأن تحاول جعلهم يتّخذون موقفاً أكثر ليبرالية، بقليل، تجاه المسكين بيتشر إنغرام».

«إنغرام؟ لكن، أليس هو ذلك الواعظ المعتوه الذي طردوه من الكنيسة التجمّعية، أليس هو؟ ذلك الذي يتحدث في عظاته عن الحب الحر ويحرِّض الناس؟».

شرح له دوين أن هذه هي الفكرة الشائعة عن بيتشر إنغرام؛ لكنه قال إنه يرى بيتشر إنغرام قِسّاً يدعو إلى الأخوّة البشرية، تلك الأخوّة التي اشتهر بابت بأنه من المتمسكين بها كثيراً. وقال إنه لا يطلب من بابِت إلا أن يجعل معارفه يكفّون عن مطاردة إنغرام وكنيسته الصغيرة البائسة.

قال بابِت لصديقه العزيز دوين: «بالتأكيد! سوف أتصدّى لأي واحد من هؤلاء الفتيان إذا سمعته يقول أشياء سيئة عن إنغرام».

ازدادت عواطف دوين حرارة وراح يسترجع الذكريات القديمة. تحدث عن أيام دراسته في ألمانيا، وعن حشد الناس للضغط من أجل الضريبة الموحَّدة في واشنطن وعن مؤتمرات العمال الدولية. وراح يذكُر عدداً من أصدقائه: اللورد وايكومب، والكولونيل ووديغ وود، والبروفيسور بيكولي. كان بابت يظن دائماً أن دوين على علاقة باتحاد العمل الدولي فقط؛ لكنه راح يومئ برأسه الآن بحركة جدية كما لو أنه يعرف اللورد وايكومب معرفة وثيقة. ثم لم يتأخر بدوره عن ذكر علاقته بالسير جيرالد دواك. أحس الآن أنه شخص جريء، مثالي، عالمي.

وعلى نحو مفاجئ، في غمرة تألّقه الروحي هذا، شعر بالأسف على زيلا ريزلينغ، وفهم وضعها مثلما لا يستطيع فهمه أحد من أولئك الأشخاص العاديّين في نادي بوسترز.

ـ 2 ـ

ذهب لرؤية زيلا بعد خمس ساعات من وصوله إلى زينيث وإخباره زوجته عن شدة الحر في نيويورك. كان رأسه يضجّ بالأفكار وبالرغبة في الصفح والمغفرة. سوف يطلق سراح بول. وسوف يقوم بأشياء... غامضة، لكنها أشياء حميدة إلى حد كبير... من أجل زيلا أيضاً. كان الآن شديد الكَرَم... مثل صديقه سينيكا دوين.

لم يرَ زيلا منذ أن أطلق بول النار عليها. لا تزال صورتها في ذهنه امرأة حيوية عامرة الصدر كثيرة الأصباغ، فوضوية قليلاً. وعندما كان يقود سيارته إلى حيث تعيش الآن في غرفة استأجرتها في مبنى للسكن الجماعي في شارع خلفي كئيب وراء سوق الجملة، توقف منزعجاً. رأى في نافذة مرتفعة امرأة متكئة بمرفقها لها ملامح تشبه زيلا. لكنها كانت كبيرة السن شاحبة اللون كأنها صفحة مصفرّة مجعّدة من صحيفة قديمة. كانت زيلا امرأة كثيرة الحركة والاهتزاز، أما هذه فساكنة على نحو مخيف.

انتظر ربع ساعة قبل أن تأتي إلى ردهة الاستقبال في ذلك المبنى. فتح كتاب صور معرض شيكاغو الدولي لعام 1893 خمسين مرة... نظر إلى صورة «جوقة الشرف» خمسين مرة.

أجفل عندما رأى زيلا في الغرفة. كانت ترتدي ثوباً طويلاً مبقّعاً أسود اللون وضعت عليه شريطاً قرمزياً في محاولة لإضفاء شيء من البهجة. كان الشريط القرمزي قد تمزق، لكنها أصلحته بصبر. رأى هذا على نحو واضح لأنه لم يرد أن يرفع نظره إلى كتفيها. كان أحد الكتفين أخفض قليلاً من الكتف الآخر. وبدت ذراعها في وضعية مشوَّهة، كأنها مشلولة. ومن خلف الياقة العالية المصنوعة من الدانتيلا الرخيصة، كان ثمة تقعّر في رقبتها النحيلة التي كانت لامعة ناعمة ممتلئة ذات يوم.

قالت: «نعم؟»

«حسنًا، حسنًا يا صديقتي زيلا! جيد أن أراك من جديد».

«يستطيع أن يبعث رسائله عن طريق المحامي».

«لماذا؟ عجباً... زيلا! أنا لست آتياً من أجله هو فقط. جئت بصفتي صديقاً قديماً».

«تأخّر قدومك كثيراً».

«نعم، تعرفين كيف الأمر. ظننت أنك لم تكوني راغبة في رؤية أحد أصدقائه، بعض الوقت... اجلسي يا عزيزتي! فلنكن عاقلَيْن. يفعل كل منا أشياء كثيرة لا يجوز أن يفعلها. لكن، ربما نستطيع أن نبدأ من جديد. بشرفي يا زيلا، أريد أن أفعل شيئاً يجعلكما سعيدَيْن. هل تعرفين ما كنت أفكر فيه اليوم؟ عفواً، بول لا يعرف شيئاً عن هذا الأمر ـ لا يعرف أنني قادم لرؤيتك. كنت أفكر: زيلا امرأة جيدة! امرأة كبيرة القلب. وهي تدرك أن

بول قد تلقّى درساً الآن. فلماذا لا تكون فكرة طيبة أن تذهبي فتطلبي من الحاكم العفو عنه؟ صدّقيني أنه سيعفو عنه إذا جاء الطلب منكِ أنتِ. لا! انتظري! فكّري كم يكون شعورك طيباً عندما تكونين كريمة».

«نعم، أريد أن أكون كريمة». كانت جالسة جلسة متصنّعة مشدودة. وكان صوتها جليدياً. «ولهذا السبب، أريده أن يبقى في السجن ليكون مثالاً للأشرار جميعاً. لقد صرت متديّنة يا جورج بعد ذلك الشيء الفظيع الذي فعله لي ذلك الرجل. كنت ضالّة أحياناً، وكنت أرغب في المسرات الدنيوية، في الرقص والمسرح. لكن قِسّاً من جماعة بنتيكوستال كان يزورني في المستشفى. وقد جعلني أرى، مباشرة، من النبوءات المكتوبة في كلام الرب، أن يوم الحساب آتٍ، وأن أتباع تلك الكنائس القديمة كلهم سوف تطالهم اللعنة الأبدية لأنهم منافقون ولأنهم يبتلعون العالم، والناس... إن الشيطان...».

ظلّت تتكلّم خمس عشرة دقيقة. تدفّقت من فمها تحذيرات كثيرة تدعو إلى الهرب من الغضب القادم. احمرَّ وجهها، وعاد إلى صوتها الميت شيء من الحيوية الزاعقة التي كان يعرفها في زيلا. قالت غاضبة: «قضت رحمة الله نفسها أن يكون بول في السجن الآن، ممزَّقاً، محترقاً، معاقَباً؛ لكن هذا من أجل إنقاذ روحه. هذا ما ينبغي أن يناله الأشرار الآخرون... هؤلاء الفظيعون الذين يجرون وراء النساء والشهوات... قد يكون مثالاً لهم جميعاً».

جلس بابِت ملسوعاً متلوّياً. ومثلما كان يخشى الإتيان بأي حركة خلال العظة في الكنيسة، أحس الآن بأن عليه أن يبدو منتبهاً رغم أن إداناتها القاسية الجارحة كانت تطير من غير أن تبلغ أذنيه، كأنها عصافير ميتة.

حاول أن يكون هادئاً، أخوياً.

«نعم، أعرف هذا يا زيلا. لكن، يا ربي، من المؤكد أن جوهر الدين هو الإحسان إلى الآخرين، أليس كذلك؟ اسمحي لي أن أقول لك كيف أفهم الأمر: ما نحتاجه في العالم اليوم هو الليبرالية، ... الحرية، إذا كنا نريد أن نصل إلى أي نتيجة. إني مؤمن دائماً بأن يكون المرء واسع التفكير، وأن يكون ليبرالياً...».

«أنت؟ ليبرالي!»... كان هذا يشبه زيلا القديمة كثيراً... «ماذا؟ جورج بابِت، إنك ليبرالي واسع التفكير بقدر اتساع شفرة الحلاقة!».

«أوه، إنني، إنني! دعيني أقول لك يا زيلا، فقط... دعيني.. أقول... لك، إنني ليبرالي بقدر ما أنت متديّنة على أي حال! أنت متديّنة؟».

«إنني متدينة! يقول قِسّنا إنني أساند الإيمان والكنيسة».

«أنت تساندين الكنيسة بالتأكيد! تساندينها بمال بول! لكني أريد أن أبيّن لك مقدار

ليبراليتي: سوف أرسل حوالة مصرفية بعشرة دولارات إلى بيتشر إنغرام لأن هناك أشخاصاً كثيرين يقولون إن ذلك البائس يدعو الناس إلى التمرد وإلى الحب الحر. إنهم يحاولون طرده من المدينة».

«وهم على حق في هذا! عليهم أن يطردوه من المدينة. ماذا؟ إنه يدعو الناس في عظاته إلى... إذا كنت تستطيع أن تسميها عظات... يلقي العظة في المسرح، في بيت الشيطان! أنت لا تعرف كيف يكون الأمر عندما تجد الله، عندما تجد السلام، عندما تصدّ تلك الشرور التي يلقيها الشيطان عند أقدامنا. أوه! إنني سعيدة بأن أدرك غايات الله الخفية التي جعلت بول يؤذيني حتى أكفّ عن كوني شرّيرة ضالّة - حتى يحصل بول على ما يستحقه لما فعله بي من أشياء بشعة. آمل أن يموت في السجن!».

نهض بابِت واقفاً حاملاً قبعته في يده. وقال مزمجراً: «جيد جداً! إذا كان هذا ما تدعينه سلاماً، فعليك أن تنبّهيني، بحق الله، قبل أن تعلني الحرب!».

- 3 -

هائلة هي قدرة المدينة على استعادة الضالّين. تستطيع المدينة، أكثر من الجبال ومن البحار التي تعانق الشواطئ، أن تحافظ على شخصيتها وتظل رابطة الجأش ساخرة محافظة على غايتها الأساسية من خلف التغيّرات الظاهرية. ورغم أن بابِت كان قد هجر أسرته والتجأ إلى جوي باراديايس في تلك البرّية البعيدة، رغم أنه قد صار ليبرالياً، ورغم أنه كان واثقاً في الليلة التي سبقت وصوله إلى زينيث من أنه لن يعود كما كان، ومن أن المدينة لن تعود كما كانت، فإنه كان غير قادر (بعد عشرة أيام من عودته) على تصديق أنه قد غاب عن مدينته يوماً واحداً. لم يرَ معارفه شيئاً ظاهراً عليه يشير إلى أن ثمة الآن جورج بابِت جديدًا... اللهم إلا كونه صار أقل تقبّلاً لتلك الأشياء المزعجة الصغيرة الكثيرة في النادي الرياضي. وذات مرة، عندما أشار فيرجيل غانتش إلى سينيكا دوين وأنه يجب أن يشنق، قال بابِت: «أوه، دعك من هذا! ليس الرجل سيئاً إلى هذا الحد».

وفي البيت، كان يجيب على تعليقات زوجته، من خلف صحيفته، بصوت كالنخير: «هاه!»... كان مسروراً بقبعة تينكا الفرنسية الحمراء الجديدة. وكان يقول أيضاً: «لا يليق بنا هذا المرأب المصنوع من ألواح الحديد المموّج. عليّ أن أبني واحداً قوياً جميلاً».

كان كينيث إسكوت وفيرونا يبدوان مخطوبَين حقاً. شن كينيث هجوماً في صحيفته ضد شركات العقارات التي تتقاضى عمولة على العقود. وسرعان ما نال، نتيجة ذلك، وظيفة ممتازة في واحدة من تلك الشركات التي تتقاضى عمولة على العقود. صار الآن يتقاضى راتباً يسمح له بالزواج وبشجب المراسلين الصحافيين غير المسؤولين الذين

يكتبون قصصاً تنتقد الشركات التي تتقاضى عمولة على العقود من غير أن يعرفوا معنى ذلك الكلام.

وفي أيلول، دخل تيد جامعة الولاية وصار طالباً مستجداً في كلية العلوم والفنون. كانت الجامعة في موهاليس، على مسافة خمسة عشر ميلاً من زينيث. وكان تيد يأتي غالباً في عطلة نهاية الأسبوع. لكن بابِت كان قلقاً لأن تيد «مقبل كثيراً» على كل شيء، عدا الكتب والدراسة! حاول الانضمام إلى فريق كرة القدم، وكان ينتظر حلول موسم كرة السلة، وكان في لجنة «مساعدة الطلبة المستجدّين»، وكان قد انتسب (بما أنه من مواطني زينيث: أرستقراطي بين الفلاحين) إلى اثنتين من الأخويات في الجامعة. أما عن دراسته، فلم يستطع بابِت أن يعرف شيئاً إلا غمغمة من قبيل «أوه، يا ربي، هؤلاء الأساتذة العجائز المتيبّسون الذين يعطون المرء دروساً كثيرة لا قيمة لها عن الأدب والاقتصاد».

وذات مرة، في عطلة نهاية الأسبوع، قال تيد مقترحاً: «اسمع يا بابا، ألا أستطيع أن أنتقل من الكلية إلى مدرسة الهندسة لأدرس الهندسة الميكانيكية؟ أنت تقول دائماً إنني لا أدرس، لكني أعدك بشرفي أنني سأدرس هناك».

قال بابِت منزعجاً: «لا! إن مدرسة الهندسة لا تتمتع بالمكانة التي تتمتع بها الكلية في نظر الناس».

«أحب أن أعرف كيف يكون هذا صحيحاً! إن طلاب الهندسة يستطيعون أن يلعبوا في أي فريق».

بعد هذا، جرى شرح كثير «لقيمة أن يكون المرء معروفاً بأنه خريج كلية عندما يعمل في مجال القانون». شرح بابِت قيمة هذا بالدولارات والسنتات. ومع الشرح، جاء سرد خطابي حقيقي لمزايا حياة المحامي. وقبل أن ينتهي من كلامه، كان بابِت قد جعل تيد عضواً في مجلس الشيوخ الأمريكي.

وكان سينيكا دوين من بين مشاهير المحامين الذين ذكرهم.

قال تيد متعجباً: «لكن، كيف هذا؟ كنت أظنك تقول دائماً إن دوين ليس إلا شخصاً أحمق!».

«لا يجوز أن تتكلم هكذا عن رجل عظيم! كان دوين دائماً واحداً من أفضل أصدقائي ـ والحقيقة أنني كنت أساعده في الكلية ـ لقد جعلته يبدأ؛ وقد تستطيع القول إنني كنت مصدر إلهام له. لكن، ولمجرد تعاطفه مع أهداف العمال، يظن كثير من هؤلاء الأبطال الذين يفتقرون إلى حرية التفكير وسِعة الأفق أنه شخص تافه. لكن دعني أقول لك إن قلة صغيرة منهم فقط تكسب ما يكسبه دوين من أتعاب المحاماة. وهو أيضاً صديق لبعض الأشخاص الأقوياء... أكبر المحافظين في العالم ـ كاللورد وايكومب مثلاً... هذا، آ،

هذا النبيل الإنكليزي الكبير المعروف. وأنت تعرف أيضاً ما تفضّل أن تكون: أن تكون مع هؤلاء العمال والميكانيكيين المتسخين بالشحوم أو مع أشخاص حقيقيين عظماء من أمثال اللورد وايكومب... وأن تتلقى دعوات إلى حفلات في بيوتهم!».

قال تيد متنهّداً: «طيب... يا ربي!».

جاء تيد بفكرة جديدة في نهاية الأسبوع التالية. قال فَرِحاً: «ما رأيك يا بابا... لماذا لا أستطيع أن أنتقل إلى هندسة المناجم بدلاً من الدراسة في الكلية؟ أنت تتكلم عن المركز الاجتماعي ونظرة الناس... وقد لا تكون الهندسة الميكانيكية شيئاً مهماً، أما طلاب هندسة المناجم... واو... لقد حصلوا على سبعة مقاعد من أصل أحد عشر مقعداً في الانتخابات الجديدة في جمعية «نو تاو تاو» في الجامعة!».

الفصل السابع والعشرون

- 1 -

أواخر شهر أيلول، بدأ الإضراب الذي حوّل زينيث إلى معسكرين متعاديين؛ البيض والحمر. بدأ الأمر كله بخروج عاملات الهاتف وعمال تركيب الخطوط الحديد محتجّين على خَفْضِ أجورهم. انضمت إليهم نقابة عمال منتجات الألبان المشكَّلة حديثاً. وكان انضمامها إليهم تعاطفاً معهم من ناحية، ومطالبة بتحديد ساعات العمل الأسبوعية بأربع وأربعين ساعة من ناحية أخرى. ثم تبعهم اتحاد سائقي الشاحنات. تعطلت الصناعة. وتوتّرت المدينة كلها نتيجة سريان إشاعات عن إضراب لعمال الترولي، وعمال الطباعة، وكلام عن إضراب عام أيضاً.

كان مواطنون غاضبون يحاولون إجراء اتصالات هاتفية عن طريق الفتيات كاسرات الإضراب؛ لكنهم لم يفلحوا في ذلك. وكان شرطي يرافق كل شاحنة تخرج من المصانع متجهة إلى محطة الشحن محاولاً أن يبدو هادئاً رزيناً في جلسته إلى جانب سائق غير ملتزم بالإضراب. هوجمت قافلة من خمسين شاحنة من شركة زينيث للفولاذ والآلات من قِبَل مضربين اندفعوا من الأرصفة وشدوا السائقين فأنزلوهم من سياراتهم وحطموا تلك السيارات في حين كانت فتيات الهاتف واقفات على الرصيف تهللن لهم. وكان فتية صغار يرمون الحجارة.

صدرت أوامر بانتشار الحرس الوطني. ارتدى الكولونيل نيكسون (هو السيد كالب نيكسون في الحياة العادية، سكرتير شركة بولمور للجرارات) معطفاً كاكياً طويلاً وراح يتجول عبر الحشود حاملاً في يده مسدساً ضخماً. بل إن صديق بابِت أيضاً، كلارنس درام، تاجر الأحذية... ذلك الرجل المرح المدوَّر الذي يروي قصصاً كثيرة في النادي الرياضي ويشبه، إلى حد غريب مدهش، كلباً سميناً من العهد الفيكتوري... شوهد برتبة كابتن يسير متئداً بمظهر متوحّش عنيف شاداً حزامه فوق كرشه الكبير ومكشّراً تكشيرة

عدوانية هجومية ناظراً إلى تجمعات الناس المثرثرين عند الزوايا. كان يقول لهم: «تحركوا! اذهبوا من هنا الآن! لا أقبل هذا التسكّع!».

كانت صحف المدينة كلها ضد المضربين، عدا واحدة. وعندما هاجم الغوغاء أكشاك بيع الصحف التي وقف إلى جانب كل منها واحد من ميليشيا الحرس الوطني، جندي ـ مواطن شاب محرج يضع نظارة، موظف في مكتبة أو عامل في متجر في حياته الخاصة، يحاول الآن أن يبدو خطراً مخيفاً بينما يقذفه صبية صغار بعبارات من قبيل «اهجموا على هذا الجندي اللعبة!». أما سائقو الشاحنات المضربون فكانوا يخاطبونه بكلمات متسائلة رقيقة: «قل لي يا جوي! عندما كنت أقاتل في فرنسا، هل كنت في المعسكر هنا أم كنت تؤدي التمرينات السويدية في المدرسة؟ انتبه حتى لا تجرح نفسك بهذه الحربة!».

ما عاد أحد في زينيث كلها يتكلم في شيء غير الإضراب. وما بقي فيها أحد لم يتخذ أحد الجانبين. إما أن تكون صديقاً شجاعاً للعمال، أو مناصراً جريئاً لحقوق الملكية. وأنت منخرط في المعركة، في كلا الحالين، ومستعد لأن تتبرأ من أي صديق لا يكره العدو كما ينبغي له يكرهه.

أضرمت النار في مصنع للحليب المكثّف. اتهم كل طرف الطرف الآخر بهذه الفعلة. وسادت المدينة حالة هستيرية.

اختار بابِت، هذه المرة، أن يكون ليبرالياً صريحاً.

كان منتمياً إلى الجناح الصحيح العاقل سليم التفكير. أقر في البداية بضرورة إطلاق النار على المحرّضين المنحرفين. وكان آسفاً عندما دافع صديقه سينيكا دوين عن المضربين المعتقلين. فكر في الذهاب إلى دوين ليوضح له حقيقة هؤلاء المحرّضين. لكن اضطراباً وتردداً أصابه عندما قرأ مقالة هجومية زعمت أن عاملات الهاتف كنّ جائعات حتى قبل تخفيض أجورهن. قال: «كلها أكاذيب وأرقام مزوَّرة». لكنه قالها بطريقة غير واثقة.

أعلنت كنيسة تشاتام رود البريسبيتورية عن إقامة قداس، يوم الأحد التالي، يقوده الدكتور جون جينسون درو. وكان عنوان العظة: «كيف يقوم المخلّص بإنهاء الإضرابات». كان بابِت قد أهمل الذهاب إلى الكنيسة في الآونة الأخيرة. لكنه ذهب إلى ذلك القداس آملاً أن تكون لدى الدكتور درو حقاً معلومات عن رأي القوى الإلهية العليا في الإضرابات. جلس تشام فرينك إلى جانب بابِت على مقعد خشبي طويل ضخم لامع له تنجيد مخملي.

همس فرينك: «ليت الدكتور يقذف بهؤلاء المضربين إلى الجحيم! مع أني لست مقتنعاً عادة بأن يتدخل الواعظ في شؤون السياسة ـ عليه أن يقتصر على الأمور الدينية وتخليص الأرواح من غير إثارة كثير من المناقشة ـ لكن، في وقت كهذا، أظن حقاً أن عليه أن ينتصب واقفاً ليوبّخ هؤلاء البشعين ويجعلهم يتراجعون».

قال بابِت: «نعم... طيب...».

صدح صوت المحترم الدكتور درو بنبرته الريفية الخشنة وبقوة قدراته الشعرية الاجتماعية:

«خلال هذه السلسلة المقلقة من الاضطرابات الصناعية التي ـ فلتكن لدينا شجاعة الاعتراف بالأمر علناً ـ خنقت حياة الأعمال في مدينتنا الجميلة خلال الأيام الماضية. وكان ثمة قدر كبير من الكلام غير المسؤول عن الوقاية العلمية... العلمية... العلمية! دعوني الآن أخبركم أن العلم هو أكثر الأشياء غير علمية في العالم! خذوا مثلاً الهجمات على العقيدة المسيحية الراسخة... تلك الهجمات التي كانت شائعة لدى «العلماء» منذ جيل مضى. أوه، نعم، كانوا أشخاصاً كباراً، وكانت انتقاداتهم كثيرة أيضاً! كانوا يريدون تدمير الكنيسة. وكانوا يعتزمون البرهَنة على أن خلق العالم ووصوله إلى هذا المستوى الاستثنائي من التمدن والأخلاق كان مصادفة عمياء. لكن الكنيسة وقفت في وجههم وقفة حازمة، وهي تقف في وجههم اليوم كعهدها دائماً. ليس لدى الراعي المسيحي إجابة يقدمها لهؤلاء الخصوم من ذوي الشعر الطويل، خصوم إيمانه البسيط الصادق، إلا ابتسامة مزدرية مشفِقة!

ويأتي الآن هؤلاء «العلماء» أنفسهم لكي يستبدلوا بحالة المنافسة الحرة الطبيعية نظاماً مجنوناً لا يعدو أن يكون نظام إشراف استبدادي فوقي مهما تبدو سامية تلك الأسماء التي يطلقونها على نظامهم الشيطاني هذا. إنني لا أنتقد المحاكم العمّالية، بطبيعة الحال، ولا توجيه الإنذارات القضائية إلى من يثبُت أنهم يضربون من غير وجه حق. لست أعترض على تلك النقابات الممتازة التي تسهر على التوافق بين العمال ورب العمل. لكنني أوجه نقدي، بالتأكيد، إلى أنظمة يحل فيها محل حافز العمل المستقل الحر المتحرك نظام سلالم الأجور الملعون الذي يضع حدوداً دنيا لها ويخترع لجاناً حكومية واتحادات نقابية وكل هذا الكلام الفارغ.

لكن ما لا يفهمه الناس عادة أن هذه القضية العُمّالية كلها ليست قضية متعلقة بالاقتصاد. إنها قضية حب في الأساس، بل هي قضية حب فقط! إنها قضية التطبيق العملي للدين المسيحي! تخيلوا مصنعاً ليست فيه تلك اللجان العمالية التي تنحّي صاحب العمل جانباً وتعتبره عدواً ... تخيلوا مصنعاً يمضي صاحب العمل فيه بين

العمال مبتسماً، فيردّون ابتسامته بابتسامة... مثل أخ كبير مع إخوته الصغار. إخوة... هكذا يجب أن يكونوا... إخوة متحابون. عندها تصبح الإضرابات شيئاً لا يمكن أن يخطر في البال، مثل العداوة بين أهلِ البيت الواحد!».

عند هذه النقطة تمتم بابِت قائلاً: «أوه، عجيب!».

قال تشام فرينك: «ماذا؟».

«إنه لا يعرف عمَ يتكلم. ليس في كلامه شيء من الوضوح. إنه لا يعني شيئاً».

«ربما، لكن...».

نظر فرينك إلى بابِت نظرة شك. ظل ينظر إليه نظرة شك طيلة القداس... إلى أن توتر بابِت.

ـ 2 ـ

كان العمال المضربون قد أعلنوا عن مسيرة صبيحة يوم الثلاثاء. لكن الكولونيل نيكسون منع المسيرة... هكذا قالت الصحف. وعندما قاد بابِت سيارته صوب الغرب، منطلقاً من مكتبه عند العاشرة من ذلك الصباح، شاهد جمهرة من رجال مهلهلي المظهر تتجه صوب الحي الفقير الوسخ الواقع خلف ساحة المحكمة. كرههم بابِت لأنهم فقراء، ولأنهم جعلوه يشعر بعدم الأمان. قال متذمراً: «الحقيرون الملعونون! لو كان لديهم أي نشاط وعزم لما كانوا عمالاً عاديين». تساءل إن كان سيحصل الآن بعض الشغب. قاد السيارة حتى رأس المسيرة الذي كان قد بلغ منطقة مثلثة فيها أعشاب هزيلة باهتة. كانت تلك المنطقة المثلثة تحمل اسم متنزّه شارع مور. أوقف سيارته هناك.

ملأ المضربون المتنزّه والشوارع المحيطة به. كانوا شباباً بقمصان قطنية زرقاء، ورجالاً متقدّمين في السن يضعون القبعات. وبين هؤلاء، سار رجال ميليشيا الحرس الوطني فجعلوهم يتحركون باستمرار مثل قِدْرٍ يغلي. كان بابِت يسمع الأوامر الرتيبة التي يلقيها الجنود: «تابعوا الحركة ـ تحركوا ـ تابعوا الحركة!» ... أعجب بابِت بمزاج الجنود الهادئ الطيب. كان الجمهور يصيح «جنود مزيّفون» و«كلاب قذرة ـ خدم الرأسمالية». لكن رجال الميليشيا كانوا يبتسمون ولا يردّون على هذا إلا بعبارة «طبعاً، هذا صحيح! تابع الحركة يا بيلي!».

كان بابِت شديد الإعجاب بهؤلاء المواطنين- الجنود؛ وكان يكره الأوغاد الذين يعرقلون سبل الازدهار. كان معجباً بالاحتقار الواضح الذي يبديه الكولونيل نيكسون لهذا الجمهور. أعجبه أيضاً ذلك الغضب الظاهر على الكابتن كلارنس درام الذي كان قبل ذلك مجرد بائع أحذية لاهث. صاح بابِت بصوت كله احترام: «عمل عظيم يا كابتن!

لا تسمح بهذه المسيرة!». راح يراقب المضربين يتوافدون من المتنزّه. حمل كثير منهم لافتات عليها عبارة: «لا يستطيعون منع مسيرتنا السلمية». مزّق رجال الميليشيا هذه اللافتات. لكنّ المضربين تقاطروا مجموعات خلف قادتهم. صاروا جماعات متشابكة قليلة الشأن بين خطوط الجنود الفولاذية. أدرك بابِت، بشيء من خيبة الأمل، أن أي عنف لن يقع... لا شيء مثيرًا للاهتمام أبداً.

لكنه شهق بعد ذلك!

رأى بين السائرين، إلى جانب عامل ضخم شاب، صديقه سينيكا دوين راضياً مبتسماً. وأمامه كان البروفيسور بروكبانك، رئيس قسم التاريخ في جامعة الولاية: رجل عجوز له لحية بيضاء معروف بأنه منحدر من أسرة رفيعة الشأن ولاية ماساشوستس.

قال بابِت مستغرباً: «ماذا، عجيب... رجل رائع كهذا يسير مع المضربين؟ ومعه صديقي القديم سينيكا دوين! لا بد أنهما أحمقان حتى يخالطا هذه الزمرة من الناس. إنهما من اشتراكيي الصالونات! لكنهما شجاعان أيضاً... لا مكسب لهم في هذا الأمر كله. لا يكسبان منه سنتاً واحداً! ثم... لا أعرف... يبدو هؤلاء المضربين كلهم أشخاصاً عاديين. يبدون لي مثل أي شخص آخر».

كان رجال الميليشيا يحوّلون المسيرة إلى شارع جانبي.

«إن من حقهم أن يسيروا هنا مثلما من حق أي شخص آخر! إنهم يملكون الشوارع مثلما يملكها الكابتن كلارنس درام أو مثلما تملكها «الكتيبة الأمريكية»!... بالطبع، إنهم، ... إنهم عناصر سيئة، لكن... أوه... لست أدري... شيء عجيب!».

ظل بابِت صامتاً خلال الغداء في النادي الرياضي بينما كان الآخرون يلقون عبارات من قبيل «لا أعرف ماذا يصيب هذا العالم» أو يخففون عن أنفسهم بنوع من «المزاح».

دخل الكابتن كلارنس درام مسرعاً... رائعاً، في ملابسه الكاكية.

سأله فيرجيل غانتش: «ماذا يحدث يا كابتن؟».

«أوه، لقد أوقفناهم. دفعنا بهم إلى شوارع جانبية وفرّقناهم ففقدوا شجاعتهم ومضوا إلى بيوتهم».

«عمل ممتاز! من غير عنف».

قال السيد درام: «ليس عملاً ممتازاً أبداً! لو كان الأمر بيدي لحدث عنف كثير. كنت أحب أن أبدأ هذا العنف بنفسي. وعندها ينتهي الأمر كله. لا أومن بالتقاعس وبملاطفة هؤلاء الناس وترك الاضطرابات تتفاقم. ليس هؤلاء المضربون في نظر الرب شيئاً

مختلفاً عن السفّاحين والاشتراكيين الذين يلقون القنابل. الهراوة هي الطريقة الوحيدة الصالحة للتعامل معهم. هذا ما أحب أن أفعله: أضربهم جميعاً!».

سمع بابِت نفسه يقول: «أوه، كلام فارغ يا كلارنس. ليسوا مختلفين عني وعنك. ولم أرَ لديهم أي قنابل، أبداً».

قال درام معترضاً: «أوه، لم تر قنابل، هاه؟ لا بأس، لعلك تحب أن تتولى قيادة الإضراب بنفسك! اذهب وقل للكولونيل نيكسون إن هؤلاء المضربين أبرياء! وسيكون سعيداً بأن يسمع هذا!». مضى درام مبتعداً في حين نظر الآخرون جميعاً إلى بابِت.

قال أورفيل جونسز: «ما هذه الفكرة؟ هل تريد أن نعطي كلاب النار هؤلاء حُباً وقُبلات، أم ماذا؟».

قال البروفيسور بامفري غاضباً: «أتدافع عن جماعة السفّاحين الذين يحاولون حرمان عائلاتنا من طعامها؟».

ظل فيرجيل غانتش صامتاً. لم يقل شيئاً. كان صمته مخيفاً. ارتدى قناع الصرامة الهادئة! كان فكّاه متوترين. وبدا شعره المنتصب القصير غاضباً أيضاً. كان صمته رعداً مخيفاً. وبينما راح الآخرون يطمئنون بابِت إلى أنهم أساؤوا فهمه، بالتأكيد، بدا على غانتش أنه فهمه، فهمه تماماً. ومثل قاضٍ حقيقي في ثوبه الأسود، راح غانتش يستمع إلى بابِت يقول متلعثماً: «لا، طبعاً... إنهم حفنة من السفاحين، بالطبع! لكنني لا أقصد إلا... أرى أن من سوء السياسة أن يتحدث المرء عن ضربهم بالهراوات. إن كالب نيكسون لا يفعل هذا! إنه شخص صارم عاقل. وهذا هو سبب كونه يحمل رتبة كولونيل. إن كلارنس درام يغار منه».

قال البروفيسور بامفري: «طيب! لقد أسأت إلى مشاعر كلارنس يا جورج. لقد أمضى فترة قبل الظهر كلها هناك، وعَرِق وامتلأ غباراً... لا عجب، بعد ذلك، في أن يكون راغباً في ضرب أولاد الكلاب هؤلاء».

لم يقل غانتش شيئاً! ظل مراقباً!... أدرك بابِت أنه تحت المراقبة.

-3-

عندما كان يغادر النادي، سمع بابِت تشام فرينك يقول لغانتش منزعجاً: «... لا أعرف ماذا أصابه! ألقى الدكتور درو عظة ممتازة الأحد الماضي... تحدث عن آداب الأعمال... لكن بابِت لم يعجبه ذلك أيضاً. كأنني أرى، تقريباً...»

شعر بابِت بذعر غامض.

-4-

رأى جمعاً من الناس يستمعون إلى رجل اتخذ من كرسي مطبخ منبراً له. أوقف سيارته. أدرك من الصور التي شاهدها في الصحف، أن المتحدِّث يجب أن يكون الواعظ الحر ذي السمعة السيئة، بيتشر إنغرام... ذلك الذي حدَّثه عنه سينيكا دوين. كان إنغرام رجلاً هزيلاً متطاير الشعر. كانت له وجنتان مغضّنتان وعينان قلقتان. كان يصيح قائلاً:

«... إذا كانت فتيات الهاتف قادرات على الصمود، على العيش بوجبة واحدة في اليوم... يغسلن ملابسهن بأيديهن، ويمتن من الجوع، ويبتسمن أيضاً، فلا بدّ أن تكونوا... أنتم الرجال الأقوياء... قادرين على...».

وعلى الرصيف، رأى بابت فيرجيل غانتش واقفاً، يراقبه. جعله قلق غامض يشغل سيارته وينطلق بحركة آلية في حين بدت عينا غانتش المعاديتان تتبعانه طيلة الطريق.

-5-

«ثمة الكثير من هؤلاء الناس»... كان بابت يقول لزوجته شاكياً... «الذين يظنون أن العمال المضربين ليسوا إلا مجموعة من أصدقائهم. ليس الأمر، بطبيعة الحال، إلا صراعاً بين الأعمال السليمة والعناصر الهدّامة. وعلينا أن نلزمهم حَدَّهم إذا تحدّونا. لكنني لا أفهم ما يجعلنا عاجزين عن محاربتهم بطريقة مهذَّبة من غير أن نشتمهم ونقول إنهم كلاب قذرة وإن من الواجب إطلاق النار عليهم».

قالت له بطريقة مسالمة: «ماذا يا جورج؟ كنت أظنك تصر دائماً على أن وضع المضربين في السجن أمر ضروري».

«لم أقل هذا أبداً! طيب، أقصد... يجب وضع بعضهم في السجن... طبعاً. القادة غير المسؤولين. لكنني أقصد أن على الإنسان أن يكون واسع الأفق وأن يكون ليبرالياً في ما يتعلق بأمور من قبيل...».

«لكن يا عزيزي، ظننت أنك تقول دائماً... إن أولئك المدعوّين أشخاصاً «ليبراليين» هم أسوأ من...».

«هذا كلام فارغ! لا تستطيع النساء أبداً فهم التعريفات المختلفة للكلمة الواحدة. إن التعريف معتمد على ما يقصده المرء بكلامه. لا فائدة أبداً من أن يكون المرء شديد الثقة بأي شيء. والآن، هؤلاء المضربون: بشرفي، لا أرى أنهم أشخاص سيئون. إنهم حمقى، فقط، لا أكثر! لا يفهمون تعقيدات التجارة والأرباح؛ لا يفهمون ذلك مثلما يفهمه رجال

الأعمال. لكنني أظن أحياناً أنهم يشبهوننا نحن... أنهم لا يتكالبون على الأجور بأكثر مما نتكالب نحن على الأرباح».

«جورج! إذا سمعك الناس تتحدث على هذا النحو... أنا أعرفك طبعاً. أذكر كيف كنت فتى مجنوناً؛ وأعرف أنك لا تقصد كلمة واحدة مما تقول ـ لكن، إذا سمعك الناس الذين لا يفهمونك، فسوف يظنون أنك اشتراكي تماماً!».

«وماذا يهمّني مما يظنه الناس؟ دعيني أقول لك الآن ـ عليك أن تفهمي تماماً أنني لم أكن ولداً مجنوناً أبداً. عندما أقول شيئاً، فإنني أعنيه! وأنا أتمسّك بما أقول ـ أتظنين حقاً أن الناس سوف يظنونني ليبرالياً جداً إذا قلت إن المضربين كانوا أشخاصاً عاديين مهذّبين؟».

«هذا ما سوف يظنه الناس طبعاً! لكن، لا تقلق يا عزيزي! أعرف أنك لا تقصد كلمة واحدة من هذا كله. حان وقت الذهاب إلى الفراش الآن. هل لديك أغطية كافية من أجل الليل؟».

راح يفكر محتاراً في شرفة النوم: «إنها لا تفهمني! لا أكاد أفهم نفسي أيضاً! لماذا لا أستطيع أن أقبل الأمور كما هي، أن آخذها ببساطة مثلما كنت أفعل من قبل؟ ليتني أستطيع الذهاب إلى بيت سينيكا دوين لكي أناقش معه هذه الأمور. لا، لن أذهب! ماذا إذا رآني فيرجيل غانتش ذاهباً إليه؟ ليتني كنت أعرف امرأة ذكية حقاً، لطيفة أيضاً... امرأة تستطيع أن تفهم ما أحاول قوله، امرأة تتركني أتحدث إليها، و... لا أعرف إذا كانت ميرا على حق؟ هل يمكن حقاً أن يظن الناس أنني جننت لمجرد أنني شخص ليبرالي واسع الأفق؟ لماذا نظر إلي فيرجيل...».

الفصل الثامن والعشرون

-1-

دخلت الآنسة ماكغاون غرفته الخاصة في المكتب عند الثالثة بعد الظهر قائلة: «اسمع يا سيد بابِت! السيدة جوديك على الهاتف الآن - تقول إن الشقة في حاجة إلى بعض الإصلاحات. موظفو المبيعات ليسوا في المكتب الآن. هل تحب أن تتكلم معها؟».

- «لا بأس».

جاء صوت تانيس جوديك صافياً مبهِجاً. بدت سَمّاعة الهاتف السوداء كأنها تعرض صورة صغيرة لها: عينان براقتان، وأنف دقيق، وذقن لطيفة.

«أنا السيدة جوديك. هل تذكرني؟ لقد أخذتني بسيارتك إلى مبنى كافنديش للشقق السكنية وساعدتني في العثور على هذه الشقة اللطيفة».

«بالتأكيد، أذكرك طبعاً! كيف أستطيع أن أخدمك؟».

«إنها مجرد... لا أعرف إن كان يصحّ لي أن أزعجك بهذا، لكن البواب يبدو غير قادر على إصلاح العطل. أنت تعرف أن شقتي في الطابق العلوي. وقد بدأ شيء من التسرب في السقف بسبب هذه الأمطار الخريفية. سأكون سعيدة جداً إذا...».

«طبعاً، طبعاً! سوف آتي لألقي نظرة عليها»... ثم بشيء من العصبية «ما الوقت المناسب لك؟».

«ماذا؟ أكون في الشقة كل صباح».

«وهل أنت موجودة اليوم بعد الظهر، أي بعد ساعة أو نحو ذلك؟».

«نعم! وقد أدعوك إلى فنجان من الشاي أيضاً. أظن أنني يجب أن أدعوك إلى فنجان من الشاي بعد كل هذا العناء الذي أسببه لك».

«ممتاز! سوف أذهب إليك عندما أستطيع الخروج من المكتب».

قال لنفسه متأملاً: «ها هي امرأة لديها رقة وذكاء وتميّز! «بعد كل هذا العناء الذي أسببه لك ـ أدعوك إلى فنجان من الشاي»... يا سلام! إنها امرأة تعرف كيف تقدّر المرء حق قدره. أنا أحمق، لكنني لست شخصاً سيئاً... عليها أن تعرفني. ثم إني لست شديد الحماقة كما قد يظن البعض!».

انتهى الإضراب الكبير. وهُزِم المضربون. وباستثناء ما ظل ظاهراً على فيرجيل غانتش من تراجع عواطف الصداقة، لم تكن هنالك أي آثار مرئية للخيانة التي ارتكبها بابِت في حق جماعته. ذهب ذلك الخوف المضني من الانتقاد، لكن الإحساس الغريب بالوحدة ظل على حاله. أما الآن فقد كان بابِت شديد الابتهاج إلى درجة جعلته، حتى يثبت أنه ليس شديد الابتهاج، يتحدّث عن المكتب ربع ساعة كاملة ناظراً إلى النشرات الإعلانية وموضحاً للآنسة ماكغاون أن السيدة سكوت تريد مالاً أكثر مقابل بيتها ـ رفعت السعر المعروض من سبعة آلاف إلى ثمانية آلاف وخمسمئة ـ وأن على الآنسة ماكغاون أن تحرص على تسجيل ذلك على بطاقة ذلك العقار ـ بيت السيدة سكوت: زيادة الإيجار. وبعد أن أثبت على هذا النحو أنه شخص غير عاطفي لا يهتم إلا بالعمل، مضى خارجاً من المكتب. أنفق وقتاً طويلاً قبل الانطلاق بسيارته. ضرب الإطارات بقدمه، وأزال الغبار عن زجاج عَدّاد السرعة، ثم شد البراغي التي تثبت المصباح الأمامي المركَّب على واقية الريح.

انطلق سعيداً في اتجاه منطقة بيلفيو. كان يحس وجود السيدة جوديك فيها مثل ضوء متألق في الأفق. كانت أشجار القيقب قد طرحت أوراقها، فتجمعت تلك الأوراق على جانبَي الطريق المعبد. كان يوماً بلون الذهب والخضرة الذاوية، كان نهاراً يمضي هادئاً متمهلاً. وكان بابِت ممتلئاً بذلك النهار المتأمل... مدركاً عُري مباني بيلفيو الخشبية ومحلاتها الصغيرة ومرائب السيارات والبقع العشبية. «إن المنطقة في حاجة إلى تمشيط. إنها في حاجة إلى لمسات يستطيع أشخاص مثل السيدة جوديك إضفاءها على هذا المكان. راح يفكر في هذا خلال سيره في الشوارع الطويلة الفجة المكشوفة. هبت ريح منعشة لطيفة. وصل إلى شقة تانيس جوديك مسروراً تماماً.

عندما فتحت له الباب ورحّبت به ترحيباً يشبه رفرفة العصافير، كانت مرتدية فستاناً من الشيفون الأسود له ياقة تصل إلى أسفل رقبتها الجميلة. بدت له سيدة راقية إلى حد كبير. ألقى نظرة على الأقمشة واللوحات الملوَّنة في غرفة المعيشة ثم قال: «يا سلام! لقد جعلتِ المكان جميلاً! لا بد من امرأة ذكية تعرف كيف تجعل البيت مكاناً جيداً».

«هل أعجبك حقاً؟ يسعدني هذا كثيراً! لكنك أهملتني، فهل يجوز هذا؟ وعدتني أن تزورني في وقت ما لنتعلم الرقص».

أجابها غير واثق تماماً: «أوه، لكنك لم تكوني جادة في ذلك!».
«ربما كنت مازحة! لكن، كان عليك أن تحاول!».
«لا بأس! ها قد أتيت إلى درسي الآن. وقد تستبقيني أيضاً لتناول عشاء مبكر».
ضحكا معاً بطريقة تشير إلى أنه، بطبيعة الحال، لم يكن يقصد ما قاله حقاً.
«لكني أظن أنني يجب أن ألقي نظرة على ذلك التسرّب قبل كل شيء».
صعدت معه إلى سطح المبنى الذي كان عالَماً مستقلاً بممراته المبلطة وحبال الغسيل وخزان المياه القابع في كوخه الخشبي. راح يفحص السطح بمقدمة حذائه، وحاول أن يجعلها ترى مقدار معارفه في المزاريب النحاسية، وفي حسنات وضع أنابيب المياه ضمن أطواق ووصلات رصاصية ثم ملء الفراغ بينها بالنحاس الأصفر، وكذلك أفضلية استخدام خشب الأرز من أجل خزانات المياه السقفية بدلاً من الصفائح الحديد.
قالت معجبة: «عليك أن تعرف الكثير عندما تعمل في مجال العقارات!».
وَعَدَها بأن يتم إصلاح السطح خلال يومين. سألها: «هل تسمحين لي بإجراء اتصال هاتفي من شقتك؟».
«طبعاً، طبعاً!».
وقف لحظة عند حافة السطح ناظراً إلى أرض فيها بيوت خشبية خشنة صغيرة لها مداخل ضخمة إلى حد غير مألوف، وفيها بنايات سكنية صغيرة لكنها تبدو حيوية بجدرانها القرميدية متنوعة الألوان. ومن خلف هذه البيوت ارتفع تل عليه شريط صلصالي أصفر كأنه جرح طويل. خلف كل بناية سكنية، وأمام كل بيت، كان ثمة مرائب صغيرة للسيارات. إنه عالم الناس الصغار، المرتاحين، المطمئنّين، الذين يشتغلون جيداً.
لطّف ضياء الخريف الشفق، وكان الهواء يشبه بركة تدفئها الشمس.
قال بابت: «ما أجمل هذا المساء. إن لديك منظرًا جميلًا من هنا... حتى جبل تانر».
«نعم! أليست إطلالة جميلة مفتوحة؟».
«ما أقل الناس الذين يقدّرون الإطلالة!».
«إياك أن تزيد الإيجار بسبب الإطلالة! أوه، لا يجوز أن أقول هذا. إنني أمازحك فقط. لكن، معك حق... ما أقل الذين يستجيبون... الذين يستمتعون بالإطلالة. أقصد... ليس لديهم أي إحساس بالشِّعر والجمال».
همس: «صحيح هذا... ليس لديهم ذلك الإحسّاس». كان معجَباً برشاقتها واستغراقها الرقيق عندما راحت تنظر صوب الجبل... ذقنها مرفوعة قليلاً، وشفتاها مبتسمتان «أظن أن من الأفضل أن أتصل بالعمال الآن حتى يباشروا عملهم منذ صباح الغد».

أجرى الاتصال الهاتفي. تعمَّد أن يتكلم بطريقة سلطوية ذكورية فظة. بدا عليه شيء من التردد ثم قال متنهداً: «أظن أن من الأفضل الآن أن...».

«أوه، يجب أن تشرب الشاي أولاً!».

«طيب، سيكون هذا لطفاً كبيراً منك».

كان الجلوس في ذلك الكرسي الأخضر العميق أمراً مريحاً... فاخراً! مَدَّ قدميه أمامه ناظراً إلى حامل الهاتف الصيني الأسود وإلى الصورة الملوَّنة لجبل فيرنون، تلك الصورة التي طالما أعجبته كثيراً. وفي المطبخ الصغير ـ القريب جداً ـ كانت السيدة جوديك تغني أغنية «ملكتي الكريولية». كان غناؤها حلواً إلى درجة غير محتَمَلة، كان عميقاً مطمئناً جعله مضطرباً ضائعاً. رأى أزهار الماغنوليا في ضوء القمر، وسمع الزنوج يعزفون البانجو في المزارع. وَدَّ أن يذهب إليها، أن يكون قريباً منها، وأن يتظاهر بمساعدتها. لكنه أحب أيضاً أن يظل جالساً مستمتعاً بهذا السحر. ظلَّ في مكانه!

رفع رأسه مبتسماً لها عندما جاءت حاملة الشاي. قال لها: «هذا لطيف جداً!» ... وللمرة الأولى، ما كان يحاول التقرّب منها، بل كان يكلمها بموَدّة هادئة أكيدة. كانت إجابتها وِدّية هادئة أيضاً: «جميل أن تكون أنت هنا. كنت شديد اللطف معي... ساعدتني في العثور على هذا البيت الصغير».

اتفقا على أن الطقس سيصبح بارداً عما قريب. واتفقا على أن حظر الكحول فيه شيء من التضييق. واتفقا على أن وجود أعمال فنية في البيت يشير إلى ثقافة رفيعة. اتفقا على كل شيء. بل صارا جريئين أيضاً عندما ألمحا إلى أن الفتيات الشابات هذه الأيام، طيب... صدقاً... يرتدين تنورات قصيرة، قصيرة فعلاً. كانا معتزَّين بأنهما لم يجدا حرجاً في هذا الكلام الصريح المكشوف. بل إن تانيس غامرت بالقول أيضاً: «أعرف أنك ستفهم ـ أقصد ـ لا أعرف كيف أقول هذا بالضبط، لكني أظن أن الفتيات اللواتي يتظاهرن بالسوء من خلال طريقة لبسهن لا يفعلن أكثر من ذلك في حقيقة الأمر. إن ملابسهن تبوح بحقيقة أنهن لا يمتلكن الغرائز النسائية الحقيقية».

تذكر بابت آيدا بوتياك، فتاة العناية بالأظافر؛ وتذكر كيف استغلته... وافق على ما قالته تانيس متحمّساً، متذكراً كيف استغله العالَم كله. حكى لها عن بول ريزلينغ، وعن زيلا، وعن سينيكا دوين، وعن الإضراب:

«هل ترين كيف كان الأمر؟ لقد كنت حريصاً، بالطبع، أنا أيضاً، على إلزام هؤلاء المتسولين حَدَّهم... مثل حرص الجميع! لكن، شيء عجيب... لا يوجد ما يبرر عدم رؤية الأمور من زاويتهم هم أيضاً. هذا جيد من أجلنا نحن... يجب أن يكون المرء واسع الأفق ليبرالياً، ألا ترين هذا أيضاً».

«أوه، نعم!»... كانت جالسة على الأريكة الصغيرة القاسية مستندة عليها بيديها. مالت صوبه... سَحَرته تماماً. قال لها سعيداً، طائراً، بذلك التقدير الذي يتلقاه الآن:

«وهكذا فقد نهضت وقلت لهؤلاء الأشخاص في النادي: «انظروا»، إنني...».

«وهل أنت عضو في نادي الاتحاد؟ أظن أنه...».

«لا! إنني في النادي الرياضي. يطلبون مني دائماً، طبعاً، أن أنضمَّ إلى الاتحاد. لكني أقول لهم، دائماً: «لا يا سيدي! لا شأن لي بهذا!»، لا مشكلة عندي في النفقات، لكني لا أستطيع أن أتحمل هؤلاء المحافظين العجائز».

«أوه، نعم، هكذا! لكن، قل لي: ماذا قلت لهم؟».

«أنت تريدين أن تسمعي هذا حقاً. لا بد أنني أضجرك كثيراً بالحديث عن مشاكلي! ولا أريد أبداً أن تظنيني شخصاً أبله... أتحدث مثل الأطفال!».

«أوه، أنت لا تزال صبياً. أقصد لا يمكن أن يكون عمرك أكثر من خمسة وأربعين... ولا يوم أكثر».

«نعم، ليس أكثر من ذلك... بكثير. لكني أشعر أحياناً أنني صرت كهلاً. كل هذه المسؤوليات، وكل شيء».

«أوه، أعرف هذا...». داعبه صوتها، أحاط به مثل حرير دافئ. «وأنا أشعر بالوحدة، أشعر بالوحدة كثيراً بعض الأيام يا سيد بابت».

«إننا عصفوران حزينان! لكني أراكِ لطيفة جداً».

«نعم، أظن أننا ألطف كثيراً من معظم الأشخاص الذين أعرفهم». ابتسمت... «لكن، قل لي ما قلته لهم في النادي، أرجوك!».

«طيب، كان الأمر هكذا: إن سينيكا دوين صديق لي، طبعاً... يستطيعون أن يقولوا ما يشاؤون، ويستطيعون وصفه كما يحبّون، لكن ما لا يعرفه معظم الناس هو أن سينيكا في الحقيقة صديق لبعض أكبر رجال الدولة في العالم - اللورد وايكومب، على سبيل المثال - أنت تعرفين، هذا النبيل البريطاني الكبير. قال لي صديقي جيرالد دواك إن اللورد وايكومب من الأشخاص المهمّين في إنكلترا - نعم، دواك قال لي هذا، أو شخص غيره».

«أوه! هل تعرف السير جيرالد؟ ذلك الرجل الذي كان هنا... عند آل ماكيلفي؟».

«أعرفه! نعم، يمكنك القول إنني أعرفه معرفة وثيقة إلى حد يكفي لأن يدعوني جورج ولأن أدعوه جيري. وقد سكرنا معاً في شيكاغو...».

«لا بد أن هذا كان أمراً ممتعاً. لكن...». هزت إصبعها... «لا يجوز أن أتركك تسكر! يجب أن أهتم تماماً بألّا تفعل هذا».

«أتمنى أن تهتمي!... إذن، أعود إلى ما كنت أقوله: ترين أنني أعرف أهمية سينيكا

دوين خارج زينيث. لكن، طبعاً، لا كرامة لنبيٍّ في وطنه. ثم إن سينيكا، ذلك الخجول، شخص شديد التواضع إلى درجة تجعله لا يترك أحداً يعرف كيف يكون متأنّقاً عندما يسافر خارج البلاد. نعم، جاء كلارنس درام متبختراً خلال الإضراب، جاء إلى طاولتنا... كان مصمِّماً على القتل في بدلته الرسمية، بدلة الكابتن. قال له واحد من الجالسين: «هل قمعتم الإضراب يا كلارنس؟». انتفخ كلارنس كأنه ذَكَر الحمام، ثم قال بصوت مرتفع كثيراً... صوت يمكن سماعه حتى في غرفة القراءة في النادي: «نعم يا سيّدي! قلت لقادة الإضراب أن يذهبوا، فذهبوا إلى بيوتهم». قلت له: «جيد! يسعدني عدم وقوع أعمال عنف». قال: «نعم، لو لم أكن أراقبهم هناك لوقعت أعمال عنف. إن لدى هؤلاء جميعاً قنابل في جيوبهم. إنهم فوضويون».

أجبته: «ما هذا يا كلارنس؟ لقد نظرتُ إليهم جميعاً. لم يكونوا يحملون قنابل أكثر مما تحمله الأرانب». قلت له، قلت له: «طبعاً! إنهم حمقى؛ لكنهم يشبهوني ويشبهونك إلى حد كبير، بعد كل شيء». عند ذلك قال فيرجيل غانتش أو غيره ـ لا، كان ذلك تشام فرينك، تعرفينه ذلك الشاعر الشهير، واحد من أصدقائي... قال لي: «انتظر، انتظر! هل تعني أنك مناصر لهؤلاء المضربين؟»... يصيبني قرف شديد من هؤلاء الأشخاص الذين تعمل عقولهم بتلك الطريقة، أقسم على ذلك. لكني أفضِّل أن أكون حكيماً... لا أشرح لهم شيئاً... أتجاهلهم فقط».

قالت السيدة جوديك: «أوه، هذا تصرّف حكيم فعلاً».

«... لكني أوضحت الأمر له أخيراً: «لو كنت تفعل ما أفعله في لجان غرفة التجارة، لكان لديك الحق في الكلام! لكني، في الوقت نفسه، مقتنع بمحاربة هؤلاء الخصوم مثلما يفعل السادة المهذَّبون». هذا ما جعلهم يسكتون مغلوبين على أمرهم. لم يجد فرينك ـ أقصد تشام، هكذا أدعوه دائماً ـ لم يجد كلمة يقولها. لكن، بعد ذلك، أظن أن بعضهم حسبوني ليبرالياً زيادة عن اللزوم. ما رأيك أنت؟».

«أوه، لقد كنت حكيماً جداً. وشجاعاً أيضاً! أحب الرجل الذي تكون لديه شجاعة للدفاع عن قناعاته».

«لكن، أتظنّين أن تلك الطريقة كانت جيدة؟ أنت تعرفين أن بعض هؤلاء الأشخاص يكون شديد الحذر، ضَيّق الأفق، بحيث يتخذ موقفاً معادياً من أي شخص يتحدث حديثاً صريحاً مباشراً في اللقاءات».

«وماذا يهمك أنت؟ إنهم مضطرون، على المدى البعيد، إلى احترام الرجل الذي يجبرهم على التفكير. ومع شهرتك في الخطابة والحديث، فأنت...».

«ماذا تعرفين عن شهرتي في الخطابة؟»

«لن أقول لك كل ما أعرفه! لكن، صدقاً، أنت لا تدرك مدى شهرتك».
«طيب ـ رغم ذلك، لم تكن لديّ خطابات كثيرة هذا الخريف. انشغلت كثيراً بمسألة بول ريزلينغ، فيما أظن. لكن... هل تعرفين يا تانيس أنك أول شخص يدرك حقاً ما أحاول الوصول إليه... اسمعي، يبدو أنني أتجاوز حدود اللياقة عندما أدعوك باسمك هكذا، تانيس!».
«أوه، لا! يجب أن تخاطبني باسمي... هل أستطيع أن أخاطبك باسمك.. جورج؟ ألا ترى أن من اللطيف كثيراً أن يجلس اثنان بينهما كل هذا... ماذا يمكن أن أدعوه... كل هذا التحليل المشترك. بحيث يستطيعان وضع كل هذا الكلام السخيف جانباً، وبحيث يستطيع أن يفهم كل منهما الآخر ويصبحان على معرفة وثيقة بهذه السرعة... مثل سفينتين مسافرتين تلتقيان في الليل؟».
«بالتأكيد! نعم، بالتأكيد!».
ما عاد الآن جالساً في كرسيه. راح يتجوّل في الغرفة ثم سقط جالساً على الأريكة، إلى جانبها. لكن، عندما مد يده بحركة خرقاء صوب يدها الصغيرة الهشّة، صوب أصابعها الرقيقة، قالت له باسمة: «هل تعطيني سيجارة؟ هل تظن أن تانيس المسكينة تسيء الأدب إذا دخّنت الآن؟».
«يا إلهي، لا! إنني أحب هذا».
كان قد فكر ملياً، من قبل، في مسألة النساء المدخِّنات في مطاعم زينيث. لكنه، في حقيقة الأمر، لم يكن يعرف إلا امرأة واحدة تدخن. إنها زوجة سام دوبلبراو، جاره صاحب الآراء المتقلّبة. أشعل سيجارة تانيس بحركة احتفالية، ثم راح يبحث عن مكان يضع فيه عود الكبريت. لم يجد ذلك المكان فأسقط العود في جيبه.
قالت مدندنة بصوتها: «لا بد أنك راغب في سيجار... أيها الرجل المسكين!».
«ألا يزعجك أن أدخّن سيجاراً؟».
«لا، لا! أحب رائحة السيجار الجيد. إنها رائحة لطيفة... لطيفة، رجولية. يمكنك أن تجد منفضة السجائر في غرفة نومي على الطاولة، بجانب السرير... إذا كان لا يزعجك أن تذهب لتجلبها».
أحس بالحرج عندما صار في غرفة نومها: الأريكة الواسعة بغطائها الحريري البنفسجي، والستائر الوردية المخططة بلون ذهبي. طاولة التجميل الصينية، وصَفٌّ مدهش من الأحذية المنزلية مع حوامل لتلك الأحذية معلق بشريط ملون. وزوج من الجوارب الوردية مستلقٍ فوق تلك الأحذية. أحس أن طريقته في جلب منفضة السجائر كانت تعبيراً واضحاً عن جو الصداقة البسيط بينهما. قال في نفسه: «لو كان الأحمق فيرجيل غانتش

هنا لحاول المزاح في ما يتعلق برؤية غرفة نومها. لكني أتعامل مع هذا الأمر هكذا، بشكل عادي». لكنه لم يستطع مواصلة التعامل العادي! زال عنه إحساس الرضا بهذه الرفقة. عذّبته الرغبة في لمس يدها. لكنه كان يرى السيجارة تعترض طريقه كلما استدار صوبها. كانت سيجارتها درعاً، حاجزاً بينهما. انتظر ريثما تنتهي السيجارة. وعندما فرح برؤيتها تسحق رأس السيجارة المضيء في صحن السجائر قالت له: «ألا تريد إعطائي سيجارة أخرى؟». وبيأس كامل راح ينظر إلى سحابة الدخان الشاحب بينهما وإلى يدها المستقرة بينهما أيضاً. لم تعد المسألة الآن مسألة فضول أو رغبة في معرفة ما إذا كانت ستتركه يمسك يدها (بروح الصداقة النقية، بطبيعة الحال)... صار ذلك حاجة معذِّبة.

لم يظهر على السطح شيء من هذه الدراما المثيرة كلها. ظلا جالسين يتبادلان كلاماً مبهجاً عن السيارات، وعن الرحلات إلى كاليفورنيا، وعن تشام فرينك أيضاً. قال لها برقة: «أكره هؤلاء الأشخاص ـ أكره الناس الذين يدعون أنفسهم إلى تناول الطعام. لكن، يبدو أن لدي إحساساً... أحس بأنني سأتناول طعام العشاء مع السيدة اللطيفة تانيس جوديك هذه الليلة. لكني أظن أن لديك مواعيد كثيرة...».

«أنا... كنت أفكر في الذهاب إلى السينما. نعم، أظن أن عليَّ حقاً أن أخرج لأستنشق بعض الهواء النقي».

إنها لا تدعوه إلى البقاء! لكنها لم تدعه إلى الذهاب أيضاً، أبداً. قال في نفسه: «من الأفضل أن أحاول! سوف تسمح لي بالبقاء ـ يمكنني أن أفعل شيئاً ـ لا يجوز أن أخلط الأمور ـ لا يجوز أن ـ يجب أن أنجح في هذا». ثم قال لها: «لا! صار الوقت متأخراً الآن».

فجأة، عند السابعة تماماً، أزاح سيجارتها جانباً وأمسك يدها بحركة قوية خشنة:

«تانيس! كفي عن مضايقتي! تعرفين أننا ـ ها نحن هنا، عصفوران يشعران بالوحدة... ونحن سعيدان تماماً معاً. أنا سعيد، على الأقل! لم أعرف سعادة مثل هذه السعادة من قبل! دعيني أبقى هنا! سوف أنزل إلى محل بيع المأكولات لأشتري بعض الأشياء ـ لحم الدجاج البارد، ربما ـ أو الديك الرومي ـ ثم نتناول عشاء صغيراً لطيفاً. وبعد ذلك إذا أردت أن تطرديني، فسوف أذهب وديعاً مثل خروف».

قالت: «حسنًا إن... نعم ـ سيكون هذا شيئاً لطيفاً».

لم تسحب يدها أيضاً. شدَّ عليها، مرتعداً، ثم هب إلى ارتداء معطفه. اشترى من محل المأكولات كمية غير معقولة من الطعام. اختار أغلى المأكولات. ثم اجتاز الشارع إلى الصيدلية فاتصل مع زوجته. قال لها: «علي أن أنتظر شخصاً حتى نوقّع عقد إيجار لأنه مسافر عند منتصف الليل. سأعود متأخراً. لا تسهري في انتظاري. قبّلي تينكا. تصبحين على خير». عاد إلى الشقة مستعجلاً ملهوفاً.

«أوه! أنت شخص سيئ... كيف تشتري هذه الأشياء كلها؟». هكذا كانت تحيتها له، لكن صوتها كان لعوباً، وكانت ابتسامتها محبِّذة راضية.

ساعدها في المطبخ الصغير. غسل الخَسّ. وفتح علبة الزيتون. أمرته بإعداد الطاولة. وعندما مضى إلى غرفة الجلوس وراح يبحث عن السكاكين والشوك في دروج الخزانة، أحس أنه مرتاح تماماً، أَحَسَّ أنه في بيته.

صاح معلناً: «الشيء الوحيد الباقي الآن هو ماذا سترتدين. لا أعرف إن كنت سترتدين أجمل قميص نوم عندك أم أنك سترخين شعرك وترتدين تنورة قصيرة تبدين فيها صبية صغيرة».

«سوف أتعشّى كما أنا، في هذا الفستان القديم. يمكنك أن تذهب لتناول العشاء في النادي إذا كنت لا تستطيع احتمال رؤية تانيس المسكينة بهذا الشكل».

«أتحمّل رؤيتك!»... ربَّت على كتفها... «يا طفلتي! إنك أذكى وألطف وأروع امرأة قابلتها في حياتي! هيا الآن يا ليدي ووكومبي، أمسكي بيد دوق زينيث ولنَسِر إلى وليمتنا الوردية!».

«أوه، أنت تقول أشياء لطيفة مضحكة!».

بعد فراغهما من ذلك العشاء الخفيف، أخرج بابِت رأسه من النافذة وأعلن: «صار الجو بارداً حقاً. أظن أنها ستمطر. أنت لا تريدين الذهاب إلى السينما في هذا الجو».

«إذن...»

«لو أن لدينا موقداً هنا! ليتها تمطر طيلة الليل ونحن في كوخ قديم صغير ومن حولنا تتلاطم أغصان الأشجار في الخارج. وتشتعل في الموقد قطعة حطب كبيرة... اسمعي! دعينا نسحب هذه الأريكة صوب مشع التدفئة، ثم نمد أقدامنا صوبه ونتظاهر أنه موقد فيه نار مشتعلة».

«أوه، أظنها فكرة سخيفة، أيها الطفل الكبير!».

لكنهما سحبا الأريكة صوب المشعّ ومدا أقدامهما في اتجاهه ـ حذاءه الأسود الأخرق، وحذاءها المنزلي الجلدي الرقيق. راحا يتحدثان عن نفسيهما في ذلك الضوء الخافت؛ عن مقدار وحدتها؛ وعن عذابه وحيرته؛ وعن روعة أن يجد كل منهما الآخر. وعندما صمتا صارت الغرفة أكثر سكوناً من درب ريفية. لم تأت أصوات من الشارع إلا أصوات عجلات السيارات وهدير قطار شحن يمر من بعيد. كانت الغرفة عالماً متكاملاً، دافئاً، آمناً، معزولاً عن العالم المزعج.

كان غارقاً في نشوة أزالت عنه خوفه كله وشكوكه كلها. وعندما بلغ منزله، عند الفجر، كانت نشوته قد تخمّرت، وتعتّقت، فصارت سكينة راضية ملؤها الذكريات.

الفصل التاسع والعشرون

- 1 -

تعزز رضى بابِت عن نفسه، وثقته بنفسه، بعد أن اطمأن إلى صداقة تانيس جوديك. صار ميّالاً إلى المغامرة في النادي الرياضي. صحيح أن فيرجيل غانتش ظل صامتاً، إلا أن الآخرين من جماعة طاولة «العنيفون» صاروا يقبلون بابِت، لسبب غير واضح، باعتباره «شخصاً حاد عن السبيل القويم». كانوا يخوضون معه جدالات عاصفة؛ وكان مغترّاً بنفسه مستمتعاً بمظهر الشهيد الذي اتخذه. بل إنه امتدح سينيكا دوين أيضاً! قال البروفيسور بامفري إن بابِت ذهب بمزاحه إلى أبعد مما ينبغي. لكن بابِت قال معانداً: «لا! هذه حقيقة! أقول لكم إنه واحد من أكبر الأذكياء في البلاد. ماذا تقول؟ يقول اللورد وايكومب إن...».

قال أوفيل جونسز محتجاً: «أوه! ومن هو اللورد وايكومب بحق الجحيم؟ لماذا تأتي به دائماً؟ أنت تطنطن باسمه منذ ستة أسابيع».

اقترح سيدني فنكلشتاين إجابة بارعة على هذا السؤال: «لقد طلبه جورج من محلات سيرز رويبوك. يمكنك أن تحصل على هذه القاذورات الإنكليزية رفيعة المستوى عن طريق البريد مقابل دولارين للقطعة الواحدة».

«كفاكم الآن! اللورد وايكومب واحد من أكبر العقول في الحياة السياسية الإنكليزية. أعود إلى ما كنت أقوله قبل قليل: أنا نفسي محافظ طبعاً، لكني أقدر شخصاً مثل سينيكا دوين لأنه...».

قاطعه فيرجيل غانتش بفظاظة: «أتساءل إن كنت محافظاً حقاً! أجد من ناحيتي أنني أستطيع إدارة أعمالي من غير أن يكون فيها أشخاص حمر تافهون من أمثال دوين».

أزعجت بابِت كثيراً فظاظة صوت غانتش، وتلك القساوة التي ظهرت على وجهه، لكنه تجاوز ذلك وتابع كلامه حتى بدا عليهم الملل، ثم الانزعاج... ثم بدا عليهم شك يشبه ما كان بادياً على غانتش.

- 2 -

كان دائم التفكير في تانيس. وكلما تذكر شيئاً منها هاجت مشاعره. تاقت ذراعاه إلى ضمها. فكر حالماً: «لقد وجدتها! حلمت بها كل هذه السنين، والآن وجدتها!».

كان يلاقيها عند السينما في الصباح؛ ويقود سيارته إلى شقتها في وقت متأخر بعد الظهر، أو في المساء، عندما يفترض أن يكون مع الأصدقاء في جمعية الوعول. صار يعرف شؤونها المالية ويقدم لها النصح فيها أيضاً. أما هي فكانت تأسف لجهلها الأنثوي وتمتدح مهارته... وتثبت له أيضاً أنها تعرف عن الأسهم والسندات أكثر مما يعرفه بكثير. صارت لهما ذكريات، وكانا يضحكان على قصص الأيام السالفة. تشاجرا ذات مرة. قال لها غاضباً إنها «متسلطة» مثل زوجته... وإنها أكثر من زوجته تذمّراً عندما لا يهتم بها كما ينبغي. لكن الأمر مر بسلام.

كانت أحلى أوقاتهما عندما يتسكعان بعد ظهر يوم بارد من شهر كانون الأول عبر مروج لوّنها الثلج قرب نهر كالوسا الصقيعي. كان مظهرها غريباً بقبعة أستراخان ومعطف قصير. كانت تانيس تتزحلق على الجليد وتصيح. وكان يلهث من خلفها غارقاً في الضحك. ميرا لم تكن تتزحلق على الجليد أبداً.

كان يخشى أن يُشاهدا معاً. من المستحيل في زينيث أن يتعشى المرء مع زوجة جاره من غير أن يصبح ذلك معروفاً قبل حلول الليل في كل بيت من بيوت معارفهما. لكن تانيس كانت حريصة على نحو جميل. كانت تتودّد إليه تودداً مغرياً عندما يكونان وحيدين. لكنها ظلت حريصة على أن تحافظ على مسافة جدية بينهما عندما يكونان في الخارج. وكان يأمل أن يظنها من يراها معه واحدة من عملائه. رآهما أورفيل جونسز خارجَين من السينما ذات يوم فغمغم بابِت: «دعني أعرِفك إلى السيدة جوديك. إنها سيدة تعرف كيف تأتي إلى الوسيط العقاري الصحيح يا أورفي!». بدا السيد جونسز راضياً بهذا التفسير رغم كونه رجلاً شديد الحرص على مراقبة حسن سير الأخلاق وآلات غسل الملابس.

لكن خوفه الأكبر كان أن تعرف زوجته شيئاً عن هذه العلاقة ـ لا لولعه بها بل نتيجة اعتياده أن يحافظ على مقتضيات اللياقة. كان واثقاً أنها لم تعرف شيئاً محدداً في ما يتعلق بتانيس، لكنه كان واثقاً أيضاً من أنها تشك في شيء غير محدد تماماً. إنها تبدي ضجراً، منذ سنوات، إزاء أي شيء عاطفي يتجاوز قبلة الوداع؛ لكن من شأن أي تباطؤ في إقباله المزعج عليها من حين لآخر أن يجرحها. وأما الآن، فما عاد لديه إقبال أبداً؛ بل صار يحس نفوراً منها. كان مخلصاً تماماً لتانيس. وصارت تسبب له الكرب رؤية ذلك الامتلاء الكسول لدى زوجته، تلك النتوءات والطيات اللحمية، وكذلك ثوبها البيتي

الرث الذي أرادت دائماً أن تتخلص منه وترميه بعيداً، لكنها تنسى ذلك دائماً. لكنه أدرك أنها عارفة بنفوره هذا، بالتأكيد، نتيجة اعتيادها عليه وقتاً طويلاً. حاول كثيراً، ملحاً... ومزاحاً... أن يبعد هذه الفكرة عن رأسها. لكنه لم يستطع.

قضوا عيد الميلاد معاً. وكان ذلك مقبولاً، يمكن احتماله. كان معهم كينيث إسكوت الذي صارت خطبته لفيرونا أمراً معترفاً به. بكت السيدة بابِت وقالت إن كينيث صار ابنها الجديد. وكان بابِت قلقاً على تيد لأنه كف عن تذمّره من كليته الجامعية وصار مذعناً للأمر على نحو يحمل على الشك. تساءل عما كان الصبي يخطط له، لكنه خجل أن يسأل عن هذا الأمر. وأما بابِت نفسه، فقد انسلَّ بعد ظهر يوم عيد الميلاد لكي يقدم هديته إلى تانيس. كانت الهدية علبة سجائر فضية. وعندما عاد سألته السيدة بابِت ببراءة تكاد تكون أكثر من طبيعية: هل خرجت لكي تستنشق بعض الهواء النقي؟».

قال مغمغماً: «نعم، ذهبت بنزهة في السيارة».

وبعد رأس السنة، قالت زوجته: «أتتني اليوم أخبار من أختي. ليست على ما يرام! أظن، ربما، أن عليّ أن أذهب إليها وسأبقى عندها بضعة أسابيع».

ما كانت السيدة بابِت معتادة على ترك البيت خلال فصل الشتاء إلا في مناسبات شديدة الأهمية. كما أنها سافرت عدة أسابيع خلال الصيف الماضي. وما كان بابِت واحداً من الأزواج اللامبالين الذين يتعاملون مع غياب زوجاتهم تعاملاً عادياً. كان يحب أن تكون موجودة معه: إنها تهتم بملابسه، وتعرف كيف يجب أن تُطهى شرائح اللحم، كما أن قرقرتها ووقوتها من حوله تشعرانه بالأمان. لكنه لم يستطع الآن أن يقول شيئاً، ولا حتى أن يقول ـ من باب الواجب: «أوه! إنها ليست محتاجة إليك حقاً. هل تظنين أنها في حاجة إليك فعلاً؟». حاول أن يبدو آسفاً لذهابها. أحس أن زوجته تراقبه، تدرس ردة فعله، لكن رؤى متهللة فرحة عن تانيس ملأت كيانه.

قالت زوجته بحدة: «هل تظن أن من الأفضل أن أذهب؟».

«عليك أن تقرري هذا بنفسك يا عزيزتي. لا أستطيع أن أتخذ قراراً».

استدارت عنه متنهدة. وصار جبينه ندياً.

ظلت هادئة هدوءاً غريباً إلى أن ذهبت، بعد أربعة أيام. وكان بابِت رازحاً تحت ثقل عاطفي خلال هذه الفترة. انطلق القطار عند الظهر. ولما رآه مبتعداً من خلف حظيرة القاطرات استبدّ به توق إلى الإسراع إلى تانيس.

قال مصمماً: «لا! لن أفعل هذا. لن أذهب إليها قبل أسبوع!».

لكنه كان في شقتها عند الساعة الرابعة.

- 3 -

بعد زمن طويل من سيطرته، أو سيطرته الظاهرية، على حياته وفي حالة من التقدم المستمر والعمل المواظب والعقلانية، راح بابِت يسبح الآن، طيلة أسبوعين، في تيار من الرغبة والويسكي الرديء وتلك التعقيدات كلها التي تصاحب التعرّف على أناس جدد، أولئك الأصدقاء المقرَّبون الجدد، المندفعون الذين يطالبون بقدر من الاهتمام أكثر بكثير من الأصدقاء القدامى. وكل صباح، كان يدرك منزعجاً ما أقبل عليه من حماقات في الليلة الماضية. ومع صداع نابض في رأسه، وخَدَر ووخز في لسانه وشفتيه بسبب السجائر، كان يعد الكؤوس التي تناولها غير مصدِّق، ثم يئن ويقول: «علي أن أقلع عن هذا!». لقد كفّ الآن عن قول «سأقلع عن هذا!» لأنه ما كان قادراً على الخروج من ذلك التيار، ولو ليلة واحدة، مهما كان تصميمه كبيراً على ذلك في الصباح.

كان قد تعرف على أصدقاء تانيس. وقد جرى قبوله عضواً في جماعتهم التي يطلقون عليها اسم «العصابة»، بذلك التعجّل الصاخب الذي يميز أناس منتصف الليل الذين يشربون ويرقصون ويصخبون ويخافون أن يصمتوا، ولو قليلاً. التقاهم أول مرة بعد يوم حافل بالعمل... بعد يوم أمل أن يحظى بالهدوء مع تانيس في نهايته وأن يرتشف إعجابها ارتشافاً هانئاً.

كان زعيقهم وصوت الفونوغراف مسموعَين من الخارج. وعندما فتحت تانيس الباب، رأى أشخاصاً أشبه بالأشباح يرقصون في غمامة من دخان السجائر. كانت الطاولات والكراسي مُزاحة صوب الجدار.

استقبلته بثرثرتها: «أوه! أليس هذا مدهشاً؟ كانت فكرة كاري نورك لطيفة. لقد قررت أن علينا أن نحتفل. اتصلت بأفراد العصابة كلهم وقالت لهم أن يجتمعوا هنا... جورج، هذه هي كاري».

كانت كاري عانساً وقوراً، في الوقت نفسه، بأسوأ ما للكلمتين من معنى. لعلها في الأربعين! كان شعرها مزيجاً غير مقنع من اللونين الرمادي والأشقر. كان صدرها مسطّحاً، وردفاها ثقيلين. حيت بابِت مقهقهة: «أهلاً بك إلى وسطنا الصغير هذا! تقول تانيس إنك شخص جذّاب».

كان واضحاً أنهم يتوقّعون منه أن يرقص، وأن يكون مرِحاً صبيانياً مع كاري. وهذا ما فعله، بأحسن ما يستطيع. جرَّها وراءه في أرجاء الغرفة مصطدماً بالأزواج الآخرين، وبمشع التدفئة، وبقوائم الكراسي التي نصبت له شراكاً خبيثة. وخلال رقصه، كان يعاين بقية أفراد العصابة: امرأة شابة نحيلة بدت قادرة، ساخرة، معجبة بنفسها. وامرأة أخرى لم يستطع أن يتذكر شيئاً عنها بعد ذلك. وثلاثة شبان متأنقين كثيراً ولهم مظهر مخنَّث بعض

الشيء كأنهم من عمال المقاهي، أو كأنهم مولودون ليعملوا في تلك المهنة على أقل تقدير. وكان رجل في مثل سنه جالساً راضياً عن نفسه ممتعضاً من وجود بابِت.

وعندما فرغ من رقصته الإجبارية، أخذته تانيس جانباً ثم قالت راجية: «عزيزي! ألا تفعل شيئاً من أجلي؟ لقد نفد ما لديَّ من شراب؛ والعصابة تريد أن تحتفل. ألا تستطيع أن تصل سريعاً إلى محل هيلي هانسون لتجلب شيئاً من عنده؟».

قال محاولاً عدم إظهار انزعاجه: «بالتأكيد».

«اسمع! سأجعل ميني سونتاغ تذهب معك». كانت تانيس تشير إلى المرأة الشابة النحيلة الساخرة.

حيته الآنسة سونتاغ بعبارة صدمته، جعلته ينكمش على نفسه: «كيف حالك يا سيد بابِت؟ قالت لي تانيس إنك شخص بارز كثيراً. يشرِّفني أن تسمح لي بالذهاب معك الآن. لست معتادة، بالطبع، على مرافقة أشخاص مثلك، من عَليَّة القوم، فأنا لا أعرف كيف أتصرف في هذه الأوساط المتميزة!».

ظلت الآنسة سونتاغ تتكلم بهذه الطريقة طيلة المسافة إلى محل هيلي هانسون. ود بابِت أن يرد على سخريتها بعبارة مناسبة من قبيل «اذهبي إلى الشيطان!» ... لكنه لم يجد شجاعة كافية لقول هذه العبارة المنطقية. كان منزعجاً من وجود هذه «العصابة» كله. وقد سبق له أن سمع تانيس تتحدث عن «كاري الرائعة» و«ميني سونتاغ» ـ «ذكية جداً ـ سوف تعجبك كثيراً».

لكنهم ما كانوا أشخاصاً حقيقيين بالنسبة له قبل اليوم. كان يتصور تانيس عائشة في فراغ وردي، منتظرة قدومه، حرة من كل ما في فلورال هايتس من تعقيدات.

وعندما عادت، كان عليه أن يتحمّل اهتمام عمال المقاهي الشباب. كانوا ودودين على نحو مزعج لزج، بقدر ما كانت الآنسة سونتاغ عدائية جافة. راحوا يخاطبونه «صديقنا جورجي» ويصيحون «هيا الآن، أيها الشاب... حرّك نفسك قليلاً». كانوا صبياناً في سترات مزررة، صبياناً فحسب... شباناً في عمر تيد... تبدو عليهم رخاوة منشدي جوقة الكنيسة. لكن طاقتهم كانت وافرة من أجل الرقص، ومن أجل الاهتمام بالفونوغراف، ومن أجل تدخين السجائر ومساعدة تانيس. حاول أن يكون واحداً منهم. راح يصيح مثلهم «أحسنت صنعاً يا بيت!»... لكن صوته تكسّر.

كان من الواضح أن تانيس مستمتعة بصحبة هؤلاء الأعزاء الراقصين. وكانت تشمخ بأنفها عندما تسمع مغازلاتهم الفجّة، وتقبّلهم بشكل عادي بعد انتهاء كل رقصة. كرهها بابِت... في تلك اللحظة. رآها امرأة في أواسط العمر. راح يدرس التجاعيد في رقبتها الناعمة، واللحم المتراخي تحت ذقنها. صارت العضلات التي كانت مشدودة

أيام صباها متهدّلة مرتخية الآن. وبين الرقصات، كانت تجلس في أكبر كرسي ملوّحة بسيجارتها مستدعية معجبيها الأغرار حتى يأتوا ويتحدثوا معها. (بربر بابِت بحقّها: «تظن أنها ملكة نضرة»). صاحت مخاطبة الآنسة سونتاغ: «أليس هذا الاستوديو الصغير جميلاً؟». («استوديو، عجباً! هذه شقة حقيقية. أوه، يا ربي، ليتني كنت في البيت! ألا أستطيع الذهاب الآن؟»).

لكن عيناه زاغتا، وتشوّش نظره، عندما راح يرتشف ويسكي هيلي هانسون ذا الطعم القوي اللاذع، رغم برودته. بدأ يختلط بأفراد «العصابة». وبدأ يستمتع عندما رأى بيت وكاري نورك، الاثنين الأكثر ذكاء ـ تقريباً ـ بين الشباب النشطين، يحبانه. كما كان من المهم كثيراً أيضاً أن يتفوّق على ذلك الرجل الأكبر سناً الذي تبين أنه موظف في سكة الحديد اسمه فولتون بينيس.

كانت أحاديث «العصابة» صاخبة، كثيرة الألوان، زاخرة بإشارات إلى أشخاص لم يكن بابِت يعرف عنهم شيئاً. ومن الواضح أن أفراد «العصابة» هؤلاء كانوا مرتاحين مع أنفسهم تماماً. إنهم أفراد «العصابة» الأذكياء الجميلون المُسَلّون. إنهم أبناء مدن، وبوهيميون أيضاً، معتادون على ضروب الرفاهية كلها في زينيث: المراقص والمسارح والسينمات والفنادق. وكانوا يتحدّثون، ساخرين مترفّعين، عن الأشخاص «البطيئين» أو «البخيلين» أشياء من نوع:

«أوه، بيت، هل أخبرتك ما قاله مسؤول الحسابات الغبي عندما جئت متأخّراً يوم أمس؟ أوه، كان ذلك شيئاً لا يقدَّر بثمن!».

«أوه، لكن، ألم يكن ت. د. ستيود! اسمع، لقد جمد في مكانه، بكل بساطة! ماذا قالت له غلاديس؟».

«فكر في وقاحة بوب بيكرستاف عندما حاول أن يجعلنا نأتي إلى بيته! كم هو وقح. ألا تعتبر هذه وقاحة؟ أنا أسميها وقاحة!».

«هل لاحظت كيف كانت دوتي ترقص؟ عجيب، ألم تبالغ كثيراً؟».

كان صوت بابِت مسموعاً مجلجلاً عندما راح يوافق الآنسة ميني سونتاغ، التي كرهها قبل قليل، على أن الأشخاص الذين يتركون ليلة واحدة تمضي من غير أن يرقصوا على موسيقى الجاز ليسوا إلا أشخاصاً تافهين مقتّرين، أسماك بائسة! وقد قال أيضاً: «بالتأكيد!» عندما قالت السيدة كاري نورك ضاحكة: «ألا تحبون أن نجلس على الأرض؟ إنه أمر بوهيمي تماماً». بدأت «العصابة» تعجبه إلى حد كبير. وعندما جاء على ذكر أصدقائه السير جيرالد دواك، واللورد وايكومب، وويليام واشنطن إيثورن، وتشام فرينك، كان فخوراً باهتمام رفاقه الجدد المتسامح المترفّع العطوف. لقد دخل تماماً

في هالة تلك الروح المرِحة عندما لم يمانع كثيراً في رؤية تانيس متعلّقة بكتف أحدث الشباب سناً وأكثرهم ميوعة. أحب أيضاً أن يمسك يد كاري نورك البيضاء، لكنه تركها لأن تانيس رمقته بنظرة غاضبة.

وعندما عاد إلى بيته في الثانية صباحاً كان قد صار عضواً كامل العضوية في «العصابة». ثم ظل طيلة الأسبوع اللاحق كله محاصراً بلقاءاتهم التي راحت تزداد تواتراً، وبمتطلباتهم التي راحت تزداد إرهاقاً، وبحياة المتعة والحرية التي ينتهجونها. كان عليه أن يذهب إلى حفلاتهم. وكان مساهماً في الصخب الكبير الذي يحدث كلما اتصلت واحدة بواحدة أخرى لتقول لها إنها لم تقصد ما قالته عندما قالت ذلك... ثم، لماذا يذهب بيت هنا وهناك قائلاً للجميع إنها قالت ذلك؟

لم يرَ من قبل أسرة أكثر اهتماماً بأن يعرف كل واحد منها كل حركة من حركات الآخرين. كانوا على علم، كلهم، أو كانوا راغبين كثيراً في أن يعلموا، أين ذهب كل واحد منهم في كل دقيقة من دقائق الأسبوع. وجد بابِت نفسه يشرح لكاري أو لفولتون بينيس ما كان يفعله عندما تأخّر عنهم فلم يلتحق بهم حتى العاشرة ليلاً. ووجد نفسه يعتذر منهم لأنه ذهب فتناول العشاء مع بعض معارفه في العمل.

كان متوقَّعاً من كل عضو في «العصابة» أن يتصل هاتفياً بكل عضو آخر مرة في الأسبوع، على الأقل. وراح بابِت يتلقى أسئلة اتهامية من قبيل «لماذا لم تتصل بي؟»، لا من تانيس وحدها، ولا حتى من كاري، بل من الأصدقاء القدامى حديثي العهد، جيني وكابوتولينا وتوتس.

وإذا كان قد وجد تانيس مُتعبة زائدة العاطفية في لحظة من اللحظات، فقد زال عنه هذا الانطباع تماماً بعد أن شاهد رقص كاري نورك. كان لدى السيدة نورك بيت كبير وزوج صغير. جاء إلى بيتها أفراد «العصابة» كلهم، ولعلهم كانوا خمسة وثلاثين شخصاً عندما اجتمعوا معاً. كان بابِت الآن، تحت اسم «صاحبنا جورجي» رائد هذه «العصابة» لأنها كانت تغير نصف أفرادها كل شهر ولأنه كان قادراً على تذكّر فترة ما قبل التاريخ، أي قبل أسبوعين كاملين، عندما ذهبت السيدة أبسولوم التي تعمل في عرض المأكولات إلى انديانابوليس، وعندما غضب ماك من ميني. صار بابِت زعيماً محبوباً قادراً على استقبال بيتات ومينيات وغلاديسات جدد.

لم تكن تانيس مضطرة إلى القيام بدور المضيفة في بيت كاري. كانت تبدو جليلة واثقة من نفسها... شخصية نقية لطيفة في ثوبها الأسود الذي أحَبَّه دائماً. وفي المساحات الأكثر اتساعاً في ذلك البيت البشع، كان بابِت قادراً على الجلوس بهدوء معها. شعر بالأسف الآن لنفوره السابق منها؛ عبر عن إعجابه بها؛ ثم أوصلها إلى بيتها

سعيداً. اشترى في اليوم التالي ربطة عنق صفراء صاخبة حتى يجعل نفسه أكثر شباباً من أجلها. أدرك، بشيء من الحزن، أنه لا يستطيع أن يجعل نفسه جميلاً. أدرك أنه شخص ثقيل مائل إلى السمنة، لكنه كان قادراً على الرقص والتأنق والثرثرة حتى يصبح شاباً مثلها... أو حتى يصبح شاباً بقدر ما تبدو هي شابة.

- 4 -

مثلما يحدث مع كل مهتدٍ إلى دين جديد، أو حب جديد، أو إلى فن البستنة، فيشعر - كما لو أن هذا بفعل سحر - أن هذه الهوايات الجديدة تملأ عالمه كله رغم أنها ما كانت موجودة بالنسبة إليه قبل زمن قصير. وهكذا، اندفع بابِت منغمساً في ملذاته الجديدة وراح يكتشف فرصاً للملذات في كل مكان.

صار ينظر نظرة مختلفة إلى جاره الرياضي سام دوبلبراو. كان آل دوبلبراو أشخاصاً محترمين، أشخاصاً مجتهدين، أشخاصاً مرتاحين مادياً. وكانوا يتصورون السعادة في شكل ملهى أبدي لا يتوقف. وكانت تسيطر على حياتهم أعياد الضواحي: الكحول والنيكوتين والبنزين والقبلات. كانوا، مثل أصحابهم، يعملون طيلة الأسبوع. وكانوا يتطلعون، طيلة الأسبوع، إلى ليلة السبت التي يعتزمون فيها، حسب تعبيرهم، أن «نقيم حفلة». وكانت حفلاتهم تزداد ضجيجاً، ثم تزداد ضجيجاً، حتى فجر يوم الأحد. وكانت تقطعها عادة جولات فائقة السرعة بالسيارات لا تستهدف مكاناً بعينه.

وذات مساء، عندما كانت تانيس في المسرح، وجد بابِت نفسه منطلقاً في الكلام مع دوبلبراو، طالباً صداقة أشخاص ظل سنوات طويلة يصفهم متعالياً بقوله للسيدة بابِت إنهم «مجموعة فاسدة من الأشخاص الفارغين الذين لا يمكن أن أخرج معهم حتى لو لم يبق في العالم غيرهم». عاد إلى بيته متكاسلاً هذا المساء وراح يتفقد المنطقة المحيطة بالبيت ويزيل بقع الجليد التي صارت مثل آثار أقدام أحفورية صنعتها خطوات المارة خلال هطول الثلج في الآونة الماضية. جاءه هاورد ليتلفيلد قائلاً:

«ألا تزال أرمل يا جورج؟».

«نعم! عاد الطقس بارداً هذه الليلة».

«وهل تصلك أخبار من زوجتك؟».

«إنها بخير، لكن شقيقتها لا تزال مريضة».

«اسمع! من الأفضل أن تأتي وتتعشى معنا الليلة يا جورج».

«أوه - أوه، أشكرك! عليّ أن أخرج ليلاً».

أحس فجأة أنه ما عاد قادراً على تحمل حكايات ليتلفيلد عن الإحصاءات المثيرة للاهتمام عن مشكلات لا أهمية لها إطلاقاً. تنهد ثم تابع إزالة الجليد.

ظهر سام دوبلبراو.

«مساء الخير يا بابِت! أراك منكبّاً على العمل!».

«نعم، شيء من النشاط البدني».

«أليس الجو بارداً هذه الليلة؟».

«نعم، بارد بعض الشيء».

«ألا تزال أرمل؟».

«نعم، نعم».

«بما أن زوجتك ليست هنا... أعرف أنك لا تهتم بالحفلات كثيراً... لكن يسعدنا، زوجتي وأنا، أن تأتي إلينا ذات ليلة. أظن أنك تستطيع أن تتحمل بعض الكوكتيل الجيّد، ولو مرة واحدة!»

«أتحمل الكوكتيل! يا صديقي الشاب، أراهنك أن عمك جورج يستطيع مزج أفضل كوكتيل في الولايات المتحدة كلها».

«هوررا! هذا هو الكلام! انظر: سوف يأتينا بعض الناس هذه الليلة، لويتا سوانسون وبعض الأشخاص الأحياء أيضاً. وسوف أفتح زجاجة جن من فترة ما قبل الحرب. وقد نرقص قليلاً أيضاً. فلماذا لا تأتي وتمرح معنا قليلاً، شيء من التغيير؟».

«طيب ـ متى يأتون؟».

كان في بيت سام دوبلبراو عند التاسعة. إنها ثالث مرة يدخل فيها هذا البيت. وعند الساعة العاشرة صار ينادي السيد دوبلبراو «سام، يا صاحبي القديم».

انطلقوا جميعاً، عند الحادية عشرة ليلاً، إلى «أولد فارم إن». جلس بابِت في المقعد الخلفي لسيارة دوبلبراو ومعه لويتا سوانسون. صحيح أنه حاول، منذ زمن أن يتودد إليها وأن يستميلها، محاولة جبانة هيّابة؛ لكنه لم يحاول هذه المرة: لقد فعلها! وضعت لويتا رأسها على كتفه وحكت له عن كثرة تذمّر زوجها إيدي، تعاملت معه على أنه شخص متحرر يعرف ماذا يريد.

بفضل «عصابة» تانيس، وبفضل آل دوبلبراو وغيرهم من الرفاق الذين لا مكان لذكرهم، مر على بابِت أسبوعان لم يعد خلالهما ليلة واحدة إلى بيته إلا مترنّحاً قبيل الفجر. ورغم تراجع مهاراته الأخرى إلا أن موهبة قيادة السيارة ظلت مستيقظة لديه، وظل قادراً على قيادة السيارة حتى عندما يكاد يعجز عن المشي... ظل قادراً على تخفيف سرعته عند المنعطفات وعلى إفساح المجال للسيارات الأخرى. كان يدخل

بيته متعثراً مهتزاً. وإذا كانت فيرونا جالسة مع كينيث إسكوت في البيت، فإنه يمر بهما ملقياً تحية سريعة، متنبهاً بذعر إلى نظراتهما المستطلعة الفتية، ثم يصعد ليختبئ في الأعلى. اكتشف، عندما صار في بيته الدافئ، أنه كان أكثر سكراً مما كان يظن. أحس كأن البيت يدور من حوله، ولم يجرؤ على الاستلقاء. حاول غسل الكحول بحَمّام حار. صحا رأسه خلال الحمام، لكن تقديره للمسافات ظل خاطئاً عندما أراد الخروج. انحنى أكثر مما يجب حتى يأخذ المناشف. سقط واصطدم بحامل الصابونة بصوت خشي أن يفضح أمره أمام الأولاد. جلس مرتدياً ثوبه المنزلي، شاعراً بالبرد، وحاول أن يقرأ جريدة المساء. كان قادراً على متابعة الكلمات؛ وبدا له أنه يفهم ما هو مكتوب. لكنه كان عاجزاً عن تذكر ما قرأه بعد دقيقة واحدة. كان دماغه يعوم في دوائر متحركة عندما رقد في الفراش. انتصب جالساً محاولاً السيطرة على نفسه. تمكن أخيراً من الاستلقاء ساكناً. لم يعد يشعر إلا بشيء من الدوخة والغثيان... وبخجل شديد من نفسه، وبخجل من اضطراره إلى إخفاء «حالته» عن أطفاله، وبخجل من رقصه وصياحه مع أشخاص لا يحترمهم! لقد خجل من أنه كان يقول أشياء حمقاء، ويغني أغنيات غبية، ويحاول أن يقبِّل فتيات سخيفات! تذكر، على نحو حقيقي تماماً، أن معاشرته الصاخبة أولئك الناس جعلته يقبل مصاحبة شباب لا يقبل أن يدخلوا مكتبه. أدرك أن إسرافه العنيف في الرقص كان يعرِّضه لأن يتلقى التوبيخ حتى من أدنى أنواع النساء. عندما فكر في هذا كله قال منزعجاً: «أكره نفسي! يا ربي... كم أكره نفسي!»... ثم قال حانقاً: «انتهى هذا كله! كفى! لقد اكتفيت، بل أكثر من ذلك!».

كان أكثر ثقة من قراره هذا في الصباح التالي عندما حاول أن يسلك سلوكاً أبوياً جدياً مع ابنتيه على الفطور. ثم صار أقل ثقة عند الظهر. لم ينكر أنه كان غبياً أحمق، ظل ذلك واضحاً عنده مثلما كان في الليل. لكن شيئاً كان يصارعه ويقول له إن هذا أفضل من العودة إلى حياة قاحلة خالية من أي حماسة أو نشاط. رغب في شيء من الشراب عند الساعة الرابعة. إنه يحتفظ بزجاجة ويسكي في مكتبه الآن! وبعد معركة استمرت دقيقتين، صب لنفسه كأساً. وبعد ثلاث كؤوس، بدأ يرى «العصابة» مجموعة لطيفة مسلّية من الأصدقاء. وبعد الكأس السادسة صار معهم... ثم تكررت الحكاية كلها من جديد.

صار صداعه أخف قليلاً كل صباح. وصار يستعين على الصداع بأن يشرب شيئاً. لكن حاجته إلى اتخاذ الاحتياطات تراجعت! صار من الممكن الآن أن يكون ثملاً عند الفجر من غير أن ينزعج ضميره كثيراً ـ ومن غير أن تنزعج معدته كثيراً ـ عندما يستيقظ في الثامنة. ما عاد يخشى شيئاً، وما عاد راغباً في تجنب بذل الجهد اللازم لمواكبة

«العصابة» في مرحها المنطلق المرهق. هذا أهون من إحساسه بأنه أقل منهم عندما يفشل في مجاراتهم. صار طموحه الآن أن يكون أكثرهم «حيوية»، مثلما كان طموحه من قبل متمثلاً في أن يجني مالاً أكثر، أو في أن يكون بارعاً في لعبة الغولف أو قيادة السيارة أو الخطابة أو التسلّق إلى وسط آل ماكيلفي. لكنه كان يفشل أحياناً.

اكتشف أن بيت وبقية الشباب يرون «العصابة» مهذّبة إلى حد التزمت. واكتشف أن كاري التي تقبّل الآخرين مسرورة خلف الأبواب تجد أن هذه «العصابة» متمسكة بالعلاقات الثنائية إلى حد محرج. ومثلما انسلَّ بابِت خارجاً من فلورال هايتس حتى وصل إلى «العصابة»، كان هؤلاء الشباب النشطون ينسلون من «العصابة» ليذهبوا إلى جماعة «الأوقات» بما فيها من نساء شابات متقافزات يجدونهن بين عاملات المتاجر وغرف المعاطف في الفنادق. حاول بابِت مرافقتهم ذات مرة. كانت لديهم سيارة، وزجاجة ويسكي. وكانت معه فتاة وضيعة زاعقة تعمل محاسبة في محل بارتشر وشتاين. جلس إلى جانبها قلقاً. وكان واضحاً أن المنتظَر منه أن «يمرح معها بكل ما في الكلمة من معنى». لكنه لم يعرف كيف يتصرف عندما غنت «هاي، ليغو، أنت من حطم قملاتي». كانوا جالسين في غرفة خلفية في أحد الصالونات. كان بابِت يعاني الصداع؛ وكان مرتبكاً من عاميّتهم الجديدة عليه. نظر إليهم مشفقاً وأراد أن يذهب إلى بيته... تناول كأساً... ثم كؤوساً كثيرة.

بعد ليلتين من ذلك أخذه فولتون بينيس، أكبر الرجال سناً في «العصابة» جانباً وقال له: «اسمع! ليس هذا من شأني، ويعلم الله أنني أشرب كمية غير قليلة، أنا أيضاً، لكن أظن أن عليك أن تنتبه لنفسك! أنت واحد من أولئك الأشخاص المتحمسين الذين يبالغون دائماً. ألا تدرك أنك تبتلع الشراب بأقصى سرعة وأنك تأكل سيجارة بعد سيجارة من غير توقف؟ من الأفضل أن تخفّف هذا قليلاً، بعض الوقت».

اعترف بابت لنفسه (وهو يكاد يبكي) بأن صديقه الطيب فولتون أمير حقيقي! نعم، يستطيع أن يخفِّف ذلك بعض الشيء... أشعل سيجارة بعد ذلك، وشرب كأساً، وخاض مشاجرة مفزعة مع تانيس عندما رآته في وضع عاطفي مع كاري نورك.

كره نفسه في الصباح التالي لأنه انحدر إلى حالة تسمح لأشخاص لا قيمة لهم، مثل فولتون بينيس، بتوبيخه. أدرك أن تانيس لم تعد نجمته النقية الوحيدة، لأنه صار يمارس الحب مع كل امرأة متاحة. وراح يتساءل عما إذا كانت تعني له شيئاً أكثر من كونها «امرأة». لكن، إذا كان بينيس نفسه قد تحدث معه بذلك الكلام، أفلا يتحدث عنه الآخرون أيضاً؟ وفي وقت الغداء، جلس متشككاً يراقب الرجال في النادي الرياضي. بدوا له غير مرتاحين تماماً. إنهم يتحدّثون عنه إذاً! أغضبه هذا. وصار مزاجه قتالياً، هجومياً. لم يكتفِ بالدفاع عن سينيكا دوين، بل سخر من (واي إم سي آيه) أيضاً!

صارت إجابات فيرجيل غانتش أكثر اقتضاباً.

بعد ذلك، لم يعد بابِت غاضباً! صار خائفاً! وفي اليوم التالي، لم يذهب لتناول الغداء في نادي بوسترز بل اختبأ في مطعم رخيص وراح يقضم شطيرة من اللحم والبيض ويرتشف القهوة من فنجان وضعه على ذراع مقعده. كان قلقاً.

بعد أربعة أيام، عندما أقامت «العصابة» واحدة من أفضل حفلاتها، أخذهم بابِت بالسيارة إلى حلبة التزلج المقامة عند نهر كالوسا. تشكّلت طبقة جديدة من الجليد الصقيل بعد ذوبان الثلج. وفي هذه الشوارع الفسيحة التي لا تنتهي، كانت الريح تلعب بين صفوف البيوت الخشب، وكانت منطقة بيلفيو كلها تبدو مثل بلدة حدودية نائية. خشي بابِت أن تنزلق السيارة بهم رغم السلاسل المشدودة على عجلاتها الأربع. وعندما أشرف على منحدر طويل، راح يسير بالسيارة بطيئاً مستخدماً مكابحها كلها. جاءت ملتفة عند المنعطف سيارة أقل حذراً. انزلقت تلك السيارة فكاد مصدمها الخلفي يصيبهم. تنفس أفراد «العصابة» الصعداء بعد نجاتهم، وصاحوا جميعاً ـ تانيس وميني سونتاغ وبيت وفولتون بينيس ـ «أوه، ما أحلاك!»، ثم لوّحوا بأيديهم لسائق السيارة الأخرى. عندها، رأى بابِت البروفيسور بامفري ماشياً بصعوبة متسلقاً ذلك المنحدر... رآه ناظراً إلى هؤلاء المرحين المبتهجين مثلما تنظر بومة. كان بابِت واثقاً من أن بامفري عرفه، ومن أنه رأى تانيس تقبّله قائلة: «أنت سائق ممتاز».

حاول سبر أغوار بامفري على الغداء في اليوم التالي. قال له: «كنت الليلة الماضية برفقة أخي وبعض أصدقائه. يا إلهي، كم كانت القيادة صعبة! الأرض زلقة كالزجاج. يخيل لي أنني رأيتك صاعداً ذلك المنحدر في جادة بيلفيو».

قال بامفري: «لا، لم أكن أنا... لم أرك»... لكنه قالها متعجلاً، كأنه يشعر بشيء من الذنب.

بعد يومين من ذلك، ربما بعد يومين، اصطحب بابِت تانيس إلى الغداء في مطعم فندق ثورنليف. بعد أن بدت له تانيس راضية بأن تنتظره في شقتها، بدأت الآن تلمح مبتسمة ابتسامات كئيبة إلى أنه لا يقيم لها وزناً كبيراً لأنه لم يعرِّفها أبداً إلى أحد من أصدقائه. قالت إنه لا يريد أن يشاهَد معها، إلا في السينما. فكر في اصطحابها إلى «ملحق السيدات» في النادي الرياضي، لكن هذا كان شديد الخطورة. سيضطر إلى تقديمها إلى الناس هناك، وقد يسيء الناس الفهم! ... وجد حلاً وسطاً، فاصطحبها إلى ثورنليف.

كانت ملابسها ذكية، سوداء كلها: قبعة صغيرة سوداء مثلثة الزوايا، ومعطف أسود قصير، فضفاض متأرجح. وفستان مخملي أسود بسيط له ياقة مرتفعة رغم أن فساتين السهرة هي ما كان يراه المرء دارجاً تلك الأيام. لعل ملابسها كانت أذكى مما يجب. راح

كل من في ذلك المطعم الذهبي البلّوطي في فندق ثورنليف يحدِّق فيها عندما كان بابِت سائراً خلفها إلى الطاولة. كان رجاؤه أن يجلسهما كبير الندل إلى طاولة مختفية وراء أحد الأعمدة. لكنه أخذهما إلى طاولة في وسط القاعة. لم يبد على تانيس أي اكتراث بمعجَبيها. كانت تخاطب بابِت مبتسمة بعبارات من قبيل: «أوه! أليس هذا جميلاً؟ ما أحلى هذه الفرقة الموسيقية!». وجد بابِت صعوبة في الإجابة على عباراتها هذه لأنه رأى فيرجيل غانتش جالساً على مسافة طاولتين منهما. ظل غانتش يراقبهما خلال الوجبة كلها؛ وكان بابِت يراقب نفسه لأنه عرف أنه كان مراقباً. حاول، بشيء من الحزن، أن يتجنّب إفساد هذه المتعة على تانيس. قالت فرحة: «إنني في غاية السرور! لقد أحببت فندق ثورنليف، ألا تحبه أنت؟ فيه حيوية كثيرة، وهو... وهو أليف تماماً».

تحدث بابِت عن فندق ثورنليف، وعن الخدمة في هذا المطعم، وعن الطعام، وعن معارفه الذين في المطعم؛ لكنه لم يتحدث عن فيرجيل غانتش. لم يجد شيئاً آخر يحدثها عنه. كان ضميره يجبره على الابتسام لإيماءاتها الغزلية. ووافق معها على أن ميني سونتاغ امرأة «يصعب قضاء الوقت معها»، وعلى أن بيت الشاب «طفل كسول سخيف لا يصلح لشيء أبداً». لكنه، هو نفسه، ما كان عنده شيء يقوله لها. فكر في مصارحتها بمخاوفه في ما يتعلق بغانتش، لكن... «أوه، يا إلهي، من المرهق كثيراً أن أحدثها عن الأمر كله وأن أشرح لها كل شيء عن فيرجيل غانتش».

كان مرتاحاً عندما أوصل تانيس إلى عربة الترولي. وشعر ببهجة عندما رأى الأشياء البسيطة المألوفة في مكتبه.

زاره فيرجيل غانتش عند الساعة الرابعة.

اضطرب بابِت، لكن غانتش بدأ كلامه بداية ودّية:

«كيف حالك يا فتى؟ اسمع... إن لدينا خطة، ونحب أن تكون معنا».

«جيد يا فيرج! هات ما عندك».

«أنت تعرف، كان لدينا خلال الحرب عنصر غير مرغوب فيه، الحمر والمندوبون الجوّالون، وتلك الأشياء المزعجة المعتادة كلها. وقد استمر هذا فترة طويلة بعد الحرب. لكن الناس نسوا الخطر؛ وهذا ما يمنح أولئك المنحرفين فرصة للعمل سراً من جديد... مَنْ ينشطون في الصالونات الاشتراكية خاصة. وقد صار على الناس الآن أن يفكروا تفكيراً سليماً في بذل بعض الجهد الواعي للاستمرار في صدّ هؤلاء الأوغاد. قام أحد الأشخاص، هناك في الشرق، بتنظيم جمعية أطلق عليها اسم «رابطة المواطنين الجيدين» لتلك الغاية بالضبط. إن غرفة التجارة و«الكتيبة الأمريكية»، وغيرها، يقومون بعمل طيب من أجل إبقاء الأشخاص المحترمين ممسكين بالدَفّة، لكنهم يهتمون بقضايا أخرى كثيرة

لا تسمح لهم بالتعامل مع هذه المشكلة تعاملاً ملائماً. لكن رابطة المواطنين الجيدين ملتزمة بهذه المهمة. إن على هذه الرابطة، بالطبع، أن تكون لها أهداف ظاهرية أخرى -أظن أنها، في زينيث، يجب أن تدعم مشروع توسعة الحديقة، ولجنة تخطيط المدينة ـ كما يتعين عليها أيضاً أن تمتلك جانباً اجتماعياً لأنها تضم أحسن الناس. وهذا يعني أنها ستقيم حفلات راقصة، وغير ذلك. وهذا صحيح خاصة لأن من أفضل الطرق لوضع حد لهؤلاء المختلين هو تطبيق مقاطعة اجتماعية ذلك أن بعضهم لا يمكن استهدافه بطرق أخرى. وإذا لم ينجح ذلك، فإن الجمعية قادرة في النهاية على إرسال وفد صغير لإبلاغ الأشخاص الذين يرفضون الانصياع بأن عليهم أن يلتزموا المعايير اللائقة وأن يكفّوا عن إطلاق الكلام هنا وهناك بهذه الحرية كلها. ألا يبدو لك أن هذه المنظمة تستطيع أن تقوم بعمل عظيم؟ إن لدينا، منذ الآن، بعض أقوى الأشخاص في المدينة. ونحن نريدك معنا طبعاً. ما رأيك في هذا؟».

لم يكن بابِت مرتاحاً. أحسّ بعودة الثقل الضاغط لكل تلك المعايير الذي يحاول الفرار منها. قال متلعثماً:

«أظن أن جهودكم سوف تتركز على أشخاص من أمثال سينيكا دوين لتحاولوا جعلهم...».

«يمكنك أن تراهن بحياتك الحلوة على أننا سنفعل ذلك! انظر يا صاحبي، انظر يا جورجي: لم أصدّق لحظة واحدة أنك كنت تعني ما تقول حقاً عندما رحت تدافع عن دوين وعن المضربين، وتلك الأشياء، في النادي. أعرف أنك كنت تمازح أولئك الحمقى الأغبياء من أمثال سيدني فينكلشتاين... آمل، بالتأكيد، على الأقل، أن يكون ذلك مزاحاً!».

«أوه، طبعاً ـ بالتأكيد ـ يمكنك أن تقول ـ». كان بابِت مدركاً مدى الضعف البادي في كلماته، وكان يحس وقعِ عيني غانتش الناضجتين اللّتين لا ترحمان. «يا إلهي، أنت تعرف موقفي! لست واحداً من محرضي العمال! إنني رجل أعمال، أولاً، وأخيراً، قبل كل شيء وعلى طول الخط! لكن... صدقاً، لا أظن أن دوين يقصد أي شيء سيِّئ. وعليك أن تتذكر أنه من أصدقائي المقرَّبين».

«جورج!... عندما يتعلق الأمر بالصراع بين الأمور اللائقة وأمن بيوتنا من ناحية، والخراب الأحمر وتلك الكلاب الكسولة التي تتآمر لنشر الفوضى والانفلات من ناحية أخرى، فإن عليك أن تتخلّى حتى عن أصدقائك القدامى. يقولون: «من لا يقف معي فهو ضدي»».

«نعم، نعم، أظن أن...».

«ماذا تقول إذاً؟ هل تنضم إلينا، إلى رابطة المواطنين الجيدين؟».

«علي أن أفكر في الأمر يا فيرجيل».

«لا بأس، لا بأس في ما تقول». أحس بابِت انفراجاً لأن غانتش ترك الموضوع بهذه السهولة. لكن غانتش تابع يقول: «لا أعرف ما أصابك يا جورج! لا أحد منّا يفهم هذا. لقد تحدثنا عنك كثيراً. ظننا، بعض الوقت، أنك متأثر كثيراً بما أصاب المسكين ريزلينغ. صفحنا عن كل الأشياء الحمقاء التي قلتها. لكن الأمر بات قديماً الآن يا جورج. ولا نستطيع أن نفهم ما أصابك. إنني أدافع عنك دائماً، من ناحيتي الشخصية، لكن يجب أن أقول لك إن الأمر صار أكثر مما أحتمل. إن الشباب غاضبون منك جميعاً، في النادي الرياضي وفي نادي بوسترز... غاضبون من مواصلتك الدعاية لدوين وأصحابه المجانين، ولأنك تقول إنك ليبرالي ـ مما يعني أنك شخص خائر العزم ـ بل إنك تقول أيضاً إن ذلك الشخص الواعظ، إنغرام، ليس أستاذاً في فن الحب الحر. ثم... سلوكك الشخصي أيضاً! يقول جوي بامفري إنه شاهدك تلك الليلة مع جماعة من التافهين؛ وإنكم كنتم سكارى جميعاً. وها أنت اليوم تأتي إلى مطعم ثورنليف مع... طيب، قد تكون امرأة لا بأس بها أو سيدة ممتازة، لكنها بدت، بالتأكيد، رفيقة سيئة مشكوكاً فيها إذا اصطحبها إلى الغداء رجل سافرت زوجته خارج المدينة. لم يبدُ الأمر جيداً! ماذا أصابك، بحق الشيطان، يا جورجي؟».

«يدهشني أن أجد أشخاصاً كثيرين يعرفون عن شؤوني الشخصية أكثر مما أعرفه أنا نفسي».

«اسمع الآن! لا تغضب مني لأنني أكلمك مباشرة، باعتبارك صديقاً، وأقول لك ما برأسي بدلاً من أن أذهب وأثرثر من وراء ظهرك مثلما يفعل كثير منهم. أقول لك يا جورج إن لديك مركزاً في المجتمع، وإن المجتمع يتوقّع منك أن تتصرف بما يناسب مركزك. و... من الأفضل أن تفكر جيداً في الانضمام إلى رابطة المواطنين الجيدين. نتحدث في هذا لاحقاً».

انصرف غانتش.

تعشى بابِت وحيداً تلك الليلة. رأى قبيلة المواطنين الجيدين تسترق النظر إليه من نوافذ المطعم، تتجسّس عليه. جلس الخوف إلى جانبه. قال لنفسه إنه لن يذهب الليلة إلى شقة تانيس. ولم يذهب إلى شقة تانيس... حتى ساعة متأخرة.

الفصل الثلاثون

- 1 -

في الصيف الماضي، كانت رسائل السيدة بابِت ناطقة بالرغبة في العودة إلى زينيث. أما الآن، فلم تقل رسائلها شيئاً عن العودة إلا إشارات خافتة حزينة بعض الشيء من قبيل «أظن أن كل شيء يسير على ما يرام من دوني». عبارات تأتي في سياق سردها الجاف لأحوال الطقس والأمراض، وذلك على نحو يوحي بأن بابِت لم يكن، في الحقيقة، يستعجل عودتها كثيراً.

كان يشرح لنفسه ما يقلقه بالقول: «لو كانت هنا، ثم ذهبت إلى اللهو مثلما أفعل منذ فترة، فسوف تصيبها نوبة قلبية. عليّ أن أضبط نفسي. لا بد لي من أن أتعلم كيف ألعب من غير أن أجعل نفسي أضحوكة. أستطيع أن أفعل هذا أيضاً إذا تركني فيرجيل غانتش ومن مثله، فتظل ميرا غير عارفة بشيء. لكن... تلك الطفلة المسكينة! يبدو أنها تشعر بالوحدة. يا إلهي، لا أريد أن أجرح مشاعرها».

اندفع متهوراً فأجابها أنهم اشتاقوا إليها؛ فجاءت رسالتها التالية تحمل خبراً سعيداً لهم. إنها عائدة إلى البيت!

أقنع نفسه بأنه مشتاق إلى رؤيتها. اشترى وروداً للمنزل. وطلب وجبة من أفراخ الحمام للعشاء. ثم أخذ سيارته فغسلها ولمّعها. ثم أفاض في الحديث، طيلة الطريق من محطة القطار إلى البيت، عن قصص نجاح تيد في كرة السلة في الجامعة. لكنه بات خالي الوفاض قبل وصولهم إلى فلورال هايتس، وما عاد عنده شيء يقوله. أحس بوطأة صمتها البارد وراح يسأل نفسه عما إذا كان يستطيع أن ينسلّ من البيت هذا المساء ليرى «العصابة» مع بقائه زوجاً طيباً. وعندما آوى سيارته وصعد إلى الطابق الثاني متثاقلاً فدخل دفء حضورها الفائح براحة البودرة، خاطبها بصوت مرتفع: «هل تريدين مساعدة في إفراغ الحقيبة؟».

«لا! أستطيع إفراغها بنفسي».

استدارت بحركة بطيئة حاملة علبة صغيرة في يدها. قالت ببطء أيضاً: «أحضرت لك هدية... مجرد علبة سيجار جديدة. لا أدري إن كان يهمك هذا...».

كانت الآن تلك الفتاة الوحيدة، ميرا ثومبسون الجذابة السمراء التي تزوّجها. كاد يبكي إشفاقاً عليها عندما قبّلها غير قادر على ضبط عواطفه: «أوه، حبيبتي، حبيبتي... هل تسألين إن كنت مهتماً بهذه الهدية؟ تهمني هديتك طبعاً! يسرني كثيراً أنك جلبت لي هذه العلبة. إنني في حاجة شديدة حقاً إلى علبة سيجار جديدة».

تساءل في نفسه عن كيفية التخلص من العلبة التي اشتراها منذ أسبوع.

«وهل أنت سعيد حقاً بعودتي؟».

«ماذا؟ ماذا أيتها البنت المسكينة؟ ماذا يقلقك؟».

«أظن أنك لم تكن مشتاقاً إليَّ كثيراً».

بعد انتهاء الوقت الذي أنفقه في مهمة الكذب عليها، عاد القرب بينهما من جديد. وفي العاشرة من مساء ذلك اليوم، بدا غير قابل للتصديق أنها كانت بعيدة عن البيت. لكن، كان هنالك فارق واحد. مشكلة المحافظة على مظهر الزوج المحترم، زوج من ضاحية فلورال هايتس مع الاستمرار في رؤية تانيس و«العصابة». كان قد وعد تانيس بأن يتصل بها ذلك المساء. لكن ذلك بدا الآن مستحيلاً إلى حد مأساوي. راح يمر بجانب الهاتف؛ وراحت يده تمتد بحركة لا إرادية... تريد أن ترفع السماعة. لكنه لم يجرؤ على هذه المغامرة. ولم يستطع أيضاً أن يجد سبباً يسمح له بالانسلال إلى شارع سميث، إلى علبة الهاتف في تلك الصيدلية. ظلت هذه المسؤولية تثقل كاهله بعد أن قرر رميها عندما جاءته فكرة ذكية: «لماذا، بحق السماء، يتعين علي أن أقلق أو أنزعج لأنني لا أستطيع الاتصال بتانيس؟ إنها قادرة على الاستمرار من غيري. لست مديناً لها بشيء. إنها فتاة ممتازة؛ لكني أعطيتها قدر ما أعطتني... أوه، اللعنة على جنس النساء... كيف يستطعن إدخال المرء في هذه التعقيدات كلها؟»

-2-

ظل مهتماً بزوجته، حانياً عليها، أسبوعاً كاملاً. أخذها إلى المسرح؛ وأخذها إلى العشاء في مطعم ليتلفيلدز؛ ثم بدأ التهرب والزوغان، أمسيتين على الأقل في كل أسبوع كان يمضيهما مع «العصابة». ظل يتظاهر بأنه ذاهب إلى نادي الوعول أو إلى اجتماعات اللجان. لكن اهتمامه بتقديم أعذار مقنعة تناقص شيئاً بعد شيء؛ وتناقص شيئاً بعد شيء اهتمامها بالتظاهر بأنها تصدّق أعذاره. كان واثقاً من كونها مدركة أن له صلة بمن تطلق

عليهم فلورال هايتس اسم «الناس المنطلقين»؛ لكن أحداً منهما لم يعترف بذلك علناً. في علم جغرافيا العلاقات الزوجية، كانت المسافة بين الإدراك الصامت الأول لانفصالهما، وبين الإقرار به، تعادل كبر المسافة بين إيمان المرء الأول الساذج وبداية شكوكه.

ومنذ بدء ابتعاده، صار يراها أيضاً كائناً بشرياً: صار يحب بعض الأشياء فيها ويكره بعض الأشياء بدلاً من قبولها كلها كما هي كأنها قطعة من أثاث المنزل قادرة على الحركة. أشفق لرؤية أن حياة الزوج والزوجة صارت كياناً مستقلاً بذاته بعد خمسة وعشرين عاماً من زواجهما. تذكر أيامهما الحلوة في تلك العطلة الصيفية في مروج فرجينيا عند أقدام الجبال الزرق، ورحلتهما بالسيارة عبر ولاية أوهايو، واستكشافهما كليفلاند وسينسيناتي وكولومبوس. تذكر مولد فيرونا، وبناءهما هذا المنزل الجديد اللذين خططاه بحيث يوفّر لهما الراحة في شيخوختهما السعيدة ـ قالا يومها، والعاطفة تخنقهما، إنه قد يكون آخر بيت يسكنه أي منهما. لكن هذا التذكر العاطفي لتلك اللحظات لم يثنِه عن القول وقت العشاء: «نعم، سأخرج بضع ساعات. لا تنتظريني».

لم يعد يجرؤ الآن على العودة إلى البيت ثملاً. ورغم استمتاعه بعودته إلى الأخلاق القويمة، وكلامه الجاد مع بيت وفولتون بينيس في ما يتعلق بإفراطهما في الشراب، فقد كان يجفل من انتقادات ميرا التي لا تعبّر عنها، ويفكر متجهّماً في أن «المرء لا يستطيع أن يتدبر أمره إذا كانت فوق رأسه نساء كثيرات».

ما عاد يتساءل إن كانت تانيس كبيرة السن مفرطة العاطفة بعض الشيء. فبالمقارنة مع ميرا الراضية عن نفسها، صار يرى تانيس امرأة نشطة سريعة الحركة كأنها روح نارية قافزة من موقد مضطرم. كانت الشفقة تدعوه إلى الحنوّ على زوجته، لكنه ظل يتوق إلى أن يكون مع تانيس.

عند ذلك، خرجت السيدة بابِت من بؤسها الساكن ممزِّقة عباءة اللياقة التي كانت تغلفها فاكتشف الذكر المصعوق إنَ لديها شيئاً من التمرد أيضاً.

ـ 3 ـ

كانا جالسين قرب الموقد الخامد وقت المساء.

قالت: «جورجي! لم تعطني قائمة المصروفات المنزلية خلال غيابي».

أجابها بلطف عذب: «لا! لم أسجّلها بعد. لا أدري، علينا أن نحاول تقليل إنفاقنا هذا العام».

«هكذا إذن! لا أعرف أين تذهب هذه النقود كلها. أحاول أن أدرك ذلك، لكن يبدو لي أنها تتبخّر».

«أظن أن عليَّ ألا أنفق هذا المال كله على السيجار. لا أعرف، لكن ربما أقلل تدخيني، بل ربما أكف عن التدخين تماماً. فكرت منذ أيام في طريقة جيدة للإقلاع عن التدخين: علي أن أبدأ تدخين تلك السجائر النباتية البديلة. وسوف يصيبني منها قرف يجعلني أترك التدخين كله».

«أوه! أتمنى أن تفعل هذا. لا لأني قلقة من تكلفة التدخين لكن هذا التدخين كله، صدقاً يا جورج، سيئ جداً لصحتك. ألا تظن أنك قادر على تقليل الكمية. ثم، يا جورج... ألاحظ الآن... عندما تأتي إلى البيت عائداً من النادي، وتلك الأشياء، أن رائحة الويسكي تفوح منك أحياناً. تعرف يا عزيزي أنني لست متهمة كثيراً بالجانب الأخلاقي من الأمر، لكن معدتك ضعيفة؛ وأنت لا تستطيع احتمال هذا الشرب كله».

«ماذا، معدتي ضعيفة! أظن أنني قادر على تحمل الشراب مثلما يتحمله أي رجل آخر».

«طيب، أظن أن عليك أن تنتبه. ألا ترى يا عزيزي أنني لا أريدك أن تمرض».

«أمرض ماذا؟ أنا لست طفلاً صغيراً! ولا أظن أنني سأمرض لمجرد أنني أشرب قليلاً، ربما، مرة في الأسبوع! هذه هي مشكلة النساء، يبالغن في كل شيء! دائماً...».

«جورج! لا أظن أن من المناسب أن تجيبني بهذه الطريقة عندما أتحدث من أجلك أنت».

«أعرف لكن، ما هذه المصيبة؟ ... هذه هي المشكلة مع النساء! يوجِّهن الانتقادات دائماً، والتعليقات، ويخترعن الأشياء، ثم يقلن لك: هذا من أجلك أنت!»

«ماذا تقول يا جورج؟ هذه ليست طريقة لطيفة في الكلام. ليس لطيفاً منك أن تجيبني هكذا».

«طيب، لم أقصد أن أجيبك هكذا. لكنك تتحدثين معي كأنني طفل في روضة الأطفال غير قادر على تناول نقطتين من الشراب من غير استدعاء سيارة الإسعاف! لا بد أن لديك فكرة ممتازة عني!».

«أوه، ليس الأمر هكذا! كل ما أريد... لا أريد أن أراك مريضاً... ماذا... لم أدرك أن الوقت قد تأخر بهذا الشكل! لا تنسَ إعطائي قائمة الحسابات المنزلية عن فترة غيابي».

«أف، عجيب!... ما فائدة التعب الآن من أجل كتابة هذه القائمة؟ دعينا ننسى أمر هذه الفترة».

«كيف يا جورج بابت؟ كيف هذا؟ خلال هذه السنوات كلها، منذ أن تزوجنا، لم نتأخر أبداً عن تسجيل كل قرش ننفقه».

«هذا صحيح. لعل هذه هي مشكلتنا».

«ماذا تقصد بقولك هذا؟»

«لا أعني شيئاً! فقط... أحياناً... أشعر أحياناً أنني تعبت وسئمت تماماً من كل هذا الروتين وهذه الحسابات في المكتب وتسجيل المصاريف في البيت والذهاب إلى هنا وهناك والقلق وإرهاق النفس وانشغال البال في هذه السخافات كلها التي لا تعني شيئاً... تعبت من أن أكون شديد الحرص... تعبت... يا إلهي... من أي شيء تظنين أنني مصنوع؟ كان يمكن أن أكون خطيباً جيداً جداً، لكنني الآن أغرق في المناكفات والإزعاجات والقلق...».

«ألا تظن أنني يمكن أن أتعب من هذه الأشياء أيضاً؟ يتعبني الاهتمام بثلاث وجبات كل يوم، ثلاثمئة وخمسة وستين يوماً في السنة، تتعب عينايَ من آلة الخياطة الفظيعة، وأهتم بملابسك وملابس روني وتيد وتينكا، والجميع، وبالغسيل، ورَتق الجوارب، والذهاب إلى سوق بعيدة حتى أشتري الأشياء بسعر أرخص، وأحمل السلة إلى البيت حتى أوفّر المال بدلاً من أن أجعل أحداً يجلبها إلى البيت، وكل شيء...».

«أوه، عجباً!»، قال هذا وقد أصابه شيء من الدهشة... «أظن أنك تتعبين أيضاً، ربما! لكنك تتحدثين عن... إن عليَّ أن أذهب إلى المكتب كل يوم. أما أنت فتستطيعين الخروج فترة بعد الظهر كلها، وتستطيعين أن تري الناس وأن تزوري الجيران وأن تفعلي كل ما تريدين فعله».

«نعم، ما أكثر الأشياء التي أفعلها! إنني أتحدث فقط مع بعض العجائز. نتحدث عن تلك السخافات نفسها كل مرة. أما أنت فإن لديك أنواعاً كثيرة من الأشخاص الذين يثيرون الاهتمام فعلاً ممن يأتون لرؤيتك في المكتب».

«يثيرون الاهتمام! من؟ سيدات عجائز مختلّات يردن معرفة السبب الذي يمنعني من تأجير بيوتهن العزيزة الثمينة بسبعة أضعاف قيمتها. وحفنة من العجائز التافهين يفسدون نهاري كل يوم لأنهم لم يتلقوا كل قرش من إيجاراتهم عند الساعة الثالثة تماماً في اليوم الثاني من كل شهر! بالتأكيد... هؤلاء يثيرون الاهتمام حقاً! يثيرون الاهتمام مثلما يفعل مرض الجدري!».

«اسمع يا جورج! لا أقبل أن تصرخ بهذه الطريقة».

«لا بأس، تغضبني المرأة فعلاً عندما تظن أن الرجل لا يفعل شيئاً غير الجلوس على الكرسي وعقد اجتماعات عاطفية رقيقة مع سيدات راقيات، والتودّد إليهن أيضاً!».

«أظن أنك تعرف كيف تتودّد إليهن عندما يأتين إلى مكتبك».

«ما قصدك بهذا الكلام؟ هل تعنين أنني ألاحق الفتيات الطائشات؟».

«آمل أنك لا تفعل هذا... في هذه السن!».

«اسمعيني جيداً الآن! قد لا تصدّقين هذا... طبعاً، ترون كلكم أنني جورج بابت الصغير البدين. بالتأكيد! رجل يشتغل في حديقة المنزل ويصلح الفرن عندما لا يأتي العامل لإصلاحه، ويسدد الفواتير، لكنه بليد... بليد إلى حد رهيب! طيب، قد لا تصدّقين هذا، لكن ثمة نساء يعتقدن أن جورج بابِت العجوز ليس فتى سيئاً! يعتقدن أنه ليس بشعاً جداً، ليس بشعاً إلى حد مزعج، ثم إنه يعرف كيف يتحدث فعلاً. بل يظن البعض منهن أنه يعرف كيف يرقص أيضاً!»

«نعم، هكذا». كانت كلماتها بطيئة... «لم يكن عندي شك كثير، خلال غيابي، في أنك استطعت أن تجد أشخاصاً يقدّرونك حق قَدْرك».

قال محتجاً بنبرة إنكار: «حسن، لم أقصد إلا...»، لكن نصف الصدق هذا أغضبه: «لقد حدث هذا بكل تأكيد! أجد أشخاصاً كثيرين... أشخاصاً في غاية اللطف... لا يظنون أنني طفل صغير بمعدة ضعيفة».

«هذا ما كنت أقوله بالضبط! تستطيع أن تجري هنا وهناك مع أي شخص يعجبك! أما أنا فيجب أن أظل جالسة هنا أنتظرك. لقد سنحت لك فرصة الحصول على الثقافة، وكل شيء. أما أنا فإنني أجلس في البيت فقط...».

«طيب، يا إلهي، لا شيء يمنعك من قراءة الكتب والذهاب إلى المحاضرات، وكل هذا الكلام الفارغ. هل يمنعك شيء من هذا كله؟».

«لقد قلت لك يا جورج إنني لا أقبل أن تصرخ هكذا! لا أدري ما أصابك! لم أعتد أبداً أن تكلمني بهذه الطريقة البشعة».

«لا أقصد الكلام بطريقة بشعة، لكن يغضبني فعلاً أن أرى نفسي مَلوماً لأنك لا تتابعين تلك الأشياء».

«سوف أتابعها! فهل تساعدني؟».

«سأساعدك طبعاً. سأفعل كل ما أستطيع فعله حتى أساعدك في اللحاق بمجرى الثقافة ـ خادمك المطيع جورج ف. بابِت».

«جيد جداً! أريدك أن تذهب معي إلى اجتماع «الفكر الجديد» مع السيدة مودج، يوم الأحد القادم، بعد الظهر».

«سيدة مَنْ، ماذا؟».

«السيدة أوبال إيمرسون مودج، المحاضرة الميدانية لصالح الرابطة الأمريكية للفكر الجديد. سوف تحدثنا عن «تنشئة روح الشمس» أمام رابطة الاستنارة العليا في فندق ثورنليف».

«أوه، خراء! الفكر الجديد! خلطة من الأفكار والبيض المسلوق! «تنشئة الـ...»،

يبدو هذا أشبه بعبارة «ما الذي يجعله فأراً عندما يدور؟» ما هذه السخافة التي تذهب إليها سيدة من مرتادي الكنيسة البريسبوريترية الطيبة! ألا تستطيعين الذهاب إلى سماع الدكتور درو؟».

«الدكتور درو رجل دين. وهو واعظ على منبر الكنيسة، وكل شيء. لكن ليس لديه ذلك الاختمار الداخلي، كما تسميه السيدة نودج. ليس لديه أي إلهام مستمَد من الحقبة الجديدة. إن المرأة في حاجة إلى الإلهام الآن. لذلك أريدك أن تأتي مثلما وعدت».

- 4 -

تنعقد اجتماعات فرع زينيث لرابطة «الاستنارة العليا» في قاعة الاحتفالات الصغيرة في فندق ثورنليف. وهي قاعة أنيقة لها جدران خضر شاحبة وأكاليل ورد جصّية وأرضية لامعة من الباركيه ومقاعد وثيرة في غاية الفخامة. اجتمع في هذه القاعة عشرة رجال وخمس وستون امرأة. كان أكثر الرجال يتململ ويتحرك في مقعده؛ أما زوجاتهم فجلسن متصلّبات منتبهات. إلا أن اثنين من الرجال (رجلان لحيمان برقبتين حمراوين) كانا يصغيان بتفانٍ وشغف محترمَين، مثل زوجتيهما. كانا مقاولين اغتنيا حديثاً، واشترى كل منهما بيتاً، وسيارة، ولوحات مرسومة باليد، وبطاقتَي دخول إلى عالم الرجال المحترمين، ويعكفان الآن على شراء فلسفة ممتازة. لكنهما كانا محتارين بين شراء هذا «الفكر الجديد» أو «العلم المسيحي» أو نموذج المعايير الجيدة للكنيسة البريسبوريترية رفيعة المستوى.

كان مظهر السيدة أوبال إيمرسون مودج أقل، على نحو ما، مما يليق بالأنبياء. كانت قصيرة ممتلئة كثيراً؛ ولها وجه صيني متغطرس وأنف يشبه زراً ملصقاً في ذلك الوجه، وذراعان قصيرتان فشلت، رغم كل محاولاتها الحانقة في وضعهما أمامها عندما كانت جالسة أمام المنبر منتظرة بدء الكلام. لكن ثوبها المصنوع من التفتا والمخمل الأخضر مع ثلاثة صفوف من الخرز الزجاجي كان مثالاً على انتصار الأناقة والرِّفعة، إضافة إلى نظارتها الضخمة القابلة للطي التي كانت معلقة بشريط أسود.

رئيسة رابطة «الاستنارة العليا»، التي كانت امرأة شابة يلوح عليها التقدم في السن ولها صوت متعجل ملهوف وسالفان أبيضان، وشارب أيضاً، تولّت تقديم السيدة مودج للجمهور. قالت إن السيدة مودج ستشرح الآن، على نحو يمكن لأبسط العقول فهمه، كيف يمكن للمرء رعاية روح الشمس. وقالت إن على من يفكرون في رعاية روح الشمس وتنشئتها لديهم أن يحرصوا على استيعاب كلمات السيدة مودج وحفظها؛ وذلك لأن زينيث نفسها (يعرف الجميع أن زينيث منضَمّة إلى ركب التقدم الروحي والفكر الجديد)

لم تحظَ بفرص كثيرة من قبل الجلوس عند قدمَي عرّافة اجتمع لها الإلهام المتفائل والبصيرة الميتافيزيقية مثلما اجتمعا للسيدة أوبال إيمرسون مادج التي عرفت حياة «النفع العميم» من خلال التركيز، فعثرت في الصمت على أسرار التحكم العقلي وعلى المفتاح الداخلي، تلك الأسرار التي شهدت تحولاً سريعاً وأتت للأمم التعيسة بالسلم والقوة والرخاء والازدهار. وهكذا يا أصدقائي عليكم الآن، أمام هذه الجوهرة النادرة، نسيان أوهام كل ما يبدو لكم حقيقياً واستيعاب الحكمة العميقة بحيث تمضون إلى «المملكة الجميلة» مع السيدة أوبال إيمرسون مودج.

صحيح أن السيدة مودج كانت أكثر بِدانة وقصراً مما قد يحب المرء أن يراه لدى مرشدته الروحية أو معلمته أو عرّافته أو مَن تلقّنه الإيمان، إلا أن صوتها كان ذا نبرة احترافية تماماً. كان صوتاً مصقولاً متفائلاً يتمتع بهدوء طاغ. كان جارياً متدفقاً من غير انقطاع، من غير فواصل، إلى أن أحس بابِت أنه صار منوَّماً مغناطيسياً. كانت كلمتها المفضلة «دائماً». وكانت تلفظها «داااااائماً». وكانت أهم حركة ليدها إيماءة واسعة فخمة تليق بالبابا نفسه، لكنها تؤديها بإصبعَين سمينَين مشبَعَين ببركة نسائية رفيعة المقام.

مضت تشرح مسألة «الإشباع الروحي»:

«هنالك الذين...».

ومع نطقها كلمة «الذين» مطّت تلك الكلمة بصوت طويل ممتد حلو، أكثر رقّة بكثير من نغمات الغسق. كان ذلك الصوت توبيخاً مهذّباً ورعاً للأزواج غير المستقرين في مقاعدهم كما ينبغي لهم أن يستقروا، لكنه حمل إليهم رسالة شافية أيضاً.

«هنالك الذين يرون الحواف الخارجية لظاهر الكلمة العليا، هنالك الذين يبصرون لمحات منها فتستولي على نفوسهم الحماسة لجزء أو شطر من الكلمة العليا، هنالك الذين حاولوا فلم يفلحوا في النفاذ إلى الديناميكيات لكنهم يؤكدون دائماً أنهم يملكون الكلمة العليا الغيبية وأنها تملكهم، لكن ما أقوله لكم هذا المفهوم، هذه الفكرة، وأركز على أن هؤلاء الذين ليسوا خالصين مخلصين لا يستطيعون البدء ولا حتى الدخول في القداسة في الجوهر المطلق الذي هو جوهر كلي داااائماً داااائماً دااااائماً و...».

تبين أن الحقيقة هي جوهر روح الشمس، لكن البهجة هي هالتها وفَيْضَها:

«استقبلوا يومكم دائماً بضحكة كبيرة بحماسة التلميذ الذي يتلقى تلك التعاليم كلها معاً في مسار «العجلة» ودورانها والذين يردّون على قيود الأرواح المعذبة بتأكيد سعيد على...».

استمر ذلك قرابة ساعة وسبع دقائق.

وفي الختام، تحدثت السيدة مادج بوضوح واندفاع أكبر:

«دعوني الآن أبيّن لكم جميعاً فوائد دائرة القراءات الشرقية الثيوصوفية الوجودية التي أمثّلها. هدفنا توحيد ظهورات الزمن الجديد كلها ضمن جسد واحد متماسك كلّي التفكير الجديد، العلم المسيحي الثيوصوفية تعاليم الفيدا البهائية وغيرها من الشرارات المنبعثة من النور الجديد الواحد. تبلغ قيمة الاشتراك عشرة دولارات في السنة ومقابل هذا المبلغ الزهيد يتلقى الأعضاء المجلة الشهرية والخرزات الشافية ويحظى أيضاً بمزية التراسل المباشر مع رئيستنا، أمّنا الموقَّرة، دوبز بحيث يستطيعون إرسال أي أسئلة متعلقة بالتطور الروحي ومشكلات الأمومة والصحة والعيش الحسن والصعوبات المالية وكذلك...».

كانوا مصغين إليها جميعاً بانتباه مفتون. بدو جميعاً متميّزين. بدو كأنهم في ملابس مكوية مرتبة. كانوا يسعلون بأدب، ويلفون ساقاً فوق ساق بكل هدوء، وكانوا يمسحون أنوفهم بمناديل كتانية غالية الثمن بحركات تشعّ رِقّة ورفعة وتفاؤلاً.

أما بابِت، فكان جالساً... معذَّباً.

وعندما خرجوا إلى نعمة الهواء النقي، عندما مضوا إلى بيتهم بالسيارة عبر رياح تحمل روائح الثلج والشمس الحقيقية الصادقة، لم يجرؤ بابِت على الكلام. إنهما قريبان كثيراً من العراك هذه الأيام. لكن السيدة بابِت أجبرته على ذلك:

«هل استمتعت بحديث السيدة مودج؟».

«طيب، أنا... وهل استمتعتِ أنتِ بحديثها؟».

«أوه، إنه يجعل المرء يبدأ التفكير، وهو يخرجك من روتين الأفكار العادية».

«لابد لي من القول إن أوبال ليست امرأة عادية. لكن، شيء عجيب! بصدق، هل وجدت أي معنى في ذلك الكلام؟».

«إنني لست مدرَّبة على الأمور الميتافيزيقية، بطبيعة الحال، وكان هنالك أشياء كثيرة لم أستطع فهمها. لكنني شعرت أنها أثارت في نفسي إلهاماً. وهي طلقة اللسان حقاً. أظن أنك فهمت شيئاً من كلامها».

«الحقيقة... لم أفهم شيئاً! أقسم لك أنني دُهشت، بكل بساطة، لرؤية كيف تبتلع النساء هذا الكلام ابتلاعاً! بحق الشيطان، لماذا يُرِدن تضييع الوقت في الاستماع إلى هذا الكلام الفارغ عندما...».

«إنه أفضل لهن، بالتأكيد، من الذهاب إلى الفنادق، ومن التدخين، ومن الشرب!».

«لا أعرف إن كان أفضل أم لا! من ناحيتي، لا أرى فرقاً كبيراً. ففي الحالتين، تحاول النساء الهرب من أنفسهن ـ يحاول معظم الناس الهرب من أنفسهم هذه الأيام، على ما أظن. وأنا أفضّل كثيراً، بالتأكيد أن أذهب إلى حفلة راقصة جيدة حتى إذا كانت في خمارة

وضيعة... أفضِّل هذا على أن أكون جالساً هناك مختنقاً كما لو أن ياقتي ضيقة كثيراً؛ وأن أشعر أنني خائف؛ وأن أصغي إلى أوبال تجترّ كلماتها».

«أنا متأكدة من أنك تفضّل ذلك! أنت مولَعٌ كثيراً بالخمّارات. لا شك في أنك ذهبت إلى خمارات كثيرة عندما لم أكن هنا».

«انظري الآن! إنك تكثرين من الإشارات والتلميحات في الآونة الأخيرة، كأنك تقصدين القول إنني أعيش حياة مزدوجة، أو شيئًا من هذا القبيل. سئمت من هذا إلى أقصى حد. لا أريد أن أسمع أي شيء من ذلك بعد الآن!».

«ماذا؟ ماذا يا جورج بابِت؟ هل تدرك ماذا تقول؟ لماذا يا جورج؟ أنت لم تكلّمني بهذه الطريقة أبداً طيلة سنواتنا معاً».

«إذن، فقد حان أوان هذه الطريقة الآن».

«أنت تزداد سوءاً في الفترة الأخيرة. والآن صرت تشتمني، صرت تشتمني وتصرخ في وجهي، صار صوتك بشعاً كارهاً ـ تصيبني القشعريرة كلما سمعته».

«أوه، كفّي عن هذه المبالغات. لم أكن أصرخ. ولم أكن أشتم أيضاً».

«ليتك تستطيع أن تسمع صوتك! لعلك لا تدرك كيف يبدو الآن. لكن، حتى إذا... لم تكن تكلمني بهذه الطريقة من قبل. لم تكن قادراً على الكلام بهذه الطريقة لو لم يحدث لك شيء سيئ مخيف».

لم يجد ما يقوله لها. لكنه دُهش عندما وجد أنه ليس آسفاً أبداً. بذل جهداً حتى يجعل طريقة كلامه مقبولة بعض الشيء: «لا بأس، يا إلهي، لم أقصد أن أكون غاضباً».

«جورج، هل تدرك أننا لا نستطيع الاستمرار بهذا الشكل، نتباعد ونتباعد ونتباعد، وتصبح أكثر جلافة معي؟ لا أعرف ماذا سيحدث، لا أعرف أبداً».

جاءته لحظة عبارة عابرة من الإشفاق نتيجة هذه الحيرة التي تعذّبها. فكّر في الأشياء الكثيرة، الأشياء العميقة الحساسة، التي سوف يصيبها الأذى إذا لم «يستطيعا المواصلة هكذا» حقاً. لكن إشفاقه كان غير شخصي! وكان يتساءل في نفسه: «ألن يكون شيئاً جيداً إذا ـ ليس الطلاق وكل تلك الأشياء، بطبيعة الحال، لكن نوع من...أوه... مزيد من الاستقلالية».

واصل قيادة السيارة في صمت مخيف. أما هي فظلت تنظر إليه راجية ضارعة.

الفصل الحادي والثلاثون

- 1 -

بعد أن صار بعيداً عنها، وبينما راح يتشاغل ببعض الأشياء في المرأب ويزيل الثلج عن مدخله ويفحص أنبوباً مكسوراً هناك، أحس شيئاً من الندم وانتبه بدهشة إلى أنه كان قادراً على بداية جديدة معها. ثم فكر، مفتوناً، بأنها أكثر استدامة بكثير من تلك «العصابة» المجنونة. دخل البيت وقال لها مغمغماً: «آسف! لم أتعمّد أن أكون ضيّق الصدر». سألها أيضاً إن كانت تحب الذهاب إلى السينما. لكنه، في ظلمة السينما، فكر في أنه قد «عاد فربط نفسه بميرا من جديد». لكنه كان راضياً بعض الشيء لأنه تخلص من تانيس جوديك... «فلأبتعد عن تانيس! اللعنة عليها! لماذا أدخلتني في هذه المشكلات كلها وجعلتني متوتراً عصبياً متقلباً؟ تعقيدات ومشكلات كثيرة! فلأنته منها!».

كان راغباً في السلام. لم ير تانيس مدّة عشرة أيام، ولم يتصل بها. لكنها سرعان ما فرضت عليه شيئاً يكرهه. فبعد أن ابتعد عنها خمسة أيام أحس خلالها، في كل ساعة، بالفخر لأنه صاحب عزم وتصميم... ظل يتصور خلال هذه الأيام الخمسة كلها، في كل ساعة، أن تانيس لا بد أن تكون مشتاقة إليه... بعد خمسة أيام، جاءت الآنسة ماكغاون لتخبره قائلة: «السيدة جوديك على الهاتف. تريد أن تتكلم معك من أجل بعض الإصلاحات».

كانت تانيس سريعة هادئة: «السيد بابِت؟ أوه، يا جورج... أنا تانيس. لم أرك منذ أسابيع - لعلها أيام... مهما تكن! هل أنت مريض؟».

«لا! لكني انشغلت كثيراً. إنني، آآآ، أظن أن حركة البناء موشكة على الازدياد هذا العام. وعليّ أن... عليَّ... عليَّ أن أعمل كثيراً».

«طبعاً... يا رجلي! أريدك أن تعمل. وأنت تعرف كم أنا طموحة من أجلك؛ أكثر طموحاً مما يتعلق بأموري أنا. لكني لا أريدك أن تنسى تانيس المسكينة. هل تتصل بي قريباً؟».

«طبعاً! طبعاً! بالتأكيد!».

«اتصل بي من فضلك. لن أتصل بك مرة أخرى».

راح يفكر... «يا للطفلة المسكينة!... لكن، يا إلهي، لا يجوز أن تتصل بي في المكتب... إنها عجيبة... متعاطفة معي، طموحة من أجلي... لكن، يا ربي، لن يستطيع أحد أن يجعلني... لست مجبراً على الاتصال بها قبل أن أكون مستعداً. اللعنة على النساء! اللعنة على طريقتهن في الطلب والإلحاح! سوف يمضي وقت طويل قبل أن أراها!... لكن، يا إلهي... أود أن أراها الليلة... إنها عذبة لطيفة... أوه، كفَّ عن هذا يا بني! لقد انفصلت عنها الآن... لقد تركتها... كن عاقلاً!».

لم تتصل به بعد ذلك؛ ولم يتصل بها! لكنها كتبت له بعد خمسة أيام:

«هل أسأت إليك بشيء؟ يجب أن تعرف يا عزيزي أنني لم أتعمَّد أي إساءة. أشعر بوحدة شديدة، وأريد من يمنحني بعض البهجة. لماذا لم تأت إلى الحفلة اللطيفة التي أقامتها كاري مساء أمس؟ أذكر أنها دعتك إليها! ألا تستطيع أن تأتي إلى شقّتي غداً، مساء الخميس؟ سأكون وحدي؛ آمل أن أراك».

تضاربت في رأسه أفكار كثيرة:

«اللعنة على هذا! لماذا لا تستطيع أن تتركني وشأني؟ لماذا لا تستطيع النساء فهم أن الإنسان لا يحب أن يضغط أحد عليه؟ وهن يحاولن دائماً التغلب عليك وقهر إرادتك عندما يصرخن شاكيات ويقلن إنهن يشعرن بالوحدة».

«لكن هذا ليس تصرّفاً لطيفاً منك يا صاحبي! إنها فتاة جيدة، ممتازة، مستقيمة. وهي تعاني الوحدة. إنها بارعة في الكتابة. ما ألطف هذه الورقة! ورقة نظيفة، ممتازة! أظن أن عليَّ أن أذهب لرؤيتها. طيب، الحمد لله... إنني حرٌّ منها حتى مساء الغد».

«إنها لطيفة، لكن... اللعنة على هذا! لن أكون مجنوناً، ولن أفعل أشياء...! لست متزوجاً منها. لست متزوجاً منها، ولن أكون كذلك أبداً».

«أوه، غريب... أظن أن من الأفضل أن أذهب لأراها».

-2-

كان يوم الخميس (أي «غداً» بحسب رسالة تانيس) مليئاً بالأزمات الانفعالية. فعلى طاولة «العنيفون» في النادي، تحدّث فيرجيل غانتش عن رابطة المواطنين الجيدين و... (بدا لبابِت)... أنه تعمَّد الآن عدم دعوته إلى الانضمام إليها. وكانت لدى مات بنيمان، موظف الخدمات العامة في مكتب بابِت، بعض المشاكل الكبيرة، جاءه يشكو مشاكله إليه: ابنه الأكبر «سيئ جداً»، وزوجته مريضة، وقد تشاجر مع شقيق زوجته. كانت لدى

كونراد لايت مشاكله أيضاً. وبما أن لايت واحد من أفضل عملائه، كان بابِت مضطراً إلى الإصغاء إلى شكواه أيضاً. الظاهر أن السيد لايت كان يعاني من آلام عصبية غريبة؛ كما أن عمله في ورشة إصلاح السيارات يلقي عليه مسؤوليات يصعب تحملها. وعندما عاد بابِت إلى البيت، وجد مشاكل لدى الجميع: كانت امرأته تفكر في طرد الخادمة الجديدة لأنها وقحة؛ وكانت أيضاً تخشى أن تتركها تلك الخادمة وتمضي. وأرادت تينكا أن تحدثه عن مساوئ معلمتها.

قال بابِت متذمِّراً: «أوه، كفوا عن التذمّر! أنتم لا تسمعونني أبداً أشتكي من مشاكلي. لكن، إذا كان عليكم أن تديروا مكتباً عقارياً ـ لماذا... اكتشفت اليوم أن الآنسة بانيغان أهملت تسجيل الحسابات يومين كاملين. وقد جلست أعمل في مكتبي حتى آلمتني أصابعي. ثم جاءني لايت، وكان غير منطقي... مثلما هو دائماً».

تكدَّر كثيراً بعد العشاء، عندما حان وقت للعثور على طريقة لبقة للهرب إلى تانيس. لم يستطيع إلا أن يغمغم لزوجته: «علي أن أخرج الآن. أظن أنني سأعود في الحادية عشرة تقريباً».

«هل عدت للخروج من جديد؟».

«من جديد! ماذا تعنين بهذه الكلمة؟ لم أكد أخرج من هذا البيت منذ أسبوع كامل!».

«هل ستذهب... هل أنت ذاهب إلى جمعية الوعول؟».

«لا! يجب أن أرى بعض الناس».

رغم أنه سمع صوته هذه المرة، وعرف أنه كان فظاً؛ ورغم أنها راحت تنظر إليه بعينين متّسعَتَين لائمتين؛ إلا أنه مضى عبر الغرفة مندفعاً، ألقى معطفه على كتفيه، وتناول قفازَيه، ثم ذهب لإخراج السيارة.

ارتاح عندما وجد تانيس مبتسمة، غير لائمة، متألقة في فستان مكوّن من شبكة بنية فوق نسيج ذهبي. قالت له: «أيها الرجل المسكين!... أتيت إليّ في هذه الليلة الباردة! البرد شديد، مخيف! ألا تظن أن كأساً صغيرة ستكون أمراً لطيفاً الآن؟».

«بكل تأكيد! ها هي امرأة ذكية! أظن أنني أستطيع تناول كأس إذا لم تكن كأساً كبيرة جداً. إذا لم يكن طولها قدماً واحدة».

قبّلها بحماسة لا مبالية. نسي ضغوطها ومطالباتها. جلس في كرسي كبير، أحس أنه في بيته. وفجأة صار كثير الكلام: أخبرها كم هو شخص نبيل يسيء الناس فهمه؛ وكم هو متفوّق على بيت وفولتون بينيس، وغيرهما من معارفهما من الرجال. أما هي فكانت جالسة منحنية صوبه واضعة ذقنها في كف يدها الساحرة. كانت توافقه، بذكاء، على كل ما يقول. وعندما أرغم نفسه على سؤالها: «إذن، يا حبيبتي، كيف أحوالك أنت؟»...

اعتبرت هذا السؤال الذي طرحه عليها بفعل الواجب سؤالاً جدّياً! اكتشف أن لديها مشكلاتها أيضاً:

«أوه، لا بأس، لا بأس! لكن... غضبت كثيراً من كاري. قالت كاري لميني إنني قلت لها إن ميني بخيلة إلى حد فظيع. وقالت ميني لي إن كاري قد أخبرتها. وقلت لها طبعاً إنني لم أقل شيئاً من ذلك. لكن كاري اكتشفت أن ميني أخبرتني. غضبت كاري كثيراً لأن ميني أخبرتني. وأنا... صرت أغلي... لأن كاري قالت لها إنني أخبرتها. ثم التقينا، نحن الثلاثة، عند فولتون ـ لم تكن زوجته موجودة، الشكر للرب! ـ أوه، إن لديه أرضية رائعة في بيته، ممتازة للرقص... كنا، نحن الثلاثة، غاضبات كثيراً. كانت كل واحدة غاضبة من الأخرى ـ أوه، كم أكره هذه اللخبطة، ألا تكرهها أنت؟ أقصد، إنها شيء غير محترم، لكن ـ تريد أمي أن تأتي للإقامة معي شهراً كاملاً. أنا أحبها طبعاً، أظن أنني أحبها، لكن... صدقاً... إنها ترى طريقتي في الحياة شيئاً مخيفاً ـ لا تستطيع أبداً أن تفهم أنه لا يجوز لها التعليق! تريد دائماً أن تعرف أين أذهب، عندما أخرج في المساء. وإذا كذبت عليها، فسوف تتجسّس هنا وهناك، وتطرح الأسئلة على هذا وذاك، ثم تكتشف أين كنت، ثم تبدأ اللوم والمحاضرات فيصيبني الذعر حتى أكاد أصرخ. ثم، أوه... يجب أن أخبرك ـ تعرف أنني لا أتحدث عن نفسي أبداً. أكره الناس الذين يتحدّثون عن أنفسهم كثيراً، ألا تكرههم أنت؟ لكن ـ أحس أنني حمقاء تماماً الليلة. لا بد أنني أضجرك كثيراً بكل هذا الكلام. لكن، ... في ما يتعلق بأمّي، كيف تتصرف لو كنت مكاني؟».

قدم لها نصائح رجولية سهلة: عليها تأجيل زيارة أمّها. وعليها أن تخبر كاري بأن تذهب إلى الجحيم. شكرته كثيراً على هذه التجلّيات والأفكار القيّمة. ثم انغمسا في النميمة المألوفة لدى أفراد «العصابة». قالا إن كاري امرأة عاطفية حمقاء. وقالا إن بيت شخص تافه كسول. وقالا إن فولتون بينيس يستطيع أن يكون شخصاً لطيفاً... «يظن كثير من الناس أنه شخص عادي نكد الطبع عندما يلتقونه. وذلك لأنه لا يتودَّد إليهم ولا يبتسم لهم من غير سبب. وأما عندما يتعرفون إليه جيداً فـ... إنه رائع».

لكن الحديث راح يتباطأ لأنهما خاضا في هذه التحليلات كلها، باستفاضة وذمة وضمير، مرات كثيرة من قبل. حاول بابِت أن يكون شخصاً مثقّفاً وأن يتحدث في أمور عامة. قال أشياء شاملة صحيحة عن نزع التسلح، وعن سعة الأفق، وعن الليبرالية! لكنه أحس أن هذه المواضيع العامة لا تهم تانيس إلا بقدر ما يمكن تطبيقها على بيت وكاري، وعليهما هما أيضاً. أدرك منزعجاً أنهما صمتا تماماً. حاول تحريكها بأن بدأ يثرثر من جديد، لكن الصمت انتصب بينهما، خيَّم فوقهما حضوره الرمادي الثقيل.

قال بشيء من المشقة: «إنني، آآآ... يفاجئني أن البطالة في تناقص».

«لعل بيت يجد عملاً جيداً إذاً!».

صمت.

بذل محاولة يائسة جديدة: «ما المشكلة يا عزيزتي؟ يبدو أنك هادئة كثيراً هذه الليلة».

«هل أنا هادئة كثيراً؟ أوه، لست كذلك. لكن... هل أنت مهتم حقاً بأن أكون هادئة أو لا أكون؟».

«مهتم! مهتم طبعاً! بالتأكيد مهتم!».

انقضّت عليه... جلست على ذراع كرسيه: «هل أنت مهتم حقاً؟».

ضايقه العناء العاطفي الذي لا بد منه حتى يبدو مغرماً بها. مسَّد يدها. رفع رأسه مبتسماً لها ابتسامة صادقة، كما ينبغي... ثم عاد إلى وضعه السابق.

«جورج! لا أعرف إن كنت أعجبك!».

«كم أنت سخيفة! تعجبينني طبعاً».

«هل أعجبك حقاً أيها الغالي؟ هل أنت مهتم بي، ولو قليلاً؟».

«ماذا، بالتأكيد! لو لم أكن مهتماً لما أتيت إليك. ماذا بك؟ ألا تفهمين هذا؟».

«اسمع الآن، أيها الشاب! لا أقبل أن تكلّمني بهذه الطريقة الغاضبة!».

«لم أقصد أن أكون غاضباً. إنني، فقط...». توقف لحظة ثم قال بنبرات مجروحة، شبه طفولية: «يا إلهي! ضقت ذرعاً لأن الجميع يقولون إنني أبدو غاضباً في الوقت الذي أتحدث فيه حديثاً طبيعياً! هل يتوقعون مني أن أغنّي، أم ماذا؟».

«من تقصد بقولك «الجميع»؟ كم سيدة أخرى لديك؟ كم واحدة تمضي الوقت معها لتسلّيها وتواسيها؟».

«انتبهي الآن! لا أريد هذه التلميحات».

قالت متواضعة: «أعرف يا عزيزي! إنني أمازحك فقط! أعرف أنك لا تريد أن تقول كلمات غاضبة ـ أنت متعَب، هذا كل ما في الأمر. سامح تانيس السيئة! لكن، قل لي إنك تحبني... قل لي».

«أحبك... أحبك طبعاً».

«نعم، أنت تحبّني».

لكنها تابعت ساخرة: «أوه، يا عزيزي... لا أقصد أن أكون مزعجة لكن... صرت أشعر بوحدة شديدة. أشعر أنني امرأة عديمة النفع. لا يحتاجني أحد؛ وليس لديّ ما أستطيع فعله لأحد. أنت تعرف يا عزيزي أنني نشطة كثيراً. أستطيع أن أكون نشطة كثيراً إن كان لديّ ما أفعله. وأنا شابة أيضاً، ألست شابة؟ لست عجوزاً! لست عجوزاً غبية... هل أنا عجوز غبية؟».

صار عليه الآن أن يطمئنها. راحت تمسّد شعره بيدها. وكان عليه أن يبدو مسروراً تحت هذه اللمسات التي كانت أكثر تطلباً في رقّتها الخَدّاعة تلك. ضاق ذرعاً! أراد الهرب من هنا... الهرب إلى عالم الرجال الصلب الواثق غير الانفعالي. لعلها أحسّت، عبر أصابعها الرقيقة التي تداعبه... لعلها التقطت شيئاً من هذا الابتعاد الداخلي. تركته ـ أحسَّ انفراجاً كبيراً في تلك اللحظة ـ أتت بمقعد صغير وضعته عند قدميه ثم جلست إلى ذلك المقعد ناظرة إليه بعينين ضارعَتين.

عند رجال كثيرين، لا يثير تذلّل كلب، ولا تثير إجفالة طفل فزع، شفقة أو حنوّاً بل تكون ردّة فعلهم فظاظة متشنّجة فقط! لم يفلح اتّضاعها هذا إلا في إثارة انزعاجه. رآها الآن امرأة في أواسط العمر... امرأة بدأت تشيخ. ركبته هذه الأفكار رغم انزعاجه من نفسه لأنه فكر هكذا. كانت عجوزاً. داهمته هذه الفكرة فجعلته يجفل. عجوز! عجوز! لاحظ كيف كان اللحم الطري تحت ذقنها متكسراً إلى طيات رخوة... خلف عينيها أيضاً، وعند رسغيها. رأى خشونة بسيطة في بقعة من رقبتها... خشونة تشبه الأثر التي تخلفه ممحاة مطاطية. عجوز! إنها أصغر منه سناً... لكن هذا شيء يثير الغثيان الآن... كيف تنظر إليه، توّاقة، بعينين مدوّرَتَين كبيرتَين... كما لو أن (ارتجف لهذه الفكرة) خالته تطارحه الغرام.

داهمه انزعاج داخلي... «انتهيت من هذا اللعب الغبي هنا وهناك. سوف أنهي الأمر معها. إنها امرأة لطيفة لائقة لذيذة، ولا أريد أن أجرحها. لكن جرحها سيكون أقل إذا أنهيت الأمر الآن... مثل عملية جراحية سريعة نظيفة».

هبّ واقفاً على قدميه. راح يتحدث مسرعاً... مُراعياً لكل قواعد تقدير الذات... كان عليه أن يبرهن لها (كان عليه أن يبرهن لنفسه أيضاً) أنها مخطئة، أنها هي المخطئة.

«أظن أنني، ربما... متعب هذه الليلة. لكن، صدقاً يا حبيبتي، عندما ابتعدت عنك فترة من الزمن حتى أتابع شؤون العمل، وكل شيء، وحتى أرتّب أموري... كان عليك أن تكوني أكثر ذكاء، وأن تنتظري ريثما أعود إليك بنفسي. ألا ترين، يا عزيزتي، أنك عندما تجبرينني على المجيء، إنني... إنني مثل أي رجل آخر... كنت أميل ميلاً طبيعياً إلى رفض دعوتك التي جاءت بهذا الشكل! استمعي إلي، يا عزيزتي، إنني ذاهب الآن».

«لن تذهب الآن أيها الغالي، ابقَ قليلاً! لن تذهب الآن، لا!».

«بل سأذهب... الآن! وبعد ذلك، في وقت ما، سوف نفكر في ما يتعلق بالمستقبل».

«ماذا تعني بهذا يا عزيزي «في ما يتعلّق بالمستقبل»؟ هل فعلت شيئاً لا يجوز أن أفعله؟ أوه، إنني آسفة كثيراً!».

وضع يديه خلف ظهره مصمّماً: «لم تفعلي شيئاً، فليباركك الرب، لم تفعلي شيئاً! أنت طيبة حقاً. لكن الأمر، فقط ـ يا إلهي، هل تدركين أن عندي أشياء أفعلها في هذا العالم. إن لديَّ عملي الذي يجب أن أتابعه وأهتم به. ولديَّ أيضاً، قد لا تصدّقي هذا، زوجة وأطفال، وأنا متعلّق بهم!» ... استطاع الآن أن يحس نفسه نبيلاً فاضلاً، في خِضَمّ هذه المذبحة التي راح يرتكبها... «أريد أن نظل أصدقاء. يا إلهي، لا أستطيع أن أستمر هكذا... شاعراً أن من واجبي أن آتي كثيراً إلى هنا، و...».

«أوه، يا عزيزي، يا عزيزي، قلت لك دائماً، أقول لك دائماً، أقوله بحرص وانتباه، بالمطلق، أردت منك أن تأتي عندما ترى نفسك متعَباً... أذا أردت أن تأتي إليَّ وتحدثني... أو عندما تكون راغباً في الاستمتاع بحفلاتنا...».

كانت منطقية تماماً؛ وكانت محقّة تماماً، وعلى نحو لطيف أيضاً! اقتضاه الأمر ساعة كاملة حتى تمكن من الفرار... من غير تسوية شيء بينهما... ومع تسوية كل شيء بينهما، تسويته إلى حد مرعب. وعندما صار في صحراء حرّيته الجديدة القاحلة التي تلفحها ريح شمالية باردة سحب نَفَساً ثم قال لنفسه: «أشكر الله على انتهاء الأمر كله! مسكينة تانيس، مسكينة تانيس العزيزة اللطيفة! لكن الأمر انتهى. انتهى! إنني حر الآن».

الفصل الثاني والثلاثون

-1-

وجد أن زوجته لا تزال مستيقظة عندما عاد إلى المنزل. قالت له مكشّرة: «هل قضيت وقتاً طيباً؟».

«لا، لم أقضِ وقتاً طيباً. قضيت وقتاً سيئاً كثيراً! هل لديك أسئلة أخرى؟».

«جورج! كيف تستطيع أن تكلمني بهذه الطريقة - أوه، لا أفهم ما أصابك».

«يا إلهي، لم يُصِبني شيء! لماذا تبحثين عن المشكلات طيلة الوقت؟» ... لكنه كان يحذر نفسه أيضاً.. «انتبه! كفّ عن كونك كريهاً مزعجاً هكذا! إنها تشعر بالأمر، بطبيعة الحال... لأنها متروكة وحدها هنا طيلة السهرة».

لكنه نسي تحذيره هذا عندما تابعت قائلة: «لماذا تخرج وترى كل هذه الأشكال الغريبة من الناس؟ أظن أنك ستقول لي إنك كنت في اجتماع آخر من اجتماعات اللجان هذه الليلة».

«لا، لم أكن في اجتماع. لقد كنت أرى امرأة. جلسنا قرب الموقد ولهَوْنا معاً وقضينا وقتاً ممتعاً إذا كان يهمك أن تعرفي هذا».

«طيب - أفهم من طريقة قولكِ هذه الكلمات أنني أنا المذنبة في أنك كنت هناك. بل ربما أرسلتك بنفسي!».

«لقد فعلتِ ذلك حقاً».

«لا بأس، بحسب ما أرى...».

«أنت تكرهين من تطلقين عليهم اسم «الناس الغرباء». ولو كنت قادرة على جعل الأمور تسير مثلما تفضّلين، لصرت أنا مثل عصا جافّة مغروسة في الوحل، مثل هاورد ليتلفيلد! أنت لا تحبّين أبداً أن يكون في بيتنا أي شخص ذي طعم. تريدين حفنة من

أولئك المتيبّسين العجائز الذين يجلسون ويتحدثون عن الطقس. وسوف تجعلينني هكذا رجلاً عجوزاً. دعيني أقول لك إنني لن أقبل...».

فاجأها هذا الهجوم غير المتوقع! قالت تجيبه بنبرة حزينة:

«أوه، يا عزيزي، لا أظن أن هذا الكلام صحيح. لا أقصد أبداً أن أجعلك عجوزاً. وقد يكون معك بعض الحق. قد أكون إنسانة بطيئة في التعرف على الأشخاص الجدد. لكن، عندما تفكّر في تلك الأوقات الطيبة التي قضيناها معاً، وفي ولائم العشاء، وأفلام السينما، وكل...».

لم تكن خِدَعُهُ الذكورية الحقيقية ناجحة في إقناعه بأنها أساءت إليه فحسب، بل تمكنت (بمساعدة من ارتفاع صوته وعنف هجومه) من أن تقنعها هي أيضاً بذلك. وسرعان ما بدأت تعتذر منه لأنه أمضى تلك الأمسية مع تانيس. مضى إلى فراشه مسروراً: إنه السيد الآن، والشهيد في هذا البيت أيضاً. مرت عليه لحظة مزعجة بعد أن استلقى في الفراش؛ وذلك عندما تساءل إن كان محقاً تماماً. «عليّ أن أخجل من نفسي... كيف أهاجمها هكذا؟ لعل معها بعض الحق. ولعلها لم تعِش في حياتها كلها فترة من الحرية المنطلقة. لكني لا أبالي بهذا! من المفيد لها أن تستيقظ قليلاً. أما أنا فسوف أظل حراً. سأظل حراً منها ومن تانيس ومن أولئك الناس في النادي... ومن كل شيء. سوف أعيش حياتي على هواي».

-2-

جعله هذا المزاج شخصاً كريهاً بغيضاً في نادي بوسترز خاصة، في اليوم التالي، وقت الغداء. تحدث إليهم عضو في الكونغرس عاد لتوِّه من رحلة استمرت ثلاثة أشهر من أجل دراسة شاملة مستفيضة عن الأحوال المالية والإثنية، والأنظمة السياسية، والانقسامات اللغوية، والثروات المعدنية، والزراعة، في كل من ألمانيا وفرنسا وبريطانيا العظمى وإيطاليا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا وبلغاريا. سرد لهم كل ما يتعلق بهذه الأمور، إلى جانب ثلاث قصص مضحكة عن الأفكار الخاطئة عن أمريكا لدى الأوروبيين. ثم أضاف إلى ذلك كله بعض الكلمات القوية عن ضرورة عدم السماح للأجانب الجَهَلة بالقدوم إلى أمريكا.

قال سيدني فينكلشتاين: «نعم! كان هذا حديثاً مفيداً كثيراً. كلام رجال حقيقي».

لكن بابِت المنزعج قال مغمغماً: «كلام فارغ! كلام لا قيمة له! ثم، ما هي مشكلة المهاجرين؟ يا إلهي، إنهم ليسوا جَهَلة كلهم. أعرف أيضاً أن أسلافنا، نحن أنفسنا، كانوا مهاجرين».

قال السيد فينكلشتاين: «أوه، أنت مُتعِبٌ حقاً».

انتبه بابِت إلى أن الدكتور آ. ي. ديلينغ كان يحدّق فيه بصرامة من الناحية الأخرى من الطاولة. كان الدكتور ديلينغ واحداً من أهم الرجال في نادي بوسترز. لم يكن طبيباً عادياً، بل جرّاحاً... وهذه مهنة أكثر أهمية ورومانسية. كان رجلاً قوياً ضخماً له شعر أسود غزير وشارب أسود ثخين. وكانت الصحف تتحدث عن عملياته الجراحية أيضاً. إنه أستاذ الجراحة في جامعة الولاية. وكان ممن يتلقّون دعوات عشاء في أفضل بيوت رويال ريدج. وقيل إن ثروته تبلغ عدة مئات الألوف من الدولارات. كان من المفزع بالنسبة لبابِت أن يحملق فيه هذا الشخص بهذه الطريقة الغاضبة. وسرعان ما بدأ يحدّث سيدني فينكلشتاين مثنياً على ذكاء عضو الكونغرس حتى يسمعه الدكتور ديلينغ.

- 3 -

بعد الظهر، دخل ثلاثة رجال مكتب بابِت بطريقة تذكّر بما كان يطلق عليه اسم «لجنة القصاص» أيام حرب الحدود. كانوا رجالاً ضخاماً حازمين لهم فكوك ضخمة. وكانوا جميعاً من كبار القوم في زينيث ـ الدكتور ديلينغ، الجراح، وتشارلز ماكيلفي، المقاول، و... الشخص الذي كان مفزعاً أكثر من رفيقيه.. الكولونيل راذرفورد سنو صاحب اللحية البيضاء، صاحب صحيفة إدفوكات تايمز. أحسَّ بابِت في حضورهم الطاغي أنه صار صغيراً لا أهمية له.

اندفع مرحِّباً بهم: «أهلاً، أهلاً، سررت بكم كثيراً، اجلسوا قليلاً من فضلكم. ما الخدمة التي أستطيع تقديمها لكم؟».

لم يجلسوا ولم يقولوا أي كلمات مجاملة، ولا حتى عن الطقس.

قال الكولونيل سنو: «بابِت! نحن آتون من رابطة المواطنين الجيّدين. قررنا أننا نريد انضمامك إلى الرابطة. يقول فيرجيل غانتش إنك غير مهتم بهذا. لكني أظن أننا نستطيع أن نفتح عينيك قليلاً. سوف تتعاون الرابطة مع غرفة التجارة من أجل حملة ضد «السوق المفتوحة». إذن، فقد حان وقت تسجيل اسمك».

في غمرة إحراجه هذا، عجز بابِت عن تذكر الأسباب التي جعلته غير راغب في الانضمام إلى الرابطة، هذا إن كان يعرف هذه الأسباب على وجه التحديد أصلاً، لكنه كان واثقاً تماماً من عدم رغبته في الانضمام. وأما فكرة ضغطهم عليه من أجل الانضمام، فقد حرَّكت عنده غضباً حتى ضد أمراء التجارة الثلاثة هؤلاء.

غمغم قائلاً: «آسف يا كولونيل! عليّ أن أفكر في الأمر قليلاً».

قال ماكيلفي مكشراً: «هذا يعني أنك لا تريد الانضمام».

نطق شيء أسود حانق غير مألوف بلسان بابِت: «استمع إلي الآن يا تشارلي! فلأكن ملعوناً إذا قبلت بأن أنضَمّ إلى أي شيء نتيجة الضغط، حتى ضغطكم أنتم أيها الأقوياء!».

«إننا لا نضغط على أحد»... هذا ما بدأ الدكتور ديلينغ يقوله، لكن الكولونيل سنو أسكته وقال: «إننا نضغط طبعاً! لا مشكلة لدينا في شيء من الضغط إن كان الضغط ضرورياً. اسمع يا بابِت! إن رابطة المواطنين الجيدين تتحدث عنك منذ فترة غير قليلة. من المفترض أنك شخص عاقل نظيف ومسؤول. لقد كنت هكذا دائماً، لكني أسمع في الآونة الأخيرة، من مصادر كثيرة، والله وحده من يعرف السبب، أنك تخالط أشخاصاً منفلتين. وثمة ما هو أسوأ من هذا بكثير... إنك... إنك تناصر بعض أكثر العناصر خطراً في المدينة، وتدافع عنهم في حقيقة الأمر، من أمثال ذلك الشخص دوين».

«يا كولونيل... هذا تدخّل في أموري الشخصية».

«قد يكون كذلك! لكننا نريد التوصل إلى تفاهم معك. لقد دخلت، أنت ووالد زوجتك، في أعمال ومصالح واعدة كبيرة الأهمية في هذه المدينة. ومنها مثلاً ما كان بينكما وبين أصدقائي في شركة النقل. وقد امتدحتك صحيفتي كثيراً. والآن لا يمكنك أن تتوقّع من أي مواطن شريف أن يتابع دعمك إذا كنت تعتزم اتخاذ صَفّ الأشخاص نفسهم الذين يحاولون الإضرار بنا».

فزع بابِت. لكن غريزة داخلية قالت له إن خضوعه الآن سيجعله خاضعاً في كل شيء آخر. قال معترضاً: «أنت تبالغ يا كولونيل. أنا مؤمن بأن يكون المرء ليبرالياً واسع الأفق. لكني، بطبيعة الحال، ضد المنحرفين كثيري الكلام وضد النقابات العمالية مثلما أنت ضدهم. لكن الحقيقة هي أنني منتسب إلى منظمات كثيرة الآن بحيث لا أستطيع أن أفيها حقها. وأريد أن أفكر ملياً قبل أن أتخذ قراراً في ما يتعلق بالانضمام إلى رابطة المواطنين الجيدين».

قال الكولونيل سنو ساخراً: «أوه، لا! لست أبالغ أبداً! لماذا سمعك الدكتور تثرثر وتسيء إلى واحد من أفضل أعضاء الكونغرس الجمهوريين، اليوم عند الظهر؟ ثم إن لديك فكرة خاطئة تماماً عن «التفكير ملياً في اتخاذ قرار الانضمام». لسنا هنا لنرجوك أن تنضَمّ إلى رابطة المواطنين الجيدين ـ إننا نسمح لك بالانضمام إلى الرابطة. لست واثقاً، يا ولدي، ... لكن الوقت سيكون قد تأخر إذا أجّلت اتخاذ قرارك. لست واثقاً من أننا سنريد انضمامك عند ذلك. من الأفضل لك أن تفكر سريعاً ـ من الأفضل لك أن تفكر سريعاً».

حدّق أفراد «لجنة القصاص» فيه بصمت متوتر. وظل بابِت منتظراً. لم يكن يفكر في شيء أبداً... كان منتظراً فحسب! لكن صوتاً كان يطن في رأسه «لا أريد الانضمام ـ لا أريد الانضمام ـ لا أريد الانضمام».

قال الكولونيل سنو: «لا بأس! إنني آسف من أجلك». وعلى الفور، أدار الثلاثة ظهورهم العريضة ومضوا.

-4-

عندما خرج بابِت من بيته ذلك المساء متوجهاً إلى سيارته، رأى فيرجيل غانتش ماشياً عند البناء المجاور، متقدماً في اتجاهه. رفع يده محيياً، لكن غانتش تجاهله وعَبَر الشارع. كان واثقاً من أن غانتش رآه. قاد بابِت سيارته منزعجاً كثيراً.

عندما عاد إلى البيت هاجمته زوجته على الفور: «جورجي، يا عزيزي! كانت موريل فرينك عندي بعد الظهر. تقول إن تشام زوجها قال لها إن لجنة رابطة المواطنين الجيدين جاءت إليك خصيصاً للانضمام إلى الرابطة، لكنك رفضت. ألا تظن أن الانضمام أفضل؟ أنت تعرف أن الأشخاص المهمين جميعاً قد انضموا إليها. ثم إن الرابطة تعمل من أجل...».

«أعرف من أجل ماذا تعمل الرابطة. إنها تعمل من أجل قمع حرية الكلام وحرية التفكير، وكل شيء! لا أقبل أن أنضَمَّ إلى أي شيء تحت الضغط. ليست المسألة متعلقة بما إذا كانت الرابطة جيدة أو سيئة، أو مهما تكن! المسألة مسألة أنني أرفض أن يأتي أحد ليقول لي إن عليَّ أن أفعل...».

«قد ينتقدك الناس إذا لم تنضم إلى الرابطة».

«فلينتقدوا!».

«لكني أعني هؤلاء الأشخاص المهمّين».

«فليكن! إنني ـ الحقيقة إن هذه الرابطة كلها مجرد موضة دارجة. وهي مثل تلك المنظمات كلها التي تبدأ سريعاً وتظن أنها ستغيّر العالم، لكنها سرعان ما تنفرط وينسى الناس كل ما يتعلق بها».

«لكن، إذا كانت هذه الموضة الرائجة الآن، أفلا تظن أنك يجب...».

«لا، لا أظن ذلك! أوه، يا ميرا، من فضلك... كفّي عن النق من أجل هذه الرابطة. سئمت السماع عن رابطة المواطنين الجيدين المزعجة هذه. أكاد أتمنى أنني لو انضممت إليها عندما طرح عليَّ فيرجيل غانتش الأمر منذ البداية. لو فعلت ذلك لتخلصت من هذا الموقف كله. وربما كنت سأنضم اليوم لو لم تحاول تلك اللجنة أن تخيفني وتضغط عليَّ. لكن، بحق الرب، طالما أنني مواطن أمريكي مستقل حر...».

«جورجي! إنك الآن تتكلم مثل رجل الفرن الألماني تماماً».

«أوه، هكذا أنا، هكذا أنا. إذن، لن أتكلم أبداً».

تاق تلك الليلة إلى رؤية تانيس جوديك، وإلى أن يستمد قوة من تعاطفها. وعندما مضى أفراد الأسرة جميعاً إلى الطابق العلوي ليناموا، بلغ به الأمر أن اتصل ببنايتها. لكنه تردد ثم قال للبواب عندما أجابه: «لا تهتم، سأتصل في وقت لاحق». ثم أعاد السماعة إلى مكانها.

- 5 -

حتى لو لم يكن بابِت واثقاً من أن فيرجيل غانتش تجاهله هذا الصباح، فإن أي شك زال من عقله تماماً عندما رأى ويليام واشنطن إيثورن في الصباح التالي. تجاوز بابِت سيارة إيثورن عندما كان يقود سيارته ماضياً إلى المكتب. رأى صاحب المصرف العظيم جالساً خلف سائقه، وقوراً صامتاً. لوّح بابِت بيده صائحاً «صباح الخير»، فنظر إيثورن إليه نظرة منتبه، ثم تردد قليلاً، ثم منحه إيماءة صغيرة برأسه حملت ازدراء أكبر مما يمكن أن يحمله أي تجاهل لتحيته.

جاء شريك بابِت، والد زوجته، عند العاشرة قبل الظهر:

«جورج! ما هذا الذي أسمعه عن الكلام الفارغ الذي قلته للكولونيل سنو؟ هل قلت له إنك لا تريد الانضمام إلى رابطة المواطنين الجيدين؟ ماذا تحاول أن تفعل بحق الجحيم؟ هل تريد تحطيم هذه الشركة؟ أظنك لا تتوقع من هؤلاء الأشخاص الأقوياء الكبار أن يتحملوا إزعاجاتك كله وكلامك الفارغ كله، هنا وهناك... ذلك الكلام «عن الليبرالية» الذي تكثر منه في الآونة الأخيرة! هل تظن أنهم يسمحون لك بذلك؟».

«أوه، كفَّ عن هذا يا هنري. كأنك تقرأ قصة تافهة. لا وجود لشيء من تلك المؤامرات التي تمنع الناس من أن يصبحوا ليبراليين. هذا بلد حر. ويستطيع الرجل أن يقول ما يريد».

«لا وجود لأي مؤامرات، طبعاً! من قال إنها موجودة؟ لكن، إذا صارت في رؤوس الناس فكرة تقول إنك مشوَّش العقل غير مستقر، فليس من حقك أن تنتظر منهم أي رغبة في العمل معك، هل تفهم هذا؟ تكفي شائعة صغيرة واحدة عنك لتدمير هذه الشركة تدميراً أكثر مما يمكن أن تؤدي إليه أي مؤامرات من تلك التي يكتبون عنها في القصص. حتى لو ظلوا شهراً كاملاً يفكرون في حبكتها».

وبعد الظهر، عندما جاء العميل القديم الموثوق كونراد لايت... كونراد لايت البخيل... وعندما اقترح عليه بابِت أن يشتري قطعة أرض في القسم السكني الجديد في دورتشستر، قال لايت مستعجلاً... مستعجلاً أكثر من الحد الطبيعي... «لا، لا، لا أريد أن أشتري شيئاً جديداً الآن».

علم بابِت بعد أسبوع، من خلال هنري ثومبسون، أن مسؤولي شركة النقل يخططون لخدعة عقارية جديدة. وعلم أن شركة ساندرز (وينغ وتوري ساندر)، سوف تتولى هذا العمل، وليس شركة بابِت ـ ثومبسون. قال ثومبسون غاضباً: «أظن أن جيك أوفوت صار حذراً بعض الشيء نتيجة ما يقوله الناس عنك. صحيح أن جيك شخص شجاع قوي، لكن لعله هو الذي نصح شركة النقل بأن تعتمد على وسيط عقاري آخر. إن عليك أن تفعل شيئاً يا جورج!».

وافقه بابِت متعجّلاً. غريب هذا الكلام الفارغ كله... غريب كيف يسيء الناس فهمه. لكنه قرر الانضمام إلى رابطة المواطنين الجيدين عندما يطلبون منه ذلك في المرة القادمة. ثم راح ينتظر في استسلام حانق. لم يطلب أحد منه الانضمام إلى الرابطة! تجاهلوه! وما كانت لديه شجاعة الذهاب إلى الرابطة ليرجوهم قبوله. لجأ إلى قناعة مهتزة، مثل قارب في الماء، مفادها أنه «تمكن من مخالفة المدينة كلها، ونجا بجلده. لا يستطيع أحد أن يملي عليه تفكيره أو تصرفه».

لم يضايقه شيء مثلما ضايقه ذهاب كاتبة الاختزال المثالية، الآنسة ماكغون! صحيح أن الأسباب التي ذكرتها كانت قوية مقنعة: إنها في حاجة إلى راحة؛ وأختها مريضة. وقد تتوقف عن العمل ستة أشهر... إلا أنه لم يرتح للموظفة التي خلفتها، الآنسة هافشتاد. ما كان أحد في المكتب يعرف اسم الآنسة هافتشاد الأول. وبدا من المستبعد أن يكون لديها اسم أول، أو حبيب، أو مواد تجميل، أو حتى ما يوجد عادة عند الناس جميعاً. هذه السويدية النحيلة الشاحبة المجتهدة، كانت حيادية تماماً، وذلك إلى درجة تجعل فكرة ذهابها إلى بيت عادي وتناولها الطعام تبدو فكرة مبتذلة تماماً. كانت آلة مشحَّمة ملمعة... آلة لا بد، كل مساء، من مسحها ثم وضعها في درج طاولة مكتبها إلى جانب أقلامها الرقيقة الهشّة المبرية جيداً. كانت سريعة في الإملاء. وكانت كتابتها على الآلة الكاتبة ممتازة. لكن بابِت كان يتوتر كلما حاول العمل معها. كانت تجعله يحس بأنه ضخم. وكانت نكاته اليومية الأثيرة عنده تجعلها تنظر إليه نظرة لطيفة متسائلة. بات يحنّ إلى عودة الآنسة ماكغون. بل فكر في الكتابة إليها أيضاً.

ثم سمع أن الآنسة ماكغون ذهبت، بعد أسبوع من تركها مكتبه، لتعمل لدى منافسيه الخطرين، ستاندرز... وينغ وتوري ستاندر.

ضايقه هذا كثيراً؛ بل أرعبه: «لماذا تركت العمل إذاً؟»، هذا ما كان يقلقه... «هل حدست أن الشركة في سبيلها إلى الانهيار؟ ثم إن شركة ستاندرز هي التي حظيت بصفقة شركة النقل. كلام فارغ ـ لن تتهاوى سفينتي!».

صار خوف رمادي دائم مخيّماً فوقه هذه الأيام. كان يراقب فيرتز ويلينغر، موظف المبيعات الشاب. وراح يتساءل إن كان سيتركه أيضاً. كان يشعر بالإهمال كل يوم. لاحظ أنهم لم يطلبوا منه إلقاء كلمة مأدبة العشاء السنوية التي تقيمها غرفة التجارة. ولم يدعه أورفيل جونسز أيضاً عندما أقام حفلة بوكر كبيرة. بات متأكداً من أنه أزيح جانباً. صار يخاف الذهاب إلى الغداء في النادي. وصار يخشى عدم الذهاب أيضاً. صار مقتنعاً أنهم يتجسّسون عليه. وأنهم يتهامسون من خلفه عندما يترك الطاولة. كان يسمع همسات متدافعة في كل مكان: في مكاتب العملاء، وفي المصرف عندما يودع بعض المال، وفي مكتبه نفسه، وفي بيته نفسه. وكان يتساءل أحياناً عما يقوله الناس عنه. كان يضبطهم، طيلة اليوم، في محادثات وهمية متخيلة، يقولون: بابِت، لماذا؟ فلنقل الحق، إنه فوضوي حقيقي! لا بد من الإعجاب بشجاعته... وكيف صار ليبرالياً، يا إلهي... كيف تمكن من قلب حياته تماماً حتى تصير مناسبة له، حتى تعجبه... لكن، إنه خطر... هذا هو بالضبط، شخص خطر... يجب إطلاق النار عليه».

صار يخاف كل شيء. كان قلبه يقفز عندما ينعطف عند زاوية في الشارع فيصادف اثنين من معارفه يتحدثان ـ يتهامسان. فكان يهرب مثل تلميذ مدرسة يشعر بالحرج. كان يسترق النظر من بعيد عندما يرى جارَيه هاورد ليتلفيد وأورفيل جونسز معاً، ثم يدخل بيته حتى يهرب من تجسّسهما فيجلس بائساً واثقاً من أنهما يتهامسان. يتآمران ويتهامسان.

لكن تمرداً وعصياناً كان يتخلل ذعره هذا كله. ظل معانداً. يقرر أحياناً أنه كان شخصاً شريراً تماماً، جريئاً متهوّراً مثل سينيكا دوين! ويخطط أحياناً للاتصال بدوين وجعله يعرف كم هو ثوري... على أن ذلك لم يتجاوز مرحلة التخطيط أبداً. لكنه كان يقول في نفسه نائحاً، أحياناً كثيرة عندما يسمع الهمس الخافت محيطاً به: «يا إلهي الطيب... ماذا فعلت؟ لعبت قليلاً مع «العصابة» وتكلمت قليلاً عن كلارنس درام لأنه كاذب مراوغ! لم يضبطني أحد أنتقد الناس وأحاول أن أجعلهم يقبلون أفكاري الخاصة رغماً عنهم».

ما عاد قادراً على احتمال التوتر. أقرّ، قبل مضي وقت طويل، أن من الأفضل أن يفر عائداً إلى أمان اليقين، شريطة توفر طريقة لائقة موثوقة للعودة. لكنه قرر، معانداً، أنه لن يقبل إجباره على هذه العودة؛ لن يقبل أبداً... قال يشتمهم جميعاً: «فلتأكلوا التراب».

لم تكن هذه المخاوف العاصفة المضطربة تطفو إلى السطح إلا عندما يدخل جدلاً محتدماً مع زوجته. كانت تشتكي من أنه صار عصبياً، ومن أنها لم تعد قادرة على فهم السبب الذي يجعله غير راغب في «المرور لزيارة آل ليتلفيلد» وقضاء الأمسية عندهم. حاول أن يعبّر لها، لكنه لم يستطع أن يعبر، عن تلك الحقائق السديمية الغامضة المتعلقة

بعصيانه ومعاقبته. بعد خسارته بول وتانيس، ما عاد لديه أحد يستطيع أن يكلمه: «يا إلهي! تينكا هي الصديق الحقيقي الوحيد عندي... هذه الأيام». تنهد وازداد تعلقه بتلك الطفلة... صار يلعب معها على الأرض طيلة المساء.

فكّر في الذهاب إلى السجن لرؤية بول لكنه، رغم حرصه على تذكير نفسه بخشونة كل أسبوع، كان يعتبر بول شخصاً ميتاً.

تانيس! إنه توّاق إلى رؤية تانيس.

قال في نفسه مندفعاً غاضباً: «ظننت أنني كنت ذكياً جداً، مستقلاً جداً، عندما قطعت علاقتي بتانيس رغم أنني أحتاج إليها. يا ربي، كم أحتاج إليها!... ميرا لا تستطيع أن تفهمني، ببساطة، هكذا. لا ترى في الحياة إلا أن تواصل العيش مثلما يعيش بقية الناس. أما تانيس، فسوف تقول لي إنني بخير».

هرب إلى تانيس. جرى إليها في ساعة متأخرة من إحدى الأمسيات. ما كان يجرؤ على الأمل في ذلك، لكنها كانت موجودة في البيت... وحدها. لكنها لم تكن تانيس! كانت امرأة مهذبة مجامِلة ترفع حواجبها... امرأة مدرَّعة بالجليد... لكنها تشبه تانيس. قالت له: «نعم يا جورج، ما الأمر؟». بل إنها قالتها بنبرات غير مهتمة جعلته ينسلّ بعيداً، ينسلّ عنها معذَّباً.

جاءته أولى بشائر الراحة من تيد ويونيس ليتلفيلد.

كانا يرقصان معاً ذات مساء عندما جاء تيد من الجامعة إلى البيت. قال تيد ضاحكاً: «ما هذا الذي أسمعه من يونيس يا أبي. تقول إن أباها يقول إنك شققت عصا الطاعة وامتدحت سينيكا دوين. رائع! أعطهم ما يستحقون! حرّكهم تحريكاً! إن هذه المدينة القديمة نائمة». رمت يونيس بنفسها في حضن بابِت وقبّلته واضعة شعرها المتطاير عند ذقنه.

قالت مزقزقة: «أظن أنك ألطف من هاورد بمراحل كثيرة؛ فما السبب؟...». ثم تابعت تقول... «هل لأن هاورد عجوز مشاكس نكد؟ إن لديه قلباً طيباً، وهو ذكي تماماً، بصدق، لكنه لن يتعلم أبداً أن يصبح جريئاً رغم كل التدريب الذي قدمته إليه. ألا تظن أننا يمكن أن نفعل شيئاً من أجله يا عزيزي؟».

«ما هذا يا يونيس؟ ليس لطيفاً أن تتكلّمي عن والدك هكذا». قال بابت هذه الكلمات بأفضل الطرق المعروفة في فلورال هايتس. لكنه كان سعيداً للمرة الأولى منذ أسابيع. رأى نفسه محارباً ليبرالياً يستمد قوة من ولاء الأجيال الشابة. خرجوا لشراء بعض المشروبات. قال بابِت: «إذا أمسكت بنا أمك فسوف تعاقبنا عقاباً شديداً». تصرّفت يونيس بطريقة أمومية. قَلَتْ كمية مخيفة من البيض من أجلهم. وقبّلت بابِت على أذنه.

وقالت بصوت يشبه صوت رئيسة دير جدية: «يدهشني تماماً أن تواصل العناية بهذين الرجلين فتاة من أنصار الحركة النسوية، مثلي!».

بعد هذه الحقنة المنشّطة، كان بابِت متهوّراً عندما صادف شيلدون سميث، المدير التعليمي الذي يقود جوقة الإنشاد في الكنيسة. شد سميث بيده الرطبة على يد بابِت السمينة وقال كأنه يغني: «أخي بابِت! لم نعد نراك في الكنيسة كثيراً هذه الأيام. أعرف أنك مشغول بتلك التفاصيل الكثيرة. لكن لا يمكن أن تنسى أصدقاءك الأعزاء في كنيستك القديمة».

خلّص بابت يده من تلك المصافحة العاطفية ـ يحب شيلدون أن يظل ممسكاً بيد من يحدثه زمناً طويلاً ـ قال له مكشراً: «لا بأس! أظن يا أصحابي أنكم قادرون على تسيير أموركم من دوني. آسف يا سميث، عليَّ آن أسرع الآن. نهارك سعيد».

لكنه قال متحسراً بعد ذلك: «إذا كانت لدى هذه الدودة البيضاء شجاعة تجعلها تحاول إعادتي إلى حضن الكنيسة القديمة فيجب أن يقوم هؤلاء التافهون بأكثر من ذلك حتى أعود إليهم».

ظل يسمعهم يتهامسون ـ يتهامسون ـ الدكتور جون جينيسون درو، وشيلموندلي فرينك، بل حتى ويليام واشنطن إيثورن. تسربت استقلاليته منه. صار يسير في الشوارع وحيداً خائفاً من عيون الرجال المتهكّمة ومن ذلك الهمس الذي لا ينقطع.

الفصل الثالث والثلاثون

- 1 -

حاول أن يشرح لزوجته، بينما كانا يستعدان للنوم، كم كان شيلدون سميث منفراً مقيتاً. لكن إجابتها لم تكن إلا «إن له صوتاً جميلاً جداً، صوتاً روحانياً حقاً. ليس من الجائز أن تتكلم عنه بهذه الطريقة لمجرد أنك لا تستطيع تقدير الموسيقى». عند ذلك رآها شخصاً غريباً. راح يحدّق بنظرة خاوية إلى تلك المرأة الممتلئة المزعجة ذات الذراعين السمينين العاريين. تساءل عما أتى بها إلى هنا.

كان يتقلّب في سريره الصغير البارد ويفكر في تانيس: «من الغباء أن يخسرها. يجب أن يكون لديه أحد يستطيع أن يكلّمه حقاً. سوف... أوه، سوف ينفجر إذا ظل هكذا... إذا ظل يتقلب وحده على هذه النار. أما ميرا، فلا فائدة من توقع أن تستطيع فهم أي شيء. طيب، شيء بائس، لا فائدة من مواصلة هذا الأمر. شيء معيب أن يحدث هذا التباعد بين اثنين ظلّا متزوجَين طيلة هذه السنوات كلها. شيء معيب تماماً. لكن، لا يستطيع شيء أن يقرِّب بينهما بعد الآن طالما أنه مستمر في رفض محاولة زينيث إجباره على تلقّي الأوامر - لن يسمح لأي كان، أبداً، أن يجبره على شيء، ولا أن يتملّقه، ولا أن يسترضيه أيضاً!».

استيقظ عند الثالثة فجراً. أيقظه صوت سيارة عابرة. خرج من سريره ليشرب بعض الماء. وعندما مر بباب غرفة النوم سمع زوجته تئن. كان النعاس والليل يلقيان تشويشاً على نفوره منها. استفهم قلقاً: «ما المشكلة يا حبيبتي؟».

«عندي - عندي ألم هنا في جانبي - أوه، إنه هنا تماماً - يكاد يمزقني».

«لعله سوء الهضم! هل أجلب لك شيئاً من البيكربونات؟».

«لا أظن - لا أظنها ستفيدني. كان لدي إحساس غريب الليلة الماضية، والبارحة أيضاً. ثم... أوه! ... لقد ذهب الألم الآن، وسوف أغفو من جديد - جعلتني تلك السيارة أستيقظ».

كان صوتها مرهَقاً مثل سفينة في عاصفة. أحس بابِت بالخطر.

«من الأفضل أن أطلب طبيباً».

«لا، لا! سوف يزول هذا. لكن، هل تأتني بكيس الجليد».

ذهب إلى الحمام ليأتي بكيس الجليد. ثم هبط إلى المطبخ ليأتي بالجليد. أشعرته هذه المهمة الليلة المتأخرة بالإثارة. لكنه رأى نفسه ناضجاً، ثابتاً، بارد الأعصاب، عندما راح يكسر قطعة الجليد بسكين ضخمة كأنها خنجر. عاد الود القديم إلى صوته عندما وضع كيس الجليد على جانب بطنها قائلاً: «ها هو، ها هو... ستشعرين بالتحسن الآن». عاد إلى فراشه، لكنه لم ينم. سمعها تئن من جديد. نهض على الفور. ذهب إليها. قال مواسياً: «ألا يزال الألم شديداً يا حبيبتي!».

«نعم، إنه مغص. لا أستطيع النوم». كان صوتها واهناً خافتاً. وكان يعرف أنها تخشى قرارات الأطباء. تسلل محاذراً إصدار أي صوت... من غير إخبارها، إلى غرفة الجلوس في الأسفل. اتصل بالطبيب إيرل باتن. ثم جلس ينتظره، مرتجفاً، محاولاً قراءة مجلة بعينيه الغائمتين... إلى أن سمع صوت سيارة الطبيب.

كان الطبيب شاباً، يبتسم ابتسامة مهنية بهيجة. قال له كما لو أن الوقت كان ظهراً: «حسنًا يا جورج، لديكم مشكلة صغيرة، أليس كذلك؟ كيف هي الآن؟». قال هذه الكلمات مستعجلاً... مع ابتسامة ضخمة مزعجة. ثم قذف بمعطفه فوق أحد الكراسي ودفّأ يديه قليلاً. أحس بابِت أنه استولى على البيت كله. أحس أنه أزيح جانباً، أنه صار عديم الأهمية، عندما لحق بالطبيب إلى الأعلى، إلى غرفة النوم. كان الطبيب هو الذي قال الآن مبتسماً: «مجرد ألم بسيط في المعدة» عندما أطلت فيرونا من باب غرفتها: «ما الأمر يا أبي؟ ما الأمر؟».

قال الطبيب للسيدة بابِت بلهجة ودية جافّة بعد الفحص: «يأتيك هذا الألم منذ فترة، أليس كذلك؟ سوف أعطيكِ شيئاً حتى تنامي. وأظن أنك ستكونين أفضل عند الصباح. سأعود بعد الفطور مباشرة». لكنه قال لبابِت المنتظر في صالة الجلوس في الأسفل: «لا يعجبني ما أحسَسْت به في بطنها. فيه شيء صلب، وبعض الالتهاب. هل سبق لها أن استأصلت الزائدة الدودية؟... هممم. طيب، لا حاجة إلى القلق. سأعود في الصباح. أما هي فسوف تكون مرتاحة حتى ذلك الوقت. لقد أعطيتها مسكناً. تصبح على خير».

بعد ذلك، علق بابِت في دوامة عاصفة سوداء.

وعلى الفور، غدت كل مشاعر السخط التي سيطرت عليه، وكل تلك الدراما الروحية التي أضنته، أموراً سخيفة تافهة لا طعم لها إذا ما قورنت بالحقائق القديمة المستقرة الطاغية، بالحقائق المألوفة التقليدية، بالمرض وخوف الموت، بتلك الليلة

الطويلة، وبألف أثر راسخ نابع من الحياة الزوجية. زحف عائداً إليها. وبينما كانت غافية في وهن المورفين الحار، جلس على حافة سريرها ممسكاً يدها... وللمرة الأولى منذ أسابيع كثيرة، استقرت يدها في يده واثقة مستقرة مستريحة.

لف نفسه كيفما اتفق بمنشفة الحمام الكبيرة وبمفرش السرير الوردي الأبيض وجلس على كرسي. بدت غرفة النوم غريبة في نصف الظلام الذي جعل الستائر تبدو أشبه بلصوص يتسللون إلى البيت وجعل طاولة الزينة أشبه بقلعة ذات أبراج. عبقت الغرفة برائحة مواد التجميل والبياضات، وبرائحة النوم. غفى قليلاً، ثم أفاق، ثم غفى قليلاً، ثم أفاق... مئة مرة. سمعها تتحرك وتزفر في نومها. تساءل إن كان يستطيع أن يفعل شيئاً آخر من أجلها. لكنه نام مجدداً قبل أن يتضح السؤال في رأسه؛ نام مرهقاً متألماً. كانت ليلة من غير نهاية. وعندما جاء الفجر، وبدا أن هذا الانتظار أشرف على نهايته، سقط بابِت نائماً من جديد، ثم أفاق متكدّراً منزعجاً عندما ضبطته فيرونا هناك من غير أن ينتبه. دخلت الغرفة مستثارة: «أوه، ما الأمر يا أبي؟».

كانت زوجته مستيقظة. وكان وجهها شاحباً غاضت منه الحياة في ضوء الصباح. لكنه ما عاد يقارنها بتانيس الآن. ما عادت مجرد امرأة يستطيع مقارنتها بغيرها من النساء؛ بل هي ذاتُه نفسها. صحيح أنه يمكن أن ينتقدها ويناكفها، لكن هذا انتقاد لنفسه ومناكفة لنفسه... شيء كله اهتمام ورعاية... شيء لا يتوقع له أن يتغير، وما من رغبة في أن يتغير أيضاً ـ جوهر أبدي.

عاد صوته أبوياً حازماً من جديد عندما جاءت فيرونا. راح يواسي تينكا التي زادت مستوى الإثارة، على نحو مرضٍ، بساعة كاملة من البكاء. أمر بإعداد فطور مبكر. وأراد أن ينظر في الصحف. وأحس بشَيء من البطولة عندما لم ينظر إليها. لكن... ظلت أمامه ساعات بطيئة، غير بطولية أبداً... ساعات من الانتظار إلى أن عاد الطبيب باتن.

قال باتن: «لا أرى تغيراً كبيراً. سأعود في حدود الساعة الحادية عشرة. وأظن، إذا لم يكن لديك مانع، أنني سآتي معي بطبيب شهير لاستشارته. فقط حتى نكون في الجانب الآمن. لا تستطيع أن تفعل شيئاً الآن يا جورج. سأطلب من فيرونا الاهتمام بكيس الجليد ـ يمكن أن أتركه كما هو في ما أظن ـ أما أنت، فمن الأفضل أن تذهب إلى المكتب بدلاً من أن تظل واقفاً هنا وتبدو كأنك أنت الشخص المريض. غريبة هي أعصاب الأزواج! واهية أكثر من أعصاب النساء! يريدون دائماً أن يقحموا أنفسهم وأن يتلقوا الشكر أيضاً لأنهم منزعجون، في حين تعاني زوجاتهم. اشرب فنجاناً آخر من القهوة، ثم اذهب».

صار بابِت أكثر واقعية بعد هذه السخرية. قاد سيارته إلى المكتب، وحاول إملاء بعض الرسائل، وحاول إجراء اتصالات هاتفية، وقبل أن يجيبه أحد كان ينسى سبب

اتصاله. عاد إلى البيت عند العاشرة والربع. زاد سرعة السيارة بعد أن تخلص من زحام مركز المدينة. كان وجهه مغضناً عابساً كأنه قناع في مسرحية تراجيدية.

رحّبت به زوجته وقد فوجئت بعودته: «لماذا عدت يا عزيزي؟ أظن أنني أحسن الآن. قلت لفيرونا أن تذهب إلى عملها. ألم تكن فعلة شريرة أن أمرض هكذا؟»

أدرك أنها تريد منه أن يدللها، فدلّلها فرحاً مبتهجاً. كانا سعيدين، على نحو غريب، عندما سمع صوت سيارة الدكتور باتن أمام البيت. نظر من النافذة فأصابه الذعر. كان مع باتن شخص يسير مستعجلاً له شعر أسود كثيف وشارب كبير ـ إنه الدكتور آ. ي. ديلينغ، الجَرّاح! تنحنح بابِت قلقاً محاولاً إخفاء قلقه، ثم أسرع يفتح الباب لهما.

كان سلوك الدكتور باتن مسرفاً في تلقائيته: «لا أريد أن أسبّب لك القلق يا صديقي، لكني ظننت أن من الأفضل أن يأتي معي الدكتور ديلينغ ليعاينها». قال هذا مشيراً إلى ديلينغ كمن يشير إلى سيّده.

أومأ ديلينغ برأسه بطريقة شديدة التهذيب ثم صعد إلى الطابق العلوي. ظل بابِت جالساً في الأسفل، قلقاً. باستثناء ولادات زوجته، لم تعرف هذه الأسرة أي عملية جراحية مهمة. كانت الجراحة بالنسبة له أعجوبة، هولاً بغيضاً. لكنه أدرك أن كل شيء كان على ما يرام عندما رأى ديلينغ وباتن يهبطان من جديد. أحب أن يضحك لمظهر الطبيبين الذي كان شديد الشبه بالأطباء ذوي اللحى الذين يراهم المرء في فيلم كوميدي: يفرك كل منهما كفيه ويبدو ذكياً فهيماً... على نحو أحمق.

تكلم الدكتور ديلينغ:

«إنني آسف يا صديقي! لكن لديها التهاب حاد في الزائدة الدودية. علينا إجراء عملية جراحية. يجب أن تتخذ القرار بنفسك طبعاً؛ لكن، لا شك لدي أبداً في ما يتعين فعله».

لم يستوعب بابِت الأمر كله، لم يستوعبه تماماً. غمغم: «طيب، أظن أنها يمكن أن تكون جاهزة خلال يومين. ويجب أن يعود تيد من جامعته. فقط... تحسّباً... إذا حدث شيء لها».

قال الدكتور ديلينغ: «لا! إذا كنت لا تريد أن يحدث التهاب البريتوان، فإن علينا إجراء العملية فوراً. عليّ أن أنصحك بذلك، بشدة. إذا كنت موافقاً فسوف أتصل ليرسلوا سيارة الإسعاف حالاً. وسوف تكون على طاولة العمليات بعد ثلاثة أرباع الساعة من الآن».

«أنا ـ أنا، طبعاً، أظنك تعرف ماذا... لكن، يا إلهي، اسمع يا رجل، لا أستطيع أن ألبسها ثيابها، وكل شيء، في ثانيتين فقط... أنت تعرف هذا! وفي حالتها تلك... إنها متألمة، وضعيفة...»

قال الدكتور ديلينغ: «ليس عليك إلا أن تلقي فرشاة الشعر في الحقيبة، مع المشط وفرشاة الأسنان. لن يلزمها شيء آخر خلال يوم أو اثنين». ثم مضى إلى الهاتف.

انطلق بابِت يائساً فصعد إلى غرفة النوم. طلب من تينكا المذعورة أن تخرج من الغرفة وقال لزوجته مبتهجاً: «نعم يا صديقتي! يرى الطبيب أن من الأفضل إجراء عملية جراحية صغيرة للتخلص من هذا الأمر. عملية تستغرق دقائق فقط... لا تبلغ خطورتها نصف خطورة الولادة... وسوف تكونين بخير بلمح البصر».

شدّت على يده حتى آلمته أصابعه. قالت بهدوء، مثلما يتحدث طفل خائف: «إنني خائفة ـ أخاف أن أمضي في الظلام وحيدة». اختفى النضج كله من عينيها. صارتا راجيتَين، مذعورتَين... «هل تبقى معي؟ لست مضطراً إلى الذهاب إلى المكتب الآن يا عزيزي، أليس كذلك؟ هل تستطيع الذهاب معي إلى المستشفى؟ وهل ستأتي لرؤيتي هذا المساء ـ إذا كان كل شيء على ما يرام؟ ليس عليك أن تخرج هذا المساء، أليس كذلك؟».

جثا على ركبتيه قرب سريرها. عبثت أصابعها الضعيفة بشعره؛ أما هو فبكى وقبّل طرف كمها وقال مقسماً: «يا حبيبتي، أحبك أكثر من أي شيء في العالم! كنت قلقاً على العمل، وكل شيء، لكن هذا انتهى الآن، عدت إليكِ من جديد».

«هل عدتَ حقاً؟ كنت أفكر يا جورج... مستلقية هناك... كنت أفكر أن من الأفضل أن أذهب. لا أعرف إذا كان أحد يحتاجني حقاً. أو إذا كان أحد يريدني. كنت أسأل نفسي عن فائدة حياتي... لماذا أعيش... إنني أزداد غباء وبشاعة...».

«أوه، أيتها المحتالة! تحاولين اصطياد المديح الآن بينما يتعيّن عليّ إعداد حقيبتك! أما أنا... طبعاً... إنني شاب وسيم قوي...». لم يستطع متابعة كلامه لأنه عاد يبكي من جديد. وجد كل منهما الآخر عبر جمل كثيرة غير مترابطة.

كان دماغه صافياً سريعاً على نحو غريب عندما راح يُعِدّ حقيبتها. أدرك أنه انتهى من تلك الليالي الصاخبة كلها. اعترف لنفسه أنه سيكون آسفاً عليها. أدرك متوجّساً بعض الشيء أن ذلك كان آخر انغماس في الملذات قبل دخوله مرحلة أواسط العمر، مرحلة الرضا المشلول. لا بأس... ابتسم وقال في نفسه مستعجلاً: «لا بأس، كانت حفلة جيدة، لكنها انتهت». لكن، كم تبلغ تكلفة العملية؟... «كان علي أن أقاتل قليلاً وأن أساوم ديلينغ على تكلفة العملية. لكن لا، إلى الجحيم، لا أبالي مهما بلغت!».

وصلت سيارة الإسعاف. صارت عند الباب. وحتى في غمرة حزنه ومعاناته، لم يستطع بابِت المعجب بالتكنولوجيا إلا أن يبدي اهتماماً حقيقياً بالمهارة اللطيفة لدى طاقم سيارة الإسعاف الذي وضع السيدة بابِت على نقالة وحملها فهبط بها إلى الأسفل.

كانت سيارة الإسعاف ضخمة أنيقة ملمعة بيضاء. قالت السيدة بابِت بصوت كالأنين: «إنها تخيفني! إنها تشبه سيارة دفن الموتى. كأنهم سيضعونني في سيارة دفن الموتى. أريدك أن تظل معي».

وعدها بابِت: «سوف أكون معك. سأكون في المقعد الأمامي إلى جانب السائق».

«لا! أريدك أن تكون معي داخل السيارة». ثم خاطبت عمال الإسعاف: «ألا يستطيع أن يبقى معي؟»

أجابها أكبرهم سناً: «بالتأكيد يا سيدتي، بالتأكيد! إن في السيارة كرسياً صغيراً أيضاً». قال هذه الكلمات باعتزاز مهني واضح.

عندما صار إلى جانبها في هذه المقصورة المتحركة بسريرها وكرسيها ومدفأتها الكهربائية الصغيرة القوية، وذلك التقويم الغريب المعلّق على جدارها... كانت عليه فتاة تأكل الكرز مع اسم إحدى شركات البقالة... وعندما لوّح بيده مبتهجاً، مست كفه المدفأة الكهربائية فصرخ قائلاً: «أوخ! ... الرب!».

«ماذا يا جورج بابِت؟ لا أقبل أن تشتم وتجدّف الآن!».

«أعرف هذا، آسف جداً!... يا لطيف، انظري كيف أحرقت يدي! آه، إنها تؤلمني! تؤلمني كالشيطان! ما هذا... ما هذه المدفأة الملعونة؟ إنها شديدة الحرارة... أشد حرارة من أي شيء...! انظري! ألا ترين أثر الحرق على يدي؟».

وهكذا، بينما كانا ذاهبَين إلى مستشفى سانت ماري، وبينما كانت الممرضات تحضّرن غرفة العمليات لإنقاذ حياتها، صارت هي التي تواسيه الآن وتقبّل الحرق على يده حتى يزول الألم منها. ورغم محاولته أن يكون ناضجاً جدياً، إلا أنه أسلم قياده لها... كان سعيداً بأن ترعاه مثل طفل صغير.

توقفت سيارة الإسعاف عند المدخل المسقوف في المستشفى. وسرعان ما صار بابِت صفراً، لا أكثر، عندما دخلوا ذلك الكابوس من الصالات الكثيرة والأبواب التي لا تنتهي والغرف التي فيها نساء مسنات في أسرَّتهنّ... والمصعد... وغرفة التخدير... وطبيب مقيم شاب يتعامل بازدراء مع الأزواج. سمحوا له بأن يقبّل زوجته. رأى ممرضة نحيلة سمراء تضع القناع على فمها وأنفها. أحس تيبساً عندما شم رائحة حلوة غَدّارة. ثم اقتادوه خارجاً. جلس على كرسي مرتفع في المختبر. كان يشعر بالدوار، يتوق إلى رؤية وجهها مرة أخرى، إلى إخبارها أنه أحبها دائماً وأنه لم يحب غيرها، ولا ثانية واحدة، ولم ينظر إلى غيرها. لم يكن واعياً في ذلك المختبر إلا لمنظر جسم متآكل محفوظ في زجاجة فيها كحول مصفَرّ اللون. جعله ذلك يشعر بالغثيان، لكنه لم يستطع رفع عينيه عن تلك الزجاجة. كان ثقلها على نفسه أكبر من ثقل الانتظار نفسه. سبح دماغه

معطلاً غير قادر على التفكير: كان يعود دائماً إلى تلك الزجاجة المخيفة. أراد أن يهرب منها، ففتح باباً إلى اليمين آملاً أن يجد هناك مكتباً معقولاً مثل مكاتب الأعمال. أدرك أنه ينظر إلى غرفة العمليات. رأى، بنظرة واحدة، الدكتور ديلينغ في ثوب أبيض غريب المظهر. كانت ضمادات تلف رأسه أيضاً. وكان منحنياً فوق طاولة معدنية لها عجلات. وكانت الممرضات ممسكات بأحواض كثيرة وقطع كبيرة من القطن. ورأى أيضاً شيئاً ملفوفاً تبرز منه ذقن ميتة... كتلة من البياض في وسطها مربّع من لحم شاحب اللون فيه جرح كبير مع شيء من الدم عند حوافّه. وعلى ذلك الجرح ازدحمت ملاقط كثيرة تشبه طفيليات تعلقت به.

أغلق الباب سريعاً. لعل توبته المذعورة في الليل، وفي الصباح، لم تؤثر في نفسه بقدر ما أثر فيها مشهد الدفن الآن، دفن زوجته التي كانت تبدو بشرية حية إلى حد يثير الشفقة. جثم من جديد على الكرسي المرتفع في المختبر وأقسم على الوفاء لزوجته... ولزينيث... ولنجاح الأعمال... ولنادي بوسترز... ولكل ما تؤمن به رابطة المواطنين الجيدين.

جاءت ممرضة تطمئنه: «انتهى كل شيء! نجاح تام! إنها بخير! ستفيق من التخدير قريباً، وستراها».

وجدها راقدة على سرير عجيب مائل. كان لون وجهها أصفر مخيفاً. لكنّ شفتيها القرمزيتين تحركتا قليلاً. أدرك عند ذلك أنها حية. كانت تتمتم شيئاً. انحنى فوقها فسمعها تقول: «من الصعب الحصول على شراب القيقب الحقيقي من أجل الفطائر». ضحك منطلقاً من غير تحفظ. ابتسم للممرضة وقال لها معتزاً: «تخيلي أنها تتحدث عن شراب القيقب! يا إلهي، سأذهب وأطلب مئة غالون منه، سأطلبها الآن من فيرمونت!».

- 2 -

خرجت من المستشفى بعد سبعة عشر يوماً. كان يذهب إلى رؤيتها بعد ظهر كل يوم. جرت بينهما أحاديث طويلة امتدت حتى بلغت أموراً حميمية. أشار ذات مرة إلى علاقته بتانيس و«العصابة» فاستولت عليها صورة امرأة شريرة اختطفت زوجها المسكين جورج.

وبعد شكه في جيرانه وفي روعة المواطنين الطيبين، عاد الآن فاقتنع بفضائلهم كلها. قال لنفسه: «لم أر سينيكا دوين آتياً مع بعض الزهور، أو زائراً ليتحدث قليلاً من السيدة». لكن السيدة ليتلفيلد، زوجة السيد هاورد ليتلفيلد، جلبت إلى المستشفى حلوى رائعة بالنبيذ (منكهة بنبيذ حقيقي)؛ وأنفق أورفيل جونسز ساعات في البحث عن روايات

تحبها السيدة بابِت ـ قصص حب لطيفة عن أصحاب الملايين في نيويورك وعن رعاة الأبقار في وايومينغ؛ وحاكت لها لويتا سوانسون ثوباً وردياً لترتديه في الفراش؛ واختار سيدني فينكلشتاين وزوجته الشابة المرحة ذات العينين البنيتين ثوباً منزلياً جميلاً لها من محل بارتشر وسبين.

كف أصدقاؤه جميعاً عن التهامس، كفّوا عن الشك فيه. كانوا يسألون عنها كل يوم في النادي الرياضي. وكان بعض أعضاء النادي، ممن لا يعرف أسماؤهم، يوقفونه مستفسرين: «هل تحسنت السيدة الفاضلة؟»... أحس بابِت أنه انتقل من جبال قاحلة جرداء إلى واد جميل دافئ فيه أكواخ لطيفة.

وفي أحد الأيام، عند الظهر، قال له فيرجيل غانتش: «هل تعتزم الذهاب إلى المستشفى عند السادسة؟ نفكر في المرور على المستشفى، أنا وزوجتي». جاءا فعلاً. وكان غانتش مرحاً فكِهاً إلى حد جعل السيدة بابِت تقول إن عليه «أن يكفّ عن إضحاكها لأن جرحها، صدقاً، يؤلمها عند الضحك». وعند اجتيازهما صالة الاستقبال خارجَين من المستشفى، قال له غانتش بطريقة ودية: «جورج، يا صديقي القديم! كان رأسك مضطرباً لسبب ما منذ بعض الوقت. لا أعرف السبب؛ وليس من شأني أن أعرف السبب. لكن يبدو لي أنك عدت إلى طبيعتك من جديد. لماذا لا تنضم إلينا في رابطة المواطنين الجيدين يا صديقي؟ إننا نمضي أوقاتاً ممتازة معاً. ونحن في حاجة إلى نصائحك».

عندها أقلع بابِت عن كونه ثورياً منزلياً بعد أن سُمح له بالتوقف عن هذا القتال، وبعد أن أتيح له أن يتركه من غيرِ أن يسيء إلى نظرته إلى نفسه... كادت الفرحة تبكيه لأن أحداً أراد استرضاءه الآن بدلاً من تهديده. ربّت على كتف غانتش. وفي اليوم التالي، صار عضواً في رابطة المواطنين الجيدين.

وخلال أسبوعين اثنين فقط، لم يكن في الرابطة شخص يظهر مشاعر عنيفة تجاه شرور سينيكا دوين وجرائم النقابات العمالية ومساوئ المهاجرين، وكذلك مسرات لعب الغولف، والأخلاق الفاضلة، والحسابات المصرفية، أكثر من جورج ف. بابِت.

الفصل الرابع والثلاثون

-1-

انتشرت رابطة المواطنين الجيدين في أنحاء البلاد كلها. لكنها كانت أكثر نشاطاً وأرفع تقديراً في المدن التي تشبه زينيث. مدن تجارية يسكن كل منها بضعة عشرات الآلاف من الناس، ويقع أكثرها (ليس كلها) بعيداً عن البحر في محيط من حقول الذرة والمناجم والبلدات الصغيرة المعتمدة عليها من أجل القروض العقارية، وآداب الطعام، والفنون، والفلسفة الاجتماعية، والقبّعات النسائية.

دخل في الرابطة معظم المواطنين الأثرياء في زينيث. ما كانوا جميعاً من ذلك النوع الذي يطلق على نفسه «أشخاصاً عاديين». فبالإضافة إلى أولئك المواطنين المخلصين، بائعي الرخاء والازدهار، كان ثمة أرستقراطيون أيضاً... أي الرجال الأغنى منهم أو الرجال الذين توارثوا الغنى جيلاً بعد جيل: رؤساء المصارف والمصانع، وأصحاب الأراضي، ومحامو الشركات الكبيرة، والأطباء المشهورون، وقلة من رجال شباب ـ كبار السن لا يعملون شيئاً على الإطلاق لكنهم باقون في زينيث يجمعون التحف الصّدَفية والطبعات الأولى من الكتب، تماماً كما لو أنهم لا يزالون في باريس. كانوا متفقين جميعاً على ضرورة إلزام الطبقة العاملة مكانها؛ وكانوا متفقين جميعاً على أن الديمقراطية الأمريكية لا تعني مساواة في الثروة، لكنها تعني (بالضرورة) وحدة شاملة في الأفكار والملابس وفن الرسم والأخلاق ومفردات اللغة.

كانوا في هذا كله مثل الطبقة الحاكمة في أي بلد آخر، في بريطانيا العظمى خاصة. لكنهم كانوا مختلفين عن تلك الطبقات بأنهم أكثر اندفاعاً وبأنهم كانوا يحاولون فعلياً إنتاج المعايير المقبولة التي تريدها الطبقات كلها، في كل مكان، لكنها لا تتمكن من الوصول إليها عادة.

كان أطول صراع تخوضه رابطة المواطنين الجيدين صراعها ضد «السوق المفتوح»... وكان هذا صراعاً سرياً ضد النقابات العمالية كلها. وإلى جانب الرابطة، قامت أيضاً «حركة الأمركة» التي تقدم دروساً مسائية في اللغة الإنكليزية والتاريخ والاقتصاد، ومقالات يومية في الصحف، وذلك حتى تتاح للأجانب الوافدين حديثاً فرصة تعلّم وصفة ممتازة، أمريكية مئة بالمئة، لتسوية الاضطرابات العمالية، ألا وهي أن على العمال أن يحبّوا أصحاب العمل وأن يثقوا بهم.

كان كرم الرابطة بالغاً من حيث تحبيذها وجود منظمات أخرى توافق على أهدافها. لقد ساعدت (واي إم سي آيه) في جمع مئتي ألف دولار لإقامة بناء جديد لها. وقام بابِت، وفيرجيل غانتش، وسيدني فينكلشتاين، بل حتى تشارلز ماكيلفي، بإخبار المستمعين في المسارح عن التأثير العظيم، الرجولي، المسيحي، الذي كان لهذه المنظمة على حياة كل واحد منهم. والتقطت صورة للكولونيل القوي الأشيب راذرفورد سنو، صاحب صحيفة إدفوكات تايمز، معانقاً يد شيلدون سميث من منظمة (واي إم سي آيه). وعندها قال له سميث متلعثماً: «عليك أن تأتي إلى أحد اجتماعات الصلاة لدينا»؛ لكن الكولونيل العنيف أجابه: «ولماذا أفعل هذا بحق الجحيم؟ لديّ بار في بيتي»... على أن هذه الكلمات لم تظهر في الصحف.

كانت الرابطة ذات قيمة عظيمة للكتيبة الأمريكية عندما انتقدها عدد من الصحف الفاشلة الأقل شأناً باعتبارها «منظمة للمحاربين القدامى في الحرب العظمى». وذات مساء، هاجمت مجموعة من الشباب مقر الحركة الاشتراكية في زينيث فأحرقت سجلّاته، وضربت موظفيه، وألقت بالمكاتب من النوافذ. قالت الصحف كلها عدا إدفوكات تايمز وإيفنينغ إدفوكات، إن الكتيبة الأمريكية هي المسؤولة عن هذا «الفعل المباشر» الجيد، لكن المتسرّع بعض الشيء. عند ذلك، زارت فرقة جوالة من رابطة المواطنين الجيدين تلك الصحف الظالمة وشرحت لها أن من المستحيل أن يفعل الجنود السابقون شيئاً من هذا القبيل. وعندها أبصر محررو تلك الصحف النور وواصلوا تلقّي الإعلانات الضرورية لاستمرار صحفهم.

وعندما خرج ذلك الشخص الذي «يعترض على مقتضيات الضمير» من السجن وطُرد من المدينة. قالت تلك الصحف نفسها إن من ارتكب تلك الفعلة كان جمهرة غير معروفة من الغوغاء.

- 2 -

كان بابِت مشاركاً في نشاطات رابطة المواطنين الجيدين كلها، وفي انتصاراتها كلها. وقد استعاد احترامه الذاتي ورباطة جأشه استعادة تامة، وكذلك استعاد محبة أصدقائه. لكنه بدأ يحتج بعد ذلك: «يا إلهي! لقد قدّمت نصيبي في العمل من أجل تنظيف هذه المدينة. أريد أن أهتم بأعمالي. وأظن أنني سأخفف الآن نشاطي في ما يتعلق بالرابطة».

عاد إلى الكنيسة أيضاً مثلما عاد إلى نادي بوسترز. بل إنه تحمل التحيات الغزيرة التي أغدقها عليه شيلدون سميث. خشي أن يكون قد خسر خلاصه الروحي خلال مرحلة تمرّده. ما كان واثقاً تماماً من وجود جنة لا بد من العمل من أجلها، لكن الدكتور جون جينيسون درو قال إنها موجودة فعلاً! وما كان بابِت مستعداً لتحمل أي مخاطرة جديدة.

وعندما كان ماراً بالقرب من بيت الدكتور درو ذات مساء، دعاه حافز ما إلى الدخول. وجد راعي الكنيسة في مكتبه.

قال الدكتور درو بنبرة عملية: «دقيقة واحدة ـ معي مكالمة هاتفية». ثم قال في الهاتف بطريقة عدائية: «ألو ـ ألو! هل هذه مطبعة بيركي وهانيس؟ أنا القس درو. أين هي بروفات نشرة تقويم يوم الأحد القادم، بحق الشيطان؟ هاه؟ ماذا؟ عليكم أن تأتوا بها إلينا. طيب، لا شأن لي إذا كانوا مرضى كلهم! يجب أن تكون عندي هذه الليلة. استدعوا أحد الصبيان المراسلين وأرسلوها إلي».

استدار صوب بابِت من غير أن يخفف سرعة كلامه: «أهلاً يا أخ بابِت! بماذا أستطيع أن أخدمك؟»

«أردت فقط أن أسألك... أن أخبرك عن الأمر... يا معلمي: أظن أنني أخطأت قليلاً، منذ فترة. تناولت بعض الكؤوس، وهكذا. ما أريد سؤالك عنه هو: كيف يكون الأمر إذا تخلى المرء عن ذلك كله، إذا أوقفه تماماً، وعاد إلى رشده؟ هل يؤدي ذلك، نعم... يمكن القول، هل يؤثر ذلك على وضعه، على المدى البعيد؟».

صار المحترم الدكتور درو مهتماً فجأة: «و... احم، يا أخي... والأشياء الأخرى أيضاً؟ النساء مثلاً؟».

«لا! ليس تماماً، يمكنك القول، لا، ليس تماماً، أبداً».

«لا تتردد في إخباري يا أخي! أنا موجود هنا من أجل هذا. هل كنت تذهب هنا وهناك؟ تحتضن الفتيات في السيارات؟». صارت عينا القس لامعتَين الآن.

«لا ـ لا...».

«لا بأس! يجب أن أخبرك أن لديّ اجتماعًا مع وفد من «جمعية لا تسخروا من حظر الكحول» بعد ربع ساعة. ولديّ اجتماع آخر مع «اتحاد معاداة تنظيم النسل» في

العاشرة إلا ربعاً». ألقى نظرة سريعة على ساعته... «لكني أستطيع انتزاع خمس دقائق للصلاة معك. اركع هنا إلى جانب كرسيك يا أخي. لا تخجل من طلب رحمة الرب ورعايته».

أحس بابِت تنميلاً في فروة رأسه، وأراد الفرار. لكن الدكتور درو كان قد ركع بالفعل إلى جانب كرسي مكتبه وتحول صوته من الخشونة العملية إلى ذلك الصوت المداهن المتملق المألوف عندما يتصل الأمر بالخطايا وبمخاطبة الرب. ركع بابِت أيضاً. وراح درو يتلو الدعاء:

«يا رب! أنت ترى أخانا هنا، أخانا الذي دفعته إغراءات كثيرة إلى الضلال. يا أبانا في السماء... اجعل قلبه طاهراً كقلب طفل صغير. دعه يعرف من جديد فرحة الشجاعة الرجولية عند الابتعاد عن الشرير...».

دخل المكتب شيلدون سميث بخطوات مندفعة راقصة. توقف عند رؤية الرجلين الراكعين وربّت على كتف بابِت بحركة متسامحة. ثم ركع إلى جانبه واضعاً ذراعه حول كتفيه في حين راح الدكتور درو يثنّي على دعواته السابقة بأنين خفيض: «نعم، يا ربنا! ساعد أخانا، يا ربنا!».

صحيح أن بابِت كان يحاول إبقاء عينيه مغمّضتين، إلا أنه استرق النظر من بين أصابعه فشاهد القس يلقي نظرة إلى ساعته عندما كان يختم صلاته بهذه العبارة الظافرة: «اجعله غير خائف أبداً من القدوم إلينا للمشورة والرعاية اللطيفة. اجعله يعرف أن الكنيسة قادرة على توجيهه مثل حَمَلٍ صغير».

نهض الدكتور درو واقفاً ونظر بعينيه في الاتجاه المألوف للسماء. ثم رمى ساعته في جيبه وقال: «هل جاء الوفد يا شيلدون؟».

«نعم! إنهم في الخارج». أجابه شيلدون بحيوية مماثلة. ثم قال لبابِت متلطّفاً: «اسمع يا أخي، إذا كنت ترى هذا مفيداً، فإنني مستعد للذهاب معك إلى الغرفة الأخرى للصلاة بينما يستقبل الدكتور درو الإخوة القادمين من «جمعية لا تسخر من حظر الكحول»».

أجابه بابِت: «لا... لا، شكراً... لا وقت لدي». ثم اندفع صوب الباب.

شوهد مرات كثيرة بعد ذلك متردّداً إلى كنيسة تشاتام رود البريسبوريترية؛ لكن من المؤكد أنه صار يتجنّب مصافحة القس عند بابها.

- 3 -

إذا كانت عزيمته الأخلاقية قد ضعفت نتيجة تمرده إلى حد جعله غير جدير بالثقة تماماً عندما يتعلق الأمر بأهم حملات رابطة المواطنين الجيدين؛ وإذا كان ذلك قد جعله لا يقدّر الكنيسة كثيراً، فما من شك في حجم الفرحة التي رافقت عودة بابِت إلى سعادته المنزلية وإلى النادي الرياضي ونادي بوسترز وجمعية الوعول.

تزوج كينيث إسكوت وفيرونا أخيراً، بعد طول تردّد. لم يكن تأنق بابِت لهذه المناسبة بأقل من تأنق فيرونا نفسه. ارتدى الجاكيت النهارية التي يصعب عليه تحمل ارتدائها ثلاث مرات في السنة. وبراحة كبرى، بعد انطلاق سيارة كينيث وفيرونا، عاد إلى البيت وخلع تلك الجاكيت ثم جلس رافعاً قدميه المتعبتين على الأريكة وفكر في أن غرفة المعيشة صارت الآن له ولزوجته فقط: ليسا مضطرين بعد الآن إلى الاستماع إلى فيرونا وكينيث يتحدثان قلقين، بطريقة الناس المثقفين المتعلمين، عن الحد الأدنى للأجور، وعن لجنة الدراما.

لكن حتى هذا السلام نفسه، كان أقل شأناً عنده من عودته واحداً من أكثر الرجال المحبوبين في نادي بوسترز.

-4-

بدأ الرئيس ويليس آيجيمس وليمة الغداء في نادي بوسترز بأن وقف صامتاً هادئاً محدّقاً فيهم... منزعجاً إلى حد جعلهم يخشون أن يكون في سبيله إلى الإعلان عن وفاة أحد الأخوة في النادي. بعد هذا تكلم بوقار وجدية:

«أيها الفتيان! لدي شيء مخيف يجب أن أكشف عنه أمامكم. شيء مفزع متعلق بواحد من الأعضاء في النادي».

بدا القلق على عدد غير قليل من الأعضاء، بمن فيهم بابِت.

«فارسٌ ممن نعتمد عليهم كثيراً، صديق من أقرب أصدقائي، ذهب منذ فترة في رحلة إلى أعالي الولاية. وهناك، في بلدة بعينها، بلدة أمضى فيها أحد أعضاء نادينا أيام طفولته، وجد شيئاً لا سبيل إلى إخفائه بعد اليوم. والحقيقة أنه اكتشف الطبيعة الداخلية لذلك الرجل، الشيء الذي في المنتصف، ... اكتشف ذلك الشيء العجيب لدى شخص قبلناه في النادي باعتباره رجلاً حقيقياً، واعتبرناه واحداً منا. أيها السادة! لا أستطيع قولها فقد يخونني لساني الآن... هذا ما جعلني أكتبها على الورق».

استدار وكشف عن لوح كبير مكتوب عليه بأحرف ضخمة:

«جورج فولانزبي بابِت ـ إنه أنت، أيها الأحمق!».

ضحك أعضاء النادي جميعاً، وهللوا كثيراً، وذرفوا الدموع، وقذفوا بابِت بتحياتهم... قالوا صائحين: «نريد كلمة، نريد كلمة! إنه أنت، أيها الأحمق».

تابع الرئيس آيجيمس كلامه.

«ها هو، أيها السادة، الشيء الفظيع الذي كان يخفيه جورج بابِت عنا طيلة هذه السنين؛ بينما كنا نظن أنه جورج ف. بابِت. والآن، أريد أن تخبرونا، واحداً بعد الآخر، باسمه الأوسط الذي كنتم تعتقدون إن حرف ف. يعبِّر عنه».

اقترحوا أشياء مختلفة: فيل، فرخ الضفدع، فهيم، فاشل، فطيرة، فرس النهر...

أدرك بابِت من حيوية هذه الإهانات وبهجتها أنهم أعادوه إلى قلوبهم! وقف بينهم سعيداً وقال:

«أيها الفتيان! عليَّ أن أعترف بهذا. لم أضع ساعة حول معصمي في حياتي؛ ولم أدسّ شيئاً وسط اسمي. لكنني أعترف الآن بهذا الاسم... «فولانزبي». تبريري الوحيد هو أن أبي ـ مع أنه كان عاقلاً تماماً في الأمور الأخرى، كان يعرف كيف يسدد لكمات قوية عندما يتعامل معكم يا أبناء المدينة الغشاشين ـ أطلق علي هذا الاسم تيمناً باسم طبيب أسرتنا، الدكتور أمبروز فولانزبي. أعتذر منكم أيها الشباب! في حياتي القادمة، لا أعرف الاسم الذي تطلقونه عليها، سوف أبذل جهدي لأحظى باسم عملي حقيقي ـ اسم رائع، جيد، رجولي ـ شيء، في الحقيقة، يشبه تلك الأسماء الرائعة القديمة التي تعرفها كل أسرة ـ إنه الاسم الجريء الذي لا يستطيع المرء إلا أن يستسلم عندما يسمعه... ويليس جيمجيمس آيجيمس!».

عرف من صياحهم وتهليلهم وضحكاتهم أنه عاد آمناً من جديد، عاد محبوباً شعبياً بينهم. وأدرك أنه لن يعرِّض بعد الآن، أبداً، هذا الأمان وهذه الشعبية لأي خطر بأن يضل طريقه ويبتعد عن جماعة المواطنين الطيبين.

ـ 5 ـ

اندفع هنري ثومبسون إلى المكتب سعيداً. قال صائحاً، مبتهجاً: «جورج! أخبار عظيمة! يقول جيك أوفوت إن شركة النقل منزعجة من طريقة تعامل شركة ساندرز معها في الصفقة الأخيرة. إنهم يريدون بحث الأمر معنا نحن».

سر بابِت كثيراً لأنه تحقق الآن من أن آخر ندبة نتجت عن تمرده قد شفيت تماماً. لكنه، عندما كان عائداً بالسيارة إلى بيته، انزعج من الأفكار الباقية في رأسه، تلك الأفكار التي ظلت قوية ولم تضعف بعد عودته إلى جادة الصواب. اكتشف أنه لا يعتبر إدارة شركة النقل مجموعة شريفة من الأشخاص. «طيب، سوف أنفّذ صفقة جديدة واحدة معهم.

لكن، عندما يكون الأمر مناسباً من الوجهة العملية... ربما بعد أن يموت هنري ثومبسون العجوز... سوف أترك التعامل معهم. إنني في الثامنة والأربعين الآن. وبعد اثني عشر عاماً سأبلغ الستين. أريد أن أترك لأحفادي شركة نظيفة. ثمة مال كثير يمكن أن ينتج عن هذه المفاوضات مع جماعة شركة النقل؛ وعلى المرء أن ينظر إلى الأمور بطريقة عملية، لكن، فقط... تململ غير مرتاح عند ذلك. رغب في أن يذهب ويقول لشركة النقل رأيه الحقيقي... «أوه، لا أستطيع أن أفعل هذا... ليس الآن. سوف يسحقونني سحقاً إذا أهنتهم مرة أخرى. لكن...».

كان مدركاً أن مسار تقدمه مشوَّش بعض الشيء. وراح يسأل نفسه عما سيفعله في المستقبل. إنه لا يزال شاباً! ... فهل انتهى زمن المغامرات كلها؟ أحس أنه عالق في الفخ نفسه الذي هرب منه قبل حين... والأسوأ من هذا هو أنه مضطر الآن إلى الاستمتاع بأنه عاد عالقاً بالفخ نفسه من جديد.

قال شاكياً: «لقد دمَّروني؛ ... دمَّروني حتى النهاية!».

عمّ السلام البيت ذلك المساء. استمتع بابِت بلعبة البيناكل مع زوجته. وقال بوقار لذلك الوسواس الذي في رأسه إنه مقتنع راضٍ بالطريقة التقليدية القديمة لتصريف الأمور. وفي اليوم التالي، ذهب لرؤية وكيل الشراء لدى شركة النقل. وضعا خططاً من أجل شراء قطع أراضٍ، سراً، على طريق إيفانستان رود. لكنه ظل يقول لنفسه، معانداً، خلال عودته إلى مكتبه: «سوف أتصرف كما يناسبني، وسوف أنظر إلى كل شيء كما يناسبني... عندما أتقاعد».

ـ 6 ـ

عاد تيد من الجامعة لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. ومع أنه كفَّ عن الكلام على الهندسة الميكانيكية وصار صموتاً قليل الكلام في ما يتعلق بآراء في مدرسيه، إلا أنه بدا أكثر قبولاً بكليته، وكان اهتمامه الأول منصبّاً على هاتفه اللاسلكي الجديد.

وفي أمسية السبت، اصطحب يونيس ليتلفيلد إلى حفلة راقصة في ديفون وودز. لمحها بابِت لمحاً فقط. رآها تلقي بنفسها في مقعد السيارة، متألقة في عباءة قرمزية فوق فستان حريري رقيق حليبي اللون. مضى السيد والسيدة بابِت إلى الفراش عند الحادية عشرة والنصف ليلاً قبل أن يعود الأولاد من السهرة. استيقظ بابِت في ساعة غير محددة على رنين الهاتف. فنزل إلى غرفة الجلوس منزعجاً. كان على الهاتف هاورد ليتلفيلد.

«جورج! لم تعد يونيس حتى الآن. هل عاد تيد؟».

«لا ـ إن باب غرفته مفتوح...».

«يجب أن يكونا قد عادا إلى البيت. قالت يونيس إن السهرة تنتهي عند منتصف الليل. ما اسم الناس الذين ذهبا إليهم؟».

«ماذا؟ يا إلهي، في الحقيقة... لا أعرف يا هاورد. إنه أحد زملاء تيد، هناك في ديفنوودز. لا أرى شيئاً نستطيع فعله الآن. انتظر... سوف أذهب لأسأل ميرا إن كانت تعرف هؤلاء الناس».

أضاء بابِت النور في غرفة تيد. كانت غرفة صبيانية بنية اللون... طاولة عمّتها الفوضى، كتب مهترئة، بيرق المدرسة الثانوية، صور لفرق كرة السلة وصور لفرق البيسبول. من الواضح تماماً أن تيد ليس هنا.

قالت السيدة بابِت منزعجة، بعد أن استيقظت، إنها لا تعرف اسم الأسرة التي تستضيف تيد وأصدقاءه الليلة. وقالت إن الوقت صار متأخراً، وإن هاورد ليتلفيلد ليس مختلفاً عن أي شخص وُلِدَ غبياً بطبيعته، وإنها تشعر بنعاس شديد. لكنها ظلت مستيقظة تعبر عن قلقها، في حين حاول بابِت أن يعود إلى النوم، في الشرفة، تحت وابل من ملاحظاتها المتواصلة. استيقظ بعد الفجر عندما هزّته قائلة بصوت فيه شيء من الذعر: «جورج! جورج!».

«ماذا ـ ماذا؟ ما الأمر؟».

«تعال سريعاً. تعال وانظر. كن هادئاً».

قادته إلى الطابق السفلي، إلى باب غرفة تيد. ثم فتحت الباب برفق. رأى على السجادة البنية القديمة ربع لباس داخلي ملون من الشيفون. ورأى على الكرسي الرصين العتيق خفاً بنّاتياً فضياً. ورأى على الوسادة رأسين نائمين ـ رأس تيد ورأس يونيس.

استيقظ تيد مبتسماً، وقال بطريقة متمرّدة، غير مقنعة كثيراً: صباح الخير! دعوني أعرّفكم على زوجتي ـ السيدة ثيودور روزفيلت يونيس ليتلفيلد بابِت... المحترمة».

قال بابِت: «يا إلهي!» ... وعن زوجته صدر عويل طويل: «لقد ذهبتما... و...».

«تزوجنا الليلة الماضية. يا زوجتي! اجلسي وقولي صباح الخير لحماتك».

لكن يونيس خبأت كتفيها وشعرها البَرّي الساحر تحت الوسادة.

عند التاسعة صباحاً، ضم الاجتماع العاجل الذي انعقد في غرفة الجلوس للنظر في أمر تيد ويونيس كلاً من السيد جورج بابِت، والسيدة بابِت، والدكتور هاورد ليتلفيلد، والسيدة ليتلفيلد، والسيد كينيث إسكوت، والسيدة إسكوت، والسيد هنري ت. ثومبسون، والسيدة ثومبسون، وأيضاً تينكا بابِت التي كانت العضو السعيد الوحيد في لجنة التحقيق هذه.

ملأ الغرفة سيل مندفع من العبارات:

«في سنّكما هذه...» «لقد جننتما تماماً...».
«لم أسمع شيئاً من هذا القبيل في...».
«الاثنان مخطئان، وأيضاً...».
«يجب ألا تسمع الصحف بهذا الأمر...».
«يجب إجباره على العودة إلى الجامعة... ويجب أن نفعل شيئاً على الفور، وما أقوله هو...».
«ما أحسن العقوبات الجيدة القديمة التي كنا...».
كانت فيرونا أسوأ منهم جميعاً... «تيد! لا بد من العثور على طريقة لجعلك تفهم خطورة هذا الأمر بدلاً من أن تجلس هنا واضعاً هذه الابتسامة الغبية على وجهك».
بدأ تيد يقول: «هذا كلام فارغ يا روني! أنت... أنت نفسك تزوّجت أيضاً، أليس كذلك؟».
«هذا أمر مختلف تماماً».
«مختلف طبعاً! لم يكن أحد مضطراً لأن يجبرنا إجباراً، أنا ويونيس، على أن نضع يداً بيد!...».
قال العجوز هنري ثومبسون بصوت آمر: «والآن... اسمع أيها الشاب، لا أقبل أيّ مزيد من هذه الوقاحة وقلة الاحترام. استمع إلى ما أقول!».
قالت فيرونا: «استمع إلى ما يقوله جَدّك!».
قالت السيدة بابِت: «نعم، استمع إلى ما يقوله جدك!».
قال هاورد ليتلفيلد: «تيد، استمع إلى ما يقوله السيد ثومبسون!».
صاح تيد: «أوه! بحق السماء... إنني أستمع! لكن، انظروا جميعاً، انظروا كلكم! لقد سئمت وتعبت من لعب دور الميت في هذه الجنازة. إذا أردتم أن تقتلوا أحداً، فاذهبوا واقتلوا القس الذي زوّجنا. ماذا... لقد أخذ مني خمسة دولارات. كان كل ما أملكه ستة دولارات ونصف الدولار. شبعت من صياحكم كلكم».
طغى على الغرفة كلها صوت جديد، هادر، مشبع بالثقة والسلطة. كان ذلك صوت جورج بابِت: «نعم! إنهم يزمجرون كثيراً! أمسكي لسانك تماماً يا روني. لا نزال شابّين، أنا وهاورد! لا نزال قادرَين على الصياح مثلكم أيضاً. تيد! تعال معي إلى غرفة الطعام لنتكلم في هذا الأمر وننتهي منه».
وفي غرفة الطعام، بعد إغلاق الباب بإحكام خلفهما، سار بابِت إلى ابنه ووضع يديه على كتفيه: «أنت مُحِقّ إلى حد ما. إنهم يتكلمون كثيراً. والآنَ، ما هي خطتك يا صاحبي؟».

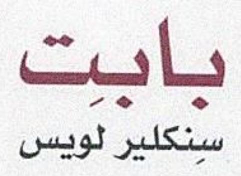
«يا إلهي، يا أبي! هل ستكون بشرياً حقاً؟».

«حسنًا، إنني... هل تذكر ذلك اليوم، عندما أطلقتَ علينا اسم «رجال بابِت» وقلت إن علينا أن نبقى معاً؟ إنني أريد هذا! لا أريد التظاهر بأن الأمر ليس خطيراً الآن. إذا نظرنا إلى الفرص المتاحة أمام شاب مثلك في أيامنا هذه، فلا أستطيع القول إنني أحبذ الزواج المبكر. لكن، لا يمكن أن تتزوج فتاة أحسن من يونيس. وأرى أن ليتلفيلد محظوظ فعلاً بأن يكون ابن بابِت صهراً له. لكن، ما هي خطتك؟ أنت قادر طبعاً على الاستمرار في دراستك الجامعية. وعندما تنتهي منها...».

«أبي! لا أستطيع احتمال هذه الجامعة بعد الآن. قد تكون الجامعة أمراً جيداً لبعض الناس. وقد أرغب في العودة إليها يوماً ما. أما الآن، أما أنا، فإنني أريد العمل في الميكانيك. أظن أنني سأكون مخترعاً جيّداً. هنالك شخص عرض علي أن يعطيني عشرين دولاراً في الأسبوع في مصنعه، الآن، فوراً».

«طيب...» سار بابِت عبر الغرفة، بطيئاً، مفكراً... كان يبدو عجوزاً بعض الشيء... «وددت دائماً أن تحصلَ على شهادة جامعية». عاد يذرع الغرفة مفكراً من جديد... «لكني لم أستطع أبداً... اسمع الآن، بحق السماء... لا تكرر هذا أمام أمك وإلا فسوف تنتزع ما بقي من شعر في رأسي... لكني، عملياً... لم أفعل شيئاً واحداً مما أردت أن أفعله حقاً... في حياتي كلها! لا أعرف... حققت أشياء كثيرة في حياتي... ما عدا أمنيتي في أن أمضي كما أشتهي. أظن أنني لم أحقق إلا شيئاً قليلاً من خيارات كثيرة كانت متاحة لي. طيب... قد تتمكن أنت من تجاوزي قليلاً. لست أدري! لكنني مسرور، بعض الشيء، لأنك عرفت ما تريده، ولأنك فعلته حقاً. لا بأس... سوف يحاول هؤلاء الناس هناك إخافتك... سوف يحاولون ترويضك. قل لهم أن يذهبوا إلى الجحيم! سوف أساندك. اذهب واحصل على تلك الوظيفة في المصنع إذا كنت تريد ذلك. لا تسمح للأسرة بأن تخيفك. لا، ولا تسمح لزينيث كلها بأن تخيفك. لا تسمح لنفسك بأن تخيفك أيضاً، مثلما فعلت أنا. انطلق يا صاحبي! إن العالم كله أمامك!».

خرج «رجال بابِت» من الغرفة. كان كل منهما يلفّ كتفَي الآخر بذراعه. سارا معاً إلى غرفة المعيشة وواجها العائلة المتأهّبة للانقضاض عليهما.



سِنكلير لويس

سينكلير لويس: مسرحي وروائي أمريكي، ولد في عام 1885، حصل على شهادة الباكالوريوس من جامعة يال في عام 1908. نُشرت أولى رواياته «هايك والطائرة» في عام 1912. وتعبر رواية «بابت» التي نُشرت في عام 1922 أشهر أعماله. وفي عام 1926 فاز بجائزو بوليتزر عن روايته «اروسميث» لكنه رفضها. وفي عام 1930 كان أول أمريكي يفوز بجائزة نوبل للآداب.

توفي في روما عام 1951، حيث نُشرت روايته الأخيرة «عالم واسع» بعد وفاته.

* * *

يبدو جورج بابِت، سمسار عقارات عمله مزدهر، ورجلٌ ناجحٌ اجتماعيًا. لديه كل ما يتمناه المرء: صحة، وعائلة، وعمل مربح في مدينة تنمو بسرعة في الغرب الأوسط الأمريكي.

يعاني بابت من أرق ناتج عن تزعزع رضاه عن نفسه بسبب الحياة المحدودة التي يعيشها. وتدفعه أزمة شخصية إلى إعادة النظر في قِيَمِهِ فيثور على العادات الاجتماعية ويعرّض سمعته ومكانته الاجتماعية وحياته الزوجية للخطر.

تعتبر «بابِت» أفضل رواية للويس، وقد خلقت هذه السخرية من المشهد الاجتماعي الأمريكي ضجة كبيرة عند نشرها عام 1922 . وقد أصبح اسم بابِت مرادفاً لرضى الطبقة الوسطى عن ذاتها.

شعور بابت بالضيق ومحدودية وجوده كشفا التصوّر الخادع عن النجاح. وتعكس قصته طبيعة هذا المجتمع الملتزم بتقاليد وأعراف تعلي من شأن الحفاظ على الثروة والمكانة الاجتماعية إلى حد يؤدي بالأفراد إلى أن يفقدوا أنفسهم.

«بابِت» من أهم الأعمال التي تصّور صراع البشر مع آلة الحياة الحديثة في القرن العشرين.

رواية ممتعة، تقدّم صورة قوية عن تقاليد وأعراف المجتمع الحديث الذي يعتبر أن النجاح هو تكديس الثروة والخضوع للتقاليد التي يفرضها نظام اجتماعي يُقصي كل مَنْ يتمرّد عليه.

* * *

يمتاز عمل السيد لويس بمتانته وإحكامه وجدارته.

(فيرجينيا وولف)

ISBN 978-977-6483-35-4



